محمد بن إسحاق
صاحب السيرة

المبتدأ في قصص الأنبياء

جمعه ووثّق نصوصه
محمد كريم الكوّاز



محمد بن إسحاق
صاحب السيرة

المبتدأ
في قصص الأنبياء

جمعه ووثّق نصوصه
محمد كريم الكواز



المبتدأ
في قصص الأنبياء

محمد بن إسحاق
صاحب السيرة



E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: ٦٥٩١٤٨-٩٦١١ فاكس: ٦٥٩١٥٠-٩٦١١

جمعه ووثّق نصوصه
محمد كريم الكواز

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

المحتويات

المقدمة:
الفضاء الثقافي وصورة المؤلف

قصة قد تتكرر بعض مشاهدها، ولكن دلالتها فريدة، يأمر الخليفة المنصور محمد ابن إسحاق، معلّم ابنه المهدي، بأن يضع له كتاباً من آدم إلى يومه ذاك، يؤلف (المبتدأ والمبعث والمغازي)، يأتي كاتب آخر، ابن هشام، يحذف المبتدأ، ويبقي على المبعث والمغازي (السيرة النبوية)، يقترن اسم الكاتب باسم النبي محمد ﷺ، يُشتهر الكتاب الناقص، ويُغيّب (المبتدأ) وكاتبه. وبين الاشتهار والتغييب عمِلَ الفكرِ العربي الإسلامي على تأسيس حضارة، ما زلنا نعيش على إيقاعها، نردد مقولاتها ونفكّر بآلياتها، ولعلنا بتفكيك جانب من الموروث الكبير، نكون قادرين على فهم ذاتنا، وتحديد هويتنا التي نحتاج إلى السؤال عنها كثيراً في هذا الواقع.

❀ ❀ ❀

يشكّل محمد بن إسحاق (ت ١٥٠هـ) بوصفه فاعلاً ثقافياً، ظاهرة واضحة في الموروث العربي الإسلامي، لا يستقيم في مقاربتها، المنهج التاريخي التتابعي الذي يُعنى بتثبيت الاسم، وتعداد الشيوخ والتلاميذ، وذكر الاختلاف في سنة الوفاة، إن جملة من المستويات المتقاطعة: السياسي والاجتماعي والنفسي والعقدي، ضمن البنية الثقافية التي أسهم محمد بن إسحاق فيها، متلقياً ومرسلاً لنمط معين من المعرفة، تغري الباحث بتوظيف منظومة من الإجراءات، تنطلق من قراءة الفضاء الثقافي قراءة تاريخية، تكشف الطبقات التي تراكمت، وتزيل الأغلفة التي التفّت، بفعل توظيفات متعددة، أنجزها الفكر متمثّلاً بغالبية العلماء (الرواة والمحدّثين وأصحاب الطبقات والتواريخ)، وبخاصة العلماء، (أصحاب السير والمغازي، سيرة الرسول الكريم ومغازيه، الذين ساروا على منهجه، مقرّين

بأستاذيته أو منكرين)، وبعلماء النقد (الجرح والتعديل وأصحاب كتب الضعفاء والمجروحين)، وبالمؤرخين اللاحقين (القدماء والتقليديين من المعاصرين). وتنطلق أيضاً من قراءة السياق الثقافي العربي، وهو يقارب سياقات ثقافية أخرى (أعجمية بالمصطلح القديم، كالسياق الثقافي الفارسي واليوناني والمصري والعراقي...)، بفعل حركة الفتوح الإسلامية، التي تعني نشر الدعوة الإسلامية، وأسلمة الأمم الأخرى، بتبديل عقائدها ومفاهيمها حول الإله والإنسان والعالم، ثم تغيير سلوكها ووظائفها في المجتمع الجديد، مجتمع السيادة العربية والدين الإسلامي. ثم تحاول هذه المنظومة من الإجراءات، قراءة الواقع الاجتماعي النفسي، لفئة من المثقفين - يصلح ابن إسحاق لأن يكون نموذجاً لهم - كانت وما تزال، على مستوى راقٍ من الوعي بمتطلبات المراحل الحضارية، تسهم في البناء وإقامة الصروح، وتشترك في الأحداث الكبرى، وتترك بصماتها على مسار التاريخ، وفي ظهورها خناجر الحسد والتعصب، وتحت أرجلها شبكة الذم والقدح، وأمامها العصي جاهزة، يضعها الواضعون في العجلة.

و(المبتدأ) في دلالته الاصطلاحية، يشكّل التصور الإسلامي لبدء الوجود وأولية الخلق، خلق العالم الطبيعي والميتافيزيقي والإنسان، ولا شك في أن هذا التصور يستمد مقوماته، من العقيدة الإسلامية التي قدّمت تصوراً تاريخياً واضحاً للكون، منذ الخلق حتى يوم القيامة، وربطت بين المبدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة، لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة، وجعلت ما بين الطرفين فترة عبور، هي الحياة الدنيا[١].

وقد تجسّدت فكرة المبتدأ، بفضل القرآن أولاً إذ اشتمل على (قصص) كثيرة، قدّم من خلالها العبرة والموعظة، والوعد والوعيد فحسب، ولم يقدّم القصة بوصفها سرداً لمشاهد وتوصيفاً لشخصيات، أو بوصفها إرثاً لأمم أخرى، كانت قد وظفتها لتحقيق أهداف أخرى. وبفضل الحديث النبوي والأخبار والآثار، التي رواها الصحابة والتابعون، وهؤلاء نقلوا عن ثقافة أهل الكتاب، اليهود والمسيحيين، الذين كانوا (يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام)[٢]، وقد رخّص الرسول الكريم التحديث عن

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ١: ٥٨.

(٢) صحيح البخاري رقم الحديث ٤٢١٥.

بني إسرائيل، فقال: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[1]. المهم هنا الإشارة إلى أن ما نقله المسلمون عن أهل الكتاب (الإسرائيليات)، لم يكن كله من نتاج الفكر الإسرائيلي، إذ الثابت علمياً أنهم نقلوا النتاج الفكري، من معتقدات وأساطير وحكايات الأمم التي اتصلوا بها، فأدخلوا كثيراً من الأفكار السومرية والبابلية والكنعانية والفرعونية في نصوصهم المقدسة، وعندما حدّث المسلمون عنهم انتقلت هذه المنقولات إلى الفضاء الثقافي العربي الإسلامي، وتمّ توظيفها لتحقيق أهداف القص، في الفكر العربي الإسلاميّ، وهي بعبارة الثعلبي: وجوه الحكمة في تقصيصه تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين[2].

فليس مفيداً أمام ظاهرة (المبتدأ) تقديم لائحة بالمصنّفين فيه، ومعرفة أعدادهم وسني وفياتهم، ذلك لأن كل كتب التاريخ القديم، تاريخ اليعقوبي والمقدسي والطبري والمسعودي تفيد من المبتدأ، تمرّ به وهي تترسم خطاه في الكتابة، وتستقي منه وهي تجمع الأخبار والقصص، فهي نسخ قريبة من الأصل، ثم لأن تأسيس الظاهرة، وهذا ما نريد بحثه، صار بدايةً تاريخية لأمة، ممتدة في الواقع الجغرافي، وهو المملكة الإسلامية التي خلّفتها الخلافة الأموية، من بلاد الهند والسند إلى تخوم الروم، ومن بلاد الصقالبة والديلم إلى أفريقيا، ولكنها حديثة في الواقع التاريخي، لا تمتد جذورها التاريخية إلى أبعد من معد بن عدنان، الجد العشرين للرسول الكريم، لذا لم تكن كتابة المبتدأ ترفاً فكرياً، كان ضرورة من ضرورات السيادة العربية على أقوام، تحسسوا أن ثقافتهم أعرق وأوسع وأجدى مما كان للعرب الحاكمين، فكان على الكاتب أن يدرك المتناقضات ويعي تقاطعاتها، فيقدّم خطاباً يحقق الانسجام بين الواقع الجغرافي العريض، والواقع التاريخي الضيّق.

وقد وقف البحث التقليدي عند أولية (المبتدأ)، وكونه مرحلة أولى تأسست عليها مراحل تالية من عمر الزمن العربي الإسلامي، لم يحاول استكناه الظاهرة، وقراءة محمولات الظرف التاريخي والثقافي والاجتماعي والنفسي، فكانت منتجات ذلك البحث تلقين أمر واقع، وتداول مقررات مسبقة، أملتها عوامل فاعلة سالفة، من أجل تحويل

(١) مسند أحمد رقم الحديث ١٠١٣٤.

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢.

المتلقي إلى شخصية تاريخية، تحيا في التاريخ، وتشارك في أحداثه، وتتعامل مع شخصياته، ويحيط بها الفضاء الزماني والمكاني له، ولكن الوعي بالتاريخ، بوصفه خطاباً مؤدلجاً، أتاح للمتلقي المعاصر أن يفكّ شفرة الخطاب، ويضع يده على أسبابه ونتائجه، فصار المتلقي منتِجاً للتاريخ بعد أن كان منتوجاً له. بعد تقديم هذه المعطيات وتحديد الظاهرة، نتقدم إلى معاينة المستوى السياسي في ظاهرة المبتدأ.

❂ ❂ ❂

المستوى السياسي ومعالم السلطة والسيادة.

نتطلق من بديهية، كي لا نكرر، هي أن الخطاب السياسي العربي اعتمد، بعد وفاة الرسول الكريم، على المزج بين الدعوة إلى الإسلام، و السيادة العربية ممثّلة بقريش، فكان الخلفاء الراشدون قرشيين، وكانت الخلافة الأموية قرشية، وصارت الخلافة العباسية قرشية أيضاً، ونكتفي بنص ابن خلدون: ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر، مَن مارس أخبار العرب وسيرهم، وتفطن لذلك في أحوالهم، وقد ذكر ذلك ابن إسحاق في كتاب السير وغيره.... إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة، وعصبية العرب كانت وافية بها، فغلبوا سائر الأمم[1]. ولا شك أن لغلبة قريش أسباباً أخرى، ليست من اهتمامنا الآن، إلا أن النصّ يشير إلى ذكر ابن إسحاق ذلك، أي معرفته بسيادة قريش وغلبتها على غيرها من القبائل، وقد ثبت ذلك في كتابه.

وهنا نتوقّف قليلاً عند مفصل من مفاصل حياة ابن إسحاق، كان جده يسار من سبي خالد بن الوليد أيام أبي بكر الصديق، وقد نشأ هو في ولاء أحد القرشيين، إذ هو مطلبي بالولاء، أي إن لقبه الذي يحمله ليس له بل لمولاه، وقد احتضنه خليفة قرشي، هو أبو جعفر المنصور، وجعله معلماً لابنه المهدي، وقال له: صنّف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم إلى يومك هذا، فذهب فصنّف له هذا الكتاب[2]. لندع المؤثر الشخصي، على الرغم من تأثيره المباشر في كتابه، ونتفحص طبيعة الأفكار السائدة، سنجد أن فكرة

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٩٦.

(٢) تاريخ بغداد ١: ٢٢١.

(القرشية) انتقلت من واقعها التاريخي، حيث كان الرسول الكريم من قريش، إلى النموذج المثالي الواجب توافره في الحاكم السياسي، الخليفة أو الملك، (الأئمة من قريش) و(الناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم تبع لخيارهم وشرارهم تبع لشرارهم)[1].

وسنجد أيضاً أن أسياد ابن إسحاق كانوا يعضّون على فكرة قرشيتهم بالنواجذ، لاسيما أنها حجتهم على الناس، ومسوغ أحقيتهم للحكم، وما دامت الإمامة في قريش، فهي تنتقل، بحسب العرف القديم، من الأب إلى الابن، فلا بد إذن من الاتصال بالإمامة، تحدّث الشهرستاني عن الهاشمية، وهي فرقة من الشيعة، أتباع أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية، أحد أبناء الإمام علي بن أبي طالب، فقال: قالوا بانتقال الإمامة من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم، وقالوا: إنه أفضى إليه أسرار العلوم، وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على النفس، وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن، وقالوا: إن لكل ظاهر باطناً، ولكل شخص روحاً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني. وهو العلم الذي استأثر علي رضي الله عنه به ابنه محمد ابن الحنفية، وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً. واختلفت بعد أبي هاشم شيعته، خمس فرق: فرقة قالت: إن أبا هاشم مات، منصرفاً من الشام، بأرض الشراة، وأوصى إلى محمد (هو أبو السفاح وأخوه المنصور) بن علي بن عبد الله بن عباس، وانجرّت في أولاده الوصية. قالوا: ولهم في الخلافة حق؛ لاتصال النسب، وقد توفّي رسول الله ﷺ وعمه العباس أولى بالوراثة[2].

أما كيف انتقلت الإمامة من أبي هاشم، وهو علوي، إلى محمد بن علي، وهو عباسي، فهذا مما لا يفصح عنه النص، بل يغيّبه لتفسير واقع متناقض كان يصطرع فيه البيتان العلوي والعباسي، على أنقاض ملك بني أمية، فقد قيل للمنصور، إشارةً إلى قسوته: يا أمير المؤمنين، لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع بالعفو!. قال: لأن بني أمية لم تبل رممهم، وآل علي لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة،

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم الحديث ٣٢٣٨٨ و ٣٢٣٨٣.

(٢) الملل والنحل١: ١٢٤.

ولا تتمهد هيبتنا في صدورهم، إلا بنسيان العفو[1]. وفي كتب التاريخ المتداولة أخبار خروج الفئات المناوئة على المنصور مما يبيّن الأرضية القلقة التي قام عليها حكمه.

ربّما نغضّ الطرف عن مواقف الرواة الإخباريين (المؤرخين القدماء)، وهم يتداولون هذه الأخبار، منذ تداولها الأول إلى أن وصلت إلينا، ونعلم أن للراوي موقفاً مما يروي، يؤثر في روايته، إلا أننا لا يمكن أن نغضّ الطرف عن المضمون المتوهج أبداً للنصوص المقدسة في الفكر العربي، ذلك أن هذا الفكر استمدّ وجوده، بعد الرسالة السماوية، من الدعوة لها ونشرها في أنحاء الأرض، وقد أتاحت له تلك النصوص، ولا سيما الأحاديث النبوية، فرصة امتلاك (الأمر) أو السيادة، وليس من المستغرب أن يدعي أحد الرؤساء، في وقتنا الراهن، أنه سليل الدوحة المحمدية، أو أن لها نسباً يتصل بآل بيت النبوة، فهو قرشي مخوّل بالحكم والتسلط على الناس، ما دامت تلك النصوص متوهجة بمضمونها الموجّه، وكذلك كان الحال مع العباسيين، وهم أقرب اتصالاً بالنسب، ولهم حق في الخلافة.

❁ ❁ ❁

كانت ثنائية الخلافة / النبوة، فاعلة في بنية الخطاب السياسي العربي، منذ وقت مبكر، نتجاوز عن طلائعها اختصاراً؛ لنصل إلى الخطاب السياسي العباسي، حيث نراها تزين واجهة هذا الخطاب، لقد اصطنعوا صلتهم بها اصطناعاً، وأوصلوها إلى الرسول الكريم، كي يصدقها الناس، وبثّوها على ألسنة الدعاة لهم، لنقرأ هذه التوليفة ونتأمل: أخبرنا القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا الحسن بن أبي بكر قال: أبو سهل، أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد القطان قال: أخبرنا محمد بن الفرج قال: حدثني يحيى بن غيلان قال: حدثنا أبو عوانة عن الضحاك بن مزاحم، عن عبدالله بن عباس، عن النبي أنه قال: منّا السفاح والمنصور والمهدي.

وقال المنصور يوماً، ونحن جلوس عنده: أتذكرون رؤيا كنت رأيتها ونحن بالشراة؟. فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما نذكرها. فغضب من ذلك وقال: كان ينبغي لكم أن تثبتوها في ألواح، وتعلقوها في أعناق الصبيان!. فقال عيسى بن علي: إن كنا قصرنا في ذلك، فنستغفر يا أمير المؤمنين، فليحدثنا أمير المؤمنين بها. قال: نعم. رأيت كأني

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧: ٨٥.

في المسجد، وكأن رسول الله في الكعبة، وبابها مفتوح، والدرجة موضوعة، وما أفقد أحداً من العرب، ولا من القرشيين، إذا مناد ينادي: أين عبدالله؟. فقام أخي أبو العباس فتخطى، حتى صار على الدرجة، فأخذ بيده فأدخل البيت، فما لبث أن خرج علينا، ومعه قناة لواء، قدر أربعة أذرع وأرجح، فرجع حتى خرج من باب المسجد، ثم نودي: أين عبدالله؟. فقمت أنا وعبدالله بن علي، نستبق حتى صرنا إلى الدرجة، فجلس فأخذ بيدي، فأصعدت فأدخلت، وإذا رسول الله، ومعه أبو بكر وعمر وبلال، فعقد لي وأوصاني بأمته، وعممني كورها ثلاثة وعشرين كوراً، وقال: خذها إليك أبا الخلفاء، إلى يوم القيامة[1]. لقد تربّى ابن إسحاق وعاش آباؤه في حمى القرشيين، في بيت قيس بن مخرمة بن عبد المطلب[2]، وكلّفه الخليفة المنصور العباسي القرشي، بكتابة تاريخ العالم منذ آدم إلى يومه ذاك، فوضع كتابه، والسؤال هنا عن التأثير السياسي في كتابة المبتدأ.

يُعد ابن إسحاق أول من صنّف في بدء الخلق[3]، وهذه العبارة تحتاج إلى تفسير؛ ذلك أن وهب بن منبه (ت١١٤ هـ) صنّف في الموضوع نفسه[4]، ولكنه، كما يبدو مما بقي في بطون الكتب من أقواله، لم يربط محتوى المبتدأ بتاريخ الدعوة الإسلامية، فانتهى فيه إلى آخر نبي قبل النبي محمد ﷺ، أما ابن إسحاق فجعل تاريخ الدعوة المحمدية تالياً لتاريخ دعوات الأنبياء السابقين، فكان كتابه في المبتدأ والمغازي والسير[5]، ويعني الفرق بين الكتابين ظاهراً أن نبوة محمد بن عبد الله ﷺ حلقة في سلسلة نبوات الأنبياء السابقين، وهذا ما عليه القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية، ولكنه يعني أيضاً أحقية قريش في الخلافة والنبوة، وبقاءها فيهم واستمرارها إلى أبي جعفر المنصور وأبنائه، وقد رأينا أنه أبو الخلفاء إلى يوم القيامة.

ومن بعد المنصور استقدم هارون الرشيد أبا حذيفة إسحاق بن بشر (ت ٢٠٦هـ)، وكان من رواة المبتدأ المشهورين، إلى بغداد، فكان يحدّث في مسجد ابن رغبان، على

(١) المنتظم ٧: ٣٣٧.
(٢) تاريخ بغداد ١: ٢١٤.
(٣) البدء والتاريخ ١: ١٤٩.
(٤) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ١: ٣١١.
(٥) الفهرست ١: ١٣٦.

الرغم من اعتراض العلماء على رواياته[1]؛ ذلك أن الرشيد ومن سبقه من الخلفاء، كانوا يوظّفون قصص المبتدأ توظيفاً يؤكدّ أحقيتهم في الحكم، وهو في الوقت نفسه، يوجّه أنظار الناس وجهة بعيدة عن رصد أفعالهم، إن القصّ، حين يظهر أيام الفتنة، كما نقل ابن الجوزي[2]، يلهي الناس عن رؤية الواقع، ويصرفهم إلى العيش في ماضٍ مقدس وجميل. بغض النظر عن طبيعة مضمونه، ولا تختلف الكتابة في ظل السلطة بين حاكم وآخر، ذلك أنها تنهج ما يلبي حاجة الحاكم، وعلى النسق نفسه روى أبو إسحاق الصابئ: أن عضد الدولة بن بويه أمره أن يؤلف له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فألف له تاريخاً سمّاه (التاجي)، فاتفق، وهو يؤلفه أن دخل عليه صديق له، فسأله عما يفعل، فقال: أباطيل أنمقمها، وأكاذيب ألفقها[3].



الفضاء الثقافي، حملة العلم.

ربما يُفهم من قول ابن خلدون (٨٢١هـ): إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم[4]، أنه يريد نفسه، فهو من غير العرب (الموالي بالمصطلح القديم) تنويهاً بقدرته، أو إشهاراً لأعماله، أو مقارنة لتاريخه بتاريخ غيره من العلماء، ولكن ما أشار اليه حقيقة واقعة في التراث العربي الإسلامي، فمنذ الانتصارات الحربية الأولى تدفّق السبي على المجتمع، وأخذ يضخم طبقة العبيد (الموالي)، ويرفدها بأجناس من السبايا ما كانت تقع أنواعهم، ولا أعدادهم بيد العرب من قبل، حين كانوا ينتصرون في معارك صغيرة محدودة، صحيح أن الإسلام، على المستوى النظري، حاول تحجيم الطبقة التي ورثها من المجتمع الجاهلي، ولكن واقع الفتوح الإسلامية التي بدأت منذ خلافة عمر بن الخطاب، مدّ طبقة الموالي بنسغ مستمر، زاد في كثرتها وفي مهامها، ثم في تأثيرها في البنية الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي.

---

(١) تاريخ بغداد ٦: ٣٢٦.

(٢) القصّاص والمذكرين: ٢٣.

(٣) ضحى الإسلام ٢: ٢٠٢.

(٤) مقدمة ابن خلدون: ٥٤٣.

ونلحظ منذ البدء، انغماس الموالي الجدد في العلم الإسلامي، وشغفهم بالثقافة التي أشاعها القرآن الكريم، بوصفه المرتكز الذي استندت اليه جملة المعارف الجديدة والقديمة، واستمدت منه مبادئها وإجراءاتها، وما نشأة أو تطور علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلك والطب وغيرها، إلا دليل ساطع على ذلك، ولكن المغيّب في معظم الدراسات التي اقتربت من هذه الفكرة، ثقافة هؤلاء الموالي الأصلية، قبل أن يدخلوا في الإسلام، أو ينشأوا تحت ظلاله، مما عمل على مثاقفة متواصلة بين أفكار متباعدة الأصول، مختلفة المناشئ، نتجت عنها مؤلفات ما كان للفكر العربي وحده، أن يبتكرها، ويشتق منها المعارف والعلوم والفنون والآداب، كان هناك توليد عقلي؛ فعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناولها اللقاح، فالفارسي يحمل عقلاً فارسياً، ثم يعتنق الإسلام، ويتعلم العربية، فينشأ مزيج من العقلين، تتولد منه أفكار جديدة ومعان جديدة، واليوناني النصراني، أو الرومي النصراني، أو العراقي اليهودي يخالط العربي المسلم، ويتبادلان الرأي والقصص والفكرة، فينشأ من ذلك فكر جديد، ومن ثَمّ كان الأدب العربي بمعناه الواسع مزيجاً، طُبع بالطابع العربي الإسلامي، فسمّيَ أدباً عربياً[1]، لقد كانت قبل الإسلام ـ كما وجد أحد الباحثين ـ أكثر من خمسين مدرسة، تتعامل علمياً مع تلك البضاعة الثقافية، الفلسفة الدينية العلمية التي سيطلق عليها، في عصر التدوين، اسم (علوم الأوائل) وهي مدارس تمتد من مصر إلى فارس، وانطلاقاً منها كانت تنتشر موجات تنقل العلم إلى الأطراف، وقد لعبت الرحلات التجارية دوراً أساسياً في هذا الانتشار[2].

في نص خليفة بن خياط (٢٤٠هـ): أتى خالد بن الوليد عين التمر، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فقتل وسبى، فمن ذلك السبي سيرين أبو محمد بن سيرين، ومنهم يسار كان عبداً لقيس بن مخرمة، من ولده محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب السيرة، ومنهم نُصير أبو موسى ابن نُصير، ومنهم رباح، أبوعبد الله وعبيد الله ابنا رباح، ومنهم هرمز يُسمّون بالبصرة الهرامزة، في جماعة يبلغ عددهم أُربعين[3].

وعين التمر، وهي موضع قرب الحيرة، في حدود العراق القديم، (مسلحة

(١) ضحى الإسلام ١: ١٤.

(٢) تكوين العقل العربي: ١٨٩.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ١: ١١٨.

للأعاجم) مدينة عسكرية أنشئت لحفظ حدود الأمبراطورية الفارسية في ذلك الزمن، وفيها كنيسة كان الغلمان يتعلمون فيها[1]، والسبايا الذين ذُكروا في النص، يقتحم عليهم خالد بن الوليد بيعتهم، يجد أربعين غلاماً، يتعلمون الإنجيل[2]، وهم في كنيسة من الكنائس الكثيرة التي كانت مبثوثة في المنطقة، تعنى بالكتاب المقدس وأخباره وقصصه، فضلاً عن الفلسفة والطب والفلك، هؤلاء السبايا ستتحول أسماؤهم إلى شخصيات ثقافية فاعلة، تبنى عليها أسس العلوم والآداب والمعارف العربية، ولا يمر وقت طويل، حتى يغدو السبايا الخائفون شخصيات مهيبة محترمة، يأخذ التلاميذ والمريدون منها العلم، يتثقّفون به وينقلونه إلى الأجيال اللاحقة:

ـ حمران بن أبان الفقيه، مولى أمير المؤمنين عثمان، روى عنه عطاء بن يزيد الليثي، وعروة بن زيد بن أسلم، وبيان بن بشر، وعثمان ومعاذ بن عبد الرحمن وآخرون. قال قتادة: كان حمران يصلي خلف عثمان، فإذا أخطأ فتح عليه. وعن الزهري: أن حمران كان يأذن على عثمان. وقيل: كان كاتب عثمان، وكان وافر الحرمة. طال عمره وتوفي سنة نيف وثمانين[3].

ـ أبو عمرة سيرين، مولى أنس بن مالك، سمع عمر بن الخطاب، روى عنه ابنه محمد[4]، وخلف سيرين ابنه محمد بن سيرين، الإمام شيخ الإسلام أبو بكر الأنصاري الأنسي البصري مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ تملكه أنس ثم كاتبه على ألوف من المال فوفّاه وعجّل له مال الكتابة قبل حلوله، فتمنع أنس من أخذه، لما رأى سيرين قد كثر ماله من التجارة وأمل أن يرثه. أي إن المالك لا يريد عتق المملوك، يريد أن يرث ماله الكثير، فحاكمه إلى عمر رضي الله عنه فألزمه تعجيل المؤجل. روى عنه قتادة وأيوب ويونس بن عبيد، وابن عون وخالد الحذاء، وهشام بن حسان وعوف الأعرابي وقرة بن خالد، ومهدي بن ميمون وجرير بن حازم وأبو هلال محمد بن سليم، ويزيد بن إبراهيم التستري وسعيد بن أبي عروبة، وأبو بكر سلمى الهذلي وحيان بن حصين وشبيب بن

(١) فتوح البلدان للبلاذري: ٢٤٨ ومعجم ما استعجم ١: ٣١٩.
(٢) تاريخ الطبري ٣: ٣٧٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤: ١٨١.
(٤) الكنى والأسماء ١: ٦٣٣.

شيبة، وسليمان بن المغيرة وخليد بن دعلج. حدثنا يوسف بن عطية رأيت ابن ميرين قصيراً عظيم البطن له وفرة، يفرق شعره كثير المزاح والضحك، يخضب بالحناء، حدثنا هشام حدثني أصدق من أدركت محمد بن سيرين، وقال عوف الأعرابي: كان ابن سيرين حسن العلم بالفرائض والقضاء والحساب[1].

ـ يسار أبو الحسن البصري، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية، تزوج بها في خلافة عمر فولد له بها الحسن ـ رحمة الله عليه ـ، كانت أم سلمة تبعث أم الحسن في الحاجة، فيبكي وهو طفل، فتسكته أم سلمة بثديها، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير، وكانت أمه منقطعة إليها، فكانوا يدعون له، فأخرجته إلى عمر، فدعا له وقال: اللهم فقهه في الدين، وحببه إلى الناس، روى عن خلق من التابعين، وأمم سواهم، وعن أبي موسى عن الحسن قال: شهدت عثمان يوم الجمعة قام يخطب، فقام إليه رجل فقال: أنشدك كتاب الله. فقال عثمان: اجلس، أما لكتاب الله منشد غيرك؟!. قال: ثم قام أو قام رجل غيره، فقال مثل مقالته، فقال له: اجلس، أما لكتاب الله منشد غيرك؟!. فأبى أن يجلس، فبعث إليه الشرط ليجلسوه، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه، ثم تراموا بالبطحاء حتى يقول القائل: ما أكاد أرى السماء من البطحاء. فنزل عن منبره ودخل داره، ولم يصل الجمعة يومئذ، قال محمد بن سعد: كان الحسن رحمه الله جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً، ثقة حجة، مأموناً عابداً ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً جميلاً وسيماً[2].

❁ ❁ ❁

نكتفي بهؤلاء عن البقية، وقد بلغوا أربعين؛ لنشير إلى الثقافة التي كان يحملها هؤلاء، وإلى البيئة التي نشأوا فيها، فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة، وتداولت عليه دول خلّفت فيه مدنيتها وثقافتها، وكان يسكنه، قبيل الفتح الإسلامي، بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان (الآراميين)، وكان يسكنه العرب النصارى، من إياد وربيعة، وكان يقيم به المناذرة الذين أسّسوا ملك المناذرة، وكانت مدنية الفرس

(١) سير أعلام النبلاء ٤: ٦٠٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤: ٥٦٣.

الساسانيين غالبة عليه؛ لأن آخر مَن حكمه، قبل الإسلام هم الساسانيون، وظل في أيديهم زمناً طويلاً إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر[1]، وهي، في رأينا، المرجعية الثقافية التي استمد منها ابن إسحاق فكرة المبتدأ.

لتوضيح الصلة نذكر شيئاً من الثقافة (الأعجمية) التي كانت شائعة منذ الجاهلية، وهي معارف عامة، اكتسبها العرب لاحتكاكهم بغيرهم من الأقوام، ويعنينا هنا التركيز على التراث القصصي القديم، فقد كان النضر بن الحارث قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار[2]. وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان لنا غلامان نصرانيان، من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما[3]. ثم جاء ابن المقفع (ت١٤٢هـ) فترجم من الفارسية ما يفُهم من عنوانه، أنه قريب من موضوع المبتدأ، ولعل ابن إسحاق اطلع على هذه الكتب، وأفاد منها في تأليف كتابه، مثل كتاب (خداينه نامه) وهو كتاب في تاريخ الفرس، من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم، وقد سمّاه ابن المقفع (تاريخ ملوك الفرس)، وترجم كذلك كتاب (آيين نامه) وفيه وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وأعرافهم، وترجم كتاب (مزدك) في سيرة الزعيم الديني المشهور، وكتاب (التاج) في سيرة أنو شروان[4]، كما ترجم كتاباً آخر، كانت الفرس تعظمه؛ لما فيه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم[5].

وما ذهب اليه ابن خلدون معلم واضح في بنية الثقافة العربية منذ أمد بعيد، فقد سأل عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، الزهري، وهو من العلماء العرب: من أين قدمت؟. قلت من مكة. قال: فمن خلفت يسودها؟. قلت: عطاء. قال: أمن العرب أم من الموالي؟. قلت: من الموالي. قال: فيم سادهم؟. قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة، والرواية ينبغي أن

(١) ضحى الإسلام ١: ١٨٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٣٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٠: ١٧٨.

(٤) الفهرست: ١٧٢.

(٥) تاريخ المسعودي ١: ١٠٩. وضحى الإسلام ١: ١٨٥ ـ ١٨٦.

يسودوا، فمن يسود أهل اليمن؟. قلت: طاؤس. قال: فمن العرب أو الموالي؟. قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل الشام؟. قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟. قلت: من الموالي، عبد نوبي، أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟. قلت: ميمون بن مهران، وهو من الموالي. قال: فمن يسود أهل خراسان؟. قلت: الضحاك بن مزاحم من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟. قلت: الحسن من الموالي. قال: فمن يسود أهل الكوفة؟. قلت: إبراهيم النخعي. قال: فمن العرب أم من الموالي. قلت: من العرب. قال: ويلك، فرّجت عني، والله ليسودن الموالي على العرب، في هذا البلد، حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها. قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، مَن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط[1].

وإذا كان هذا النص يقدم لنا دوافع واضحة لإنشائه، لعل أولها الدعاية للأمويين بأنهم أهل تسامح، وهم في الواقع أهل عصبية ضيقة، وكذا سؤال الخليفة عن علماء مملكته، كأنه لا يعرفهم، وهو يعرف كلاً منهم، ويتحسس بتأثير كل كلمة يقولونها، إلا أن الواضح من جانب آخر، كثرة هؤلاء العلماء وغلبتهم أهل مدنهم، فارتقوا إلى أن يكونوا مشهورين، شهرة البلد الذي يعيشون فيه.

❁ ❁ ❁

لنعد إلى ابن خلدون مرة أخرى، ذلك حين أشار إلى الأعلام في التأليف التاريخي فقال: وقد دوّن الناس في الأخبار، وأكثروا وجمعوا تواريخ الأمم، والدول في العالم وسطّروا، والذين ذهبوا بفضل الشهرة، والإمامة المعتبرة، واستفرغوا دواوين من قبلهم، في صحفهم المتأخرة، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل، ولا حركات العوامل، مثل: ابن إسحاق والطبري، وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي، وسيف بن عمر الأسدي، وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير[2]. ولنغضّ الطرف عن أصول هؤلاء، وهي مختلفة، نجد أن ابن إسحاق معدود في الائمة المشهورين من المؤرخين، ويتعاظم أثره، حين يكون من المؤسسين للكتابة التاريخية، التي سوف يتربع على قمتها الطبري (ت ٣١٠هـ) فيما بعد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥: ٨٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون:٥.

ظهر ابن إسحاق في عصر التدوين، العصر الذي أسس للثقافة العربية الإسلامية، وطبعها بطابعه المعرفي، وما نزال نتلقى المعلومات المدونة في ذلك العصر، على ذمة من دوّنها، فقد كان العصر بمثابة تحول من نظام المعرفة العامة إلى نظام المعرفة المتخصصة، ومن تمركزها في مدينة واحدة إلى توزعها في مدن كثيرة، فقد شرع علماء الإسلام في هذا العصر (١٤٣هـ) في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنف ابن جريج بمكة، ومالك (الموطأ) بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن إسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأي[١].

وإذا كان هذا النص يقصي من ابن إسحاق تأليفه (المبتدأ) وهو ما يعنينا هنا، ويبقي على (المغازي)، فتلك خاصية امتاز بها الفكر المتسلط على الثقافة العربية الإسلامية، وهو الوجه الآخر للتسلط السياسي، متمثّلاً بالسيادة العربية التي ذكرناها آنفاً، المهم هنا تبيين جهد ابن إسحاق كاملاً، فقد ألّف كتابه على ثلاثة أقسام: (المبتدأ والمبعث والمغازي)، وقد أفاد في المبتدأ من وهب بن منبه (ت١١٠هـ)، الذي هو عند أغلب الباحثين، أول مَن وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والنبوات[٢]، ووهب من أبناء فارس له شرف[٣]، يُروى عنه أنه قال: لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً، كلها أنزلت من السماء، اثنتان وسبعون منها في الكنائس، وفي أيدي الناس، وعشرون لا يعلمها إلا قليل[٤]، فكانت له معرفة بأخبار الأوائل، وقيام الدنيا، وأحوال الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وسير الملوك[٥]، وقد وصل إلينا كتابه (التيجان في ملوك حمير) ويُعد مصدراً مهماً في تاريخ اليمن القديم، وقد قال عن نفسه: يقولون: إن عبد الله بن سلام (ت٤٠هـ)كان أعلم أهل زمانه، وإن كعباً(ت٣٢هـ) أعلم أهل زمانه، أفرأيت مَن جمع علمهما، أهو أعلم أم هما[٦]. فقد

(١) تاريخ الخلفاء ١: ٢٦١.

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١: ١٣٨ والتاريخ عند العرب: ٣٠.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤: ٥٤٥.

(٤) طبقات ابن سعد ٥: ٥٤٣.

(٥) وفيات الأعيان ٦: ٣٥.

(٦) تهذيب الكمال ٣١: ١٤٠.

جمع مرويات هذين، فضلاً عن روايته عن أهل الكتاب ونقله عن الكتب المقدسة.

أما موضوعات المبتدأ، فهي ـ على ما بقي منه في الكتب ـ:

١ ـ عمر الأرض، وخلق السماوات والأرض والبحار في سبعة أيام، قصة آدم وحواء في الجنة، هبوط آدم إلى الأرض، معرفته بأن أولاده يعمرونها، وأن الله سيجعل بمكة (البيت الحرام آمناً)، أولاد آدم.

٢ ـ نوح وأولاده وانتشار ذريته في الأرض. والأقوام التي تنسب إليهم وألسنتهم.

٣ ـ إسحاق بن إبراهيم، وقصة يعقوب بن إسحاق، والأسباط من ذريته، وقصة موسى وهارون، وموسى في الوادي المقدس، وموسى وعصاه، وسحرة فرعون، وبقرة بني إسرائيل، ووفاة موسى.

٤ ـ حزقيل وشموئيل وطالوت وجالوت وداود، وسليمان وصلته ببلقيس، وولد سليمان ومن بعده إلى زمن أرميا، وخراب بيت المقدس على يد بختنصر.

٥ ـ أنبياء إسرائيل التالون، وقصة عيسى وحواريه[1].

يتطابق المخطط العام لمبتدأ وهب مع المجموع من مبتدأ ابن إسحاق، فهو يبدأ حيث بدأ، ويمرّ بقصص الأنبياء على التسلسل نفسه، إلى قصة النبي جرجيس وهي آخر قصة، ومن هنا يتبين اعتماد ابن إسحاق على مبتدأ وهب، ولا سيما في المواضع التي ينصّ فيها بالرواية عن وهب، وهي كثيرة، وهو يذكر وهباً بالاسم الصريح أحياناً، وأحياناً أخرى يذكر أهل العلم، أو أهل العلم بالكتاب الأول، وأحياناً يقول: بلغني، أو يقال، أو فيما يذكرون. وأغلب هذه الأخبار أو القصص يرجع إلى مرويات وهب عن تاريخ الأنبياء قبل الرسول الكريم، مما لم يرد تفصيله في القرآن الكريم.

إذا كان وهب بن منبه أول من وضع كتب التاريخ القديم، حلقات الرسل والأنبياء، فإن ابن إسحاق ربط تاريخ الدعوة الإسلامية بالتاريخ القديم، وأوصل نسب الرسول الكريم بنسب أنبياء بني إسرائيل، فأحلّ العرب في مكان تاريخي متصل، بعد أن كان تاريخهم لا يتجاوز معد بن عدنان، وهذا هو الفرق الحاسم بين الكتابين، وهو يفسّر، في الوقت نفسه، سبب تأليف مبتدأ ابن إسحاق برعاية المنصور، الخليفة العباسي

(١) التاريخ عند العرب: ١٢٣ـ ١٢٤.

القرشي. كان المبتدأ صرحاً في الفضاء الثقافي الذي بدأ بالتكوّن، في أوائل الخلافة العباسية، حين بدأ عصر التدوين، الذي هو بمثابة الأساس، أو الإطار المرجعي الذي يشدّ إليه، بخيوط من حديد، جميع فروع هذه الثقافة، وينظم مختلف تموجاتها اللاحقة[1].

❁ ❁ ❁

صورة ابن إسحاق.

صورة المؤلف، وملامح شخصيته، ومديات أفكاره، تتحرك في مخيلة من يكتب عنه، عليه أو له، وتثبت عندما يكتبها، ويحفظها داخل كتابه، الصورة الأخيرة نتاج الكاتب، صنَعَ معالمها من موقفه هو أولاً، ومن الصور المنتجة من كتّاب آخرين، وصورة محمد بن إسحاق، كما تقدمها الكتب الكثيرة التي اقتربت منه، تخرج عن التقييد والحصر، فهي تمثّل مزيجاً من الميول والنزعات، وملتقى لروافد انحدرت من أنحاء مختلفة، هي إنجاز لتفاعل ثقافي، ظهر عند تقاطع زمن الكتابة، بأرض الخلافة الإسلامية، لم يكن الزمن واحداً، ولم تكن الأرض كذلك، كان ابن إسحاق في كل مقاربة، يجبر الآخرين على توليف أجزاء صورته وإكمال معالمها، لتنتقل إلى آخر، وهكذا ظلّت صورته تنتقل من كتاب متقدم إلى كتاب لاحق، إلى آخر كتاب وصل إلينا.

وهذه الآلية تعمل، لا شك، مع غير ابن إسحاق، من المشاهير والأعلام الذين امتلأت بهم كتب التراجم والرجال، وهي لا شك، تنبثق من موقف الكاتب الشخصي، وجملة العوامل السياسية والدينية (المذهبية) والاجتماعية، وفي أحيان كثيرة العامل النفسي المغيب في دراسة مناهج تأليف هذه الكتب، ولكنها مع ابن إسحاق، بارزة واضحة، أمام الباحث في سيرته (صورته)، وهي تمتد من أول تأليف في تاريخ الرجال.

وإذا قلنا: إن محمد بن إسحاق يمثّل ظاهرة، فإننا لا نبعد عن الحقيقة كثيراً، إذ التأمت في صورته تناقضات وثنائيات ومستويات، قلّما تجتمع في شخصية ثقافية، وليست صورته الشخصية بقادرة على تحمّل هذا الكم الهائل المتناقض من الأقوال، فهو معدود في الطبقات الكبرى لابن سعد (ت٢٤٠هـ) طبقات الصحابة والتابعين والخالفين،

(١) تكوين العقل العربي: ٦٢.

كما هو في طبقات المدلسين لابن حجر (ت٨٥٢هـ)، مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين، وعن شر منهم، وهو في كتاب الثقات لابن حبان (ت٣٥٤هـ)، كما هو في كتاب الضعفاء الكبير للعقيلي (ت٣٢٢هـ)، وهو مذكور في سير النبلاء للذهبي (ت٧٤٨هـ)، كما هو في كتاب المجروحين للقيسراني (ت٥٠٧هـ)، ثم هو مصدر من مصادر التاريخ والتفسير عند الطبري، كما هو مطعون عليه غير مرضي الطريقة عند ابن النديم، وهو أمير المؤمنين في الحديث، كما هو زنديق وكذّاب وقدري (معتزلي).

وأمام كثرة تراجم ابن إسحاق، ولا يكاد يغفله مؤلِّف، اخترنا ثلاث ترجمات له مختلفة، تُعدّ المصادر الأساسية التي نقل منها مَن جاء بعد تواريخ تأليفها، على أن هذا لا يمنع من الإفادة بقدر، من الترجمات الأخرى:

الأولى لابن سعد (ت٢٣٠هـ) في (الطبقات الكبرى)[١]، ولعلها من أقدم من ترجم له، وهو من الموالي، عاش أيام المأمون، وارتضى القول بخلق القرآن[٢]، ولكن لم يشع عنه ذلك، فهو ثقة مستور[٣].

الثانية لابن النديم (ت بعد٣٧٧هـ) في (الفهرست)[٤] وهو شيعي معتزلي[٥].

الثالثة للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في (تاريخ بغداد)[٦] وهو من كبار الشافعية، تحاملت عليه الحنابلة بسبب آرائه الأشعرية[٧].

وسنهتم بالدرجة الأولى بهؤلاء بوصفهم مؤرخين، لأننا نبحث في علاقاتهم بالمبتدأ، قصص الخلق والأنبياء، ومؤلفه، وسنترك البحث في الحديث الشريف وعلومه مما أسهم به هؤلاء، إلا ما يتعلق بفن الرواية التاريخية.

❁ ❁ ❁

(١) طبقات ابن سعد ٧: ٤٣١.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ١٨٨.

(٣) الفهرست: ١٤٤.

(٤) الفهرست: ١٣٦.

(٥) لسان الميزان ٥: ٧٢.

(٦) تاريخ بغداد ١: ٢١٤ - ٢٣٤.

(٧) سير أعلام النبلاء ١٨: ٢٧٠ - ٢٩٦.

الكتب الثلاثة: منهج التأليف

كان للواقدي (ت٢٠٧هـ) أستاذ ابن سعد، كتاب طبقات أيضاً[١]، مما يرجح أن يكون كتاب التلميذ تقليداً له، أو رواية له مع بعض الزيادات، فابن سعد إذن، مقلّد لم يكن كتابه ابتكاراً خاصاً به، ولكن كتاب الأستاذ فُقد، فصار كتاب تلميذه عوضاً عنه، واشتُهر فغيّب الأصل، وإذا كانت هذه صلة تربط الكتاب بالمبتدأ، فإنها تنبع من آلية الاشتهار والتغييب التي وسمت الفكر عموماً، ولا تختصّ بكتاب واحد. جعل الرسول الكريم مرتكز الكتاب، فبدأه بـ (من انتمى إليه رسول الله ﷺ ومن ولَده من الأنبياء) وفي هذا القسم يقدم ابن سعد نبذة من قصص الأنبياء، وينقل عن ابن إسحاق[٢]، وقد استغرقت سيرة الرسول الكريم جزأين من الكتاب، ثم عمد إلى الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى زمنه، فجعلهم في طبقات، وأفرد في نهاية الكتاب طبقة للنساء، والطبقة تستغرق عشرين سنة تقريباً.

وكان ابن النديم مبتكراً في كتابه، إذ لم يقلّد أحداً، سبقه إلى ما وضع، فكان أول من أرّخ للكتب بالدرجة الأولى، ثم لمؤلفيها في اللغة العربية، قال: هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها، في أصناف العلوم، وأخبار مصنّفيها، وطبقات مؤلفيها، وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتدأ كل علم إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة[٣]. جعل كتابه في عشر مقالات، في كل مقالة مجموعة فنون، وهو، بهذا المخطط البسيط، يحصر كل علوم عصره، ويذكرنا بتصنيف دنيوي للعلوم:

المقالة الأولى، ثلاثة فنون: في اللغات والخطوط، وكتب الشرائع، والقرآن الكريم.

الثانية، ثلاثة فنون: في النحويين واللغويين.

الثالثة، ثلاثة فنون: في الأخبار والآداب والسير والأنساب.

---

(١) الفهرست: ١٤٤.

(٢) طبقات ابن سعد١: ٥١ ـ ٥٧.

(٣) الفهرست: ١.

الرابعة، فنان: في الشعر والشعراء.

الخامسة، خمسة فنون: في الكلام والمتكلمين.

السادسة، ثمانية فنون: في الفقه والفقهاء والمحدثين.

السابعة، ثلاثة فنون: في الفلسفة والعلوم القديمة.

الثامنة، ثلاثة فنون: في الأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة.

التاسعة، فنان: في المذاهب والاعتقادات.

العاشرة، : في أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين.

واتخذ الخطيب البغدادي بغداد (بلد المدائن) كما سمّاها، مرتكزاً لكتابه، فجعل المكان أساساً لبناء كتابه، ولا يعني هذا أنه يكتب في الجغرافيا، إنما كانت الجغرافيا مدخله إلى التاريخ، ولم يكن الخطيب البغدادي متفرداً فيما فعل، فقد سبقه إلى فكرة الكتاب مؤلفون قبله منهم: أسلم بن سهل الرزاز الواسطي (ت٢٩٢هـ) في (تاريخ واسط)، وحمزة بن يوسف أبو القاسم الجرجاني (ت٣٤٥هـ) في (تاريخ جرجان)، وهما يتخذان المكان منطلقاً إلى تراجم الرجال، كما فعل الخطيب البغدادي. قال: هذا كتاب تاريخ مدينة السلام، وخبر بنائها، وذكر كبراء نزالها، وذكر وارديها، وتسمية علمائها[١]. ثم يعطف بعد وصف بغداد وتخطيطها، إلى تراجم الرجال، فكتب عن الخلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والحديثيين والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبين والشعراء، من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها، أو بسواها من البلدان ونزلوها، وذكر من انتقل منهم عنها ومات ببلدة غيرها، ومن كان بالنواحي القريبة منها، ومن قدمها أهلها، وما انتهى إليّ، من معرفة كناهم وأنسابهم ومشهور مآثرهم، وأحسابهم ومستحسن أخبارهم، ومبلغ أعمارهم وتاريخ وفاتهم، وبيان حالاتهم، وما حفظ فيهم من الألفاظ عن أسلاف أئمتنا الحفاظ، من ثناء ومدح، وذم وقدح، وقبول وطرح[٢].

---

(١) تاريخ بغداد ١: ٣.

(٢) تاريخ بغداد ١: ٢١٢.

جمعنا بين هؤلاء المؤلفين؛ لأنهم ترجموا لابن إسحاق، وقد اعتمد ابن سعد على التسلسل الزمني في ترتيب طبقاته، بدءاً بالرسول الكريم، ثم الصحابة، ثم التابعين، من جاء بعدهم، فهو مؤرخ تقليدي. واعتمد ابن النديم على تصنيف العلوم في مجموعات، وتطرق إلى مؤلفيها، وخطوطها ونسخها، ، كان اهتمامه منصباً على المعرفة، كيفما كانت، فهو مؤرخ معرفة. واعتمد الخطيب البغدادي على المكان، فذكر ما يتعلق ببغداد من تخطيط ومناخ، ونستطيع أن نعدّ هذا تمهيداً لتاريخ مَن سكن المكان من أشخاص، فهو مؤرخ سكّان.

❁ ❁ ❁

صورة ابن إسحاق عند المؤرخ التقليدي.

يمكن تقديم عناصر صورة ابن إسحاق عند ابن سعد كما يأتي:

ـ نسبه، ويحتوي على اسمه، وأصله العرقي، وهو من موالي أحد القرشيين، قيس ابن مخرمة بن المطلب، وكان أبوه من سبي عين التمر.

ـ أشهر أعماله الثقافية، أنه أول من ألف مغازي الرسول الكريم، وقد غيّب ابن سعد القسم الأُول من كتابه (المبتدأ) إذ نصّ على (المغازي) يريد سيرة الرسول الكريم.

ـ شيوخه وتلاميذه، وقد ذكر أربعة ممن روى عنهم، وأشار إلى رواية ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر، زوجة والي المدينة هشام بن الزبير. وذكر في موضع آخر عشرة ممن روى عن ابن إسحاق[١].

ـ أسفاره من المدينة إلى الجزيرة، حيث صحب العباس بن محمد العامل عليها، وإلى الحيرة حيث صحب أبا جعفر المنصور، وكتب كتابه الكبير، وإلى الري حيث صحب المهدي.

ـ وفاته في بغداد.

---

(١) طبقات ابن سعد ٧: ٤٣١.

- موقف العلماء منه بين موثّق له ومستضعف.

وعلى الرغم من أن ابن سعد ترجم لابن إسحاق مرتين، والتكرار يدّل على التوكيد عادة، إلا أننا لا نجد اهتماماً مميّزاً، وسبب التكرار أنه ذكره في المرة الثانية، اعتباراً لبغداد، ومن سكن فيها من العلماء، على منهج المؤلف مع غير بغداد من المدن، ومع غير ابن إسحاق من العلماء. ولم يأخذ ابن إسحاق في طبقات ابن سعد، حيّزاً يناسب أهميته وتأثيره، فقد ترجم له في صفحتين، من كتاب يقع في ثمانية أجزاء، ومرّ الكاتب بأولية تأليفه (المغازي) مروراً عابراً، وهي الأصل فيما كتب غيره من العلماء، حتى قيل: لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل، إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء، إلى الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه، ومبتدأ الخلق، لكانت هذه فضيلة سبق بها، ثم من بعده صنفها قوم آخرون، فلم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق منها[1].

والصورة التي نقف أمامها باردة ساكنة، يمكن أن تكون لأي من العلماء، ممن لم يكن على شاكلة ابن إسحاق، ذلك أن في سيرته كثيراً من المواقف التي تستدعي التثبيت؛ لتكوين صورة مناسبة لشخصية مؤثرة في تراث أمة، من ذلك تقويم اثنين من العلماء لابن إسحاق، لنقرأ هذا النص:

تكلم فيه رجلان، هما هشام بن عروة ومالك بن أنس، فأما هشام بن عروة... فقد قيل له: إن ابن إسحاق يحدث عن فاطمة بنت المنذر. قال: وهل كان يصل إليها؟. وهذا الذي قاله هشام بن عروة، ليس مما يجرح به الإنسان في الحديث، وذلك أن التابعين مثل: الأسود وعلقمة من أهل العراق، وأبي سلمة وعطاء ومن دونهما من أهل الحجاز، قد سمعوا من عائشة، دون أن ينظروا إليها، سمعوا صوتها، وقبِل الناس أخبارهم، قبل أن يصل أحدهم إليها، حتى ينظر إليها عياناً، وكذلك ابن إسحاق كان يسمع من فاطمة، والستر بينهما مسبل، أو بينهما حائل، من حيث يسمع كلامها، فهذا سماع صحيح، والقادح فيه غير منصف. وأما مالك، فإنه كان ذلك منه مرة واحدة، ثم عاد له إلى ما يحب، وذلك أنه لم يكن بالحجاز أحد، أعلم بأنساب الناس وأيامهم، من محمد بن إسحاق، وكان يزعم أن مالكاً من موالي ذي أصبح، وكان مالك يزعم أنه من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧: ٤٨.

أنفسهم، فوقع بينهما لهذا مفاوضة، فلما صنف مالك الموطأ، قال ابن إسحاق: ائتوني به؛ فاني لأوسعهم. فنُقل ذلك إلى مالك، فقال: هذا دجال من الدجاجلة، يروي عن اليهود. وكان بينهم ما يكون بين الناس، حتى عزم محمد بن إسحاق على الخروج إلى العراق، فتصالحا حينئذٍ، فأعطاه مالك عند الوداع، خمسين ديناراً ونصف ثمرته تلك السنة، ولم يكن يقدح فيه مالك، من أجل الحديث، إنما كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي ﷺ عن أولاد اليهود، الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر، وقريظة والنضير، وما أشبهها من الغزوات عن أسلافهم، وكان ابن إسحاق يتتبع هذا عنهم؛ ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم، وكان مالك لا يرى الرواية، إلا عن متقن صدوق فاضل، يحسن ما يروي، ويدري ما يحدث[1].

ويلاحظ في هذا النص حركة الشخصية، وتفاعلها مع محيطها، وتأثيرها في الأحداث، مما يقربها من الواقع كثيراً، ومن يطلع على تفاصيل حياة ابن إسحاق، يتساءل عن سبب إغفال ابن سعد لهذه المواقف، وغيرها كثير، لا سيما أن ابن إسحاق توفي في (١٥٠هـ) قبيل مولد ابن سعد في (١٦٨هـ). أغلب الظن أن شهرة ابن إسحاق كانت سبب ذلك، فقد عدّ المزي خمسين راوياً[2] له، وقال الذهبي: وأمم يصعب استقصاؤهم ويبعد إحصاؤهم[3]، وهم موزّعون على البلدان في المدينة والجزيرة والري وبغداد، وهؤلاء كانوا يزاحمون ابن سعد الذي كان يروي كتب أستاذه الواقدي، ومنها كتاب التاريخ والمغازي والمبعث[4]، وهو كما يظهر من عنوانه، في موضوع كتاب ابن إسحاق.

صورة ابن إسحاق عند مؤرخ المعرفة.

قدّم مؤرخ المعرفة ابن النديم صورة سيئة لابن إسحاق، وعلى الرغم من أنه الوحيد الذي ذكر له كتاب (الخلفاء)، فإنه شكّل الصورة من روايات تشوّه أخلاق الرجل:

---

(١) الثقات ٧: ٣٨٤.

(٢) تهذيب الكمال ٢٤: ٤١١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧: ٣٥.

(٤) الفهرست: ١١٤.

- مطعون عليه، غير مرضي الطريقة، يغازل النساء.
- توضع له الأشعار ويدخلها في كتابه، فصار فضيحة بين رواة الأشعار.
- أخطأ في النسب.
- ينقل العلم عن اليهود والنصارى، يسمّيهم أهل العلم الأول.
- أصحاب الحديث يضعّفونه ويتهمونه.
- وفاته.
- كتبه، كتاب (الخلفاء) وكتاب (السيرة والمبتدأ والمغازي).

وربما يبدو الأمر غريباً، إذا تذكرنا أن الكاتب شيعي معتزلي، وكان ابن إسحاق قد اتّهم بأنه كان قدرياً (معتزلياً) وكان يتشيع[1]، ولعل ابن إسحاق بعيد عن أن يكون شيعياً، وقد لازم أصحاب السلطة العباسية، العباس بن محمد، ابن السفاح، ولازم المنصور، وابنه المهدي، وهؤلاء معروفون باستغلالهم للعلويين، في أول الدعوة ثم بانقلابهم عليهم، وقد خرج على حكمهم كثير من أبناء الأئمة العلويين، وكان مصيرهم القمع والقتل، فليس من المنطق تصديق تهمة تشيع ابن إسحاق، أما الاعتزال، فهو أسهل تهمة يلصقها الخصم بخصمه، مادام الفكر الأشعري سائداً. ولسنا في موقف الدفاع عن ابن إسحاق أو غيره، لأننا نطمح أن تكون مقاربتنا للظاهرة موضوعية، تستفيد من تحليل المواقف رصد آليات التفكير، وتستخلص من التفاصيل كشف العوامل المؤثرة فيها، دون إطلاق حكم، أو ترجيح رأي.

ويهمنا من الصورة التي كوّنها ابن النديم، وضع الأشعار في كتاب ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي) وهذه القضية تستلزم دراسة مستفيضة متعمقة، تخرج الموضوع من دائرة انتحال الشعر (نسبته إلى غير قائله) إلى دائرة تداخل الأنواع الأدبية، وهي حالة موجودة بكثرة في التراث العربي، فالشعر يتداخل مع السرد القصصي في (أيام العرب) وهي نوع أدبي قائم بذاته، ويتداخل مع (المثل)، ومع (الرسائل الأدبية)، وإذا توسعنا في معنى الأدب، وجدنا الشعر يتداخل مع اللغة والتفسير والتاريخ والجغرافيا، ولا يعني هذا التداخل أن الشعر كان ديوان العرب، فهو الوسيلة الملائمة لتسجيل المعارف،

(١) سير أعلام النبلاء ٧: ٣٩.

إنما يعني الوظيفة السردية التي يؤديها الشعر، في بنية النص، مما يشكّل وحدة عضوية، لا يمكن معها فصل الشعر عن النوع الذي التحم معه.

ويعني بالخطأ في النسب أنه نسب الرسول الكريم إلى من لم يكن الرسول نفسه ينتسب إليه، وذلك أن الرسول الكريم كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان ابن أدد، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون[1]. وكان ابن إسحاق قد أوصل النسب النبوي إلى آدم: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب - واسم عبد المطلب شيبة - بن هاشم - واسم هاشم عمرو - بن عبد مناف - واسم عبد مناف المغيرة - بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسم مدركة عامر، بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ابن أد، ويقال: أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم - خليل الرحمن، بن تارح - وهو آزر - بن ناحور بن ساروغ بن داعو بن فالخ بن كلاف بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس النبي - فيما يزعمون والله أعلم - وكان أول بني آدم أعطي النبوة وخط بالقلم، ابن يرد بن مهليل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم[2]. ويندرج فعل ابن إسحاق ضمن الفكرة العامة التي ألّف كتابه لتحقيقها، وهي ربط تاريخ الدعوة الإسلامية بتاريخ الأنبياء السابقين، عن طريق إيصال نسب الرسول بنسب أنبياء بني إسرائيل، ولما كان الرسول من قريش، والعباسيون من قريش، والأئمة من قريش، فإن إمامة العباسيين واجبة، وهي حق لهم، كما كانت للرسول ولقريش.

وانتُقد ابن إسحاق؛ لأنه كان قد كتب في السير، أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء، فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف[3]. والفكرة، في رأينا، أن ابن إسحاق كان يكتب، وفي ذاكرته نصوص سردية، ذات طابع ملحمي شعري، تحكي

(١) طبقات ابن سعد ١: ٥٦.

(٢) السيرة النبوية ١: ١.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١: ٨.

تاريخ الأمة، بلسان جمعي، لا نستطيع الآن، التثبت من تلك النصوص، ولكن ملاحم اليونان وأساطيرهم، وقصص ملوك الفرس، ربما كانت النموذج الذي احتذاه ابن إسحاق في كتابه، والنظرة الفاحصة للكتاب تؤيد أنه أراد أن يضع ملحمة عربية إسلامية، أبطالها شخصيات دينية، ذات قدرات خارقة، تقصّ أحداث التاريخ بأسلوب جمعي. ولما كانت الملاحم القديمة شعراً، فربما كان وضع الشعر في الكتاب إشارة إلى ذلك الأصل، لا سيما أنه شعر منحول، لا يُعرف قائله، ولكنه، من جانب آخر، شعر الجماعة الكائنة في عصر تدوينه.

أما عن نقله العلم عن اليهود والنصارى، وتسميتهم أهل العلم الأول، فالكاتب يشير إلى مصادر ابن إسحاق في المبتدأ، وقد ذكرنا أنه اعتمد على وهب بن منبه في هذا، واعتمد أيضاً على نقله مباشرة من علماء الكتاب المقدس، وسمّاهم: أهل العلم الأول بأحاديث أهل الكتاب (في قصة موسى)، وأهل التوراة (يوم الخلق)، وقد تدسّست الرواية عن هؤلاء بطرق مختلفة، أشهرها عمن أسلم منهم مثل: عبد الله بن سلام ويامين ابن يامين ووهب بن منبه وكعب الأحبار وابن التيهان وبحيرا الراهب[1]، ولكن (العلم الأول) كان منتشراً في الفضاء الإسلامي منذ زمن مبكّر، ففي أخبار أبي الجلد أنه كان يقرأ (الكتب)، وكان يقرأ القرآن في كل سبعة أيام، ويختم التوراة في ستة[2]، ويبدو أنه هو الذي كان يكاتبه ابن عباس، يسأله عن البرق[3]. ولا شك في أن أخبار الأنبياء والأديان السماوية السابقة للإسلام، كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكانت مسطورة (مكتوبة) أيضاً عند أصحابها، وهي (أساطير الأولين) التي اتُهم الرسول الكريم بالنقل عنها، كما كان في مكة نفسها، والمدينة وخيبر ونجران وصنعاء وغيرها، من كان يعرفها[4].

---

(١) الفهرست: ٣٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٧: ٢٢٢.

(٣) تفسير الطبري ١٣: ١٢٣.

(٤) التاريخ العربي والمؤرخون ١: ١٠٥.

صورة ابن إسحاق عند المؤرخ السكاني.

للمدينة دلالة خاصة عند الخطيب البغدادي، فقد شاهد مدناً كثيرة، أولها القرية التي نشأ بها درزيجان[1]، والبصرة ونيسابور والشام ومكة وعكبرا (الدجيل في العراق الآن) وأصفهان والدينور وهمدان والري والكوفة وصور ودمشق، وكان يطّلع على ما في هذا المدن من علوم، ويلتقي من بها من العلماء[2]، وكانت بغداد، من بين المدن، هي الدنيا[3]، وعلماؤها علماء الدنيا، فالكتابة في بغداد، وفي سكانها تعني الكتابة عن كل الدنيا.

قدّم الخطيب صورة لشخصية ثقافية فاعلة مؤثرة، خالدة بحياة العلم فيها، ومن أول وهلة نحسّ بتثمين الخطيب لابن إسحاق، واحترامه له، وقد تجسّد ذلك في أمرين: خروجه على نظام ترتيب الأعلام؛ لأجل ابن إسحاق، قال: لم أر في جملة المحمديين الذين كانوا في مدينة السلام، من أهلها والواردين إليها، أكبر سناً، وأعلى إسناداً، وأقدم موتاً منه، ولهذه الأسباب المجتمعة فيه، افتتحت كتابي بتسميته، وأتبعته بمن يلحق به من أهل ترجمته، ولولا ذلك لكان أولى الأشياء تقديم ترجمة محمد بن أحمد، على ما عداها من الأسماء، اقتداءً بما رسمه لنا أئمة شيوخنا[4]. وتخصيصه ما يقرب من عشرين صفحة لترجمة ابن إسحاق، وهي أطول ترجمة في الكتاب. وتتكون الترجمة من العناصر الآتية:

- مقدمة، فيها ترجمة موجزة.
- نسبه.
- الاختلاف في كنيته، أبي بكر، أو أبي عبد الله. وقد كانت في صفحة كاملة.
- تسمية قدماء شيوخ ابن إسحاق الذين أدركهم، وبعض حكاياته عنهم.

---

(١) قرية جنوب بغداد، كانت إحدى مدائن الأكاسرة. معجم البلدان ٢: ٤٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨: ٢٧٠.

(٣) أورد الخطيب في أول كتابه النص الآتي، وهو يبيّن عشقه لمدينته: عن يونس بن عبد الأعلى يقول: قال لي الشافعي: يا يونس، دخلت بغداد؟ قال: قلت: لا. قال: ما رأيت الدنيا. تاريخ بغداد ١: ٣.

(٤) تاريخ بغداد ١: ٢١٣.

- مناقب ابن إسحاق، ومعرفة حاله.

- اتهامه بالقول بالقدر.

- ثناء أهل الحديث عليه.

- كلام أهل الحديث في جرحه وتعديله.

- الاختلاف في تاريخ وفاته في حوالى صفحتين.

وتنبني على محتويات هذه العناصر كل المعلومات الخاصة بابن إسحاق، المثبتة في الكتب اللاحقة، لا يكاد يشذّ عنها شيء، ذلك لأن المؤرخين اعتمدوا على ما في تاريخ بغداد، مما يخصّ ابن إسحاق، أو غيره، ونستطيع تثبيت صورة ابن إسحاق عند الخطيب البغدادي، على أنه أوضح صورة له، تجمع ما قيل فيه ما له وما عليه، وبذا تتوازن ملامحه، وتتكامل سيرته. واحترام الكاتب لابن إسحاق، وإعطاؤه ما يستحقه من مكان في الكتاب، وتقديم ترجمته على ترجمة غيره، كل ذلك يتطابق مع عشق الكاتب لمدينته، وإعجابه بها، فكأن ابن إسحاق، من خلال صورته الكاملة، يمثّل وجهاً بغدادياً، نموذجاً للعلم الذي تأسست عليه الحضارة العربية.

يعنينا تسليط الضوء على ما يتعلق بالمبتدأ، وقد ذكر الخطيب البغدادي خبر تأليفه، وصححه: دخل محمد بن إسحاق على المهدي، وبين يديه ابنه، فقال له: أتعرف هذا يا ابن إسحاق؟. قال: نعم. هذا ابن أمير المؤمنين. قال: اذهب، فصنّف له كتاباً، منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا. فذهب فصنّف له هذا الكتاب، فقال له: لقد طوّلته يا ابن إسحاق!، اذهب فاختصره. فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر، وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين. وقيل: صنف محمد بن إسحاق هذا الكتاب في القراطيس، ثم صيّر القراطيس لسلمة، يعني ابن الفضل، فكانت تفضل رواية سلمة على رواية غيره؛ لحال تلك القراطيس. قال الشيخ أبو بكر ـ الخطيب البغدادي ـ: هكذا قال هذا الراوي: دخل ابن إسحاق على المهدي وبين يديه ابنه. وفي ذلك عندي نظر، ولعله أراد أن يقول: دخل على المنصور، وبين يديه المهدي ابنه، لأن ذلك أشبه بالصواب، والله أعلم[1]. وقد

(١) تاريخ بغداد ١: ٢٢١.

نصٌ على الكتاب في إشارته إلى اهتمام ابن إسحاق، قال: وكان عالماً بالسير والمغازي وأيام الناس، وأخبار المبتدأ وقصص الأنبياء[١].

بالانفتاح على العلاقة بين المنصور والمهدي، نجد خبراً يوصي فيه المنصور ابنه، بالرجوع إلى كتاب محفوظ في صندوق عليه قفل، يقول الخبر: كان للمنصور سفط، فيه دفاتر علمه، وعليه قفل لا يأمن على فتحه، ومفتاحه أحداً، وكان حماد التركي يقدم إليه ذلك السفط، إذا دعا به، فإذا غاب حماد أو خرج، كان الذي يليه سلمة الخادم، فقال للمهدي: انظر هذا السفط، فاحتفظ به، فإن فيه علم آبائك، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر، فانظر في الدفتر الأكبر، فإن أصبت فيه ما تريد، وإلا فالثاني والثالث، حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك، فالكراسة الصغيرة، فإنك واجد فيها ما تريد[٢]. فهل كان كتاب ابن إسحاق الكبير، الذي في خزانة أمير المؤمنين، واحداً من هذه الكتب؟.



سيرة الكتاب المغيَّب.

قدّم ابن إسحاق كتابه إلى المنصور، وصيّر القراطيس (الصحف) لسلمة بن الفضل، فكانت تفضل رواية سلمة على رواية غيره؛ لحال تلك القراطيس[٣]. وإذا كان الخبر يشير إلى أن ابن إسحاق قدّم نسختين من الكتاب إلى المنصور، نسخة فيها الكتاب الكبير، ونسخة فيها الكتاب المختصر، فإننا لا نستطيع تتبّع أخبارهما، في حين نستطيع تتبّع ما أعطاه ابن إسحاق لراويته (تلميذه) سلمة بن الفضل، والمؤرخون ينصّون على روايته عن ابن إسحاق المبتدأ[٤]، كما ينصّون على توثيقه في تلك الرواية، فليس من لدن بغداد إلى أن تبلغ خراسان أثبت في ابن إسحاق منه[٥]، وكان معلم كتّاب

(١) تاريخ بغداد ١: ٢١٥.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٤١.
(٣) تاريخ بغداد ١: ٢٢١.
(٤) طبقات ابن سعد ٧: ٣٨١.
(٥) تهذيب الكمال ١١: ٣٥٧.

(ت١٩١ هـ)[١]. وقد روى عنه محمد بن حميد بن حيان التميمي (ت٢٤٨ هـ)، وكان هذا من المحدثين بالري، وزار بغداد، ، وكان الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، من الذين رووا عنه[٢]. وعندما نصل إلى الطبري، فإننا نصل إلى كتابيه (تاريخ الرسل والملوك)، و(جامع البيان في تفسير آي القرآن)، وقد كان اعتمادنا عليهما في جمع المادة الأساسية للمبتدأ.

الطبري والمبتدأ.

يروي الطبري كتاب ابن إسحاق بأربع طرق:

١ ـ محمد بن حميد الرازي عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق.

٢ ـ هناد بن السري عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق.

٣ ـ هارون بن إدريس الأصم عن المحاربي عن ابن إسحاق.

٤ ـ سعيد بن يحيى الأموي عن عمه محمد بن سعيد عن محمد بن إسحاق[٣].

إلا أنه نقل موضوعات المبتدأ بالطريقة الأولى فقط، ولم ينقل بطريق يونس بن بكير، على الرغم من روايته للمبتدأ، فقد نقل عنه الحاكم بطريق أبي العباس محمد بن يعقوب عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: إبراهيم خليل الرحمن وصفيه ونبيه ﷺ ابن آزر بن ماجور بن ساروح بن راعو بن مالح بن عابر ابن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ صلوات الله عليه ـ[٤]. ونقل عنه أيضاً عن محمد بن إسحاق، عن الزهري عن الشعبي، قال: أرخ بنو إسحاق من مبعث موسى إلى ملك سليمان بن داود. قال: وورث سليمان داود. قال: أخذت إليه النبوة والرسالة أن يهب له ملكاً، لا ينبغي لأحد من بعده، فسُخِّر له الجن والإنس والطير والريح[٥].

---

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣: ٢٧٣.

(٢) تهذيب الكمال ٢٥: ١٢٥.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ١٥٨.

(٤) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٢٠.

(٥) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٤٠.

ولم ينقل الطبري قصص المبتدأ نقلاً حرفياً، كما يتبادر إلى المتلقي، فكان يتصرف تصرفاً مختلفاً، كأن يترك مشاهد بعض القصص، كما في قصة شيت، وفي إرسال الملائكة إلى بختنصر، وقد نقلهما عبد الله بن حيان الأصبهاني (ت٢٧٤هـ) بسلسلة الرواة التي اعتمد عليها الطبري، وهي: ـ حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق[١]. وأحياناً يختصر نص القصة، وينقلها غيره كاملة، كما في قصة داود حيث اختصرها كثيراً، بينما نقلها الثعلبي نقلاً حرفياً[٢]. أو يترك أول القصة، كما في قصة يوسف، إذ اقتطع منها قصة منطقة إسحاق، وأوردها في تفسيره، وهي مفصّلة في قصص الأنبياء للثعلبي[٣].

ويفيد الطبري من (المبتدأ) لوهب بن منبه، بطريقين: سلسلة رواة متكررة كثيراً، وهي: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم، حدثني عبدالصمد بن معقل، قال: سمعت وهب من منبه. وفي أحيان قليلة تكون سلسلة رواته: حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبدالرزاق قال: أخبرنا عمر بن عبدالرحمن بن مهرب قال: سمعت وهب بن منبه.

وقد سلفت إشارتنا إلى أن ابن إسحاق اعتمد على كتاب وهب في تأليفه، وهذا يعني أن أمام الطبري كتابين: المبتدأ برواية ابن إسحاق، وطريقه: حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه اليماني. والمبتدأ برواية غيره، وكثيراً ما يكون عبد الصمد بن معقل (ت٢١٠هـ). ما يؤيد هذا إيراده طريق الروايتين في بعض الأحيان: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه، قالا: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثنا ابن عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه: وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يُتهم عن وهب بن منبه اليماني ـ واللفظ لحديث ابن حميد[٤] ـ:، وأحياناً يرصد الطبري الفرق بين رواية وهب،

---

(١) المظمة رقم الحديث ١١٧٥١ و٥٧١.

(٢) تاريخ الطبري١: ٤٧٦. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٤٤.

(٣) تفسير الطبري ١٣: ٣٨ ـ ٣٩. وقصص الأنبياء: ٩٦ وما بعدها.

(٤) تاريخ الطبري١: ٥٤٧.

ورواية ابن إسحاق للقصة[1]، وأحياناً يختصر الطبري رواية وهب للقصة، ويكمل بقيتها من رواية ابن إسحاق[2]، مما يعني أنه ينقل عن كتابين. ولأهمية رواية وهب للقصص، وضعنا رواياته التي لم يرد فيها ابن إسحاق في حواشي الصفحات.

المبتدأ بين أيدي العلماء.

تداول العلماء، غير الطبري، كتاب المبتدأ، واستمدوا منه موضوعاته، لا سيما هو أول كتاب جمع التاريخ من آدم إلى وقته، وقد استقطب اهتمام الأخباريين، فأذاعوه بين الناس، وفي مدن مختلفة، رواه عن ابن إسحاق، إسحاق بن بشر بن محمد بن عبد الله ابن سالم، أبو حذيفة البخاري (ت٢٠٦هـ) كان ولد ببلخ، واستوطن بخارى فنسب إليها، روى عنه جماعة من الخراسانيين، ولم يرو عنه من البغداديين، سوى إسماعيل بن عيسى العطار(ت٢٩٨هـ)، فإنه سمع منه مصنفاته ورواها عنه، توفي أبو حذيفة ببخارى[3]، وقد ذكر ابن النديم (٣٧٧هـ)، وكان يذكر الكتب التي يراها، كتاب المبتدأ، مع كتب أبي حذيفة الأخرى[4]، كما قال في إسماعيل بن عيسى العطار: وأبو إسحاق إسماعيل بن عيسى العطار من أهل بغداد، من أصحاب السير، يروي عنه الحسن ابن علويه العطار، وله من الكتب كتاب المبتدأ...[5].

وقدّم اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ) قصص المبتدأ مختصرة، بحيث كان الكتاب كله في ثمانين صفحة من تاريخه، ويخلو تاريخه المطبوع من مقدمة، وهو لا يذكر أسانيد رواياته، كما فعل الطبري، إلا في مقدمة الجزء الثاني، حين ذكر أنه سيفيد، في السيرة النبوية، من عبد الملك بن هشام، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق[6]، ولكنه، كما بدا لنا، ينقل من المبتدأ، ذلك لأنه يأتي بالقصص شبيهة لما في

(١) تاريخ الطبري١: ٤٧٥.

(٢) تاريخ الطبري١: ٤٧٨.

(٣) تاريخ بغداد ٦: ٣٢٦.

(٤) الفهرست: ١٣٧.

(٥) الفهرست ١: ١٥٩.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢: ٦.

المبتدأ، إلا أنها ملخصة، وقد أشرنا إلى موضع التشابه في الحواشي.

وكان المقدسي (ت٣٥٥هـ) يقول، وهو يقدم لكتابه: تتبعت صحاح الأسانيد ومتضمنات التصانيف، وجمعت ما وجدت في ذكر مبتدأ الخلق ومنتهاه، ثم ما يتبعه من قصص الأنبياء وأخبار الأمم والأجيال... من لدن قيام الساعة إلى زماننا هذا، وهو سنة ثلاثمائة وخمس وخمسين من هجرة نبينا محمد[١]. فكان المبتدأ مصدراً مهماً من مصادره، فكان ينقل عنه القصص الكاملة، ومن ذلك نقله قصة خلق آدم، وقد قال بعدها: هذا كله قول محمد بن إسحاق، صاحب المبتدأ[٢].

ونصّ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) على رواية ابن إسحاق في كتابه المبتدأ، وقرنها برواية غيره لقصة بختنصر، فقال: ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب المبتدأ، عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب الأحبار، وروى غيره عن وهب بن منبه: أن بختنصر بعد أن خرّب بيت المقدس...[٣].

كما كان المبتدأ محط عناية المحدثين، وهذا عبد الله بن حيان الأصبهاني (ت٣٦٩هـ) ينقل عنه[٤]، وكذا الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)[٥]، وكان البسطامي المعروف بالسيدي (ت٥٢١هـ) يروي المبتدأ والمبعث لمحمد بن إسحاق[٦]، وفي ترجمة وثيمة بن موسى بن الفرات المصري الذي كان قد روى عن سلمة بن الفضل، قال ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ): وقفت له على تصنيف كبير في المبتدأ وقصص الأنبياء[٧]، وهذه آخر إشارة وجدناها، إلى الكتاب.

لقد ذاعت شهرة الكتاب بين الناس، واستأثر باهتمامهم، وبعض العلماء يتقوّلون في صاحبه؛ حسداً منهم ونكاية، ولكن جمهورهم يقرّون بأستاذيته وفضله، فقيل: لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل، إلا أنه صرف الملوك عن كتب لا يحصل منها شيء،

---

(١) البدء والتاريخ ١: ٦.

(٢) البدء والتاريخ ٢: ٨٣ - ٨٤.

(٣) البداية والنهاية ٢: ٣٢٤.

(٤) العظمة رقم الحديث ٥٧١ و١٠١٩١٨.

(٥) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠١١ و٤٠١٤.

(٦) التحبير في المعجم الكبير ٢: ١٤٠.

(٧) لسان الميزان ٦: ٢١٧.

فصرف أشغالهم حتى اشتغلوا بمغازي رسول الله ﷺ ومبتدأ الخلق، ومبعث النبي ﷺ فهذه فضيلة لابن إسحاق سبق بها، ثم بعده صنّفه قوم آخرون، ولم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق فيه[1].

إعادة بناء

حذف عبد الملك بن هشام (ت٢١٨هـ) المبتدأ من كتاب ابن إسحاق، وقد أقرّ بذلك، قال: وأنا... تارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه؛ لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً، من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكائي بروايته[2].

والبحث المعاصر لا يرى ما كان ابن هشام يراه، فالمبتدأ، في تاريخ الأمة، مرحلة أولى لا بد منها، لبناء المراحل اللاحقة، ومهما يكن من طبيعة القصص التي تضمنها الكتاب، سواء أكانت خالية من السند، أم كانت مناكير، فإنها نتاج ثقافة بدأت بتأسيس كيانها، وإقامة أعمدة صروحها، ثم إن المبتدأ معين يمدّ الباحثين في الميثولوجيا العربية بمادة أصيلة، لاستكشاف الميادين التي ولجها الفكر القديم، ورصد آليات التفكير حيال المسائل الكونية، كخلق العالم والإنسان، وتواصل النسل البشري، وكيفية اندراج الأمم فيه. والمبتدأ، مع قصص الأنبياء للثعلبي والكسائي وابن كثير، هو الصورة المنعكسة في المرآة لقصص القرآن، ذلك أن القصة القرآنية كانت مدعاة للقصة في هذه الكتب، هي التي سبّبتها، وكانت الباعث على إيجادها، وهي التي أدّت بالمفسرين والأخباريين إلى توسيع الحجم، وإظهار التفصيلات، وتمكين الأحداث، حتى ظهر القصّ وكثر القصاصون، وصرنا أمام نصوص ثرة غنية، تكتنز صفحات من الآراء والمعتقدات، ومن الآمال والمخاوف، ومن الرغبات والانتكاسات، ويقيناً أن كثيراً من محتويات هذه الصفحات ما زالت تعمل فينا.

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال ٦: ١٠٢.

(٢) السيرة النبوية ١:١.

من هنا دفعت بنا الرغبة إلى جمع المقتطفات المبعثرة من المبتدأ، من التواريخ اللاحقة، وإلى إعادة بنائه، في ضوء بناء الكتب التاريخية التي تناولت الموضوع نفسه، ويبرز تاريخ الطبري هنا، والبدء والتاريخ للمقدسي، وكلاهما ألّف كتابه؛ ليضمّ التاريخ من أول الخلق إلى وقته، وكلاهما اعتمد على مبتدأ ابن إسحاق، وذلك للحصول على (هيكل تقريبي) للكتاب، ومثل هذه المحاولة، تعني إعادة تصنيف المواد التاريخية التي وصلتنا، وخاصة للقرون الأولى للهجرة، بإرجاعها إلى أصولها، وهو عمل شاق وخطير وبطيء[1].

والسؤال هنا عن المحذوف من كتاب ابن إسحاق، وقد تبيّن، من خلال مقارنة القسم المتبقي من الكتاب (السيرة النبوية)، بكتب التاريخ القديم مثل: تاريخ الطبري، والبدء والتاريخ للمقدسي، ومثل: قصص الأنبياء للثعلبي والكسائي وابن كثير ـ أن المحذوف يحتوي على قصة بدء الخلق، خلق السماوات والأرض وما فيهما، وقصص الأنبياء من آدم إلى جرجيس، وهو آخر نبي تذكره تلك الكتب، فكان عملنا جمع هذا المحذوف، وترتيبه على النسق الذي سار عليه أولئك المؤرخون، ثم توثيق النصوص المجموعة بذكر مصادرها، وذكر مصادر أخرى وردت فيها تلك النصوص، ثم عمل الفهارس اللازمة للكتاب.

نحسب هذا العمل محاولة لجمع ما أمكننا جمعه، من كتاب فُقد منذ قرون، ولعله يحرّض من تتهيأ له نصوص أخرى، على تقديمه بشكل أفضل، كي يكتمل الكتاب الذي يُعدّ مصدراً أولاً، من مصادر التاريخ العربي الإسلامي.



(١) التاريخ عند العرب: ١٢.

بـدء الخلـق

مدة الدنيـا

ـ حدثنا ابن حميد[1]، قال: حدثنا سلمة[2]، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن نافع[3]، عن ابن عمر[4]، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ألا إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس)[5].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد[6]، عن سعيد بن جبير[7]، أو عكرمة[8]، عن ابن عباس[9]، قال: قدم رسول

---

(١) محمد بن حميد بن حيان، العلامة الحافظ الكبير، أبو عبد الله الرازي، توفي سنة ٢٢٩ هـ. سير أعلام النبلاء ١١: ٥٠٣.

(٢) سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري مولاهم أبو عبد الله الأزرق الرازي قاضي الري، قيل فيه: ليس من لدن بغداد إلى أن تبلغ خراسان أثبت في ابن إسحاق من سلمة بن الفضل،وهو معلم كتاب، توفي بالري سنة ١٩٠هـ. الجرح والتعديل ٤: ١٦٩.

(٣) نافع بن أبي نعيم الإمام، حبر القرآن، أبو رويم، مولى جعونة بن شعوب الليثي،توفي سنة ٢٦٩هـ. سير أعلام النبلاء ٧: ٣٣٨.

(٤) عبد الله بن عمر بن الخطاب،من أجلاء الصحابة، توفي بمكة سنة ٧٤هـ. سير أعلام النبلاء ٣: ٢٠٣.

(٥) تاريخ الطبري ١:١١.وصحيح ابن حبان رقم الحديث ٧٢٢١.

(٦) محمد بن أبي محمد الأنصاري المدني، روى عن سعيد بن جبير، وعكرمة، وابن إسحاق. تهذيب الكمال ٢٦: ٣٨٢.

(٧) سعيد بن جبير بن هشام الإمام الحافظ المقرئ المفسر، أحد الأعلام، قتله الحجاج سنة٩٥ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ٣٤١.

(٨) عكرمة العلامة الحافظ المفسر، المدني البربري الأصل، روى عن ابن عباس، توفي سنة ١٠٥ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ١٢.

(٩) حبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله ابن عم رسول الله ﷺ العباس، صحب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، روى عنه مائتا راوٍ إلا ثلاثة، توفي سنة ثمان وستين هـ. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٣٢ وما بعدها.

الله ﷺ المدينة، ويهود تقول: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا، يوماً واحداً في النار من أيام الآخرة، فإنما هي سبعة أيام، ثم ينقطع العذاب. فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ... ﴾[1].

يوم الخلق

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: يقول: أهل التوراة ابتدأ الله الخلق يوم الأحد. وقال أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين. ونقول نحن ـ المسلمين ـ، فيما انتهى إلينا من رسول الله ﷺ: ابتدأ الله الخلق يوم السبت[2].

ـ قال ابن إسحاق: يقول أهل التوراة: ابتداء الخلق يوم الأحد، وفُرغ منه يوم السبت، فجعله عيداً لعباده، وعظّمه وشرّفه وكرّمه، ويقول أهل الإنجيل: الابتداء يوم الاثنين، وكان الفراغ يوم الأحد، ويقول المسلمون: ابتداء الخلق يوم السبت، وكان

---

(١) البقرة/ ٨٠. تفسير الطبري ١٥: ٤٠ وفيه سند آخر عن ابن إسحاق عن ابن عباس. وقال وهب بن منبه: إن لله ﷻ ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها. تفسير القرطبي ١: ١٣٨. وعنه أيضاً: قد خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، وإني لأعرف كل زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء. قلت لوهب بن منبه: كم الدنيا ؟ قال: ستة آلاف سنة.تاريخ الطبري ١: ١٠.

(٢) تاريخ الطبري ١:٣٥ ـ ٣٦. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ثم إن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الله الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر ظاهراً والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة، فقال ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠] وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق في أول ساعة من هذه الثلاث الساعات الآجال، حين يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم أسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة، ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد ؟. قال: ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت. قالوا: ثم استراح. قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨]. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٣٩٩٧.

الفراغ يوم الجمعة، وإنما سمّيت لاجتماع الخلق فيه[1].

أول الخلق

ـ حدثني محمد بن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: قال محمد بن إسحاق: كان أول ما خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ النور والظلمة، ثم ميّز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً، ثم سمك السماوات السبع من دخان، يقال ـ والله أعلم ـ: من دخان الماء، حتى استقللن ولم يحبكهن، وقد أغطش في السماء الدنيا ليلها، وأخرج ضحاها، فجرى فيها الليل والنهار، وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم، ثم دحا الأرض، وأرساها بالجبال، وقدّر فيها الأقوات، وبثّ فيها ما أراد من الخلق، ففرغ من الأرض، وما قدر فيها من أقواتها، في أربعة أيام. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ كما قال، فحبكهن، وجعل في السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها، وأوحى في كل سماء أمرها، فأكمل خلقهن في يومين، ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى في اليوم السابع فوق سماواته، ثم قال للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لما أردتُ بكما، فاطمئنا عليه طوعاً أو كرهاً ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2].

ـ وأما محمد بن إسحاق فإنه يقول في كتابه، في بدء الخلق، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[3]. فكان ـ كما وصف نفسه ـ تبارك وتعالى ـ إذ ليس إلا الماء عليه العرش، ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان، فكان أول ما خلق النور والظلمة، ميّز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً، ثم سمك السماوات السبع من دخان الماء، حتى استقللن، ثم دحا الأرض، وأرساها بالجبال، وقدر فيها الأقوات، ثم استوى إلى السماء، وهي دخان.

ـ حدّثنا محمد بن إسحاق...عن ابن عباس: أول شيء خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ القلم، فقال له: اكتب ما يكون إلى يوم القيامة، ثم خلق النون، فكبس عليها الأرض،

(١) البدء والتاريخ ٢:٢٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١. تفسير الطبري ١ ـ ١٩٣.

(٣) هود، الآية: ٧.

يقول تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[1].

ـ حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: ثم بعث الله ملكاً من الملائكة ـ يعني إلى بخت نصر ـ فقال له الملك: هل تعلم يا عدو الله، كم بين الأرض إلى السماء الدنيا؟. قال بخت نصر: لا. قال له الملك: فإن بين الأرض إلى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وغلظها مثل ذلك، ثم بعد ذلك عرش ذي العزة ملك الملوك، يحمله أربعة من الملائكة على كواهلهم، فوق أجنحتهم، ما بين قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة سنة ومسيرة السماوات السبع وغلظهن، وما بين الكعب إلى الركبة مسيرة خمسمائة سنة ومسيرة السماوات السبع وغلظهن، وكما بين القدم إلى الركبة وإلى الفخذ مسيرة خمسمائة سنة ومسيرة السماوات السبع وغلظهن، وكما بين القدم إلى الفخذ وما بين الفخذ إلى الأجنحة مسيرة خمسمائة سنة ومسيرة السماوات السبع وغلظهن، وكما بين الفخذ إلى الأجنحة ما بين الأجنحة إلى العنق خمسمائة سنة ومسيرة السماوات السبع وغلظهن، وما بين العنق إلى الرأس وما بين الأجنحة إلى ما فوقهن العرش عرش ذي العزة والملك والسلطان والقدرة العلي العظيم،

---

(١) سورة القلم، الآية: ١. البدء والتاريخ ١: ١٤٩. ٢: ٢. ١: ١٤٧. وعن وهب أن العرش كان قبل أن يخلق السماوات والأرض على الماء، فلما أراد أن يخلق السماوات والأرض، قبض من صفاة الماء قبضة، ثم فتح القبضة، فارتفعت دخاناً ثم قضاهن سبع سماوات في يومين، ودحا الأرض في يومين، وفرغ من الخلق اليوم السابع.وقال: إن السماوات والأرض والبحار لفي الهيكل، وإن الهيكل لفي الكرسي، وإن قدميه ﷻ لعلى الكرسي، وهو يحمل الكرسي، وقد عاد الكرسي كالنعل في قدميه.وسئل وهب: ما الهيكل ؟ قال: شيء من أطراف السماوات، محدق بالأرضين والبحار، كأطناب الفسطاط. وسئل وهب عن الأرضين، كيف هي؟ قال: هي سبع أرضين ممهدة، جزائر بين كل أرضين بحر، والبحر محيط بذلك كله، والهيكل من وراء البحر. تاريخ الطبري ١:٣٩. ٤٠. وقال أيضاً: خلق الله الأرض فجعلت تميد وتمور فقالت الملائكة: إنها لا تبقي أحداً على ظهرها. فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، ولم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال: على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع، بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده، لأحرقت جهنم كل من عليها. وقال: وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة، لا يعلم عظمه إلا الله تعالى وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق. وعنه في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ قال: ما بين أسفل الأرض إلى العرش. تفسير القرطبي ١٠: ٩٠. ١١: ١٧٠. ١٤: ٨٩.

ثم بعد ذلك يبدو العرش ببهائه وجلاله، عليه ملك الملوك ـ تبارك وتعالى ـ أي عدو الله، فأنت تطلع إلى ذلك، ثم بعث الله تعالى على عدو بخت نصر ـ لعنه الله ـ البعوضة فقتلته[1].

ـ حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: هم اليوم أربعة ـ يعني حملة العرش ـ وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية، وقد قال الله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[2].

ـ حدثني هارون[3]، قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي[4]، قال: ثنا محمد ابن إسحاق، قال: ثنا الفضل بن عيسى[5] عن عمه يزيد الرقاشي[6] عن أنس بن مالك[7]، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي

---

(١) العظمة رقم الحديث ٥٧١. كان حق هذه القصة أن تكون بآخره، ولكني لم أعثر لابن إسحاق على قصة تتعلق بالسماوات والأرض، إلا هذه فوضعتها هنا.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٧. تفسير الطبري ٢٩: ٧٣. وعن وهب بن منبه، عن أبي هريرة: أن رجلاً من اليهود أتى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم، هل احتجب الله ﷻ عند خلقه السماوات والأرض؟ قال: نعم. بينه وبين الملائكة الذين حول العرش، سبعون حجاباً من نار، وسبعون حجاباً من نور، وسبعون حجاباً من ظلمة، وسبعون حجاباً من در رفارف الاستبرق، وسبعون حجاباً من رفارف السندس، وسبعون حجاباً من در أبيض، وسبعون حجاباً من در أحمر، وسبعون حجاباً من در أصفر، وسبعون حجاباً من در أخضر، وسبعون حجاباً من ضياء، استضاء بها من النار والنور، وسبعون حجاباً من ثلج، وسبعون حجاباً من ماء، وسبعون حجاباً من غمام، وسبعون حجاباً من برد، وسبعون حجاباً من عظمة الله التي لا توصف. قال: فأخبرني عن ملك الله الذي يليه؟ فقال النبي ﷺ: أصدقت فيما أخبرتك يا يهودي؟ قال: نعم. قال: فإن الملك الذي يليه إسرافيل، ثم جبريل، ثم ميكائيل، ثم ملك الموت. المعجم الأوسط للطبراني رقم الحديث ٨٩٤٢.

(٣) هارون بن إسحاق الإمام الحافظ الثبت المعمر أبو القاسم الهمداني الكوفي، توفي سنة ٢٥٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٦.

(٤) أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المحاربي الكوفي، راوٍ ثقة توفي سنة ١٩٥ هـ. التاريخ الكبير ٥: ٣٤٧.

(٥) الفضل بن عيسى أبو عيسى الرقاشي خال معتمر بن سليمان، يروي عن عمه يزيد والحسن، وقال ابن عيينة: كان يرى القدر. التاريخ الكبير ٧: ١١٨.

(٦) يزيد بن أبان الرقاشي، أبو عمرو البصري القاص من زهاد أهل البصرة، وكان قدرياً ضعيف الحديث. تهذيب الكمال ٣٢: ٦٤.

(٧) الإمام المفتي المقرىء المحدث راوية الإسلام أبو حمزة الأنصاري الخزرجي البخاري المدني خادم=

ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

فقيل: من هؤلاء الذين استثنى الله، يا رسول الله ؟.

قال: جبرائيل وميكائيل وملك الموت، فإذا قبض أرواح الخلائق، قال: يا ملك الموت من بقي؟ وهو أعلم.

قال: يقول: سبحانك تباركت ربي ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل وميكائيل وملك الموت.

قال: يقول: يا ملك الموت، خذ نفس ميكائيل.

قال: فيقع كالطود العظيم.

قال: ثم يقول: يا ملك الموت، من بقي؟.

فيقول: سبحانك ربي يا ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل وملك الموت.

قال: فيقول يا ملك الموت، مت.

قال: فيموت.

قال: ثم يقول: يا جبريل، من بقي؟.

قال: فيقول جبريل: سبحانك ربي يا ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل. وهو من الله بالمكان الذي هو به.

قال: فيقول: يا جبريل: لا بد من موتة.

قال: فيقع ساجداً يخفق بجناحيه، يقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، أنت الباقي، وجبريل الميت الفاني.

قال: ويأخذ روحه في الخلقة التي خلق منها.

= رسول الله ﷺ وقرابته من النساء وتلميذه وتبعه وآخر أصحابه موتاً، توفي سنة ٩٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٣: ٣٩٦.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

قال: فيقع على ميكائيل أن فضل خلقه على خلق ميكائيل كفضل الطود العظيم على الظرب من الظراب[١].

ـ حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن عمرو بن عطاء[٢]، عن علي بن حسين[٣] قال: قال لي: هل تدري ما اسم جبريل من أسمائكم؟.

قلت: لا.

قال: عبد الله.

قال: فهل تدري ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟.

قلت: لا.

قال: عبيد الله.

وقد سمّى لي إسرائيل، باسم نحو ذلك، فنسيته، إلا أنه قد قال لي: أرأيت كل اسم يرجع إلى إيل، فهو معبد به[٤].

ـ حدثنا أبو كريب[٥] قال: ثنا يونس بن بكير[٦]، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثني الزهري[٧]، عن علي بن الحسين، عن أبي إسحاق[٨]، عن ابن عباس، قال:

---

(١) تفسير الطبري ٢٤: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) أبو عبد الله القرشي المدني القرشي من سادات أهل المدينة ومتقنيهم توفي بعد سنة ١٢٠ للهجرة. تهذيب التهذيب ٩: ٣٣٢.

(٣) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه، وابن عباس روى عنه الزهري، توفي سنة ٩٤ هـ. الكنى والأسماء ١: ٢٥١.

(٤) تفسير الطبري ١: ٤٣٧.

(٥) محمد بن العلاء بن كريب الحافظ الثقة الامام، أبو كريب الهمداني الكوفي، توفي سنة ٢٤٨ هـ. سير أعلام النبلاء ١١: ٣٩٤.

(٦) يونس بن بكير بن واصل الإمام الحافظ الصدوق، صاحب المغازي والسير، توفي سنة ١٩٩ هـ. سير أعلام النبلاء ٩: ٢٤٥.

(٧) محمد بن مسلم، الإمام العلم أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام،وتوفي سنة ١٢٤ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ٣٢٦.

(٨) أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني رأى علياً وابن عباس وابن عمر. الكنى والأسماء ١: ٣٥.

حدثني رهط من الأنصار، قالوا: بينا نحن جلوس ذات ليلة مع رسول الله إذ رأى كوكباً رُمي به، فقال: ما تقولون في هذا الكوكب الذي يرمى به؟. فقلنا: يولد مولود، أو يهلك هالك، أو يموت ملك، أو يملك ملك. فقال رسول الله: ليس كذلك، ولكن الله كان إذا قضى أمراً في السماء، سبح لذلك حملة العرش، فيسبح لتسبيحهم من يليهم من تحتهم من الملائكة، فما يزالون كذلك حتى ينتهي التسبيح إلى السماء الدنيا، فيقول أهل السماء الدنيا لمن يليهم من الملائكة: مم منفعتهم؟ فيقولون: ما ندري سمعنا من فوقنا من الملائكة سبحوا، فسبحنا الله لتسبيحهم، فيسألون من فوقهم.فما يزالون كذلك حتى ينتهي إلى حملة العرش فيقولون: قضى الله كذا وكذا. فيخبرون به من يليهم حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا، فتسترق الجن ما يقولون، فينزلون إلى أوليائهم من الإنس، فيلقونه على ألسنتهم بتوهم منهم فيخبرونهم به فيكون بعضه حقاً وبعضه كذباً فلم تزل الجن كذلك حتى رموا بهذه الشهب[1].

الديك

ـ حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن منصور[2]، عن سالم بن أبي الجعد[3]، عن كريب[4]، عن ابن عباس، يرفع الحديث إلى النبي ﷺ قال: إن مما خلق الله لديكاً، براثنه على الأرض السابعة، وعرفه منطو تحت العرش، قد أحاط جناحاه بالأفقين، وإذا بقي ثلث الليل الآخر ضرب بجناحيه. ثم قال: سبحوا الملك القدوس. سبحان ربنا الملك القدوس. لا إله لنا غيره. قال: فيسمعها ما بين الخافقين إلا الثقلين. قال: فترون أن الديكة إنما تصفق بأجنحتها، إذا سمعت ذلك[5].

---

(١) تفسير الطبري ٢٣: ٤٥ ـ ٤٦

(٢) منصور بن المعتمر الحافظ الثبت القدوة أبو عتاب السلمي الكوفي،توفي سنة ١٣٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ٤٠٢.

(٣) سالم بن أبي الجعد الأشجعي الغطفاني مولاهم الكوفي الفقيه، من علماء الموالي، توفي سنة ١٠٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ١٠٨.

(٤) كريب بن أبي مسلم الهاشمي مولاهم أبو رشدين، روى عن مولاه ابن عباس، توفي سنة ٩٨ هـ. تهذيب التهذيب ٨: ٣٨٨.

(٥) المعجم الأوسط للطبراني رقم الحديث ٧٣٣٤.وفي البدء والتاريخ ٢: ١١.

إبليس

ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن خلاد[1] عن عطاء[2]، عن طاوس[3] عن ابن عباس، قال: كان إبليس، قبل أن يركب المعصية، من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً؛ فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حيٍّ، يسمون جناً[4].

(١) خلاد بن يحيى بن صفوان الإمام المحدث الصدوق،أبو محمد السلمي الكوفي، توفي سنة ٢٢٣ هـ. سير أعلام النبلاء ١٠: ١٦٤.

(٢) عطاء بن السائب الإمام الحافظ محدث الكوفة أبو السائب، توفي سنة ١٣٦ هـ.سير أعلام النبلاء ٦: ١١٠.

(٣) طاوس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن، الحافظ، توفي بمكة سنة ١٠٥ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ٣٨.

(٤) تفسير الطبري ١: ٣٢١ وتاريخه ١: ١٠٧.والقصة تعني وجود مخلوقات قبل آدم، هم الملائكة تحديداً، يدعم هذا التصور مخاطبة الله تعالى الملائكة في قصة خلق آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾.

آدم وحواء

خلق آدم

ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: يقال ـ والله أعلم: خلق الله آدم، ثم وضعه ينظر إليه أربعين يوماً، قبل أن ينفخ فيه الروح، حتى عاد صلصالاً كالفخار ولم تمسه نار. قال: فلما مضى له من المدة ما مضى، وهو طين صلصال كالفخار، وأراد ﷻ أن ينفخ فيه الروح، تقدم إلى الملائكة، فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[1]. فلما نفخ فيه الروح، أتته الروح من قبل النبي ﷺ فلما بلغ الحين الذي أراد الله ﷻ أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح، فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله.فقال الله ﷻ له: رحمك ربك[2]، فلما دخل الروح في عينيه، نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه، اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه، عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[3]. ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٢) قال أبو هريرة: كان أول ما جرى فيه الروح من آدم بصره وخياشيمه، فلما جرى الروح منه في جسده كله، عطس فلقنه الله حمده فحمد ربه فقال الله له: رحمك ربك، ثم قال الله له: اذهب يا آدم إلى أولئك الملأ فقل لهم: سلام عليكم فانظر ماذا يردون عليك. ففعل ثم رجع إلى الجبار، فقال الله له، وهو أعلم: ماذا قالوا لك؟. فقال: قالوا: وعليك السلام ورحمة الله. فقال له: هذه يا آدم، تحيتك وتحية ذريتك. وعن ابن عباس قال: لما نفخ في آدم الروح عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين. فقال الله له: يرحمك ربك. قال ابن عباس سبقت رحمته غضبه. الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٣١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧. نسبه الثعلبي في قصص الأنبياء: ٢٤ إلى العلماء. وهو في التيجان لوهب: ١٤ برواية أخرى.

﴿٣١﴾[1]. ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. فقال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لما خلقت بيدي؟. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين. قال الله له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ - يعني ما ينبغي لك - ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[3].

خلق حواء

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما فرغ الله - تعالى - من معاتبة إبليس، أقبل على آدم عليه السلام وقد علمه الأسماء كلها، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[4].

قال: ثم ألقى السِّنَة على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب، من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره[5] ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانها لحماً، وآدم عليه السلام نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله تعالى من ضلعه تلك، زوجه حواء، فسواها امرأة؛ ليسكن إليها. فلما كشف عنه السنة وهبَّ من نومته، رآها إلى جنبه، فقال، فيما يزعمون، والله أعلم: لحمي ودمي وزوجتي[6]. فسكن إليها فلما زوجه الله تبارك وتعالى وجعل له سكناً من نفسه، قال له قبلاً:

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢ - ١٣. تاريخ الطبري ١: ٩٣ - ٩٦. سيعود إبليس الى الجنة، تحمله الحية بين نابيها؛ ليغوي آدم.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

(٥) عن مجاهد في قوله: (وخلق منها زوجها) قال: خلق حواء من قصيري آدم - ﷺ -، والقصيري الضلع الأقصر، وهو نائم فاستيقظ فقال: أثا امرأة بالنبطية.و عن ابن عباس قال: إنما سميت حواء، لأنها أم كل حي. وأخبرنا هشام بن محمد بن عن أبيه عن أبي صالح عن بن عباس قال: أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى أتى جمعاً، فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت بالمزدلفة، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعاً. الطبقات الكبرى لابن سعد ١:٣٩.

(٦) الخبر في سِفر التكوين/٢: ٢١ - ٢٤.

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق[2]، عن بعض أهل العلم: أن آدم عليه السلام حين دخل الجنة، ورأى ما فيها من الكرامة وما أعطاه الله منها، قال: لو أنا خلدنا فيها. فاغتمزها منه الشيطان، لما سمعها منه، فأتاه من قبل الخلد[3].

شجرة الخلد

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: حُدِّثت أن أول ما ابتدأهما به من كيده إياهما، أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها.

فقالا له: ما يبكيك؟.

قال: أبكي عليكما تموتان، فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة.

فوقع ذلك في أنفسهما، ثم أتاهما فوسوس إليهما. فقال: يا آدم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[4]. ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي تكونان ملكين، أو تخلدان. أي إن لم تكونا ملكين في نعمة الجنة، فلا تموتان، يقول الله عز وجل: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥. تاريخ الطبري ١:١٠٤.

(٢) نسبه الثعلبي في قصص الأنبياء: ٢٦ إلى أهل التاريخ.

(٣) تاريخ الطبري ١: ١١٠ - ١١١.

(٤) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠ - ٢٢ تاريخ الطبري ١: ٧٣ وتاريخ اليعقوبي ١: ٥ والبدء والتاريخ ٢: ٩٣ - ٩٤. وفي سفر التكوين/٢: ١٧ ٣: ٢٢. أن في الجنة شجرتين: شجرة معرفة الخير والشر، وهي التي أكلا منها، وشجرة الحياة التي كان يمكن لهما أن يأكلا منها، فيعيشا الى الأبد؛ لذا أخرجهما الرب من الجنة.ولعل في تخيير إبليس إياهما، بين أن يكونا ملكين أو يخلدا، إشارة الى الشجرتين.

ـ حدثنا[1] ابن حميد مرة أخرى، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس، وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن ليث ابن أبي سليم[2]، عن طاوس اليماني، عن ابن عباس، قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض: أيها تحمله؛ حتى تدخل به الجنة، حتى يكلم آدم وزوجه، فكل الدواب أبى ذلك عليه، حتى كلم الحية، فقال لها: أمنعك من بني آدم، فأنت في ذمتي، إن أنت أدخلتني الجنة. فجعلته بين نابين من أنيابها[3]، ثم دخلت به، فكلمهما من فمها، وكانت كاسية، تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله تعالى، وجعلها تمشي. قال: يقول ابن عباس: اقتلوها حيث وجدتموها؛ ذمة عدو الله فيها[4].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، قال: قال ابن إسحاق في ذلك ـ والله أعلم ـ كما قال ابن عباس، وأهل التوراة: إنه خلص إلى آدم وزوجته، بسلطانه الذي جعل الله له؛ ليبتلي به آدم وذريته، وأنه يأتي ابن آدم في نومته وفي يقظته، وفي كل حال من أحواله؛ حتى

(١) عن وهب بن منبه، قال: لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ونهاه عن الشجرة وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فلما أراد إبليس أن يستزلهما دخل في جوف الحية وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته فجاء بها إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها فأكل منها آدم فبدت لهما سوآتهما فدخل آدم في جوف الشجرة فناداه ربه: يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هنا يا رب. قال: ألا تخرج؟ قال: أستحي منك يا رب. قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة حتى يتحول ثمارها شوكاً. قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة كانت أفضل من الطلح والسدر، ثم قال: يا حواء أنت التي غررت عبدي فإنك لا تحملين حملاً إلا حملته كرهاً فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في بطنك حتى غر عبدي ملعونة أنت لعنة حتى تتحول قوائمك في بطنك ولا يكن لك رزق إلا التراب أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسك. قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء. تاريخ الطبري ١: ١٠٨.

(٢) ليث بن أبي سليم محدث الكوفة وأحد علمائها الأعيان توفي سنة ١٣٨ هـ. سير أعلام النبلاء ٦: ١٧٩.

(٣) القصة في التيجان لوهب: ١٦.

(٤) تاريخ الطبري ١: ١٠٧. وسفر التكوين/٣: ١٤.

يخلص إلى ما أراد منه، حتى يدعوه إلى المعصية، ويوقع في نفسه الشهوة، وهو لا يراه، وقد قال الله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[1]. وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. وقد قال الله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾[3]. إلى آخر السورة.

قال ابن إسحاق: وإنما أمر ابن آدم فيما بينه وبين عدو الله، كأمره فيما بينه وبين آدم، فقال الله: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[4]. ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما، كما قص الله علينا من خبرهما، قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾[5]. فخلص إليهما بما خلص إلى ذريته، من حيث لا يريانه ـ والله أعلم أي ذلك كان ـ فتابا إلى ربهما[6].

ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط[7]، عن سعيد بن المسيب[8] قال: سمعته يحلف بالله ما يستثني: ما أكل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الناس، الآيتان: ١ ـ ٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٦) تفسير الطبري ١: ٣٤١ ـ ٣٤٢. وعن ابن عباس ووهب بن منبه: أن الكلمات التي تاب بها آدم: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. تفسير القرطبي ١: ٣٢٤.

(٧) يزيد بن عبد الله بن قسيط الإمام الفقيه أبو عبد الله الليثي المدني الأعرج، توفي سنة ١٢٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٥: ٢٦٦.

(٨) سعيد بن المسيب الإمام العلم أبو محمد القرشي المخزومي عالم أهل المدينة، توفي سنة ٩٤ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ٢١٧.

آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر، حتى إذا سكر، قادته إليها فأكل[1].

ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن رجل من أهل العلم عن مجاهد[2]، عن ابن عباس، أنه كان يقول: الشجرة التي نهي عنها آدم البر.وعن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه اليماني[3]، أنه كان يقول: هي البر، ولكن الحبة منها في الجنة، ككلى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل. وأهل التوراة يقولون: هي البر.

وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن يعقوب ابن عتبة[4]، أنه حدث: أنها الشجرة التي تحتك بها الملائكة للخلد[5].

ـ وروى إسحاق بن بشر[6]، عن محمد بن إسحاق: بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل في فيها، حين كلم آدم عليه السلام بعدما أخرج من الجنة، فمنها ذريته[7].

هبوط آدم إلى الأرض

ـ حدثنا[8] ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: وأما أهل التوراة،

(١) تاريخ الطبري ١: ١١١ ـ ١١٢.وقصص الأنبياء للثعلبي ٢٧.

(٢) مجاهد بن جبير، مولى قيس بن السائب، شريك النبي ـ ص ـ توفي سنة ١٠٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ٤٥٤.

(٣) وهب بن منبه الإمام العلامة الأخباري القصصي،أبو عبد الله اليماني الذماري، توفي سنة ١١٤ هـ.سير أعلام النبلاء ٤: ٥٤٤.

(٤) يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي روى عنه محمد بن إسحاق، توفي سنة ١٢٨ هـ. الجرح والتعديل ٩: ٢١١.

(٥) تفسير الطبري ١: ٣٣١ ـ ٣٣٢. وهي شجرة الحياة التي ذُكرت في التوراة. سفر التكوين/ ٣: ٢٢.

(٦) إسحاق بن بشر الهاشمي مولاهم، أبو حذيفة البخاري مصنف كتاب المبتدأ وهو كتاب مشهور في مجلدتين ينقل منه ابن جرير فمن دونه، توفي سنة ٢٣٦ هـ. سير أعلام النبلاء ٩: ٤٧٩.

(٧) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٦.

(٨) عن وهب قال: إن آدم لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحداً غيره قال: يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبح بحمدك ويقدس لك غيري: قال الله: إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتي وأوثره باسمي وأسميه بيتي أنطقه بعظمتي وعليه وضعت جلالي ثم أنا مع ذلك في كل شيء ومع كل شيء أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه فمن حرمه بحرمتي استوجب بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فيه فقد أخفر ذمتي وأباح حرمتي أجعله أول=

فإنهم قالوا: أهبط آدم بالهند على جبل، يقال له واسم[1]، عند واد، يقال له بهيل، بين الدهنج والمندل ـ بلدين بأرض الهند ـ. قالوا: وأهبطت حواء بجدة من أرض مكة[2].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: هبط آدم عليه ـ يعني على الجبل الذي هبط عليه ـ ومعه كساء من كساءات الجنة؛ فبثّه في ذلك الجبل، فمنه كان أصل الطيب كله، وكل فاكهة لا توجد إلا بأرض الهند[3].

النسر والسمكة

روى ابن إسحاق، قال: بينا آدم يمشي منتصباً، ولم يكن مشى، في الأرض، حيوان مثله، جاء النسر إلى البحر، فقال للسمكة: إني رأيت خلقاً يمشي على القدمين، وله يدان يبطش بهما، في يده خمس أصابع. فقالت السمكة: إني أراك تنعت خلقاً، ما أراه يدعك في جوّ السماء، ولا يدعني في قعر البحار[4].

= بيت وضع للناس ببطن مكة مباركاً يأتونه شعثاً غبراً على كل ضامر من كل فج عميق يرجون بالتلبية رجيجاً ويثجون بالبكاء ثجيجاً ويعجون بالتكبير عجيجاً فمن اعتمده ولا يريد غيره فقد وفد إلي وزارني وضافني وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلاً بحاجته تعمره يا آدم ما كنت حياً ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن،ثم أمر آدمﷺ فيما ذكر أن يأتي البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول عرش الله. تاريخ الطبري١: ١٣١ ـ ١٣٢وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٤.

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٨ واسمه الراهون. في تاريخ المسعودي ١: ٤٤.

(٢) تاريخ الطبري ١: ١٢٢.أهبط الله آدم بسرنديب، وحواء بجدة، وإبليس بدست ميسان ـ جنوب العراق ـ والحية بأصبهان. تاريخ المسعودي ١: ٤٤. و التشتيت، في المكان، عقوبة ونقض لحالة الاجتماع التي كانوا عليها في الجنة.وسوف يكون اجتماع آخر، أو تعارف آخر بين آدم وحواء، في الموضع الذي يسمى: عرفة. تاريخ المسعودي ١: ٤٥.

(٣) تاريخ الطبري ١: ١٢٦ وتاريخ المسعودي ١: ٤٤. وقال وهب بن منبه: لما هبط آدمﷺ إلى الأرض، قال إبليس للسباع: إن هذا عدو لكم فأهلكوه. فاجتمعوا وولوا أمرهم إلى الكلب، وقالوا: أنت أشجعنا. وجعلوه رئيساً، فلما رأى ذلك آدمﷺ تحير في ذلك فجاءه جبريلﷺ وقال: له امسح يدك على رأس الكلب. ففعل فلما أن الكلب ألف آدم، تفرقوا وأستأمنه الكلب، فأمنه آدم فبقي معه ومع أولاده. تفسير القرطبي ١: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٤) البدء والتاريخ ٢:٨١.وفي تاريخ اليعقوبي ١: ٥ أن الله تعالى خاطب آدم، بعد أكله من الشجرة: ارجع الى الأرض التي منها خُلقت، فإني مسخر لك ولولدك طير السماء، ونون البحار.

وفاة آدم

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، أنه قال: لما كتب آدم الوصية مات، واجتمعت عليه الملائكة، من أجل أنه كان صفي الرحمن من الملائكة، وشيث وإخوته في مشارق الفردوس[1] عند قرية، هي أول قرية كانت في الأرض، وكسفت عليه الشمس والقمر، سبعة أيام ولياليهن، فلما اجتمعت عليه الملائكة، وجمع الوصية، جعلها في معراج، ومعها القرن الذي أخرج أبانا من الفردوس؛ لكيلا يغفل عن ذكر الله ﷻ.

ـ حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق[2]، عن يحيى بن عباد[3]، عن أبيه، قال: سمعته يقول: بلغني أن آدم عليه السلام حين مات[4]، بعث الله إليه بكفنه وحنوطه من الجنة، ثم وليت الملائكة قبره ودفنه، حتى غيّبوه[5].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان[6]، عن الحسن بن أبي الحسن[7]، عن أبي بن كعب[8] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً[9]، كثير الشعر، موارى العورة، وأنه لما أصاب الخطيئة، بدت له سوءته، فخرج هارباً في الجنة فتلقته شجرة، فأخذت بناصيته، وناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟!.

---

(١) في مغارة الكنز،أو غار الكنز، كهف في جبل أبي قبيس، أو في مسجد الخيف بمنى. تاريخ اليعقوبي ١: ٧ وتاريخ المسعودي ١: ٤٨.

(٢) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ إن آدم غسلته الملائكة بماء وسدر وكفنوه وألحدوا له ودفنوه وقالوا: هذه سنتكم يا بني آدم في موتاكم. المعجم الأوسط للطبراني رقم الحديث ٩٢٥٩.

(٣) علي بن عمرو بن الحارث بن سهل بن أبي هبيرة، واسمه يحيى بن عباد الأنصاري، توفي سنة ٢٦٠ هـ. تهذيب الكمال ٢١: ٧٩.

(٤) روي عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة. تفسير القرطبي ١: ٢٦٤.

(٥) تاريخ الطبري ١: ١٥٩ ـ ١٦٠. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٤١.

(٦) الحسن بن ذكوان أبو سلمة البصري، ضعيف الحديث عند بعض المحدثين. تهذيب الكمال ٦: ١٤٥.

(٧) الحسن البصري، الحسن بن أبي الحسن يسار، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، توفي سنة ١١٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ٥٦٣.

(٨) أبي بن كعب بن قيس، سيد القرّاء، توفي سنة ٢٢ هـ. سير أعلام النبلاء ١: ٣٨٩.

(٩) عن أبي هريرة في صحيح البخاري رقم الحديث ٣١٤٨.

قال: لا. والله يا رب، ولكن حياء منك، مما قد جنيت.

فأهبطه الله إلى الأرض، فلما حضرته الوفاة، بعث الله إليه بحنوطه وكفنه من الجنة، فلما رأت حواء الملائكة، ذهبت لتدخل دونهم إليه، فقال: خلّي عني، وعن رسل ربي؛ فإني ما لقيت ما لقيت إلا منك، ولا أصابني ما أصابني إلا فيك. فلما قُبض غسلوه بالسدر والماء وتراً، وكفنوه في وتر من الثياب، ثم لحدوا له، فدفنوه، ثم قالوا: هذه سنة ولد آدم من بعده)[1].

ـ روى ابن إسحاق أن أهل التوراة، يدرسون فيها أن الله خلق آدم على صورته، لما أراد أن يسلطه على الأرض، وما فيها[2].

ولد آدم

ـ وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن داود بن الحصين[3]، عن عكرمة[4]، عن ابن عباس، قال: كانت حواء تلد لآدم، فتعبدهم الله ﷻ عبد الله، وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها وآدم عليه السلام إبليس، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به، لعاش. فولدت له ذكراً فسمياه عبد الحارث، ففيه أنزل الله ـ عز ذكره ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ...﴾[5].

---

(١) تاريخ الطبري ١: ١٦٠ و البدء والتاريخ ٢: ٩٩.والعظمة رقم الحديث ١٠١٩١٨ وفي الطبقات لابن سعد ١: ٣١ ـ ٣٤.

(٢) البدء والتاريخ ٢: ٨٠ وسفر التكوين/١:٢٧.

(٣) داود بن الحصين الفقيه، أبو سليمان الأموي مولاهم المدني. سير أعلام النبلاء ٦: ١٠٦.

(٤) عكرمة العلامة الحافظ المفسر أبوعبد الله القرشي مولاهم المدني البربري الأصل،توفي سنة ١٠٤ هـ. سير أعلام النبلاء٥: ١٢.

(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٩ ـ ١٩٠ تفسير الطبري ٩: ١٩٥وتاريخه ١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

قابيل وهابيل

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق[1]، عن بعض أهل العلم، من أهل الكتاب الأول: أن آدمعليه السلام كان يغشى حواء في الجنة، قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت له بقين بن آدم وتوأمته، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً، ولم تجد عليهما طلقاً، حين ولدتهما، ولم تر معهما دماً؛ لطهر الجنة، فلما أكلا من الشجرة وأصابا المعصية، وهبطا إلى الأرض تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته[2]، فوجدت عليهما الوحم والوصب، ووجدت حين ولدتهما الطلق والدم.

وكانت حواء ـ فيما يذكرون ـ لا تحمل إلا توأماً، ذكراً وأنثى، فولدت حواء لآدم أربعين ولداً، لصلبه من ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، وكان الرجل منهم، أيَّ أخواته شاء تزوج، إلا توأمته التي تولد معه، فإنها لا تحلّ له؛ وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ، إلا أخواتهم وأمهم حواء.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قيناً أن يُنكح توأمته هابيل، وأمر هابيل أن يُنكح أخته توأمته قيناً، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى ذلك قين وكره تكرماً عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي.

ويقول بعض أهل العلم، من أهل الكتاب الأول: بل كانت أخت قين من أحسن الناس، فضنَّ بها عن أخيه، وأرادها لنفسه، والله أعلم أي ذلك كان. فقال له أبوه: يا بنيَّ، إنها لا تحلّ لك. فأبى قين أن يقبل ذلك من قول أبيه، فقال له أبوه: يا بنيّ، فقرب قرباناً، ويقرب أخوك هابيل قرباناً، فأيكما قبل الله قربانه، فهو أحق بها.

وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قين قمحاً،

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٧ وتفسير ابن كثير ٢: ٤٣.

(٢) في تاريخ اليعقوبي١: ٦ توأمة قايبل لوبذا، وهي في تاريخ الطبري ١: ١٤٥ عن ابن إسحاق:ليوذا، أما توأمة هابيل عند اليعقوبي فهي إقليما، ولم تسمّ عند الطبري. ورواية المسعودي ١: ٤٥ مطابقة لرواية اليعقوبي.

وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه[1]، وبعضهم يقول: قرب بقرة. فأرسل الله ﷻ ناراً بيضاء، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قين، وبذلك كان يقبل القربان، إذا قبله الله ﷻ فلما قبل الله قربان هابيل، وكان في ذلك القضاء له بأخت قين، غضب قين وغلب عليه الكبر، واستحوذ عليه الشيطان، فاتبع أخاه هابيل، وهو في ماشيته فقتله، فهما اللذان قصَّ الله خبرهما في القرآن على محمد ﷺ فقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا...﴾[2]. إلى آخر القصة.

قال: فلما قتله سقط في يديه، ولم يدر كيف يواريه؛ وذلك أنه كان ـ فيما يزعمون أول قتيل من بني آدم ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾[3].

قال: ويزعم أهل التوراة[4] أن قيناً حين قتل أخاه هابيل، قال الله له: أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً. فقال الله له: دم أخيك يناديني من الأرض، الآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها؛ فتلقت دم أخيك من يدك، فإذا أنت عملت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتى تكون فزعاً تائهاً في الأرض. فقال قين: عظمت خطيئتي من أن تغفرها، قد أخرجتني اليوم عن وجه الأرض، وأتوارى من قدامك، وأكون فزعاً تائهاً في الأرض، وكل من لقيني قتلني. فقال الله ﷻ: ليس ذلك كذلك، فلا يكون كل من قتل قتيلاً، يجزى بواحد سبعة، ولكن من قتل قيناً، يجزي سبعة. وجعل الله في قين آية؛ لئلا يقتله كل من وجده، وخرج قين من قدام الله ﷻ من شرقي عدن الجنة.

---

(١) القصة في سفر التكوين ٤: ١ ـ ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢ تاريخ اليعقوبي ١: ٦ وتاريخ المسعودي ١: ٤٦وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٧ ـ ٣٨.وتفسير ابن كثير ٢: ٤٧.ولعل هذه القصة، مع قصة هبوط آدم إلى الأرض، ترمز الى تحول الإنسان من مرحلة جمع طعامه، إلى مرحلة الرعي، ثم إلى مرحلة الزراعة.

(٤) سفر التكوين ٤: ٩ ـ ١٦ والقصة في التيجان لوهب: ٢١ ـ ٢٤.وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٩.

شعر آدم

وذكر أن قابيل لما قتل أخاه هابيل، بكاه آدم عليه السلام، فقال فيما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم[1]، عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال: علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ: لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم، فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح
وجاءت شعلة ولها رنين ... لها بلٌ وقابلها يصيح
وبُدّل أهلها خمطاً وأثلاً ... بجنات من الفردوس فيح
وجاورنا عدوٌّ ليس ينسى ... لعينٌ لا يموت فنستريح
وقتّل قاينٌ هابيل ظلماً ... فوا أسفا على الوجه المليح
فما لي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة عليَّ غمّاً ... وما أنا من حياتي مستريح

قال: فأُجيب آدم عليه السلام:

أبا هابيل قد قُتلا جميعاً ... وصار الحي كالميت الذبيح
وجاء بشرّةٍ قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح[2]

---

(١) غياث بن إبراهيم أبو عبد الرحمن يعد في الكوفيين تركوه. التاريخ الكبير ٧: ١٠٩.

(٢) البيتان الأولان من القصيدتين في تاريخ الطبري١: ١٤٥ وتفسير القرطبي٦: ١٤٠ وتفسير ابن كثير٢: ٤٧ وبقية الأبيات من تاريخ المسعودي١: ٤٦. وقد ورد الشعر بألفاظ أخرى في التيجان لوهب: ٢٤.ولم ينسب الطبري هذا الشعر الى ابن إسحاق، على الرغم من وجود سلمة بن الفضل في سلسلة الرواة، وهو الذي روى كتاب ابن إسحاق وحفظه،وقد أثبتنا هذا الشعر بناء على ما اشتُهر بين العلماء، من رواية ابن إسحاق له.طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١: ٨.

وفي قصص الأنبياء للثعلبي: ٤٠ تتمة من قول حواء:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً ... بموت ليس بالثمن الربيح
وما يغني البكاء عن البواكي ... إذا ما المرء غُيب في الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها ... فلست مخلداً بعد الذبيح

فأجابهما إبليس ـ لعنه الله ـ شامتاً بهما:

تنحَّ عن البلاد وساكنيها ... ففي الجنات ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء ... وقلبك من أذى الدنيا مريح =

- وأما ابن إسحاق فذكر أن جميع ما ولدته حواء لآدم لصلبه، أربعون من ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، وقال: قد بلغنا أسماء بعضهم، ولم يبلغنا أسماء بعض.

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: فكان من بلغنا اسمه خمسة عشر رجلاً، وأربع نسوة، منهم قين وتوأمته، وهابيل وليوذا، وأشوث بنت آدم وتوأمها، وشيث وتوأمته، وحزورة وتوأمها، على ثلاثين ومائة سنة من عمره، ثم أباد بن آدم وتوأمته، ثم بالغ بن آدم وتوأمته، ثم أثاثي بن آدم وتوأمته، ثم توبة بن آدم وتوأمته، ثم بنان بن آدم وتوأمته، ثم شبوبة بن آدم وتوأمته، ثم حيان بن آدم وتوأمته، ثم ضرابيس بن آدم وتوأمته، ثم هدز بن آدم وتوأمته، ثم يحود بن آدم وتوأمته، ثم سندل بن آدم وتوأمته، ثم بارق بن آدم وتوأمته، كل رجل منهم تولد معه امرأة في بطنه الذي يحمل به فيه[1].

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: إن قيناً نكح أخته بنت آدم، فولدت له رجلاً وامرأة: خنوخ بن قين، وعذب بنت قين، فنكح خنوخ بن قين أخته عذب بنت قين، فولدت له ثلاثة نفر وامرأة: عيرد بن خنوخ، ومحويل بن خنوخ، وأنوشيل بن خنوخ، ومويليت بنت خنوخ.

فنكح أنوشيل بن خنوخ مويليت ابنة خنوخ، فولدت لأنوشيل رجلاً، اسمه لامك، فنكح لامك امرأتين: اسم إحداهما عدّى، واسم الأخرى صلّي، فولدت له عدّى تولين ابن لامك، فكان أول من سكن القباب واقتنى المال، وكان أول من ضرب بالونج والصنج، وولدت رجلاً، اسمه توبل قين[2]، فكان أول من عمل النحاس والحديد، وكان

= فـمـا زالـت مـكـايـدتـي ومـكـري ... إلـى أن فـاتـك الـثـمـن الـربـيـح

فـلـولا رحـمـة الـجـبـار أضـحـى ... بـكـفـك مـن جـنـان الـخـلـد ريـح

ومع تسليمنا بركاكة الأبيات، وبوجود عيوب عروضية كثيرة فيها، إلا أن تداخل الشعر مع السرد القصصي في هذا النص، وفي نصوص سردية أخرى، يشير إلى ظاهرة جديرة بالبحث.

(1) تاريخ الطبري ١: ١٣٩ - ١٤٦. وفي التيجان لوهب: ٢٣ وردت أسماء شيث وهابيل وقابيل وحبيب وعبد الصمد وعبد الرحمن وصالح وعبد الله وعبد الجبار. ولا شك أنها مصنوعة بحسب الذائقة الإسلامية.

(2) توبال قينن ومعناه ضرب مطرقة الحداد، كان حداداً ضارباً كل آلة من نحاس أو حديد. قاموس الكتاب المقدس: ٢٢٤.

أولادهم جبابرة وفراعنة، وكانوا قد أعطوا بسطة في الخلق؛ كان الرجل - فيما يزعمون - يكون ثلاثين ذراعاً.

قال: ثم انقرض ولد قين، ولم يتركوا عقباً، إلا قليلاً، وذرية آدم كلهم، جهلت أنسابهم وانقطع نسلهم، إلا ما كان من شيث بن آدم[1]، فمنه كان النسل وأنساب الناس اليوم كلهم إليه، دون أبيه آدم فهو أبو البشر، إلا ما كان من أبيه وإخوته ممن لم يترك عقباً.

قال: ويقول أهل التوراة[2]: بل نكح قين أشوث، فولدت له خنوخ، فولد لخنوخ عيرد، فولد عيرد محويل، فولد محويل أنوشيل، فولد أنوشيل لامك، فنكح لامك عدَّى وصلّى، فولدتا له من سميثُ[3].

---

(١) تاريخ المسعودي١: ٤٩.

(٢) لا يوجد هذا النسب في التوراة الحالية.

(٣) تفسير الطبري ٧: ٢٦٤ - ٢٥٦ - ٢٧٠ وتاريخه ١: ١٦٦.

من شيث إلى نوح

شيث

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: لما حضرت آدم الوفاة ـ فيما يذكرون والله أعلم ـ دعا ابنه شيثاً[1]، فعهد إليه عهده، وعلمه ساعات الليل والنهار، وأعلمه عبادة الخلق في كل ساعة منهن، فأخبره أن لكل ساعة صنفاً من الخلق فيها عبادته.

[فقال: الساعة الأولى حين يسجد بنو آدم من الضحى، والساعة الثانية صلاة الملائكة، والساعة الثالثة صلاة الطير، والساعة الرابعة صلاة الهوام، والساعة الخامسة صلاة الحيوان، والساعة السادسة صلاة الملائكة المقربين، فذلك حين يستغفرون لبني آدم، والساعة السابعة حين تلج الملائكة، ويلجون في الصلاة كلها بأسمائه، والساعة الثامنة صلاة السماوات والأرضين، والساعة التاسعة صلاة الذين حول العرش، والساعة العاشرة حين تنزل الريح على الماء، وتفر الجن من حول الماء، ولولا ذلك لأفسدت الشياطين على بني آدم الماء، والساعة الحادية عشرة حين تعرج أرواح النبيين والصديقين إلى الله تعالى، والساعة الثانية عشرة حين تغرب الشمس، فتلك ساعات النهار وهي اثنتا عشرة ساعة، والساعة الأولى من الليل صلاة الجن، وذلك حين يصلون فلا يضارون أحداً من بني آدم؛ حتى يقضوا صلاتهم، والساعة الثانية صلاة كل دابة في البحر، والساعة الثالثة صلاة من تحت الأرض من الخلق، والساعة الرابعة صلاة الصابرين، والساعة الخامسة

(١) عن ابن عباس: ثم حملت حواء فولدت شيثاً وأخته عزورا فسمي هبة الله اشتق له من اسم هابيل فقال لها جبريل حين ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل وهو بالعربية شث وبالسريانية شاث وبالعبرانية شيث وإليه أوصى آدم صلوات الله عليه وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة. طبقات ابن سعد ١: ٣٧ وهو اسم عبري معناه معين أو بديل. قاموس الكتاب المقدس: ٥٣١.

صلاة الذين فوق السماء من الخلق، والساعة السادسة صلاة الغمام، والساعة السابعة حين تهدأ العين وينقل الخلق كلهم، والساعة الثامنة صلاة السحر، والساعة التاسعة صلاة الملائكة الذين هم في السماء، والساعة العاشرة حين تفتح أبواب السماء، فتنفض الملائكة بأجنحتها، ويصيح الدجاج في الأرض، وحينئذ من سأل الرحمن شيئاً آتاه إياه، والساعة الحادية عشرة حين يخرج ما في الأرض من أهلها، والساعة الثانية عشرة عند صلاة الصبح للرحمن تبارك وتعالى][1].

وقال له: يا بني، إن الطوفان سيكون في الأرض، يلبث فيها سبع سنين، وكتب وصيته. فكان شيث ـ فيما ذكر ـ وصي أبيه آدم ـ عليه السلام ـ وصارت الرياسة، من بعد وفاة آدم، لشيث، فأنزل الله عليه، فيما روي عن رسول الله[2] ﷺ، خمسين صحيفة[3].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق قال: نكح شيث ابن آدم أخته حزورة ابنة آدم، فولدت له يانش[4] بن شيث، ونعمة ابنة شيث، وشيث يومئذ ابن مائة سنة وخمس سنين، فعاش بعد ما ولد له يانش، ثمانمائة سنة وسبع سنين.

أنوش بن شيث

وقام أنوش بعد مضي أبيه شيث، لسبيله بسياسة الملك، وتدبير مَن تحت يديه، من رعيته مقام أبيه شيث، ولم يزل ـ فيما ذكر ـ على منهاج أبيه، لا يوقف منه على تغيير ولا تبديل، وكان جميع عمر أنوش فيما ذكر أهل التوراة[5] تسعمائة سنة وخمس سنين[6].

---

(١) الزيادة من العظمة رقم الحديث ١١٧٥١. وهو ينقل عن جعفر بن أحمد بن فارس عن سلمة....

(٢) عن أبي ذر: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله ؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسون صحيفة، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن. صحيح ابن حبان ٢: ٧٧.

(٣) تاريخ الطبري ١: ١٥٢.

(٤) هو أنوش الذي سيذكره الطبري فيما بعد، وهو في تاريخ اليعقوبي١: ٨ وفي سفر التكوين/ ٥: ٦. ٨.

(٥) سفر التكوين ٥: ١١ وفي تاريخ اليعقوبي١: ٩ تسعمائة وخمساً وستين سنة.

(٦) تاريخ الطبري١: ١٦٣ وفي زمن أنوش قُتل قاين(قابيل). تاريخ المسعودي١: ٤٩.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق: نكح يانش بن شيث[1] أخته نعمة ابنة شيث، فولدت له قينان، وهو، يومئذ، ابن تسعين سنة، فعاش يانش بعد ما ولد له قينان ثمانمائة سنة وخمس عشرة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش يانش تسعمائة سنة وخمس سنين.

قينان بن أنوش

ثم نكح قينان بن يانش، وهو ابن سبعين سنة، دينة ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، فولدت له مهلائيل بن قينان، فعاش قينان بعدما ولد له مهلائيل، ثمانمائة سنة وأربعين سنة، فكان كل ما عاش قينان تسعمائة سنة وعشر سنين[2].

مهلائيل بن قينان

وأما التوراة ـ فيما ذكره أهل الكتاب ـ أنه فيها أن مولد مهلائيل بعد أن مضت من عمر آدم ثلاثمائة سنة وخمس وتسعون سنة، ومن عمر قينان سبعون سنة[3].

يرد بن مهلائيل

ونكح مهلائيل بن قينان، وهو ابن خمس وستين سنة[4] ـ فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق ـ خالته سمعن ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، فولدت له يرد بن مهلائيل، فعاش مهلائيل بعد ما ولد له يرد، ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، فولد له بنون وبنات فكان كل ما عاش مهلائيل ثمانمائة سنة وخمساً وتسعين سنة ثم مات[5]. وأما في التوراة، فإنه ذكر أن فيها أن يرد[6]، ولد بعدما مضى

(١) عن ابن عباس:وولد شيث بن آدم أنوش ونفراً كثيراً وإليه أوصى شيث فولد أنوش قينان ونفراً كثيراً وإليه الوصية فولد قينان مهاليل ونفراً معه وإليه الوصية فولد مهاليل يرذ وهو البارذ ونفراً معه وإليه الوصية وفي زمانه عملت الأصنام ورجع من رجع عن الإسلام فولد يرذ خنوخ وهو إدريس النبي ﷺ ونفراً معه. طبقات ابن سعد ١: ٣٨.

(٢) سفر التكوين٥: ١٤ وفي تاريخ اليعقوبي١: ٩ وتاريخ المسعودي١: ٤٩. تسعمائة وعشرين سنة.

(٣) سفر التكوين٥: ١٢ وفي تاريخ اليعقوبي١: ١٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي١: ١٠ وسفر التكوين٥: ١٥.

(٥) تاريخ اليعقوبي١: ١٠ وسفر التكوين٥: ١٧.

(٦) لود. في تاريخ المسعودي١: ٥٠وفي سفر التكوين/٥: ١٨ يارد.

من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة، وأنه كان على منهاج أبيه قينان، غير أن الأحداث بدت في زمانه[١].

ونرجع الآن إلى ذكر يرد، وبعضهم يقول: هو يارد، فولد يرد لمهلائيل من خالته سمعن ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين، بعد ما مضى من عمر آدم أربعمائة وستون سنة، فكان وصي أبيه وخليفته، فيما كان والد مهلائيل أوصى إلى مهلائيل، واستخلفه عليه بعد وفاته، وكانت ولادة أمه إياه بعد ما مضى من عمر أبيه مهلائيل - فيما ذكروا - خمس وستون سنة، فقام من بعد مهلك أبيه من وصية أجداده وآبائه بما كانوا يقومون به أيام حياتهم.

ثم نكح يرد - فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، وهو ابن مائة سنة واثنتين وستين سنة[٢] - بركنا ابنة بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم فولدت له أخنوخ بن يرد وأخنوخ إدريس النبي وكان أول بني آدم أعطي النبوة - فيما زعم ابن إسحاق - وخط بالقلم، فعاش يرد بعد ما ولد له أخنوخ ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش يرد تسعمائة سنة واثنتين وستين سنة ثم مات[٣].

أخنوخ بن يرد

قال محمد بن إسحاق بن يسار: كان إدريس[٤] أول بني آدم أعطي النبوة، وهو

---

(١) تاريخ الطبري ١: ١٦٣.

(٢) سفر التكوين ٥: ١٨

(٣) تاريخ الطبري ١: ١٦٩ - ١٧٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي١: ١١. قال وهب بن منبه: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة، مثل ما يرفع لأهل الأرض في زمانه، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه في زيارته فأذن له، فأتاه في صورة آدمي. وكان إدريس - عليه السلام - يصوم النهار، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل، ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس، وقال له: من أنت؟. قال: أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك فأذن لي.فقال: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟. قال: أن تقبض روحي.فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه. فقبضه ورده إليه بعد ساعة، وقال له ملك الموت: ما الفائدة في قبض روحك؟. قال: لأذوق كرب الموت، فأكون له أشد استعداداً.ثم قال له إدريس بعد ساعة: إن لي إليك حاجة أخرى. قال: وماهي؟. قال: أن ترفعني إلى السماء؛ فأنظر إلى الجنة والنار. فأذن الله تعالى له في رفعه إلى السماوات، فرأى النار فصعق، فلما أفاق قال: أرني الجنة. فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت: اخرج لتعود إلى =

أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن ناشر بن شيث بن آدم[1].

ثم نكح - فيما حدثنا به ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق - أخنوخ ابن يرد[2] هدانة، ويقال: أدانة، ابنة باويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، وهو ابن خمس وستين سنة، فولدت له متوشلخ بن أخنوخ، فعاش بعدما ولد له متوشلخ ثلاثمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش أخنوخ ثلاثمائة سنة وخمساً وستين سنة، ثم مات[3].

متوشلخ بن أخنوخ

- وكان عمر أخنوخ إلى أن رُفع ثلاثمائة سنة وخمساً وستين سنة[4]، وولد له متوشلخ بعد ما مضى من عمره خمس وستون سنة، ثم نكح، فيما حدثني ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، متوشلخ بن أخنوخ عربا ابنة عزرائيل بن أنوشيل بن خنوخ بن قين بن آدم، وهو ابن مائة سنة وسبع وثلاثين سنة[5]، فولدت له لمك بن متوشلخ، فعاش بعد ما ولد له لمك سبعمائة سنة، فولد له بنون وبنات، وكان كل ما

= مستفرك. فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها. فبعث الله تعالى بينهما ملكاً حكماً، فقال: ما لك لا تخرج؟. قال: لأن الله تعالى قال ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت ٥٧]. وأنا ذقته. وقال ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم ٧١]. وقد وردتها. وقال ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر ٤٨]. فكيف أخرج؟!. قال الله - تبارك وتعالى - لملك الموت: بإذني دخل الجنة، وبأمري يخرج. فهو حي هنالك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم ٥٧]. قال وهب بن منبه: فإدريس تارة يرتع في الجنة، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء. قصص الأنبياء للثعلبي: ٤٣ و تفسير القرطبي ١١: ١١٩.

(١) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠١٤.

(٢) عن ابن عباس قال: أول نبي بعث في الأرض بعد آدم إدريس وهو خنوخ بن يرد وهو إليارذ وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في الشهر فحسده إبليس وعصاه قومه فرفعه الله إليه مكاناً علياً كما قال وأدخله الجنة وقال: لست بمخرجه منها وهذا في حديث فولد خنوخ متوشلخ ونفراً معه وإليه الوصية فولد متوشلخ لمك ونفراً معه واليه الوصية فولد لمك نوحاً. طبقات ابن سعد لابن سعد١: ٤٠.

(٣) تاريخ الطبري ١: ١٧٢.و سفر التكوين ٥: ٢١ - ٢٤.ولم يذكر الطبري عبارة التوراة (... ولم يوجد لأن الله أخذه) في حين ذكرها اليعقوبي في تاريخه ١: ١١.

(٤) سفر التكوين/ ٥: ٢٢ - ٢٣.

(٥) سفر التكوين ٥: ٢٥ وفي تاريخ اليعقوبي ١: ١٢ مائة وسبع وثمانون.

عاش متوشلخ تسعمائة سنة وتسع عشرة سنة[١] ثم مات.

لمك بن متوشلخ

ونكح لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، بتنوس ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم عليه السلام، وهو ابن مائة سنة وسبع وثمانين سنة، فولدت له نوحاً النبي ﷺ، فعاش لمك بعدما ولد له نوح، خمسمائة سنة وخمساً وتسعين سنة، وولد له بنون وبنات، فكان كل ما عاش لمك سبعمائة سنة وثمانين سنة[٢]، ثم مات.

ونكح نوح بن لمك عمذرة ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ[٣] بن قين بن آدم، وهو ابن خمسمائة سنة، فولدت له بنيه: سام وحام ويافث بني نوح[٤].

---

(١) كانت كل أيام متوشالح تسعمائة وتسعاً وستين سنة. سفر التكوين/٥: ٢٧.

(٢) في سفر التكوين ٥: ٣١ وفي تاريخ اليعقوبي١: ١٣ كانت حياة لمك سبعمائة وسبعاً وسبعين سنة.

(٣) في تاريخ اليعقوبي١: ١٣ أوحى الله إليه أن ينكح هيكل بنت ناموسا بن أخنوخ.

(٤) تاريخ الطبري ١: ١٧٣. والأسماء من شيث الى نهاية الفصل في التيجان لوهب: ٢٦ ـ ٣٠ بألفاظ مختلفة. وقال وهب: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلاً من الموت. تفسير القرطبي ١٣: ٢٣٣.

نوح

قوم نوح

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم عن عبيد ابن عمير الليثي[١]، أنه كان يحدث: أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به ـ يعني قوم نوح بنوح ـ فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم، اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

قال ابن إسحاق: حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن، إلا كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا، ومع أجدادنا هكذا مجنوناً. لا يقبلون منه شيئاً، حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله ﷻ فقال كما قصَّ الله ﷻ علينا في كتابه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ حتى قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[٢] إلى آخر القصة[٣].

بناء السفينة

فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله ﷻ، واستنصره عليهم، أوحى الله إليه: ﴿وَٱصْنَعِ

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكي الواعظ المفسر توفي سنة ٧٤ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ١٥٦.

(٢) سورة نوح، الآيتان ٥ ـ ٦.

(٣) حدثنا محمد بن جعفر الصادق عن أبيه عن جده عن علي ﷺ قال: ثم جمع ربنا ﷻ لنوح علم الماضين كلهم وأيده بروح منه فدعا قومه سراً وعلانية تسع مائة وخمسين سنة، كلما مضى قرن اتبعه قرن فزادهم كفراً وطغياناً. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠١١.

ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1]. فأقبل نوح على عمل الفلك؛ ولهاً عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره، مما لا يصلحه إلا هو، وجعل قومه يمرون به، وهو في ذلك من عمله، فيسخرون منه ويستهزئون به، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[2].

قال: ويقولون ـ فيما بلغني ـ: يا نوح، قد صرت نجاراً بعد النبوة[3].

قال: وأعقم الله أرحام النساء، فلا يولد لهم.

قال: ويزعم أهل التوراة أن الله ﷻ أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً[4]، وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلاً ووسطاً وعلواً، وأن يجعل فيه كوىً.

الطوفان

ففعل نوح كما أمره ﷺ حتى إذا فرغ منه، وقد عهد الله إليه: ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5]. وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، فاسلك ﴿فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ واركب.

فلما فار التنور، حمل نوح في الفلك مَن أمره الله تعالى به، وكانوا قليلاً، كما قال، وحمل فيها من كل زوجين اثنين، مما فيه الروح والشجر، ذكراً وأنثى، فحمل فيه

(١) سورة هود، الآية: ٣٧.
(٢) سورة هود، الآيتان: ٣٨ ـ ٣٩. القصة في قصص الأنبياء للثعلبي: ٤٨.
(٣) القصة في التيجان لوهب: ٣١.
(٤) في تاريخ اليعقوبي ١: ١٤ ثلاثمائة ذراع بذراع نوح، والقصة في سفر التكوين/ ٦: ١٤ وما بعدها.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٠.

بنيه الثلاثة سام وحام ويافث، ونساءهم، وستة أناس ممن كان آمن به، فكانوا عشرة نفر، نوح وبنوه وأزواجهم، ثم أدخل ما أمره الله به من الدواب، وتخلف عنه ابنه يام[1] وكان كافراً.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار[2]، عن علي بن زيد[3]، عن يوسف بن مهران[4]، عن ابن عباس، قال سمعته يقول: كان أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الذرة، وآخر ما حمل الحمار، فلما أدخل الحمار ودخل صدره، تعلق إبليس ـ لعنه الله ـ بذنبه فلم تستقل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك، ادخل. فينهض فلا يستطيع، حتى قال نوح: ويحك، ادخل، وإن كان الشيطان معك. قال: كلمة زلت عن لسانه، فلما قالها نوح خلّى الشيطان سبيله، فدخل ودخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك عليَّ يا عدو الله ؟. قال: ألم تقل: ادخل وإن كان الشيطان معك؟. قال: اخرج عني يا عدو الله. فقال: ما لك بد من أن تحملني. فكان ـ فيما يزعمون ـ في ظهر الفلك[5].

فلما اطمأن نوح في الفلك، وأدخل فيه كل من آمن به، وكان ذلك في الشهر من السنة التي دخل فيها نوح، بعد ستمائة سنة من عمره[6]، لسبع عشرة ليلة مضت من الشهر، فلما دخل وحمل معه من حمل، تحرك ينابيع الغوط الأكبر، وفتحت أبواب السماء، كما قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[7]. فدخل نوح ومن معه الفلك، وغطاه عليه وعلى

---

(١) تاريخ المسعودي١: ٥٢.

(٢) الحسن بن دينار بن واصل أبو سعيد التميمي مولاهم، روى عن الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وروى عنه خلق. التاريخ الكبير ٢: ٢٩٢.

(٣) أبو الحسن علي بن زيد بن جدعان الأعمى، سمع أنساً وأبا عثمان وابن المسيب، روى عنه الثوري. الكنى والأسماء. ١: ٢١٤.

(٤) يوسف بن مهران البصري روى عن ابن عباس،وروى عنه علي بن زيد بن جدعان. تهذيب الكمال ٣٢: ٤٦٣.

(٥) قصص الأنبياء للثعلبي: ٤٩.

(٦) سفر التكوين/٧: ٦.

(٧) سورة القمر، الآيتان: ١١ و١٢.

من معه بطبقة، فكان بين أن أرسل الله الماء، وبين أن احتمل الماء الفلك، أربعون يوماً وأربعون ليلة[١].

ثم احتمل الماء - كما يزعم أهل التوراة - وكثر واشتد وارتفع، يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[٢]. والدسر المسامير، مسامير الحديد، فجعلت الفلك تجري به وبمن معه في ﴿مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾[٣] الذي هلك فيمن هلك، ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ حين رأى نوح من صدق موعود ربه ما رأى، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وكان شقياً، قد أضمر كفراً، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وكان عهد الجبال، وهي حرز من الأمطار إذا كانت، فظن أن ذلك كما كان يكون، ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٤]. وكثر الماء وطغى. وارتفع فوق الجبال - كما يزعم أهل التوراة خمسة عشر ذراعاً[٥] - فباد ما على وجه الأرض من الخلق، من كل شيء فيه الروح أو شجر، فلم يبق شيء من الخلائق، إلا نوح ومن معه في الفلك، وإلا عوج بن عنق - فيما يزعم أهل الكتاب - فكان بين أن أرسل الله الطوفان، وبين أن غاض الماء ستة أشهر وعشر ليال[٦].

- عن ابن إسحاق: أقام نوح على الماء نحو السنة[٧]، ومرت السفينة بالبيت، فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغرق فلم ينله غرق[٨]، ثم مضت إلى اليمن، ورجعت إلى الجودي[٩] فاستوت عليه[١٠].

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٠.
(٢) سورة القمر، الآيتان: ١٣ - ١٤.
(٣) واسمه يام، ويقال: كنعان. البدء والتاريخ ٣: ١٦ - ١٧.
(٤) سورة هود، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.
(٥) سفر التكوين ٧: ٢٠.
(٦) في تاريخ اليعقوبي ١: ١٥ كان بين دخوله السفينة وخروجه سنة كاملة وعشرة أيام.
(٧) أربعين عاماً أو أربعين يوماً. التيجان لوهب: ٣٢.
(٨) تاريخ اليعقوبي١: ١٤ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٥٠.
(٩) جبل ببلاد باسوري، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ. تاريخ المسعودي١: ٥١.
(١٠) تفسير القرطبي ٩: ٣٦.

ـ قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان، أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك ـ فيما يزعم أهل التوراة ـ في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً، فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء، فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة، فرجعت إليه ولم يجد لرجلها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء، فلم ترجع فرجعت حين أمست، وفي فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها، فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت. فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان، إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين، برز وجه الأرض وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك.

قال ابن إسحاق: وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾[١]. وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التي معك، ولينموا وليكبروا في الأرض. فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله ﷻ وأخذ من جميع الدواب الحلال، والطير الحلال، فذبحها قرباناً إلى الله ﷻ وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قزح[٢].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: حمل بنيه الثلاثة سام وحام ويافث ونساءهم، وستة أناس ممن كان آمن به، فكانوا عشرة نفر بنوح وبنيه وأزواجهم، وأرسل الله ـ تبارك وتعالى ـ الطوفان لمضي ستمائة سنة من عمر نوح ـ فيما ذكره أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم ـ ولتتمة ألفي سنة ومائتي سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم إلى الأرض.

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٢) البداية والنهاية ١: ١١٧.

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: وعمر نوح - فيما يزعم أهل التوراة - بعد أن أهبط من الفلك، ثلاثمائة سنة وثمانٍ وأربعون سنة[١]، قال: فكان جميع عمر نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم قبضه الله ﷻ إليه[٢].

أولاد يافث بن نوح

- وقيل: كانت زوجة يافث أربسيسة بنت مرازيل بن الدرمسيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم - عليه السلام - فولدت له سبعة نفر وامرأة، فممن ولدت له من الذكور جومر بن يافث، وهو - فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق - أبو يأجوج ومأجوج، ومارح بن يافث ووائل بن يافث، وحوّان بن يافث، وتوبيل بن يافث، وهوشل بن يافث وترس بن يافث وشبكة بنت يافث. قال: فمن بني يافث كانت يأجوج ومأجوج والصقالبة والترك - فيما يزعمون -.

أولاد حام

وكانت امرأة حام بن نوح نحلب بنت مارب بن الدرمسيل بن محويل بن خنوخ ابن قين بن آدم، فولدت له ثلاثة نفر: كوش بن حام بن نوح، وقوط بن حام بن نوح، وكنعان بن حام. فنكح كوش بن حام بن نوح قرنبيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث، فولدت له الحبشة والسند والهند، فيما يزعمون.

ونكح قوط بن حام بن نوح بخت ابنة بتاويل بن ترس بن يافث بن نوح، فولدت له القبط، قبط مصر، فيما يزعمون.

ونكح كنعان بن حام بن نوح أرتيل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث بن نوح، فولدت له الأساود: نوبة وفزّان والزنج والزغاوة وأجناس السودان كلها.

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق في الحديث قال: ويزعم

(١) في سفر التكوين ٩: ٢٨ ثلاثمائة وخمسين سنة.

(٢) تاريخ الطبري ١: ١٨٢ - ١٨٥. ١٩١ وفي تفسيره ٨: ٢٧٩. ١٢: ٤٧ - ٥٠. ٥٦ وفي تاريخ المسعودي١: ٥٢.

أهل التوراة[1] أن ذلك لم يكن إلا دعوة دعاها نوح على ابنه حام، وذلك أن نوحاً، نام فانكشف عن عورته، فرآها حام فلم يغطها، ورآها سام ويافث فألقيا عليها ثوباً، فغطى عورته، فلما هب من نومته، علم ما صنع حام وسام ويافث، فقال: ملعون كنعان بن حام، عبيداً يكونون إخوته. وقال: يبارك الله ربي في سام، ويكون حام عبد أخويه، ويقرض الله يافث، ويحل في مساكن حام، ويكون كنعان عبداً لهم.

أولاد سام

قال: وكانت امرأة سام بن نوح صليب ابنة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم، فولدت له نفراً: أرفخشد بن سام، وأشوذ بن سام، ولاوذ بن سام، وعويلم بن سام، وكان لسام إرم بن سام[2]. قال: ولا أدري إرم لأم أرفخشد وإخوته، أم لا؟[3].

ـ ونكح لاوذ بن سام بن نوح شبكة ابنة يافث بن نوح، فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس، وولد للاوذ مع الفرس طسم وعمليق، ولا أدري أهو لأم الفرس، أم لا. فعمليق أبو العماليق، كلهم أمم تفرقت في البلاد.

وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم: الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم، وكان ساكنو المدينة منهم: بنو هف وسعد بن هزان وبنو مطر وبنو الأزرق، وأهل نجد منهم: بديل وراحل وغفار، وأهل تيماء منهم، وكان ملك الحجاز منهم بتيماء اسمه الأرقم، وكانوا ساكني نجد مع ذلك، وكان ساكنو الطائف، بنو عبد بن ضخم، حياً من عبس الأول.

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ١٥ وتاريخ المسعودي١: ٥٢ وسفر التكوين ٩: ٢٠ ـ ٢٧.وعن ابن مسعود أنه ذكر أن نوحاً اغتسل فرأى ابنه ينظر إليه، فقال: تنظر إلي، وأنا أغتسل؟! خار الله لونك. قال: فاسود فهو أبو السودان. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٠٨.

(٢) تاريخ المسعودي١: ٥٢.

(٣) تاريخ الطبري ١: ٢٠١ ـ ٢٠٣. تاريخ اليعقوبي ١: ١٥ ـ ١٦ وسفر التكوين ١٠: ١ ـ ٣١ بألفاظ متقاربة.والبدء والتاريخ ٣: ٢٦ ـ ٢٧.

قال: وكان بنو أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، أهل وبار[١] بأرض الرمل - رمل عالج[٢] - وكانوا قد كثروا بها وربلوا، فأصابتهم من الله ﷻ نقمة من معصية أصابوها، فهلكوا وبقيت منهم بقية، وهم الذين يقال لهم: النسناس.

قال: وكان طسم بن لاوذ، ساكن اليمامة وما حولها، قد كثروا بها وربلوا إلى البحرين، فكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوماً عرباً، لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي، وكانت فارس من أهل المشرق ببلاد فارس، يتكلمون بهذا اللسان الفارسي.

قال: وولد إرم بن سام بن نوح، عوص بن إرم، وغاثر[٣] بن إرم، وحويل بن إرم، فولد عوص بن إرم غاثر بن عوص، وعاد بن عوص، وعبيل بن عوص. وولد غاثر بن إرم ثمود بن غاثر، وجديس بن غاثر، وكانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا اللسان المضري، فكانت العرب تقول لهذه الأمم: العرب العاربة؛ لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه، ويقولون لبني إسماعيل بن إبراهيم: العرب المتعربة؛ لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم، حين سكنوا بين أظهرهم. فعاد وثمود والعماليق وأميم وجاسم وجديس وطسم هم العرب، فكانت عاد بهذه الرمل إلى حضرموت واليمن كله، وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، ولحقت جديس بطسم، فكانوا معهم باليمامة وما حولها إلى البحرين، واسم اليمامة، إذ ذاك جو، وسكنت جاسم عمان فكانوا بها[٤].

---

(١) تاريخ المسعودي١: ٥٣.

(٢) رملة بالبادية بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، لا ماء بها ولا يقدر أحد عليهم فيه وهو مسيرة أربع ليال وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت معجم البلدان ٤: ٧٠.

(٣) عابر.

(٤) تاريخ الطبري ١: ٢٠٣ - ٢٠٤. وفي تاريخ المسعودي ١: ١٠٩ وما بعدها، تفصيل وزيادة وإشارة في ١: ١١٣ الى أن مصدر هذه القصص عبيد بن شرية الجرهمي.

عاد

نسب عاد ومكانهم

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ﴾[1]. يقول الله: بعاد إرم، وهو عاد بن إرم بن عوص[2] بن سام بن نوح[3].

ـ حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كانت منازل عاد وجماعتهم، حيث بعث الله إليهم هوداً[4]، الأحقاف، الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت، فاليمن كله، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها قهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله[5].

---

(١) سورة الفجر، الآيتان ٦ ـ ٧.

(٢) هو عاد بن عوص بن إرم بن سام، كما في تاريخ اليعقوبي ا: ٢٢ وتاريخ المسعودي١: ٥٢ والمواضع الآتية من تفسير الطبري.

(٣) تفسير الطبري ٣٠: ٢٢٠.

(٤) سئل وهب بن منبه عن هود أكان أبو اليمن الذي ولد لهم؟ فقال وهب: لا. ولكنه أخو اليمن، وفي التوراة ينسب إلى نوح. فلما كانت العصبية بين العرب، وفخرت مضر بأبيها إسماعيل، ادعت اليمن هوداً أباً؛ لتكون ولداً من الأنبياء، ومولده فيهم وليس بأبيهم، ولكنه أخوهم، وإنما بعث إلى عاد. وكان وهب لا يسمي عاداً قد حالهم ولا ينسب قبائلهم ولا بأمر أشعارهم ولم يكن في الأرض أمة كانوا أكثر منهم عدداً ولا أعظم منهم أجساماً ولا أشد منهم بطشاً، فلما رأوا الريح قد أقبلت عليهم، قالوا لهود: تخوفنا بالريح؟!. فجمعوا ذراريهم وأموالهم ودوابهم في شعب، ثم قاموا على باب ذلك الشعب، يردون الريح عن أموالهم وأهليهم، فدخلت الريح من تحت أرجلهم بينهم وبين الأرض، حتى قلعتهم. قال وهب: ولما بعث الله إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الحارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، كان كل رمل وضعه الله بشيء من البلاد، كان مساكن عاد في رمالها وكانت بلاد عاد أخصب بلاد العرب وأكثر ريفاً وأنهاراً وجناناً فلما غضب الله عليهم وعتوا عن الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله أرسل الله عليهم الريح العقيم. مستدرك الحاكم رقم الحديث٤٠٦٣.

(٥) تفسير الطبري ٨: ٢٨١. ٢٦: ٣٠.

ـ قال ابن إسحاق: وعاد هو ابن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، بعثه الله إلى عاد نبياً، وكان من أوسطهم نسباً، وأفضلهم حسباً[١]. وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى؛ لأن بني لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن صد بن عاد، كانوا أيام أرسل الله عذابه، سكاناً بمكة، مع إخوانهم من العمالقة، ولد عمليق بن لاوذ ابن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم؛ فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة ثم هلكوا بعد، وكان هلاك عاد الآخرة ببغي بعضهم على بعض، فتفانوا بالقتل ـ فيما حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحاق فيما ذكرنا ـ قيل: الذي أهلك الله ذريته بالريح عاد الأولى؛ لأنها أهلكت قبل عاد الآخرة[٢].

عاد الآخرة

ـ ذكر ابن اسحق عن أثر عاد الأولى وعاد الأخرى، ولم يحك كلامهم، وإنما ذكر حرباً كانت بينهم ثم اصطلحوا، قال: وكان من حديثهم، أن سالم بن هذيمة من بني هذيمة بن لقيم سبَّ لقمان بن عاد، أحد بني عمرو بن لقيم، وهاج الشر بينهم، ثم حكموا بينهما درماً الطسمي، فأصلح بينهم[٣].

مبعث هود

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هوداً، الأحقاف ـ الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت ظاهراً ـ وكانوا مع ذلك، قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها؛ بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله: صنم يقال له: (صداء)، وصنم يقال له: (صمود)، وصنم يقال له: (الهباء)[٤]، فبعث الله إليهم هوداً[٥]، وهو من

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٣ وتفسير القرطبي ٧: ٢٣٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٧: ١٠٢ وتاريخ المسعودي١: ١١.

(٣) البدء والتاريخ ٣: ٣٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٢: ٢٢٦.

(٥) هو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، والقصة مختصرة في تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢ وتاريخ المسعودي ٢: ١١ ـ ١٣. ١٢٤.

أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، ولم يأمرهم، فيما يذكر - والله أعلم - بغير ذلك. فأبوا عليه وكذبوه، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]. واتبعه منهم ناس، وهم يسير، يكتمون إيمانهم. وكان، ممن آمن به وصدقه، رجل من عاد، يقال له: مرثد بن سعد بن عفير، وكان يكتم إيمانه.

فلما عتوا على الله، وكذبوا نبيهم، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية؛ عبثاً بغير نفع، كلمهم هود، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]. ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيب، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]. فلما فعلوا ذلك، أمسك الله عنهم المطر من السماء، ثلاث سنين - فيما يزعمون - حتى جهدهم ذلك. وكان الناس في ذلك الزمان، إذا نزل بهم بلاء أو جهد، فطلبوا إلى الله الفرج منه - كانت طلبتهم إلى الله ثم بيته الحرام بمكة، مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم، وكلهم معظم لمكة، يعرف حرمتها، ومكانها من الله.

قال ابن إسحاق: وكان البيت في ذلك الزمان، معروفاً مكانه، والحرم قائماً - فيما يذكرون - وأهل مكة، يومئذ، العماليق، وإنما سموا العماليق؛ لأن أباهم عمليق بن لاوذ ابن سام بن نوح. وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة - فيما يزعمون - رجلاً، يقال له: معاوية بن بكر، وكان أبوه حياً في ذلك الزمان، ولكنه كان قد كبر، وكان ابنه يرأس قومه، وكان السؤدد والشرف من العماليق - فيما يزعمون - في أهل ذلك البيت، وكانت أم معاوية بن بكر، كلهدة ابنة الخيبري، رجل من عاد.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨ - ١٣١

(٣) سورة هود، الآيات: ٥٤ - ٥٦.

وفد عاد

فلما قحط المطر عن عاد، وجهدوا، قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة، فليستسقوا لكم؛ فإنكم قد هلكتم. فبعثوا قيل بن عتر، ولقيم بن هزال بن هزيل بن عتيل بن صد ابن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير ـ وكان مسلماً يكتم إسلامه ـ، وجلهمة بن الخيبري، خال معاوية بن بكر، أخا أمه، ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صد بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم، معه رهط من قومه، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلاً. فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره. وكانت هزيلة ابنة بكر، أخت معاوية بن بكر لأبيه وأمه، كلهدة ابنة الخيبري عند لقيم بن هزال بن عتيل بن صد بن عاد الأكبر، فولدت له عبيد بن لقيم بن هزال وعمرو بن لقيم بن هزال وعامر ابن لقيم بن هزال وعمير بن لقيم بن هزال، فكانوا في أخوالهم بمكة، عند آل معاوية بن بكر، وهم عاد الأخيرة من عاد الأولى[1].

فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر، أقاموا عنده شهراً، يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية بن بكر ـ وكان مسيرهم شهراً ومقامهم شهراً، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم، وقد بعثهم قومهم يتغوثون بهم من البلاء الذي أصابهم، شق ذلك عليه، فقال: هلك أخوالي وأصهاري، وهؤلاء مقيمون عندي، وهم ضيفي نازلون علي، والله ما أدري كيف أصنع بهم. إن أمرتهم بالخروج إلى ما بعثوا له، فيظنوا أنه ضيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك من وراءهم، من قومهم، جهداً وعطشاً، أو كما قال. فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعراً، نغنيهم به، لا يدرون من قاله، لعل ذلك أن يحركهم. فقال معاوية بن بكر حين أشارتا عليه بذلك:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عيامى

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢١٩.

وإن الوحش يأتيهم جهاراً ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقّوا التحية والسلاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما

- ثم إن معاوية بن بكر دعا إحدى الجرادتين فغنت:

ألا يا قيل من عوصٍ ومن عاد بن سام
وعاد كالشماريخ من الطول الكرام
سقى الله بني عاد معاً صوب الغمام[1]

فلما قال معاوية ذلك الشعر، غنتهم به الجرادتان، فلما سمع القوم ما غنتا به، قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم، يتغوثون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا هذا الحرم، واستسقوا لقومكم!.

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير: إنكم، والله، لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وأبتم إليه سقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك، فقال لهم جلهمة بن الخيبري، خال معاوية بن بكر، حين سمع قوله وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به:

أبا سعد فإنك من قبيل ذوي كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام ذوي رأي ونتبع دين هود

ثم قالوا لمعاوية بن بكر، وأبيه بكر: احبسا عنّا مرثد بن سعد، فلا يقدمن معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد. فلما ولوا إلى مكة، خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر، حتى أدركهم بها قبل أن يدعوا بشيء، مما خرجوا له، فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله بمكة، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون، فقال: اللهم، أعطني سؤلي وحدي، ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد.

---

(١) تاريخ المسعودي ٢: ١٢٥.

وكان قيل بن عتر، رأس وفد عاد، وقال وفد عاد: اللهم، أعط قيلاً ما سألك، واجعل سؤلنا مع سؤله. وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا، لقمان بن عاد، وكان سيد عاد، حتى إذا فرغوا من دعوتهم، قام فقال: اللهم، إني جئتك وحدي في حاجتي، فأعطني سؤلي. وقال قيل بن عتر، حين دعا: يا إلهنا، إن كان هود صادقاً، فاسقنا فإنا قد هلكنا.

السحائب الثلاث

فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثاً: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السحاب: يا قيل، اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب. فقال: اخترت السحابة السوداء؛ فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترت رماداً رمدداً، لا تبق من آل عاد أحداً، لا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته همداً، إلا بني اللوذية المهدا. وبني اللوذية بنو لقيم بن هزال بن هزيلة بن بكر، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عاد الآخرة، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد.

وساق الله السحابة السوداء ـ فيما يذكرون ـ التي اختارها قيل بن عتر بما فيها من النقمة، إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد، يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا بها، وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول الله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[1]. أي كل شيء أمرت به. وكان أول من أبصر ما فيها، وعرف أنها ريح ـ فيما يذكرون ـ امرأة من عاد يقال لها: مهدد. فلما تيقنت ما فيها صاحت، ثم صعقت فلما أن أفاقت، قالوا: ماذا رأيت يا مهدد؟. قالت: رأيت ريحاً، فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2]. كما قال الله، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك.

فاعتزل هود ـ فيما ذكر لي ـ ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح، إلا ما تلين عليه الجلود، وتلتذ به الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن،

---

(١) سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٤، ٢٥

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٧.

بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. قال شاعرهم في ذلك:

فدعا هود عليهم   دعوة أضحوا همودا
عصفت ريح عليهم   تركت عاداً خمودا
سخرت سبع ليال لم   تدع في الأرض عودا[1]

وخرج وفد عاد من مكة، حتى مروا بمعاوية بن بكر وابنه، فنزلوا عليه، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل، على ناقة له في ليلة مقمرة، مساء ثالثة من مصاب عاد، فأخبرهم الخبر فقالوا له: أين فارقت هوداً وأصحابه؟. قال: فارقتهم بساحل البحر. فكأنهم شكوا فيما حدثهم به، فقالت هذيلة بنت بكر: صدق، ورب الكعبة[2]، ومثوب بن يعفر بن أخي معاوية بن بكر معهم.

نسور لقمان

وقد كان قيل ـ فيما يزعمون والله أعلم ـ لمرثد بن سعد، ولقمان بن عاد، وقيل ابن عنر، حين دعوا بمكة: قد أعطيتم مناكم، فاختاروا لأنفسكم، إلا أنه لا سبيل إلى الخلد، فإنه لا بد من الموت. فقال مرثد بن سعد: يا رب، أعطني براً وصدقاً. فأعطي ذلك. وقال لقمان بن عاد: أعطني عمراً. فقيل له: اختر لنفسك، إلا أنه لا سبيل إلى الخلد: بقاء أبعار ضأن عفر، في جبل وعر، لا يلقى به إلا القطر. أم سبعة أنسر، إذا مضى نسر حلوت إلى نسر؟. فاختار لقمان لنفسه النسور، فعمر ـ فيما يزعمون ـ عمر سبعة أنسر، يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، فيأخذ الذكر منها لقوته، حتى إذا مات أخذ غيره.

فلم يزل يفعل ذلك، حتى أتى على السابع، وكان كل نسر ـ فيما زعموا ـ يعيش ثمانين سنة، فلما لم يبق غير السابع، قال ابن أخ للقمان: أي عم، ما بقي من عمرك إلا عمر هذا النسر، فقال له لقمان: أي ابن أخي، هذا لبد ـ ولبد بلسانهم الدهر. فلما أدرك نسر لقمان وانقضى عمره، طارت النسور غداة من رأس الجبل، ولم ينهض فيها لبد، وكانت نسور لقمان تلك لا تغيب عنه، إنما هي بعينه. فلما لم ير لقمان لبداً، نهض مع

(١) الشعر في تفسير القرطبي ١٦: ٢٠٧.
(٢) تفسير الطبري ٨: ٢٨٢ ـ ٢٨٦.

النسور، نهض إلى الجبل؛ لينظر ما فعل لبد، فوجد لقمان في نفسه وهناً، لم يكن يجده قبل ذلك، فلما انتهى إلى الجبل، رأى نسره لبداً واقعاً من بين النسور، فناداه: انهض لبد. فذهب لبد لينهض فلم يستطع، عريت قوادمه وقد سقطت، فماتا جميعاً.

وقيل لقيل بن عتر حين سمع ما قيل له في السحاب: اختر لنفسك، كما اختار صاحباك، فقال: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي. فقيل: إنه الهلاك!. قال: لا أبالي، لا حاجة لي في البقاء بعدهم. فأصابه ما أصاب عاداً من العذاب فهلك.

فقال مرثد بن سعد بن عفير، حين سمع من قول الراكب الذي أخبر عن عاد بما أخبر من الهلاك:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشا ما تبلهم السماء
وسيّر وفدهم شهراً ليسقوا ... فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهمُ بربهم جهاراً ... على آثار عادهم العفاء
ألا نزع الإله حلوم عاد ... فإن قلوبهم قفر هواء
من الخبر المبين أن يعوه ... وما تغني النصيحة والشفاء
فنفسي وابنتاي وأم ولدي ... لنفس نبيّنا هود فداء
أتانا والقلوب مُعمّيات ... على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والهباء
فأبصره الذين له أنابوا ... وأدرك من يكذبه الشقاء
فإني سوف ألحق آل هود ... وإخوته إذا جن المساء
وقيل إن رئيسهم وكبيرهم ... في ذلك الزمان الخلجان[1]

وفي ذلك يقول الهيل بن الخليل:

لو أن عاداً سمعت من هود ... واتبعت طريقة الرشيد
وقد أتى بالوعد والوعيد ... عاداً وبالتقريب والتبعيد
ما أصبحت عاثرة الجدود ... صرعى على الآناف والخدود
ساقطة الأجساد بالوصيد ... ماذا جنى الوفد من الوفود

---

(١) تاريخ المسعودي ٢: ١٢٥ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٥٧.

أحدوثة في الأبد الأبيد

وقال مهد بن معد في شعر له:

دعاهم خيفة لله هود … فما نفع النذير ولا أجابوا

فلما أن أبوا إلا عتوّاً … أصابهمُ ببغيهم العذاب[١]

هلاك عاد

حدثني العباس بن الوليد[٢] قال: حدثنا أبي عن إسماعيل بن عياش[٣]، عن محمد ابن إسحاق، قال: لما خرجت الريح على عاد من الوادي، قال سبعة رهط منهم، أحدهم الخلجان: تعالوا حتى نقوم على شفير الوادي فنردها. فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم، فتحمله ثم ترمي به، فتندق عنقه فتتركهم[٤]، كما قال الله ﷻ: ﴿صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٥]. حتى لم يبق منهم إلا الخلجان[٦]، فمال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه، فاهتز في يده، ثم أنشأ يقول:

لم يبق إلا الخلجان نفسه … يا لك من يوم دهاني أمسه

بثابت الوطء شديد وطسه … لو لم يجئني جئته أجسه[٧]

فقال له هود: ويحك يا خلجان، أسلم تسلم.

فقال له: وما لي عند ربك إن أسلمت.

---

(١) تاريخ المسعودي ٢: ١٢٦.

(٢) العباس بن الوليد بن مزيد العذري، توفي سنة ٢٧٠ هـ. المقتنى في سرد الكنى ٢: ١٦.

(٣) إسماعيل بن عياش الامام محدث الشام أبو عتبة العنسي الحمصي، أحد الاعلام،توفي سنة ٢٨٢ هـ. تذكرة الحفاظ ١: ٢٥٣.

(٤) عن وهب منبه: إن عاداً، لما عذبهم الله بالريح التي عذبوا بها، كانت تقلع الشجرة العظيمة بعروقها، وتهدم عليهم بيوتهم، فمن لم يكن في بيت هبت به الريح، حتى تقطعه الجبال، فهلكوا بذلك كلهم. تاريخ الطبري ١: ٢٢٦.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٦) كان الخلجان آخر ملوكهم، وكان عاد بن عوص أول ملوكهم وقد ملك ثلاثمئة سنة، ثم ملك ابن عاد بن عوص. تاريخ المسعودي ٢: ١٢٦.

(٧) قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٦.

قال: الجنة.

قال: فما هؤلاء الذين أراهم في هذا السحاب، كأنهم البخت؟.

قال هود: تلك ملائكة ربي.

قال: فإن أسلمت أيعيذني ربك منهم؟.

قال: ويلك، هل رأيت ملكاً، يعيذ من جنده!.

قال: لو فعل ما رضيت.

ثم جاءت الريح، فألحقته بأصحابه[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما هاجت الريح، قام نفر من عاد، سبعة، منهم ستة من أشد عاد وأجسمها، منهم عمرو بن الحُلي، والحارث ابن شداد، والهلقام، وابنا تيقن وخلجان بن أسعد، فأدلجوا العيال في شعب بين جبلين، ثم اصطفوا على باب الشعب؛ ليردوا الريح عمن بالشعب من العيال، فجعلت الريح تقلع رجلاً رجلاً، فقالت امرأة من عاد:

ذهب الدهر بعمرو بن حلي والهنيات
ثم بالحارث والهلقام طلاع الثنيات
والذي سد علينا الريح أيام البليات[2]

ـ قال محمد بن إسحاق: بعث الله على عاد الريح العقيم، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال، تطير بهم الريح بين الأرض والسماء، فتبادروا البيوت، فلما دخلوها، دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها، فهلكوا، فلما أهلكهم الله ـ تعالى ـ أرسل عليهم طيوراً سوداً؛ لتلقيهم في البحر، فألقتهم فيه[3].

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢١٩ ـ ٢٢٤.

(٢) تفسير الطبري ٢٧: ١٣٠.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٥. وقد وردت القصة في التيجان لوهب: ٤٥ وما بعدها، بتفاصيل مختلفة

مغارة شداد بن عاد

ـ حدثني زياد بن عبد الملك البكائي[1]، عن محمد بن إسحاق المطلبي عن عبيد بن شرية الجرهمي[2] قال: حدثنا شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة وكان معمراً عالماً بملوك حمير وأمورها قال لنا: كان باليمن رجل من عاد بن قحطان وهو عاد الأصغر، وأما عاد الأكبر فلم يبق منهم أحد. قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[3]. وإن هذا الرجل العادي كان يقال له: الهميسع بن بكر، وكان جسوراً لا يهاب أمراً، وكان يعرف بذلك، وكانت الصعاليك تقصده من آفاق الأرض، وكان أكثر طلبه المغارات يطلبها في جبال اليمن وعمان والبحرين وأنه آتاه رجل فاتك من عبس، وآخر من خزاعة، وكانا صعلوكين جسورين فقالا له: يا هميسع، احملنا من أمرك على ما تريده، فإنا نبلغ مرادك.

فمضى معهما الهميسع حتى أتى بهما جبلاً، وعليه غابة فيها ثعابين لا ترام، والهميسع أمام الصعلوكين قد أتى الجبل مراراً وحده، وكان إذا عاين الثعابين يجزع فيرجع، فلما آتاه الصعلوكان جسر بهما وقال: ألق رأسك بين اثنين ولو غمّ إلى الأذنين. ثم أخذ سيفه وزناده ومشاعله وزاده، وسار بهما حتى وصل إلى الجبل ولم يزل تترايا لهم الثعابين وتهرب، حتى بلغ باب كهف عظيم وكأن الجبال على أكتافهم عظماً وثقلاً، ودخلت قلوبهم وحشة عظيمة وسمعوا من داخل الكهف دوياً عظيماً وهينمة وعلى باب الكهف نقش بالحميري فقالا له: اقرأ يا هميسع. فقرأه فإذا هو مكتوب هذين البيتين:

لا يدخل البيت إلا ذو مخاطرة ... أو جاهل بدخول الكهف مغرور

إن الذي عنده الآجال حاضرة ... موكل بالذي يغشاه مأمور

فغلب الخوف والجزع على الخزاعي في أول أمره، ثم إن الجزع غلب أيضاً على العبسي، فاستدرك نفسه العبسي وثبت فقال الخزاعي: يا هميسع، قد عاش في الدنيا

---

(١) الشيخ الحافظ المحدث أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي الكوفي راوي السيرة النبوية عن ابن إسحاق، توفي سنة ١٨٣ هـ. سير أعلام النبلاء ٩: ٥. فليس أبوه عبد الملك.

(٢) عبيد بن شرية أحد المعمرين، وفد على معاوية، وتوفي في خلافة عبد الملك بن مروان. الإصابة ٥: ١١٥.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٨.

كثير ممن لم تبلغ نفسه هذا المبلغ - ثم ولى العبسي عن صاحبه فقال الهميسع: نمضي في هذا الكهف أم لا؟ فقال له: نعم. فسارا في الكهف حيناً، فإذا حيات يصفرن عن يمين وشمال ورياح تجري عليهما من داخل الكهف، وسمعا دوياً من داخل الكهف، فقال العبسي: لقد حملت نفسك على مكروه يا هميسع أعلى يقين أنت من هذا الكهف؟ فقال له الهميسع: ما تيقنت إلا ما رأته عيني، والرجاء فقال له: افعلي شك أنت هارش الثعابين وأبيع مهجتي ببخس يا هميسع لقد بعت نفسك من دهرك أبخس ثمن وهميسع في ذلك لا يلوي إلى كلامه وهو يسير داخل الكهف حتى وقف به على باب آخر أعظم من الباب الأول وأهول وأشد وحشة وزاد عليهم الدوي والحسيس والهينمة وعلى ذلك الباب بالخط الحميري. فقال له العبسي: اقرأ يا هميسع! فقرأه فإذا هو:

انظر لرحلك لا يساق فإنه ... حتم الحمام إلى العرين يساق
يا ساكني جبلي شمام لعله ... يوفي بما أجنبتما الميثاق
قوموا إلى الأنسي إن محله ... يدعو إلى يوم الفراق فراق

قال: فولى العبسي هارباً عنه وناداه الهميسع فلم يلتفت إليه، وولى وهو يقول: قاتل الله أخا عاد ما أجسره! قال: فهم الهميسع أن يفر ثم حمل نفسه على الأصعب ومضى حتى بلغ إلى باب هو أعظم هولاً وأشد وحشة وعليه نقش بالقلم الحميري، فقرأه الهميسع فإذا فيه مكتوب:

قد كان فيما قد مضى واعظ ... لنفسك البينة المسمعه
إن جهل الجاهل ما قد أتى ... وكان حيناً قلبه في دعه

فدخل الباب الثالث فسمع دوياً عظيماً كالرعد وهدة عظيماً، فبينما هو كذلك إذ برز إليه تنين أحمر العينين، فاتح فاه، فلما رآه الهميسع رجع هارباً إلى خلفه، فسكن حس التنين فوقف العادي وقال في نفسه: قد رآني ولو كان حيواناً لم يدعني، وما هو إلا طلسم. فرجع له ثانية حتى ظهر له، فسار نحوه فسمع له دوياً عظيماً فهرب فأقبل يسمع الدوي فإذا هو في رجوع التنين كما قاله في إدباره، فعلم أنه طلسم فأخذ حذره من صدمته، وأقبل يمشي قليلاً قليلاً ويخفف وطأ قدميه حتى وضع قدمه في موضع فتحرك التنين ودوى، فأخذ قدوماً كان معه فحفر على الموضع حتى ظهرت له سلاسل على بكرات.

فأجنه الليل فأسرع الخروج من الكهف وجمع حطباً من الغيضة وأضرمها ناراً وبات عند نار الكهف، فلما غشيه ظلام الليل سمع بكاء وحنيناً داخل الكهف فلم يزل ينتظر ويرتقب وينظر حتى نظر إلى نار عظيمة خارجة إليه من داخل الكهف، فلما رآها لم يبرح من موضعه حتى غشيته فصبر لها فلم تؤلم فيه شيئاً ثم أتته أخرى ثانية أكبر من الأولى فصبر لها كذلك، فلما مالت عنه أخذ مقباس النيران التي أضرمها وأقبل يضرب بها حيطان الكهف يميناً وشمالاً حتى سمع نداء من داخل الكهف يهتف: يا هميسع لا حاجة لنا في دخولك. فأقام حتى أصبح فدخل باب الكهف إلى أن وصل إلى الباب الذي رأى فيه التنين، ثم حفر على بقية حد التنين حتى قلعه.

وسقط التنين، فسار إليه فقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان حمراوان لا قيمة لهما، وسار حتى انتهى إلى بابٍ هو أعظم هولاً وأشد وحشة فلما هم أن يفتحه سمع دوياً عظيماً وبدا له أسد عظيم فرجع أيضاً إلى خلفه فرجع عنه الأسد بدوي عظيم فحفر على موضع حركته كما صنع بالتنين حتى أبطل حركته وقلع عينيه فإذا هما ياقوتتان حمراوان لا قيمة لهما، ثم دخل الباب فإذا هو بدار عظيمة وفيها بيت في وسطه سرير من ذهب وعليه شيخ إلى رأسه لوح من ذهب معلق وسقف البيت مرصع بأصناف اليواقيت وعلى رأسه في الحائط لوح من ذهب فيه مكتوب (أنا شداد بن عاد عشت خمس مائة عام، وافتضضت فيها ألف مبارز، وركبت ألف جواد من عتاق الخيل) وتحته مكتوب:

من ذاك يا شداد عاد أصبحت	آماله مهزومة الأقدام
يا من رآني إنني عبرة	من بعد ملك الدهر والأعوام
فكأنني ضيف ترح مسرعاً	وكأنني حلم من الأحلام
احذر تصاريف الزمان وريبه	لا تأمنن حوادث الأيام
هلا يضرك من كلامي مرة	يا ساكن الغيضات والآجام

قال: ثم ملت إلى الركن الذي عن يمينه، فإذا هو سرير من ذهب وعليه جاريتان فوق رأسهما في الحائط لوح من ذهب، أو قال: من عاج فيه مكتوب (أنا حبة وهذه لبة بنت شداد بن عاد أتت علينا أزمان أنفقنا فيها الطارف والتليد على عبيدنا ثم طلبنا صاعاً من بر بصاع من در فلم نجده ـ فمن رآنا فلا يثق بالزمان وليكن على بيان فإنه يحدث

العز والهوان). قال: فأخذ الهميسع الألواح وما بالبيت من در وجوهر وياقوت وخرج[١].

يعمر بن شداد بن عاد

ـ ذكر محمد بن إسحاق: أن يعمر بن شداد بن عاد بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح عليه السلام هو الذي أنشأ الإسكندرية، وهي كنيسة حنس، وزبر فيها: أنا يعمر بن شداد أنشأت هذه المدينة، وبنيت قناطرها ومعابرها، ووضعت حجراً على حجر، وأجريت ماءها؛ لأرفق بعمالها حتى عليهم نقل الماء وصنعت معابر لممر أهل السبيل وصيرتها إلى البحر وفرقتها ثم القبة يميناً وشمالاً، وكان يعمل فيها تسعون ألفاً لهم رباً إلا يعمر بن شداد وكان تاريخ الكتاب ألفاً ومائتي سنة[٢].

قبر هود

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا ابن إسحاق[٣]، عن محمد بن عبد الله ابن أبي سعيد الخزاعي[٤]، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة[٥]، قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر، يخالطه مدرة حمراء، ذا أراك وسدر كثير، بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟. قال: نعم. يا أمير المؤمنين والله، إنك لتنعته نعت رجل قد رآه.

قال: لا. ولكني قد حدثت عنه.

فقال الحضرمي: وما شأنه، يا أمير المؤمنين؟.

قال: فيه قبر هود ـ صلوات الله عليه ـ[٦].

---

(١) التيجان لوهب: ٧٥ ـ ٧٨.

(٢) معجم البلدان ١: ١٨٤.

(٣) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٦٢. وتفسير ابن كثير ٢: ٢٢٥.

(٤) روى عن أبي الطفيل وروى عنه محمد بن إسحاق. الجرح والتعديل ٧: ٢٩٧.

(٥) عامر بن واثلة أبو الطفيل المكي، أدرك ثماني سنين من حياة رسول الله ﷺ، توفي سنة ١١٠ هـ. التاريخ الكبير ٦: ٤٤٦.

(٦) تفسير الطبري ٨: ٢٨٢. والبدء والتاريخ ٣: ٣٦. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٥٧.

ثمود

ثمود والنبي صالح

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما أهلك الله عاداً، وتقضى أمرها، عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، فنزلوا فيها وانتشروا، ثم عتوا على الله، فلما ظهر فسادهم وعبدوا الأصنام، من دون الله، بعث إليهم صالحاً[١]، وكانوا قوما عرباً، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً ـ رسولاً. وكانت منازلهم الحجر إلى قرح، وهو وادي القرى، وبين ذلك ثمانية عشر ميلاً، فيما بين الحجاز والشام[٢]. فبعث الله إليهم غلاماً شاباً، فدعاهم إلى الله، حتى شمط وكبر، لا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء، وأكثر لهم التحذير، وخوفهم من الله العذاب والنقمة، سألوه أن يريهم آية، تكون مصداقاً لما يقول، فيما يدعوهم إليه.

فقال لهم: أي آية تريدون؟.

قالوا: هلمّ إلى عيدنا هذا ـ وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم، وما يعبدون من دون الله في يوم معلوم من السنة ـ فتدعو إلهك وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا.

فقال لهم صالح: نعم.

فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك، وخرج صالح معهم إلى الله، فدعوا أوثانهم، وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء، مما يدعو به، ثم قال له جندع بن عمرو بن

---

(١) هو صالح بن تالح بن صادوق بن هود، والقصة مختصرة في تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢.وهو صالح بن عبيد ابن آسف بن ماسح بن حاذر بن ثمود. في قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٨.

(٢) تاريخ المسعودي ٢: ١٤.

حراش بن عمرو بن الدميل[1]، وكان يومئذ سيد ثمود وعظيمهم: يا صالح، أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها: الكاثبة ـ ناقة مخترجة جوفاء وبراء ـ والمخترجة ما شاكلت البخت من الإبل.

وقالت ثمود لصالح مثل ما قال جندع بن عمرو: فإن فعلت آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو حق.وأخذ عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلت وفعل الله، لتصدقني ولتؤمنن بي؟. قالوا: نعم. فأعطوه على ذلك عهودهم، فدعا صالح ربه بأن يخرجها لهم من تلك الهضبة، كما وصفت.

قصة الناقة

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث: أنهم نظروا إلى الهضبة، حين دعا الله صالح، بما دعا به، تتمخض بالناقة تمخض النتوج بولدها، فتحركت الهضبة ثم أسقطت الناقة، فانصدعت عن ناقة، كما وصفوا جوفاء وبراء نتوج، يتحرك جنينها بين جنبيها، لا يعلمه إلا الله عظماً، فآمن به جندع بن عمرو، ومن كان معه على أمره، من رهطه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوا، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس ـ وكانوا من أشراف ثمود ـ وردوا أشرافها عن الإسلام، والدخول فيما دعاهم إليه صالح، من الرحمة والنجاة.

وكان لجندع ابن عم، يقال له: شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس، فأراد أن يسلم، فنهاه أولئك الرهط عن ذلك فأطاعهم، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فقال رجل من ثمود، يقال له: مهوس بن عنمة بن الدميل، وكان مسلماً:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً ... فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

(١) ... الذبيل بن إرم بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكان ملكه إلى أن هلك مائتي سنة وتسعين سنة. تاريخ المسعودي ٢: ١٥.

ولكن الغواة من آل حجر   تولوا بعد رشدهم ذئابا[1]

فمكثت الناقة التي أخرجها الله لهم، معها سقبها في أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء. فقال لهم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. وقال الله لصالح: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[3]. أي إن الماء نصفان: لهم يوم ولها يوم، وهي محتضرة فيومها لا تدع شربها، وقال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[4] فكانت ـ فيما بلغني والله أعلم ـ إذا وردت، وكانت ترد غباً، وضعت رأسها في بئر في الحجر، يقال لها: بئر الناقة، فيزعمون أنها منها كانت تشرب ـ إذا وردت تضع رأسها فيها، فما ترفعه حتى تشرب كل قطرة ماء في الوادي، ثم ترفع رأسها فتفسح، يعني تفسح لهم فيحتلبون ما شاؤوا من لبن، فيشربون ويدخرون حتى يملأوا كل آنيتهم، ثم تصدر الفج الذي منه وردت، لا تقدر على أن تصدر من حيث ترد؛ لضيقه عنها، فلا ترجع منه، حتى إذا كان الغد، كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء، ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهم من ذلك في سعة.

وكانت الناقة ـ فيما يذكرون ـ تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي، فتهرب منها المواشي: أغنامهم وأبقارهم وإبلهم، فتهبط إلى بطن الوادي في حره وجدبه؛ وذلك أن المواشي تنفر منها إذا رأتها. وتشتو في بطن الوادي إذا كان الشتاء، فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والجدب، فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، وكانت مراتعها ـ فيما يزعمون ـ الجناب وحسمى كل ذلك ترعى مع وادي الحجر، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، وأجمعوا في عقر الناقة رأيهم.

وكانت امرأة من ثمود، يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنى بأم غنم، وهي من بني عبيد بن المهل أخي دميل بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزاً مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم. وامرأة

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٥٨ وتفسير ابن كثير ٢: ٢٩٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٣) سورة القمر: الآية، ٢٨.

(٤) سورة الشعراء: الآية: ١٥٥.

أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن زهير بن المحيا، سيد بني عبيد، وصاحب أوثانهم في الزمن الأول، وكان الوادي يقال له: وادي المحيا، وهو جد المحيا الأصغر أبي صدوف، وكانت صدوف من أحسن الناس، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر.

وكانتا أشد امرأتين في ثمود عداوة لصالح، وأعظمهم به كفراً، وكانتا تحبان أن تُعقر الناقة، مع كفرهما به لما أضرت به من مواشيهما. وكانت صدوف عند ابن خال لها، يقال له: صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف، من بني هليل الراوي، فحسن إسلامه، وكانت صدوف قد فوضت إليه مالها، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح، حتى رق المال، فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوف، فعاتبته على ذلك، فأظهر لها دينه، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام، فأبت عليه، وسبت ولده فأخذت بنيه وبناته منه؛ فغيبتهم عنه. وكان صنتم زوجها من بني هليل، وكان ابن خالها، فقال: لها ردي علي ولدي؟. فقالت: حتى أنافرك إلى بني صنعان بن عبيد أو إلى بني جندع بن عبيد. فقال لها صنتم: بل أنا أقول إلى بني مرداس بن عبيد.

وذلك أن بني مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا في الإسلام، وأبطأ عنه الآخرون، فقالت: لا أنافرك إلا إلى من دعوتك إليه. فقال بنو مرداس: والله، لتعطينه ولده طائعة أو كارهة، فلما رأت ذلك أعطته إياهم.

ثم إن صدوف وعنيزة تحيلتا في عقر الناقة؛ للشقاء الذي نزل، فدعت صدوف رجلاً من ثمود، يقال له: الحباب؛ لعقره الناقة، وعرضت عليه نفسها بذلك، إن هو فعل فأبى عليها، فدعت ابن عم لها، يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة، وكانت من أحسن الناس، وكانت غنية كثيرة المال، فأجابها إلى ذلك.

ودعت عنيزة بنت غنم، قدار بن سالف بن جندع، رجلاً من أهل قرح، وكان قدار رجلاً أحمر أزرق قصيراً ـ يزعمون أنه كان لزنية من رجل، يقال له: صهياد، ولم يكن لأبيه سالف الذي يدعى إليهن ولكنه قد ولد على فراش سالف، وكان يدعى له وينسب إليه ـ، فقالت: أعطيك أي بناتي شئت، على أن تعقر الناقة. وكانت عنيزة شريفة

من نساء ثمود، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو من أشراف رجال ثمود، وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه.

قال ابن إسحاق وغيره[1]: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج، فاستنفرا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فكانوا تسعة نفر. أحد النفر الذين اتبعوهما رجل، يقال له: هويل بن ميلغ، خال قدار بن سالف أخو أمه لأبيها وأمها، وكان عزيزاً من أهل حجر، ودعير بن غنم بن داعر، وهو من بني حلاوة بن المهل، ودأب بن مهرج أخو مصدع بن مهرج، وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم[2]. فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع، فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها.

عقر الناقة

وخرجت أم غنم عنيزة، وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فأسفرت عنه لقدار وأرته إياه، ثم ذمرته، فشد على الناقة بالسيف، فكشف عرقوبها، فخرت ورغت رغاة واحدة، تحذر سقبها، ثم طعن في لبتها فنحرها. وانطلق سقبها، حتى أتى جبلاً منيعاً، ثم أتى صخرة في رأس الجبل فرغا، ولاذ بها، واسم الجبل - فيما يزعمون - صور.

فأتاهم صالح، فلما رأى الناقة قد عقرت، قال: انتهكتم حرمة الله، فابشروا بعذاب الله - تبارك وتعالى - ونقمته.

وقالت أم غنم يا قدار ... عزيز ثمود شدَّ ولا تهابا
ولا تجبن فإن الجبن عيب ... وكان أبوك يكره أن يعابا
إن أنت عقرتها وأرحت ... منها بلاد ثمود أنكحك البابا
فأهوى سيفه للنحر طعناً ... وفرَّ السقب يطلع الشعابا

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي: ٦١.

(2) عن وهب بن منبه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رباب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير بن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قدار بن سالف. تفسير القرطبي ١٣: ٢١٥.

وحنّت بعد ما خرّت صويتاً تحذّر سقبها كيلا يصابا
فأتبعه غواة بني عديٍّ ونادوا مصدعاً وأخاه ذابا
فيرميه شقي بني عُبيد بسهم لم يريشه لُغابا
ونادى صالح يا رب أنزل بآل ثمود منك غداً ثوابا
فكانت صيحة تركت ثموداً ديارهم لثالثة خرابا[1]

فاتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج، فرماه مصدع بسهم، فانتظم قلبه ثم جر برجله، فأنزله ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه[2]. فلما قال لهم صالح: أبشروا بعذاب الله ونقمته، قالوا له وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح، وما آية ذلك؟!.

وكانوا يسمون الأيام فيهم: الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء دبار، والأربعاء جبار، والخميس مؤنس، والجمعة العروبة، والسبت شيار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تصبحون غداة يوم مؤنس ـ يعني يوم الخميس ـ ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم العروبة ـ يعني يوم الجمعة ـ ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شيار ـ يعني يوم السبت ـ ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ـ يعني يوم الأحد.

فلما قال لهم صالح ذلك، قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلموا، فلنقتل صالحاً إن كان صادقاً، عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً، يكون قد ألحقناه بناقته. فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة. فلما أبطؤوا على أصحابهم، أتوهم، فوجدوهم مشدخين، قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم. ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه، ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله، لا تقتلونه أبداً، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً، لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً وإن كان كاذباً، فأنتم من وراء ما تريدون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك. والنفر الذين رضختم الملائكة بالحجارة هم التسعة الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ

(١) الشعر في البدء والتاريخ ٣: ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) تفسير القرطبي ٧: ٢٤١.

وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ـ فأصبحوا يوم الخميس، ووجوههم مصفرة، كأنما طليت بالخلوق، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فأيقنوا بالعذاب، وعرفوا أن صالحاً قد صدقهم فطلبوه؛ ليقتلوه، وخرج صالح هارباً منها، حتى لجأ إلى بطن من ثمود، يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيدهم، رجل منهم، يقال له: نفيل الغرماء بن أبي هدب، وهو مشرك، فغيبه فلم يقدروا عليه. فغدوا على أصحاب صالح، فعذبوهم ليدلوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح، يقال له ميدع بن هرم: يا نبي الله، إنهم ليعذبوننا؛ لندلهم عليك، أفندلهم عليك؟. قال: نعم. فدلهم عليه ميدع بن هرم، فلما علموا بمكان صالح، أتوا أبا هدب فكلموه، فقال لهم: عندي صالح، وليس لكم إليه سبيل. فأعرضوا عنه وتركوه، وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضاً في وجوههم، حين أصبحوا من يوم الخميس؛ وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرة، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرة، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة، حتى إذا كان ليلة الأحد، خرج صالح من بين أظهرهم ومن أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين.

وفيهم يقول بعض من آمن بصالح ـ ع ـ:

أراكم يا رجال بني عتيد	كأن وجوهكم طليت بورس
ويوم عروبة احمرت وجوه	مصفرة، ونادوا يا آل مرس
ويوم شيار فاسودت وجوه	من الحيين قبل طلوع شمس
فلما كان أول في ضحاه	أتتهم صيحة عمت بتعس

وفيهم يقول حباب بن عمر، وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين، وبان عن ديارهم:

كانت ثمود ذوي عزٍّ ومكرمة	ما إن يضام لهم في الناس من جار
لا يرهبون من الأعداء حولهم	وقع السيوف ولا نزعاً بأوتار
فأهلكوا ناقة كانت لربهم	قد أنذرها وكانوا غير أبرار
نادوا قداراً ولحم السقب بينهم	هل للعجول وهل للسقب من ثار

(1) سورة النمل، الآيات: ٤٨ ـ ٥٢. تفسير الطبري ٨: ٢٢٥ ـ ٢٢٨. ١٩: ٢١. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٦٠ ـ ٦١.

لم يرعيا صالحاً في عقر ناقته   وأخفروا العهد هذياً أي إخفار
فصادفوا غتده من ربه حرساً   فشدخوا روسهم شدخاً بأحجار[1]

وتخلف رجل من أصحابه، يقال له: ميدع بن هرم فنزل قرح، وهي وادي القرى وبين القرح والحجر ثمانية عشر ميلاً، فنزل على سيدهم، رجل يقال له: عمرو بن غنم.وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يشترك في قتلها. فقال له ميدع بن هرم: يا عمرو ابن غنم، اخرج من هذا البلد؛ فإن صالحاً قال: من أقام فيه هلك ومن خرج منه نجا. فقال عمرو: ما شركت في عقرها وما رضيت ما صنع بها.

فلما كانت صبيحة الأحد، أخذتهم الصيحة فلم يبق منهم صغير ولا كبير، إلا هلك، إلا جارية مقعدة، يقال لها: الدريعة[2]، وهي كليبة ابنة السلق، كانت كافرة شديدة العداوة لصالح، فأطلق الله لها رجليها، بعدما عاينت العذاب أجمعن فخرجت كأسرع ما يرى شيء قط، حتى أتت حياً من الأحياء، فأخبرتهم بما عاينت من العذاب، وما أصاب ثمود منه، ثم استسقت من الماء، فسقيت فلما شربت ماتت[3].

---

(١) الشعر في تاريخ المسعودي ٢: ١٧ ـ ١٨.

(٢) ذريعة بنت شاف. قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٢.

(٣) تفسير الطبري ٨: ٢٢٩.

إبـراهيـم

نسب إبراهيم

ـ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب[١]، حدثنا أحمد بن عبد الجبار[٢]، حدثنا يونس بن بكير[٣] عن محمد بن إسحاق قال: إبراهيم خليل الرحمن وصفيه ونبيه ﷺ بن آزر بن ماجور بن ساروح بن راعو بن مالح بن عابر بن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ صلوات الله عليه ـ[٤].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق ـ فيما ذكر لنا والله أعلم ـ أن آزر[٥] كان رجلاً من أهل كُوثى[٦] من قرية بالسواد، سواد الكوفة، وكان إذ ذاك ملك المشرق لنمرود الخاطئ، وكان يقال له: الهاصر، وكان

(١) محمد بن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس الثقفي. التاريخ الكبير ١: ٢٦٧.

(٢) أحمد بن عبد الجبار بن محمد العطاردي أبو عمر الكوفي من طبقة المحدثين العاشرة، توفي سنة ٢٧٢هـ. تقريب التهذيب ١: ٨١.

(٣) يونس بن بكير بن واصل الإمام الحافظ الصدوق صاحب المغازي والسير، توفي سنة ١٩٩ هـ. سير أعلام النبلاء ٩: ٢٤٥.

(٤) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٢٠ ولم أعثر على رواية ابن إسحاق للقصص بين سام بن نوح و آزر، تارح، أبي إبراهيم،وهي غير موجودة أيضاً في قصص الأنبياء للثعلبي، ولعلها تنهج ما موجود في سفر التكوين/ ١١: ١٠ ـ ٢٦ وتاريخ اليعقوبي ١: ١٨ ـ ٢٣ وتاريخ المسعودي ١: ٥٤ ـ ٥٦ وهي على النحو الآتي: سام ـ أرفكشاد (أرفخشد) ـ شالح (شالخ، سالخ) ـ عابر ـ فالج (فالغ، مالح) ـ رعو (أرغو، راعو) ـ سروج (ساروغ، ساروح) ـ ناحور (ماجور) ـ تارح، وهو أبو إبراهيم.

(٥) قال محمد بن إسحاق بن يسار في لقمان: هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارح، آزر، أبو إبراهيم عليه السلام. قصص الأنبياء للثعلبي: ٣١٢ فيكون لقمان ابن عم إبراهيم.

(٦) اسم يطلق على ثلاثة مواضع في سواد العراق، في منطقة بابل. معجم البلدان: ٤: ٤٨٧.

ملكه ـ فيما يزعمون ـ قد أحاط بمشارق الأرض ومغاربها وكان ببابل، قال: وكان ملكه، وملك قومه بالمشرق، قبل ملك فارس.

قال: ويقال: لم يجتمع ملك الأرض، ولم يجتمع أناس على ملك واحد إلا على ثلاثة ملوك: نمرود بن أرغوا[١]، وذي القرنين، وسليمان بن داود[٢]. قال ابن إسحاق: آزر لقب عيب به، وهو بمعنى معوج[٣].

ـ وكان تارح بن ناحور، وهو أبو إبراهيم خليل الله، في عصر نمرود الجبار، وكان نمرود أول من عبد النار وسجد لها؛ وذلك أنه خرجت نار من الأرض، فأتاها فسجد لها، وكلمه منها شيطان، فبنى عليها، وجعل لها سدنة، وفي ذلك العصر تعاطى الناس علم النجوم، وحسبوا الكسوف للشمس والقمر والكواكب السائرة والراتبة، وتكلموا في الفلك والبروج، وكان الذي علم نمرود ذلك رجلاً، يقال له (..طق)[٤]، وكان تارح، وهو آزر أبو إبراهيم، مع نمرود الجبار[٥].

نشاته

ـ قال ابن إسحاق فيما حدثني ابن حميد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق: فلما أراد الله ﷻ أن يبعث إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، حجة على قومه، ورسولاً إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم عليه السلام من نبي قبله، إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ـ تعالى ذكره ـ ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمرود، فقالوا له:

---

(١) نمرود بن كوش بن حام، صياد جبار وملك قدير ومؤسس الأسرة الحاكمة في بابل وشنعار وأكاد، ربما كان هو نفسه جلجامش الأكادي أو البابلي. قاموس الكتاب المقدس: ٩٧٨.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٢٣٣.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٣.

(٤) كذا.

(٥) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٣ وتارح اسم عبري معناه عنزة جبلية، وكان تارح يقطن أور الكلدانيين وقضى أغلب حياته فيها، مؤثراً عبادة الأوثان على عبادة الله، وقد عبد القمر حيث كان له هيكل في أور مكرس لعبادته، وقد توفي في حاران، في طريق إبراهيم الى فلسطين، وعاش مئتين وخمس سنين. قاموس الكتاب المقدس: ٢١١.

تعلم أنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه[1]، يقال له: إبراهيم يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا.

فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود ـ قال محمد بن إسحاق[2] ـ بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته، فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم، امرأة آزر، فإنه لم يعلم بحبلها؛ وذلك أنها كانت جارية حدثة ـ فيما يذكر ـ لم تعرف الحبل. فجعل لا تلد امرأة غلاماً في ذلك الشهر من تلك السنة، إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق، خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها، فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة؛ لتنظر ما فعل، فتجده حياً يمص إبهامه. ويزعمون ـ والله أعلم ـ أن الله جعل رزق إبراهيم عليه السلام فيها ما يجيئه من مصه، وكان آزر ـ فيما يزعمون ـ قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل؟. فقالت: ولدت غلاماً فمات فصدقها، فسكت عنها. وكان اليوم فيما يذكرون على إبراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة، ولم يمكث إبراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر شهراً.

ـ قال محمد بن إسحاق[3]: وكان ابن خمس عشرة سنة[4]، حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر. فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي، مالي إلى غيره، ثم نظر في السماء، ورأى كوكباً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، ثم اطلع للقمر فرآه بازغاً ﴿فقال هذا ربي﴾ ثم اتبعه ببصره حتى غاب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس، رأى عظم الشمس ورأى شيئاً، هو أعظم نوراً من كل شيء رآه، قبل ذلك، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ

(١) كوثى ربا. في تاريخ اليعقوبي ١: ٢٣.

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٤.

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٥ قال أهل العلم بسير الماضين.

(٤) تفسير القرطبي ٧: ٢٥.

يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر، وقد استقامت وجهته، وعرف ربه وبرئ من دين قومه، إلا أنه لم يبادهم بذلك، فأخبره أنه ابنه، فأخبرته أم إبراهيم عليه السلام أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه، فسرَّ بذلك آزر، وفرح فرحاً شديداً. وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدون، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم عليه السلام فيما يذكرون، فيقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر، فصوب فيه رؤوسها، وقال: اشربي.استهزاء بقومه، وبما هم عليه من الضلالة، حتى فشا عيبه إياها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، من غير أن يكون ذلك بلغ نمرود الملك[2].

تكسير الأصنام

ثم إنه، لما بدا لإبراهيم أن يادي قومه بخلاف ما هم عليه، وبأمر الله، والدعاء إليه، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يقول الله ﷻ ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾[3]. وقوله: إني سقيم. أي طعين، أو لسقم كانوا يهربون منه، إذا سمعوا به؛ وإنما يريد إبراهيم أن يخرجوا عنه؛ ليبلغ من أصنامهم الذي يريد، فلما خرجوا عنه، خالف إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله، فقرب لها طعاماً، ثم قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[4]. تعبيراً في شأنها، واستهزاء بها[5].

ثم أقبل عليهم، كما قال الله ﷻ ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾[6]. ثم جعل يكسرهن بفأس في

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٧٦ ـ ٧٩. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٤ وتاريخ المسعودي ١: ٥٦.كانت العبادة السائدة في أور هي عبادة القمر (نانار) وزوجته (ننجال)، وقد بُنيت الزقورة لهذه العبادة. قاموس الكتاب المقدس: ١١. وربما كانت الأصنام التي كسّرها إبراهيم ترمز الى تلك الآلهة.

(٢) أصل هذه القصة في مدراش ربا، أحد الكتب المؤلفة حول التوراة. في القصص العبري القديم: ١٨٠.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ٨٨ ـ ٩٠

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٩١، ٩٢

(٥) تاريخ الطبري ١: ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

(٦) سورة الصافات، الآية: ٩٣

يده، حتى إذا بقي أعظم صنم منها، ربط الفأس بيده، ثم تركهن، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم، فراعهم ذلك فأعظموه، و﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم ذكروا ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ يعنون فتى يسبها ويعيبها ويستهزىء بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن صنع هذا بها، وبلغ ذلك نمرود وأشراف قومه، ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي ما يصنع.

قال: فلما أتى به فاجتمع له قومه ثم ملكهم نمرود ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار، وهو أكبر منها فكسرهن، ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه إلى أنفسهم فيما بينهم، فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال. ثم قالوا، وعرفو أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي لا يتكلمون فيخبرونا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدي، فنصدقك، يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك إبراهيم، حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

محاججة إبراهيم

قال: وحاجه قومه عند ذلك في الله ـ جل ثناؤه ـ يستوصفونه إياه، ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]. يضرب لهم الأمثال، ويصرّف لهم العبر؛ ليعلموا أن الله هو أحق ان يُخاف ويُعبد، مما يعبدون من دونه.

ثم إن نمرود ـ فيما يذكرون ـ قال لإبراهيم: أرأيت إلهك هذا الذي تعبد، وتدعو

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥٩ ـ ٦٢ ـ ٦٥ ـ ٦٧.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٠ ـ ٨١

إلى عبادته، وتذكره من قدرته التي تعظمه بها على غيره، ما هو؟.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فقال نمرود: فأنا ﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟.

قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي، فأقتل أحدهما، فأكون قد أمته، وأعفو عن الآخر فأتركه، فأكون قد أحييته.

فقال له إبراهيم عند ذلك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، فعرف أنه كما يقول، فبهت عند ذلك نمرود، ولم يرجع إليه شيئاً، وعرف أنه لا يطيق ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[1]. يعني وقعت عليه الحجة.

أربعة من الطير

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم[2]: أن أهل الكتاب يذكرون أنه أخذ الأطيار الأربعة، ثم قطع كل طير بأربعة أجزاء، ثم عمد إلى أربعة أجبال، فجعل على كل جبل ربعاً من كل طائر، فكان على كل جبل ربع من الطاووس، وربع من الديك، وربع من الغراب، وربع من الحمام. ثم دعاهن فقال: تعالين بإذن الله كما كنتم. فوثب كل ربع منها إلى صاحبه، حتى اجتمعن فكان كل طائر كما كان قبل أن يقطعه، ثم أقبلن إليه سعياً كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]. وقيل: يا إبراهيم، هكذا يجمع الله العباد ويحيي الموتى، للبعث من مشارق الأرض ومغاربها وشامها ويمنها. فأراه الله إحياء الموتى بقدرته، حتى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) أربعة من الطير قيل: هي الديك والطاووس والحمام والغراب ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم. تفسير القرطبي ٣: ٣٠٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

عرف ذلك بغير ما قال نمرود من الكذب والباطل[1].

تحريق إبراهيم

قال: ثم إن نمرود وقومه أجمعوا في إبراهيم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[2].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن الحسن ابن دينار، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر، فقال: أتدري يا مجاهد، من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟. قال: قلت: لا.

قال: رجل من أعراب فارس.

قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن، وهل للفرس أعراب؟.

قال: نعم، الكرد هم أعراب فارس، فرجل منهم هو الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار.

قال ابن إسحاق: فأمر نمرود بجمع الحطب، فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب، حتى أن كانت المرأة من قرية إبراهيم ـ فيما يذكر ـ لتنذر في بعض ما تطلب مما تحب، أن تدرك: لئن أصابته لتحطبن في نار إبراهيم التي يحرق بها احتساباً في دينها، حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها، قدموه وأشعلوا في كل ناحية من الحطب الذي جمعوا له، حتى إذا اشتعلت النار، واجتمعوا لقذفه فيها، صاحت السماء والأرض، وما فيها من الخلق، إلا الثقلين ـ فيما يذكرون ـ إلى الله ﷻ صيحة واحدة: أي ربنا، إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، يحرق بالنار فيك؟! فأذن لنا في نصرته. فيذكرون ـ والله أعلم ـ أن الله ﷻ حين قالوا ذلك، قال: إن استغاث بشيء منكم، أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، فإن لم يدع غيري، فأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فأنا أمنعه. فلما ألقوه فيها قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[3]. فكانت كما قال الله ﷻ.

---

(١) تفسير الطبري ٣: ٨١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

قال ابن إسحاق[1]: كانوا يجمعون الحطب شهراً، حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا، أشعلوا النار في كل ناحية بالحطب فاشتعلت النار، حتى أن كان الطير ليمرّ بها، فيحترق من شدة وهجها، ثم عمدوا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه، ثم اتخذوا منجنيقاً بإشارة إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ حيث لم يتمكنوا من إلقائه في النار من شدة حرها، فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً، فضجت السماوات والأرض والجبال ومن فيها، من الملائكة وجميع الخلق، إلا الثقلين ـ ضجة واحدة، وقالوا: أي ربنا، إبراهيم ليس في أرضك أحد، يعبدك غيره، يحرق في النار! فأذن لنا في نصرته. فقال الله تعالى لهم: إن استعان بشيء منكم أو دعاه؛ فلينصره فقد أذنت لكم في ذلك، وأن لم يدع غيري، فأنا أعلم به، وأنا وليه فخلوا بيني وبينه.

فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه ملك المياه فقال: إن أردتَ أخمدتُ النار؛ فإن خزائن المياه والأمطار بيدي. وأتاه خازن الريح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء. فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة لي إليكم. ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم، أنت الواحد في السماء وفي الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري.

قال ابن إسحاق وغيره[2]: وبعث الله عز وجل ملك الظل في صورة إبراهيم، فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه، فمكث نمرود أياماً لا يشك إلا أن النار قد أكلت إبراهيم وفرغت منه، ثم ركب فمر بها، وهي تحرق ما جمعوا لها من الحطب، فنظر إليها فرأى إبراهيم جالساً فيها إلى جنبه، رجل مثله، فرجع من مركبه ذلك، فقال: لقومه لقد رأيت إبراهيم حياً في النار، ولقد شبه علي. ابنوا لي سرحاً يشرف بي على النار، حتى أستثبت.

فبنوا له صرحاً فأشرف عليه، فاطلع منه إلى النار، فرأى إبراهيم جالساً فيها، ورأى الملك قاعداً إلى جنبه في مثل صورته، فناداه نمرود: يا إبراهيم، كبير إلهك الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بين ما أرى وبينك، حتى لم تضرك، يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟.

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٧.

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٨.

قال: نعم.

قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟.

قال: لا.

قال: فقم، واخرج منها.

فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه، قال: يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك، في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟.

قال: ذلك ملك الظل، أرسله إليَّ ربي؛ ليكون معي فيها، ليؤنسني وجعلها علي برداً وسلاماً.

فقال نمرود، فيما حدثت: يا إبراهيم، إني مقرب إلى إلهك قرباناً؛ لما رأيت من عزته وقدرته، ولما صنع بك، حين أبيت إلا عبادته وتوحيده، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة.

فقال له إبراهيم: إذن. لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك هذا، حتى تفارقه إلى ديني.

فقال: يا إبراهيم، لا أستطيع ترك ملكي، ولكني سوف أذبحها له.

فذبحها نمرود ثم كفَّ عن إبراهيم، ومنعه اللهﷻ منه[1].

الهجرة من بابل

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق[2]، قال: خرج إبراهيم مهاجراً إلى ربه، وخرج معه لوط مهاجراً وتزوج سارة ابنة عمه، فخرج بها معه؛ يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه، حتى نزل حرّان[3] فمكث فيها ما شاء الله أن يمكث، ثم

(١) قال نمرود: من اتخذ إلهاً، فليتخذه مثل إله إبراهيم. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٤.وقصة حرق إبراهيم في التلمود البابلي في القصص العبري القديم: ١٨١.

(٢) القصة في كتاب المبتدأ لوهب. قصص الأنبياء للثعلبي: ٩٠.

(٣) مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون. معجم البلدان ٢: ٢٣٥.

خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر، وبها من الفراعنة الأولى، وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن، وكانت لا تعصي إبراهيمﷺ في شيء؛ وبذلك أكرمها الله تعالى.

قال: فأتى الجبارَ رجل[1]، وقال له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة، من أحسن النساء. ووصف له حسنها وجمالها، فأرسل الجبار إلى إبراهيمﷺ، فجاءه فقال له: مل هذه المرأة منك؟.

فقال: هي أختي. وتخوّف إن قال: هي امرأتي أن يقتله، فقال له: زينها وأرسلها إليّ؛ حتى أنظر إليها.

فرجع إبراهيم إلى سارةﷺ، وقال لها: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب اللهﷻ، وإنه ليس في هذه الأرض مسلم غيري وغيرك.

ثم أقبلت سارة إلى الجبار، وقام إبراهيمﷺ يصلي، فلما دخلت عليه، ورآها، أهوى إليها، يتناولها بيده، فيبست يده إلى صدرهن فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها، وقال لها: سلي ربك أن يطلق يدي، فوالله، لا آذيتك.

فقالت سارة: اللهم، إن كان صادقاً، فأطلق له يده. فأطلق الله تعالى يده.

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري[2] قال: قال: رسول الله ﷺ: (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً)[3]. قال ابن إسحاق: سألت الزهري: ما الرحم التي ذكر رسول الله ﷺ لهم؟. قال: كانت هاجر أم إسماعيل منهم[4].

---

(١) يقال له: سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح. قصص الأنبياء للثعلبي: ٩٠.

(٢) السلمي الأنصاري المدني، روى عن أبيه وجابر وروى عنه الزهري، توفي في خلافة سليمان أو هشام ابن عبد الملك الثقات ٥: ٨٠.

(٣) صحيح ابن حبان ١٥: ٦٨ بلفظ آخر.

(٤) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٣٢.

ثم خرج من مصر إلى الشام، وهاب ذلك الملك، وأشفق من شره[1]، فنزل السبع من أرض فلسطين، وهي برية الشام[2]، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، أو أقرب من ذلك، فبعثه الله نبياً ﷺ؛ فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

إبراهيم في السبع

وأقام إبراهيم - فيما ذكر لي - بالسبع، فاحتفر به بئراً واتخذ به مسجداً، فكان ماء تلك البئر معيناً طاهراً، فكانت غنمه تردها. ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى، فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين، بين الرملة وإيليا ببلد، يقال له: قَطّ أو قِطّ[4]، فلما خرج من بين أظهرهم نضب الماء، فذهب واتبعه أهل السبع حتى أدركوه، وندموا على ما صنعوا وقالوا: أخرجنا من بين أظهرنا رجلاً صالحاً، فسألوه أن يرجع إليهم فقال: ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه. قالوا له: فإن الماء الذي كنت تشرب منه ونشرب معك منه، قد نضب فذهب. فأعطاهم سبع أعنز من غنمه فقال: اذهبوا بها معكم، فإنكم لو قد أوردتموها البئر قد ظهر الماء، حتى يكون معيناً طاهراً كما كان، فاشربوا منها، فلا تغترفن منها امرأة حائض. فخرجوا بالأعنز، فلما وقفت على البئر، ظهر إليها الماء، فكانوا يشربون منها وهي على ذلك حتى أتت امرأة طامث، فاغترفت منها فنكص ماؤها إلى الذي هو عليه اليوم ثم ثبت.

قال: وكان إبراهيم يضيف من نزل به وكان الله ﷻ قد أوسع عليه وبسط له في الرزق والمال والخدم، فلما أراد الله ﷻ هلاك قوم لوط، بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم، وكانوا قد عملوا من الفاحشة ما لم يسبقهم به أحد من العالمين مع نبيهم، وردهم عليه ما جاءهم به من النصيحة من ربهم، وأمرت الرسل أن ينزلوا على

(١) من قصص الأنبياء للثعلبي: ٧٠، وقد حذف الطبري النص كله.

(٢) سفر التكوين/ ١٢: ١٠ - ٢٠. ١٣: ١ - ٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧١. تفسير الطبري ١٧:٦٢ و قصص الأنبياء للثعلبي: ٦٩، وفي ٩٠ يقول الثعلبي: وذكر وهب في المبتدأ. ويورد الخبر نفسه.

(٤) قطة. قصص الأنبياء للثعلبي: ٧٠.

إبراهيم وأن يبشروه وسارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

فلما نزلوا على إبراهيم وكان الضيف، قد حبس عنه خمس عشرة ليلة، حتى شق ذلك عليه ـ فيما يذكرون ـ لا يضيفه أحد ولا يأتيه، فلما رآهم سُرَّ بهم، رأى ضيفاً لم يضفه مثلهم حسناً وجمالاً، فقال: لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدي. فخرج إلى أهله فجاء كما قال الله ﷻ: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[1]. قد حنذه، والحناذ الإنضاج، يقول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[2]. فقربه إليهم فأمسكوا أيديهم عنه، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين لم يأكلوا من طعامه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة ﴿قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ لما عرفت من أمر الله ﷻ ولما تعلم من قوم لوط، فبشروها ﴿بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ بابن، وبابن ابن، فقالت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾[3]. يقال: ضربت على جبينها ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[4][5]. وكانت سارة يومئذ ـ فيما ذكر لي بعض أهل العلم[6] ـ ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن عشرين ومائة سنة.

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق ويعقوب، وولد من صلب إسحاق، وأمن ما كان يخاف، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٩.

(٤) سورة هود، الآيتان ٧٢ ـ ٧٣.

(٥) سفر التكوين/١٨: ١ ـ ١٥.

(٦) عن ابن عباس قال: كانت سارة بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق وأمن ممن كان يخافه قال: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء فجاء جبريل ﷺ إلى سارة بالبشرى فقال: أبشري بولد يقال له: إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال: فضربت جبهتها عجباً فذلك قوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٤٢. وتاريخ اليعقوبي ١: ٢٦ وسفر التكوين ١٧: ١٧.

وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[١].

سارة وهاجر

قال ابن إسحاق: وكانت هاجر جارية ذات هيئة، فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت: إني أراها امرأة وضيئة، فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً. وكانت سارة قد منعت الولد، فلا تلد لإبراهيم حتى أسنت، وكان إبراهيم قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأخرت الدعوة حتى كبر إبراهيم وعقمت سارة، ثم إن إبراهيم وقع على هاجر، فولدت له إسماعيل عليه السلام، وكان عمر إبراهيم يومئذٍ ابن ست وثمانين سنة، وقال الله: إني مكثر ولدك، وجاعل فيهم الملك الباقي مدى الدهر، حتى لا يدري أحد ما عددهم[٢].

قال ابن إسحاق: فحملت سارة بإسحاق، وقد حملت هاجر بإسماعيل، فوضعتا معاً، فشبَّ الغلامان، فبينا هما يتناضلان، ذات يوم، وقد كان إبراهيم عليه السلام سابق بينهما، فسبق إسماعيل، فأخذه وأجلسه في حجره، وأجلس إسحاق إلى جانبه، وسارة تنظر إليه، فغضبت، وقالت: عمدت إلى ابن الأمة، فأجلسته في حجرك، وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جنبك، وقد جعلت أن لا تضرني، ولا تسوءني. وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة، فحلفت: لتقطعن بضعة منها، ولتغيّرن خلقها، فبقيت متحيرة في ذلك. فقال لها إبراهيم عليه السلام: أخفضيها، واثقبي أذنيها. ففعلت ذلك، فصارت سنة في النساء. ثم إن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام اقتتلا، ذات يوم، كما تفعل الصبيان، فغضبت سارة على هاجر، ثم قالت: لا تساكني في بلد[٣]. وأوحى الله إلى إبراهيم: أن يأتي مكة. وليس يومئذ بمكة بيت، فذهب بها إلى مكة[٤] وابنها فوضعهما، وقالت له هاجر: إلى من تركتنا ها هنا؟.

بناء البيت

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: حدثنا عبد الله بن أبي

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩. تاريخ الطبري ١: ٢٤٧ - ٢٤٩ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٧١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٥ وسفر التكوين ١٦: ١٦.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ٧١.

(٤) فاران. في سفر التكوين/ ٢١: ٢١.

نجيح[1]، عن مجاهد، وغيره من أهل العلم[2]: إن الله ﷻ لما بوّأ لإبراهيم مكان البيت، ومعالم الحرم، فخرج وخرج معه جبرئيل. يقال: كان لا يمر بقرية إلا قال: بهذه أمرت يا جبرائيل؟. فيقول جبرائيل: امضه. حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه سَلَم وسَمُر، وبها أناس يقال لهم: العماليق، خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة. فقال إبراهيم لجبرائيل: أها هنا أمرتَ أن أضعهما؟. قال: نعم. فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً فقال ربنا: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[3]. ثم انصرف إلى أهله بالشام، وتركهما عند البيت.

قال: فظمىء إسماعيل ظمأ شديداً، فالتمست له أمه ماء فلم تجده، فتسمَّعت، هل تسمع صوتاً؛ لتلتمس له شراباً، فسمعت كالصوت عند الصفا، فأقبلت حتى قامت عليه فلم تر شيئاً، ثم سمعت صوتاً نحو المروة، فأقبلت حتى قامت عليه فلم تر شيئاً. ويقال:

---

(١) عبد الله بن أبي نجيح الإمام الثقة المفسر، أبو يسار الثقفي المكي، توفي سنة ١٣١ هـ. سير أعلام النبلاء ٦: ١٢٥.

(٢) قال وهب بن منبه: لما أهبط الله ﷻ آدم ﵇ من الجنة إلى الأرض حزن واشتد بكاؤه عليها فعزاه الله بخيمة من خيامها فجعلها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة وكانت ياقوتة حمراء وقيل: درة مجوفة من جوهر الجنة فيها قناديل من ذهب ونزل معها الركن يومئذ وهو ياقوتة بيضاء وكان كرسياً لآدم فلما كان في زمن الطوفان رفع ومكثت الأرض خراباً ألفي سنة ـ أعني موضع البيت ـ حتى أمر الله نبيه إبراهيم أن يبنيه فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم، فبنى هو وإسماعيل البيت على ما ظللته، ولم يجعلا له سقفاً وحرس الله آدم والبيت بالملائكة، فالحرم مقام الملائكة يومئذ، وقد روي أن خيمة آدم لم تزل منصوبة في مكان البيت إلى أن قبض فلما قبض رفعت، فبنى بنوه في موضعها بيتاً من الطين والحجارة ثم نسفه مكانه، حتى بعث الله إبراهيم ﵇ فحفر قواعده وبناه على ظل الغمامة، فهو ﴿أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ آل [عمران: ٩٦]. كما قال الله ﷻ وكان الناس قبله يحجون إلى مكة وإلى موضع البيت، حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم لما أراد الله من عمارته وإظهاره دينه وشعائره، فلم يزل البيت منذ أهبط آدم إلى الأرض معظماً محرماً تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة، وكانت الملائكة تحجه قبل آدم فلما أراد إبراهيم بناءه عرج به إلى السماء، فنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقيل له: اختر، فاختار موضع مكة، فقالت الملائكة: يا خليل الله، اخترت موضع مكة وحرم الله في الأرض. فبناه وجعل أساسه من سبعة أجبل، ويقال: من خمسة أو من أربعة، وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم من تلك الجبال. معجم البلدان ٤: ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

بل قامت على الصفا تدعو الله، وتستغيثه لإسماعيل، ثم عمدت إلى المروة ففعلت ذلك، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادي نحو إسماعيل حيث تركته، فأقبلت إليه تشتد، فوجدته[1] يفحص الماء بيده من عين، قد انفجرت من تحت يده، فشرب منها وجاءتها أم إسماعيل، فجعلتها حسياً، ثم استقت منها في قربتها لإسماعيل، فلولا الذي فعلت، ما زالت زمزم معيناً طاهراً ماؤها أبداً.

قال: ومرت رفقة من جرهم تريد الشام، فرأوا الطير على الجبل، فقالوا: إن هذا الطير لعائف على ماء، فهل علمتم بهذا الوادي من ماء؟. فقالوا: لا. فأشرفوا فإذا هم بالإنسانة، فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا[2] معها، فأذنت لهم. قال: وأتى عليها ما يأتي على هؤلاء الناس من الموت فماتت[3].

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن الحسن ابن عمارة[4]، عن سماك بن حرب[5]، عن خالد بن عرعرة[6]، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان يقول: لما أمر الله إبراهيم بعمارة البيت، والأذان بالحج في الناس، خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأم إسماعيل هاجر، وبعث الله معه السكينة، وهي ريح لها لسان تكلم به، يغدو معها إبراهيم إذا غدت، ويروح معها إذا راحت، حتى انتهت به إلى مكة، فلما أتت موضع البيت استدارت به، ثم قالت لإبراهيم: ابن عليّ. ابن عليّ. فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو وإسماعيل، حتى انتهيا إلى موضع الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني ابغ لي حجراً أجعله علماً للناس. فجاءه بحجر فلم يرضه وقال: أبغي غير هذا. فذهب إسماعيل ليلتمس له حجراً، فجاءه وقد

(١) وجدت الطائر. في رواية البغوي: ١: ٢٥.
(٢) جرهم والعماليق. تاريخ المسعودي ١: ٥٨.
(٣) تاريخ الطبري ١: ٢٥٥ - ٢٥٦ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٧١ - ٧٢.
(٤) الحسن بن عمارة أبو محمد مولى بجيلة، توفي سنة ١٥٤ هـ. التاريخ الكبير ٢: ٣٠٣.
(٥) سماك بن حرب بن أوس الحافظ الإمام الكبير أبو المغيرة الذهلي البكري الكوفي، توفي سنة ١٢٣ هـ سير أعلام النبلاء ٥: ٢٤٥.
(٦) خالد بن عرعرة السهمي، كوفي روى عن علي بن أبي طالب - رض - روى عنه سماك. الجرح والتعديل ٣: ٣٤٣.

أتي بالركن[١]، فوضعه في موضعه، فقال: يا أبت، من جاءك بهذا الحجر؟. قال: من لم يكلني إليك يا بنيّ[٢].

حج إبراهيم

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن عمر بن عبد الله بن عروة[٣]: أن عبد الله بن الزبير[٤]، قال لعبيد بن عمير الليثي[٥]: كيف بلغك أن إبراهيم دعا إلى الحج؟.

قال: بلغني أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت، وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك، وحضر الحج، استقبل اليمن، فدعا إلى الله وإلى حج بيته، فأجيب أن لبيك اللهم لبيك. ثم استقبل المشرق، فدعا إلى الله وإلى حج بيته، فأجيب أن لبيك اللهم. ثم إلى المغرب، فدعا إلى الله وإلى حج بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك. ثم إلى الشام فدعا إلى الله ﷻ وإلى حج بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك، ثم خرج بإسماعيل[٦]، وهو معه يوم التروية، فنزل به منى ومن معه من المسلمين، فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بهم حتى أصبح، فصلى بهم صلاة الفجر، ثم غدا

(١) عن وهب أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، نزلا فوضعا على الصفا فأضاء نورهما لأهل الأرض ما بين المشرق والمغرب، كما يبدو القمر في الليل المظلم، يؤنس الروعة ويستأنس إليه، وليبعثن الركن والمقام، وهما في العظم مثل أبي قبيس، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء، فرفع الله تعالى النور عنهما وغير حسنهما فوضعهما حيث هما، وقال وهب في حديثه هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن حرمة البيت لإلى العرش في السماوات وإلى الأرضين السفلى. أخبار مكة ١: ٩٥.

(٢) تاريخ الطبري ١:٢٥٣.

(٣) عمر بن عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي المدني، روى عن جده، وروى عنه محمد بن إسحاق. الثقات ٧: ١٦٦.

(٤) عبد الله بن الزبير بن العوام أبو بكر القرشي، سمع من النبي ﷺ وهو أول مولود ولد في الإسلام. الجرح والتعديل ٦: ٥٦.

(٥) عبيد بن عمير الليثي، قاص أهل مكة أبو عاصم، روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب. الجرح والتعديل ٥: ٤٠٩.

(٦) في تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧ أن جبريل يعلّم إبراهيم، ولا ذكر لإسماعيل..

بهم إلى عرفة، فقال بهم هنالك، حتى إذا مالت الشمس، جمع بين الوقوف الظهر والعصر.

ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة، فوقف بهم على الأراك، وهو الموقف من عرفة الذي يقف عليه الإمام يريه ويعلمه، فلما غربت الشمس، دفع به وبمن معه، حتى أتى المزدلفة، فجمع فيها بين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بها وبمن معه، حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة، ثم وقف به على قزح من المزدلفة فيمن معه، وهو الموقف الذي يقف به الإمام، حتى إذا أسفر، دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع، حتى رمى الجمرة الكبرى. وأراه المنحر من منى، ثم نحر وحلق ثم أفاض به من منى ليريه كيف يطوف، ثم عاد به إلى منى ليريه كيف يرمي الجمار، حتى فرغ له من الحج وأذن به في الناس(١).

قال ابن إسحاق: وبلغني(٢) أن آدمعليه السلام كان يستلم الأركان كلها قبل إبراهيمعليه السلام.

وقال: حج إسحاق وسارة من الشام، وكان إبراهيمعليه السلام يحجّه كل سنة على البراق، وحجته بعد ذلك الأنبياء والأمم(٣).

النبيح

- حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة قال: ثني ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر(٤)، عن محمد بن مسلم الزهري(٥)، عن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة الثقفي(٦)،

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) عن وهب بن منبه، عن كعب قال: طاف بهذا البيت ثلاثمائة رسول آخرهم محمد ﷺ واثنا عشر ألف مصطفى، وصلوا في الحجر قبل المقام، وما منهم أحد تكلم في طوافه بشيء إلا بذكر الله ﷻ حتى يخلو وما منهم أحد صلى بعد العصر، حتى غربت الشمس. أخبار مكة ١: ٢٠٣.

(٣) تفسير القرطبي ٢: ١٣٠.

(٤) عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، روى عن الزهري، وروى عنه ابن إسحاق، توفي سنة ١٣٠ او ١٣٥ هـ. تهذيب الكمال ١٤: ٣٤٩.

(٥) محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهري القرشي المدني نزيل الشام، توفي سنة ١٢٤ هـ. التاريخ الكبير ١: ٢٢٠.

(٦) لعله عمر بن العلاء بن حارثة الثقفي يروي عن أبيه عن أبي هريرة. الثقات ٧: ١٧٣.

حليف بني زهرة، عن أبي هريرة[١]، عن كعب الأحبار[٢]: أن الذي أمر إبراهيم بذبحه من ابنيه إسحاق[٣]، وأن الله لما فرج له ولابنه من البلاء العظيم الذي كان فيه، قال الله لإسحاق: إني قد أعطيتك، بصبرك لأمري، دعوة أعطيك فيها ما سألت فسلني. قال: رب، أسألك أن لا تعذب عبداً من عبادك لقيك، وهو يؤمن بك. فكانت تلك مسألته التي سأل[٤].

ـ قال ابن إسحاق: وأهل الكتاب لا يختلفون أنه إسحاق[٥].

---

(١) صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات، توفي سنة ٥٩ هـ. سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٨.

(٢) كعب بن مانع الحميري، كعب الأحبار، من كبار علماء أهل الكتاب،وتوفي سنة٣٢هـ. تهذيب الكمال ٢٤: ١٨٩.

(٣) عن وهب بن منبه قال: حين أمر الله إبراهيم أن يذبحه، وهب الله لإبراهيم إسحاق في الليلة التي فارقته الملائكة، فلما كان ابن سبع، أوحى الله إلى إبراهيم أن يذبحه ويجعله قرباناً، وكان القربان يومئذ يتقبل ويرفع، فكتم إبراهيم ذلك الناس وأسره إلى خليل له، فقال العازر الصديق، وهو أول من آمن بإبراهيم وقوله، فقال له الصديق: إن الله لا يبتلي بمثل هذا مثلك، ولكنه يريد أن يجربك ويختبرك، فلا تسوءن بالله ظنك، فإن الله يجعلك للناس إماماً، ولا حول ولا قوة لإبراهيم وإسحاق، إلا بالله الرحمن الرحيم.
فذكر وهب حديثاً طويلاً إلى أن قال: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال: (سبق إسحاق الناس إلى دعوة، ما سبقها إليه أحد، ويقومن يوم القيامة، فليشفعن لأهل هذه الدعوة). وأقبل الله على إبراهيم في ذلك المقام، فقال: اسمع مني يا إبراهيم، يا أصدق الصادقين. وقال لإسحاق: اسمع مني يا أصبر الصابرين، فإني قد ابتليتكما اليوم ببلاء عظيم لم أبتل به أحداً من خلقي. ابتليتك يا إبراهيم، بالحريق فصبرت صبراً، لم يصبر مثله أحد من العالمين، وابتليتك بالجهاد فيّ، وأنت وحيد وضعيف، فصدقت وصبرت صبراً وصدقاً، لم يصدق مثله أحد من العالمين، وابتليتك يا إسحاق: بالذبح فلم تبخل بنفسك، ولم تعظم ذلك في طاعة أبيك، ورأيت ذلك هنيئاً صغيراً في الله، كما يرجو من أحسن ثوابه ويسر به حسن لقائه. وإني أعاهدكما اليوم عهداً لا أخيس به: أما أنت يا إبراهيم، فقد وجبت لك الجنة عليّ، فأنت خليلي من بين أهل الأرض دون رجال العالمين، وهي فضيلة لم ينلها أحد قبلك ولا أحد بعدك. فخر إبراهيم ساجداً؛ تعظيماً لما سمع من قول الله، متشكراً لله. وأما أنت يا إسحاق، فتمن علي بما شئت وسلني واحتكم، أؤتك سؤلك. قال: أسألك يا إلهي أن تصطفيني لنفسك وأن تشفعني في عبادك الموحدين، فلا يلقاك عبد لا يشرك بك شيئاً إلا أجرته من النار. قال له ربه: أوجبت لك ما سألت وضمنت لك ولايتك، ما وعدتكما على نفسي وعداً لا أخلفه، وعهداً لا أخيس به، وعطاء هنيئاً ليس بمردود. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٤٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٣: ٩٦. ٩٨.وتاريخه ١: ٢٦٥.

(٥) البدء والتاريخ ٣: ٦٤.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي[١]، وهو يقول: إن الذي أمر الله ﷻ إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل[٢]، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله ﷻ في قصة الخبر عن إبراهيم، وما أمر به من ذبح ابنه، أنه إسماعيل؛ وذلك أن الله ﷻ يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[٣]. ويقول: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[٤]. يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق، وله فيه من الله من الموعود ما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن بريدة ابن سفيان بن فروة الأسلمي[٥]، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز[٦]، وهو خليفة إذ كان معه بالشأم، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم فحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك، قال محمد بن كعب القرظي: وأنا عند عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟. فقال إسماعيل: والله، يا أمير المؤمنين إن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم ـ معشر العرب ـ على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره، على ما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم[٧].

---

(١) محمد بن كعب القرظي أبو حمزة، سكن الكوفة،ثم تحول الى المدينة، توفي سنة ١٠٨. الجرح والتعديل ٨: ٦٧.

(٢) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٣٩، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ثم المفدي إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٣٧، ٤٠٣٤.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٧١.

(٥) روى عنه محمد بن إسحاق، وأفلح بن سعيد المدني. التاريخ الكبير ٢: ١٤١.

(٦) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي، الخليفة الصالح، توفي ١٠١هـ. تهذيب الكمال ٢١: ٤٣٢.

(٧) قصص الأنبياء للثعلبي: ٨٠ ـ ٨١.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن بن أبي الحسن البصري، أنه كان لا يشك في ذلك: أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل(1).

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق قال: كان إبراهيم ـ فيما يقال ـ إذا زارها، يعني هاجر، حُمل على البراق، يغدو من الشام فيقبل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه؛ لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أُري في المنام أن يذبحه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم: أن إبراهيم حين أمر بذبح ابنه، قال: له يا بني خذ الحبل والمدية، ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب؛ ليحطب أهلك منه. قبل أن يذكر له شيئاً مما أمر به، فلما وجه إلى الشعب اعترضه عدو الله إبليس عن أمر الله، في صورة رجل، فقال: أين تريد أيها الشيخ؟.

قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه.

فقال: والله، إني لأرى الشيطان، قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح بنيك هذا، فأنت تريد ذبحه. فعرفه إبراهيم.

فقال: إليك عني أي عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي فيه.

فلما يئس عدو الله إبليس من إبراهيم، اعترض إسماعيل، وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة، فقال له: يا غلام، هل تدري أين يذهب بك أبوك؟.

قال: يحطب أهلنا من هذا الشعب.

قال: والله، ما يريد إلا أن يذبحك.

قال: لم ؟!.

قال: زعم أن ربه أمره بذلك.

---

(1) تاريخ الطبري ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(2) القصة عن أبي هريرة عن كعب الأحبار، وعن ابن إسحاق في قصص الأنبياء للثعلبي: ٨٣.

قال: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعاً وطاعة.

فلما امتنع منه الغلام، ذهب إلى هاجر أم إسماعيل، وهي في منزلها، فقال لها: يا أم إسماعيل، هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل؟.

قالت: ذهب به من هذا الشعب.

قال: ما ذهب به إلا ليذبحه.

قالت: كلا. هو أرحم به، وأشد حباً له من ذلك.

قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك.

قالت: إن كان ربه أمره بذلك فطوعاً لأمر الله.

فرجع عدو الله بغيظه، لم يصب من آل إبراهيم شيئاً مما أراد، وقد امتنع منه إبراهيم وآل إبراهيم بعون الله، وأجمعوا لأمر الله بالسمع والطاعة.

فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب وهو - فيما يزعمون شعب ثبير[1] - قال له: ﴿يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ... قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[2].

قال: وإن إسماعيل قال له عند ذلك: يا أبت، إن أردت ذبحي فاشدد رباطي، لا يصبك مني شيء فينقص أجري؛ فإن الموت شديد، وإني لا آمن أن أضطرب عنده، إذا وجدت مسة شفرتك، حتى تجهز عليَّ، وإذا أنت أضجعتني لوجهي على جبيني، ولا لشقي، فإني أخشى إن أنت نظرت في وجهي، أن تدركك رقة تحول بينك، وبين أمر الله فيَّ، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي، فإنه عسى أن يكون هذا أسلى لها عني، فافعل.

قال: يقول له إبراهيم: نعم العون أنت، يا بني، على أمر الله. قال: فربطه كما أمره

(١) ثبير جبل بمكة يقال له: حراء. معجم البلدان ٢: ٢٣٣ ويزعم أهل الكتاب أن الذبيح إسحاق، وأن الشروع بالذبح كان في برية الأموريين بالشام. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٨.وهو في سفر التكوين/ ٦: ٢٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

إسماعيل فأوثقه ثم شحذ شفرته، ثم تله للجبين واتقى النظر في وجهه، ثم أدخل الشفرة لحلقه، فقلبها الله في يده، ثم اجتذبها إليه ليفرغ منه، فنودي: ﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ هذه ذبيحتك؛ فداء لابنك فاذبحها دونه. يقول الله ﷻ ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ وإنما تتل الذبائح على خدودها، فكان مما صدق عندنا هذا الحديث عن إسماعيل في إشارته على أبيه بما أشار، إذ قال: كبّني على وجهي، قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة ابن دعامة[2]، عن جعفر بن إياس[3]، عن عبد الله بن العباس في قوله: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، قال: خرج عليه كبش من الجنة، قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه، واتبع الكبش فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرمى بسبع حصيات فأخرجه عندها، فجاء الجمرة الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده، لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه عند ميزاب الكعبة، قد وخش، يعني يبس.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ابن إسحاق: ويزعم أهل الكتاب الأول، وكثير من العلماء: أن ذبيحة إبراهيم التي فدى بها ابنه، كبش أملح أقرن أعين[4].

ـ ولما ماتت[5] سارة بنت هاران، زوجة إبراهيم، تزوج إبراهيم بعدها ـ فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ـ قطورا[6] بنت يقطن، امرأة من

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٧.

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة الحافظ العلامة أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير، توفي سنة ١١٧ هـ. تذكرة الحفاظ ١: ١٢٢.

(٣) جعفر بن إياس البشكري، يعد في البصريين، توفي سنة ١٢٤ هـ. التاريخ الكبير ٢: ١٨٦.

(٤) تفسير الطبري ٢٣:١٠٤ـ ١٠٥.وتاريخه ١: ٢٧٣ ـ ٢٧٧.

(٥) في القصص العبري القديم: ١٩٦ أن سارة ماتت من شدة فرحها؛ لنجاة ابنها إسحاق من الذبح.

(٦) قطورة، قنطوراء. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٨ وتاريخ المسعودي ١: ٥٨.

الكنعانيين، فولدت له ستة نفر: يقسان بن إبراهيم وزمران بن إبراهيم ومديان بن إبراهيم، ويسبق بن إبراهيم، وسوح بن إبراهيم، وبسر بن إبراهيم[1]، فكان جميع بني إبراهيم ثمانية، بإسماعيل وإسحاق، وكان إسماعيل بكره أكبر ولده.

قال: فنكح يقسان بن إبراهيم رعوة بنت زمر بن يقطن بن لوذان بن جرهم بن يقطن بن عابر، فولدت له البربر ولفها، وولد زمران بن إبراهيم المزامير الذين لا يعقلون، وولد لمديان أهل مدين، قوم شعيب بن ميكائيل النبي، فهو وقومه من ولده، بعثه الله ﷺ إليهم نبياً[2].

لوط

واستجاب لإبراهيم ﷺ رجال من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، على خوف من نمرود وملأه، فآمن له لوط، وكان ابن أخيه، وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم[3]، وكان لهما أخ ثالث، يقال له: ناحور بن تارخ، فهاران أبو لوط، وناحور أبو تنويل، وتنويل أبو لابان، ورفقة بنت تنويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب، وليا وراحيل زوجتا يعقوب، وهما ابنتا لابان، وآمنت به سارة، وهي ابنة عمه،

(١) تاريخ الطبري ١: ٣٠٩ وتاريخ اليعقوبي ١: ٢٨ وتاريخ المسعودي ا: ٥٨ وسفر التكوين ١: ٢٥ وما بعدها بألفاظ مختلفة.كتب مؤلف قاموس الكتاب المقدس: ٧٣٩ (وهم آباء ستة قبائل من العرب، وذكر مؤرخو العرب قبيلة قطورا التي تسكن بالقرب من مكة)، وهذا يظهر أهمية قصة إبراهيم على خارطة النسب من جهة، وتنازع الأمم في الانتساب إليه من جهة ثانية.

(٢) عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: ثم اختتن إبراهيم ﷺ وله عشرون ومائة سنة بالقدوم، ومات وهو ابن مائتي سنة. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٢٢.

(٣) تاريخ المسعودي ١: ٥٧. قال الحاكم:قد اتفقت الروايات على أنه (لوط) من بيت إبراهيم ﷺ ثم اختلفوا أهو من ولده أو من ولد أخيه، عن وهب بن منبه قال: ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم امرأة يقال لها: حجورا فولدت له سبعة نفر بافس ومدين وكيسان ولوط وسرخ وأميم ونعشان وذكر أيضاً في هذا الكتاب وهب مدين درجات لإبراهيم وأن لوطاً كان منهم. وعن عباس رضي الله عنهما قال: ثم ولوط النبي ﷺ كان ابن أخي إبراهيم الخليل ﷺ هذا إسناد صحيح وفي كتاب إسماعيل بن عبد الكريم عن عبد الصمد بن مغفل قال: سمعت وهب بن منبه يقول: خرج إبراهيم بامرأته سارة ومعها أخوها لوط إلى أرض الشام وهو في قول ثالث. وعن محمد بن إسحاق قال: ثم ولوط النبي ﷺ هو لوط بن فاران بن آزر بن باخور بن أخي إبراهيم الخليل، والمؤتفكة هم قوم لوط. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٥١ - ٤٠٥٤.

وهي سارة بنت هاران الأكبر، عم إبراهيم، وكانت لها أخت، يقال لها: ملكا، امرأة ناحور[1].

مجادلة إبراهيم الملائكة

- حدثنا[2] ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى، يعني إبراهيم - جادل عن قوم لوط، ليرد عنهم العذاب.

قال: فيزعم أهل التوراة أن مجادلة إبراهيم إياهم، حين جادلهم في قوم لوط؛ ليرد عنهم العذاب - إنما قال للرسل، فيما يكلمهم به: أرأيتم إن كان فيهم مئة مؤمن أتهلكونهم؟.

قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كانوا تسعين؟.

قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كانوا ثمانين؟.

قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كانوا سبعين؟.

قالوا: لا.

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢٣٨ - ٢٤٤.وقصص الأنبياء للثعلبي ٦٨ - ٦٩.

(٢) عن وهب بن منبه، قال: كان أهل سدوم الذين فيهم لوط، قوم سوء قد استغنوا عن النساء بالرجال، وذلك أن إبليس - لعنه الله تعالى- تراءى لهم في صورة غلام أمرد، ثم أمرهم أن ينكحوه، فاشتهوا ذلك حتى تركوا نكاح النساء، وأقبلوا على نكاح الذكران، فنهاهم لوط، فلم ينتهوا، وجاروا في الأحكام حتى ضرب بهم في الجور المثل، وقالوا: أجور من حكم سدوم! وكان الرجل منهم، إذا نال أحداً بمكروه، فضربه، أو سخه، قال له: أعطني أجراً على فعلي بك. وكان لهم حاكمان يقال لهما: شقرى وشقروني يحكمان بالجور والظلم والهوان، فلما رأى الله ذلك منهم، بعث الملائكة ليعذبوهم فأتوا إبراهيم، فكان من أمره وأمرهم ما ذكره الله تعالى في كتابه. تفسير الطبري ١٢: ١٠٣ وتاريخ اليعقوبي ١: ٢٥ - ٢٦.

قال: أفرأيتم إن كانوا ستين؟.

قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كانوا خمسين؟.

قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كان رجلاً واحداً مسلماً؟.

قالوا لا.

فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمناً واحداً، قالوا: إن فيها لوطاً يدفع به عنهم العذاب[1].

قالوا: نحن أعلم بمن فيها، ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[2]. قالوا: يا إبراهيم، أعرض عن هذا؛ إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم مردود[3].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: خرجت الرسل ـ فيما يزعم أهل التوراة ـ من عند إبراهيم إلى لوط بالمؤتفكة، فلما جاءت الرسل لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً؛ وذلك من تخوف قومه عليهم أن يفضحوه في ضيفه، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[4].

قال: لما جاءت الرسل لوطاً، أقبل قومه إليهم حين أخبروا بهم، يهرعون إليه، فيزعمون ـ والله أعلم ـ أن امرأة لوط هي التي أخبرتهم بمكانهم، وقالت: إن عند لوط لضيفاناً، ما رأيت أحسن ولا أجمل قط منهم، وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فاحشة، لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فلما جاؤوه ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ

(١) سفر التكوين/ ١٨: ٢٣ ـ ٣٣ بلفظ مقارب.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٢.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٠٣ ـ ١٠٤.والقصة عن ابن عباس في قصص الأنبياء للثعلبي: ٩١.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٧. تفسير الطبري ١٢: ١٠٦ ـ ١٠٧.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]. أي ألم نقل لك: لا يقربنك أحد، فإنا لن نجد عندك أحداً، إلا فعلنا به الفاحشة. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[2]. فأنا أفدي ضيفي منكم بهن، ولم يدعهم إلا إلى الحلال من النكاح[3].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما قال لوط لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[4] والرسل تسمع ما يقول وما يقال له، ويرون ما هو فيه من كرب ذلك، فلما رأوا ما بلغه، ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ أي بشيء تكرهه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[5]. أي إنما ينزل بهم العذاب من صبح ليلتك هذه فامض لما تؤمر.

هلاك قوم لوط

ـ قال: ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدث: أن الرسل عند ذلك، سُفعوا في وجوه الذين جاؤوا لوطاً من قومه، يراودونه عن ضيفه فرجعوا عمياناً[6]، قال: يقول الله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[7]. فأدخل ميكائيل، وهو صاحب العذاب، جناحيه حتى بلغ أسفل الأرضين، فقلبها فنزلت حجارة من السماء، فتتبع من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا، فأهلكهم الله ونجى لوطاً وأهله إلا امرأته[8].

ـ حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن الله تعالى، بعث جبرائيل إلى المؤتفكة، قرية

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٠

(٢) سورة هود، الآية: ٧٨.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ١١١.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٥) سورة هود، الآية: ٨١.

(٦) سفر التكوين/ ١٩: ١١ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٩٢.

(٧) سورة القمر، الآية: ٣٧. تفسير الطبري ١٢: ١٢١.

(٨) تاريخ الطبري ١: ٣٠٤.

قوم لوط التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحيه ثم أصعد بها، حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله ﷻ بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[1]. فأهلكها الله تعالى وما حولها من المؤتفكات، وكن خمس قريات: صبعة وصعرة وعمرة ودوما وسدوم[2] هي القرية العظمى، ونجى الله تعالى لوطاً ومن معه من أهله إلا امرأته كانت فيمن هلك[3].

زيارة إبراهيم ابنه إسماعيل

ـ قدم إبراهيم، وقد ماتت هاجر، إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس ها هنا، ذهب يتصيد. وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع. فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ هل عندك طعام أو شراب؟. قالت: ليس عندي، وما عندي أحد. قال إبراهيم: إذا جاء زوجك، فأقرئيه السلام، وقولي له فليغير عتبة بابه. وذهب إبراهيم، وجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟. قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا. كالمستخفة بشأنه. قال: فما قال لك؟. قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام، وقولي له: فليغير عتبة بابه. فطلقها وتزوج أخرى[4].

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له واشترطت عليه ألا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟. قالت: ذهب يتصيد، وهو يجيء الآن، إن شاء الله، فانزل يرحمك الله.

قال لها: هل عندك ضيافة؟.قالت: نعم.قال: هل عندك خبز أو بر أو شعير أو تمر؟.فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر، لكانت أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً.فقالت: انزل حتى أغسل رأسك. فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

(٢) سدوم وعمورا وأدموتا وصاعورا و صابيورا. تاريخ المسعودي ١: ٥٧ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٩٣.

(٣) تفسير الطبري ١٢: ١٢٨ ـ ١٢٩ وتاريخه ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٤) هي الحيفاء بنت مضاض الجرهمية. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧.

شق رأسه الأيمن ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك، فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك.

فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟.قالت: نعم. شيخ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، فقال لي: كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام.قال: وما قال لك؟.قالت: قال لي: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. قال ذلك: إبراهيم.فلبث ما شاء الله أن يلبث[١].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ولد لإسماعيل بن إبراهيم اثنا عشر رجلاً، وأمهم السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي: نابت بن إسماعيل، وقيدر بن إسماعيل، وأدبيل بن إسماعيل، وميشا بن إسماعيل، ومسمع بن إسماعيل، ودما بن إسماعيل، وماس بن إسماعيل، وأدد بن إسماعيل، وطور بن إسماعيل، ونفيس بن إسماعيل، وطما بن إسماعيل، وقيدمان بن إسماعيل[٢].

قال: وكان عمر إسماعيل ـ فيما يزعمون ـ ثلاثين ومائة سنة[٣]، ومن نابت وقيدر نشر الله العرب ونبأ الله ﷺ إسماعيل فبعثه إلى العماليق ـ فيما قيل ـ وقبائل اليمن[٤].

ـ أخبرنا رؤيم بن يزيد المقري[٥]، أخبرنا هارون بن أبي عيسى الشآمي[٦]، عن

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢٥٦ ـ ٢٥٩. وفي قصص الأنبياء للثعلبي ٧٢ ـ ٧٣ وفي تاريخ اليعقوبي ١: ٢٦ وتاريخ المسعودي ٢: ١٩.

(٢) نابت وقيدار وأديل ومبسم ومشمع ودوما ودوام ومتا وحداد وثيما ويطور ونافش. في تاريخ المسعودي ٢: ٢٢.

(٣) مائة وسبع وثلاثون سنة. تاريخ المسعودي ٢: ٢١.

(٤) تاريخ الطبري ١: ٣١٤ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٨٨. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من نطق بالعربية ووضع الكتاب على لفظه ومنطقه ثم جعل كتاباً واحداً مثل بسم الله الرحمن الرحيم الموصول حتى فرق بينه ولده ـ إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٢٩.

(٥) رويم بن يزيد أبو الحسن المقرىء روى عن هارون بن أبي عيسى، توفي سنة ٢١١هـ. تاريخ بغداد ٨: ٤٢٩.

(٦) هارون بن أبي عيسى الشامي، كاتب محمد بن إسحاق. التاريخ الكبير ٨: ٢٢٤.

محمد بن إسحاق بن يسار، قال: وُلد لإسماعيل بن إبراهيم - صلى الله عليهما[1] - اثنا عشر رجلاً وهم: يناوذ وهو نبت وهو نابت، وهو أكبر ولده، وقيذر، وأذبل، ومنسى وهو منشى، ومسمع وهو مشماعة، ودما وهو دوما، وبه سميت دومة الجندل، وماشى، وأذر وهو أذور، وطيما، ويطور، وينش، وقيذما، وأمهم في رواية محمد بن إسحاق، رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وهي رعلة بنت يشجب بن يعرب على ما نسبها في حديثه الأول، وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق ابنة صبدى[2] قبل الجرهمية، وهي التي كان جاءها إبراهيم، فجفته في القول، ففارقها إسماعيل ولم تلد له شيئاً[3].

إسحاق

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: نكح إسحاق بن إبراهيم[4] رفقا بنت تنويل بن إلياس[5]، فولدت له عيص[6] بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق. يزعمون أنهما كانا توأمين، وأن عيصاً كان أكبرهما، ثم نكح عيص بن إسحاق ابنة عمه بسمة[7]، ابنة إسماعيل بن إبراهيم، فولدت له الروم بن عيص، فكل بني الأصفر

---

(١) عن كعب قال: كان إسماعيل بن إبراهيم نبي الله الذي سماه صادق الوعد وكان رجلاً فيه حدة يجاهد أعداء الله ويعطيه الله النصر عليهم والظفر وكان شديد الحرب على الكفار لا يخاف في الله لومة لائم صغير الرأس غليظ اليدين والرجلين يضرب بيديه ركبتيه وهو قائم صغير الأنف عريض الأصابع بارز الخلق قوي شديد عنيف على الكفار وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً قال: وكانت زكاته القربان إلى الله من أموالهم وكان لا يعد أحداً شيئاً إلا أنجزه فسماه الله صادق الوعد وكان رسولاً نبياً. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٣٣.

(٢) وهي الجداء بنت سعد العملاقي. تاريخ المسعودي ١: ١٩.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد ١:٥١.

(٤) عن كعب الأحبار، قال: كان إسحاق بن إبراهيم الذي جعله الله نوراً وضياء وقرة عين لوالديه فكان من أحسن الناس وجها وأكثره جمالاً وأحسنه منطقاً فكان أبيض جعد الرأس واللحية مشبهاً بإبراهيم خلقاً وخلقاً وولد لإسحاق يعقوب وعيص فكان يعقوب أحسنهما وأنطقهما وأكثرهما جمالاً وظرفاً وكان عيص كثير شعر الرأس والجسد والوجه وكان يسكن الروم فيما حدث سمرة بن جندب. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٤٣.

(٥) تاريخ المسعودي ١: ٥٨ - ٥٩ وفي سفر التكوين/ ٢٤: ١٥ وما بعد كامل القصة.

(٦) عيصو.

(٧) نسيمة في قصص الأنبياء للثعلبي: ٩٠.

من ولده. قال: وبعض الناس يزعم أن الأشبان من ولده، ولا أدري أمن ابنة إسماعيل، أم لا.

ونكح يعقوب بن إسحاق، وهو إسرائيل، ابنة خاله ليا ابنة ليان بن بتويل بن إلياس، فولدت له رويل بن يعقوب، وكان أكبر ولده، وشمعون بن يعقوب، ولاوى بن يعقوب، ويهوذا بن يعقوب، وزبالون بن يعقوب، ويسحر بن يعقوب، ودينة ابنة يعقوب، وقد قيل في يسحر: إن اسمه يشحر. ثم توفيت ليا بنت لبان، فخلف يعقوب على أختها راحيل بنت لبان بن بتويل بن إلياس، فولدت له يوسف بن يعقوب، وبنيامين بن يعقوب، وهو بالعربية شداد.

وولد له من سريتين ـ اسم إحداهما زلفة، واسم الأخرى بلهة ـ أربعة نفر: دان بن يعقوب، ونفثالي بن يعقوب، وجاد بن يعقوب، وأشر بن يعقوب، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً[١]. ـ ذكروا ـ والله أعلم ـ أن إسحاق بن إبراهيم عاش، بعد ما ولد له العيص ويعقوب مائة سنة، ثم توفي وله مائة وستون سنة[٢]، فقبره ابناه: العيص ويعقوب عند قبر أبيه إبراهيم، في مزرعة حبرون[٣]، وكان عمر يعقوب بن إسحاق كله مائة وسبعاً وأربعين سنة[٤]، وكان ابنه يوسف قد قُسم له ولأمه من الحسن[٥]، ما لم يقسم لأحد من الناس[٦].

ـ لمّا توفي إبراهيم بالشام قام إسحاق بعده، وتزوّج رفقا بنت بتوئيل، فحملت فثقل حملها، فأوحى الله، عزّ وجلّ، إلى إسحاق: إنّي مخرج من بطنها شعبين وأمتين، فأجعل الأصغر أعظم من الأكبر! فولدت رفقا عيصو ويعقوب توأمين، وخرج عيصو أولاً، وخرج يعقوب بعده، وعقبه مع عقب عيصو، فسمي يعقوب.

(١) تاريخ الطبري ١: ٣١٧.
(٢) مائة وسبعون سنة. قصص الأنبياء للثعلبي: ٩٠.
(٣) اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل ﷺ بالبيت المقدس. معجم البلدان ٢: ٢١٢.
(٤) مائة وأربعون سنة، في تاريخ اليعقوبي ١: ٣٠.
(٥) عن أنس عن النبي ﷺ قال: ثم أعطي يوسف وأمه شطر الحسن. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٨٢.
(٦) تاريخ الطبري ١: ٢٠٠.

وكان إسحاق يوم ولد له ابنَ ستين سنة، وكان إسحاق يحب عيصو، ورفقا تحب يعقوب، وسكن إسحاق وادي جارر، وكان قد ذهب بصره، فقال لابنه عيصو: خذ سيفك وقوسك، واخرج، فصد لي صيداً حتى آكل وأبارك عليك قبل أن أموت؛ فسمعت رفقا أمّه ذلك، فقالت ليعقوب: اصنع لأبيك طعاماً! اذهب إلى الغنم، فخذ جديين، فاصنع طعاماً، وقربه لأبيك، حتى تقع عليك البركة. فقال: أخاف أن يلعنني. فقالت: إن لعنك كانت لعنتك علي. فمضى يعقوب، وأخذ جديين، فذبحهما، وطبخهما، وقرّبهما إليه.

وكان عيصو مشعر الذراع، فأخذ يعقوب جلد الجديين، فوضعهما على ساعديه، فلما قرب الطعام من أبيه قال: النغمة نغمة يعقوب، والمسحة مسحة عيصو. ثم بارك عليه، ودعا له، وقال له: كن رأساً على إخوتك. وجاء عيصو بصيده، فقال له إسحاق: من قدم إلي الطعام، فباركته، ومباركاً يكون؟ قال: خدعني أخي يعقوب! قال له إسحاق: قد جعلته رأساً عليك، وعلى إخوته. ثم دعا له، وقال: على سمية الأرض تنزل.

وأمر إسحاق يعقوب أن يصير إلى حرّان، فيكون عند لابان بن بتوئيل بن ناحور، أخي إبراهم، وخاف إسحاق عيصو عليه، وأمره أن لا يتزوج من نساء الكنعانيين، فصار إلى حران إلى خاله لايان، فكانت حياة إسحاق مائة وخمساً وثمانين سنة.

يعقوب بن إسحاق

ثم أن إسحاق قال ليعقوب: إن الله قد جعلك نبياً، وجعل ولدك أنبياء، وجعل فيك الخير والبركة؛ وأمره أن يسير إلى الفدان، وهو موضع بالشام، فسار إلى الفدان، فلما دخلها رأى امرأة معها غنم على البئر، تريد أن تسقي غنمها، وعلى رأس البئر حجر لا يرفعه إلا عدة رجال، فسألها: من هي؟ فقالت: أنا بنت لابان، وكان لابان خال يعقوب، فزحزح يعقوب الحجر، وسقى لها، وسار إلى خاله، فزوجه إياها، فقال يعقوب: إن التي كانت مسماة لي راحيل أختها. فقال: هذه أكبر، وأن أزوجك أيضاً راحيل؛ فتزوجهما جميعاً.

وحلَّ بليا أولاً، فأولدها روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهذا، وشاجر، وزفولون،

وجارية يقال لها: دينا، ثم زوجه خاله بابنته الأخرى، وهي راحيل، فأبطأ عليها الولد، حتى عظم ذلك عليها، ثم وهب الله، سبحانه وتعالى، يوسف، وبنيامين. ووقع يعقوب بزلفا جارية كانت لليا، فولدت منه كاذ، وآشر، ونفتالي. ووقع بوليدة راحيل، فولدت دان، وقال قوم: إن يعقوب تزوج راحيل قبل ليا، وقال أهل الكتاب: تزوجهما جميعاً في وقت واحد، فماتت راحيل، وبقيت ليا.

وكان يوسف أحب ولد يعقوب إلى يعقوب؛ لأنه كان أجملهم وجهاً، وكانت أمه أحب نسائه إليه، فحسده إخوته على ذلك[١]، فأخرجوه معهم، وكان من خبرهم ما قصه الله، عزَّ وجلَّ، في كتابه العزيز، حتى بيع، واستعبد، وغاب عن أبيه أربعين سنة، ثم رده الله، سبحانه، عليه، وجمعهم ويوسف بمصر على ما قد قصه الله في كتابه. وولد ليوسف بمصر عدة أولاد، فأقام يعقوب بمصر سبع عشرة سنة، ولما حضرته الوفاة أوصى يوسف ولده إلا يدفنه بمصر، وتوفي وله مائة وأربعون سنة.

ولد يعقوب

وكان ليعقوب من الولد اثنا عشر ذكراً: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويشاجر، وزفولون، ويوسف، وبنيامين، وكاذ، وآشر، ودان، ونفتالي، فهؤلاء بنو يعقوب، وهم بنو إسرائيل، وهم الأسباط.

وكان لروبيل من الولد: خنوخ، وفلو، وحصران، وكرمي.

وكان لشمعون من الولد: نموئيل، ويامين، وشاوول.

وكان للاوي من الولد: جرشون، وقهث، ومراري.

وكان ليهوذا من الولد: عار، وأونان، وشيلا، وفارص، وزارح.

وكان ليشاجر من الولد: تولع وفوا، ويوب، وشمرون.

وكان لآشر من الولد: يمنا، وأشوا، وأشوي، وبريعا، وسارح.

---

(١) تاريخ المسعودي ١: ٥٩.

وكان لزفولون من الولد: سارد، وأيلون، ويحلائيل.

وولد ليوسف بأرض مصر: إفرائيم، ومنشى.

وكان لبنيامين: بالع، وبخر، وإشبال، ونعمان، وأوخي، ومفيم، وحفيم، وأرد.

وكان لكاذ من الولد: صفيان، وشوني، وأصبون، وعاري، وأردودي، وأرايلي.

وكان لنفتالي من الولد: يحصيل، وغوني، ويبصر، وشاليم[1].

---

(١) تاريخ اليعقوبي١: ٢٨ ـ ٣١.٣٠. أثبتنا هذه القصة من رواية اليعقوبي؛ لعدم عثورنا على رواية ابن إسحاق لها،ولعلها متوافقة معها، لتسلسل أحداثهما قبل هذا الموضع وبعده.وهي في قصص الأنبياء للثعلبي:٨٨ ـ ٩٠.

يوسف

يعقوب ويوسف

ـ قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين(١): كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له، وإيثاره على سائر ولده، أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة في صحن داره، فكان كلما ولد له ولد، أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصناً، فكان كلما كبر الغلام وشبَّ، طال ذلك الغصن وغلظ، فإذا بلغ ذلك الغلام، قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه، فولد له عشرة بنين، فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان، فلما ولد له يوسف، لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئاً، فلما كبر وشبَّ قال لأبيه: يا نبي الله، إنه ليس أحد من أخوتي إلا وله غصن، إلا أنا فادع الله تعالى أن يخصني بغصن من الجنة، فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال: اللهم، إني أسألك أن تهب ليوسف غصناً من الجنة يفتخر به على جميع أخوته، فهبط جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر، فقال ليوسف: خذ هذا. فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع أخوته.

الرؤيا

قال: فرأى يوسف فيما يرى النائم، وهو إذ ذاك صبي، كأن قضيبه غُرس في الأرض فعلق، وتدلت أغصانه وأثمر من كل ثمرة، ثم أُتي بأغصان أخوته، فغرست حوله فلم تعلق، ولم تفرع ولم تثمر، وإذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها، فلم يزل يتعالى إلى السماء ويطول، حتى طال على أغصان أخوته، ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان أخوته من

(١) ترك الطبري أول القصة، واقتطع منها قصة منطقة إسحاق حيث أوردها في تفسيره ١٣: ٣٨ ـ ٣٩. ونحن ننقلها من رواية الثعلبي لها.

أصولها وألقتها في البحر، ونبت غصن يوسف في الأرض قائماً، فانتبه فزعاً مرعوباً، فقال له أبوه: ما الذي دهاك يا بني؟. فقصَّ عليه رؤياه فبلغ أخوته، فقالوا: يا ابن راحيل، لقد رأيت عجباً، يوشك أن تدعي أنك مولانا ونحن عبيدك. فشقَّ عليهم رؤياه وحسدوه بعض الحسد.

قال وهب: رأى يوسف هذه الرؤيا ـ يعني الغصن ـ وهو ابن سبع سنين، ثم إنه رأى، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، الرؤيا التي قصَّها الله علينا في كتابه، إذ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[1]. وكان ينومه إلى جانبه، فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالي، إذ رأى الرؤيا التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، وكانت ليلة الجمعة، فانتبه من منامه فزعاً مرعوباً، فالتزمه يعقوب وضمّه إلى صدره وقبّل بين عينيه، وقال: يا حبيب أبيه، ما الذي أصابك؟.

فقال: يا أبت رأيت رؤيا أفزعتني.

فقال: يا بني خيراً رأيت، ما الذي رأيت؟.

قال يوسف: رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور، فاستنارت النجوم وأشرقت الجبال، وزخرت البحار وعلت أمواجها وسبّحت الحيتان بأنواع اللغات، ورأيت كأني ألبست رداء، أشرقت الأرض من حسنه ونوره، ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدي، فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحد عشر كوكباً، انقضت من السماء، ومعها الشمس والقمر، فخرّوا لي ساجدين. فقال يعقوب: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، ثم عبّر رؤياه فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[2].

قال: فسمعت امراة يعقوب ما قال يوسف لأبيه، فقال لها يعقوب: اكتمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادي بذلك. فقالت: نعم. فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم، أخبرتهم بالرؤيا التي أمرها يعقوب بكتمها، فانتفخت أوداجهم واقشعرت جلودهم غضباً

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٥ ـ ٦.

على يوسف، وقالوا: ما عنى بالشمس غير أبينا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا. ثم قالوا: إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا، فيقول أنا سيدكم وأنتم عبيدي. فحسدوه على ذلك.

حسد اخوة يوسف

فلما كان من أمر رؤيا يوسف ما كان، وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه يعقوب إياه بالمحبة والقربة، حسده أخوته وحملهم الحسد على أن تآمروا بينهم، في أن يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من الاحتيال، ويهلكوه فيما بينهم، كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا... ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ۝﴾[١]. أي تائبين، فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب. قال قائل منهم: قال ابن إسحاق: ذُكر لي ـ والله أعلم ـ أن الذي قال ذلك منهم، روبيل الأكبر من بني يعقوب، وكان أقصدهم فيه رأياً[٢]: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وهو البئر غير المطوية ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾[٣].

ـ قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير، الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه، على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه[٤].

فعند ذلك أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب، ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية، فقال لهم روبيل، وهو أكبر ولد يعقوب: إن أباكم لا يأمنكم على يوسف، ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف؛ حتى نلعب بين يديه، فإذا نظر إلينا كيف نمرح ونلعب اشتاق إلى

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٠٣.والذي قال هو رأوبين. سفر التكوين/ ٣٧: ٢٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٢: ٤٧١.

ذلك. فأقبلوا على يوسف وهو قاعد يسبّح، فجعلوا يتلاعبون ويتضاحكون بين يديه، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم، فأقبل عليهم وقال: يا أخوتاه، أهكذا تلعبون في مراعيكم؟.

فقالوا: نعم. يا يوسف، إنك لو رأيتنا ونحن نلعب في مراعينا، لتمنيت أن تكون معنا. فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب إليهم.

فقال لهم: يا أخوتاه انطلقوا إلى أبي واسألوه أن يرسلني معكم.

فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه وقوفاً صفوفاً، قال لهم: ما حاجتكم؟.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾، نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ في الصحارى ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، فقال لهم يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾[1] لا تشعرون بذلك.

قال ابن عباس وغيره: إنما قال ذلك يعقوب؛ لأنه رأى في منامه كأن يوسف على رأس جبل، وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، وكأن الأرض قد انشقت، فدخل فيها يوسف، فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيام، فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا، خاف على يوسف من الذئب، فلذلك قال لهم: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

ثم قالوا: يا نبي الله، كيف يأكله الذئب، وفينا شمعون إذا غضب لا يسكن غضبه حتى يصيح، فإذا صاح لا تسمعه حامل إلا وضعت ما في بطنها، وفينا يهوذا إذا غضب شق السبع نصفين، فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن إليهم، وأقبل يوسف حتى وقف بين يدي أبيه، ثم قال له: يا أبت، أرسلني معهم.

قال: أوَ تحب ذلك يا بني؟.

قال: نعم.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١١ ـ ١٣.

قال: إذا كان غداً أذنت لك في ذلك. فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقته وأخذ قضيبه، وخرج مع أخوته ثم عمد يعقوب إلى السلة، التي حمل فيها إبراهيم زاد إسحاق، فحمل فيها زاداً ليوسف وخرج ليشيعهم، فقالوا: يا نبي الله، ارجع.

فقال يعقوب: يا بَنِيّ، أوصيكم بتقوى الله وبحبيبي يوسف، أسألكم بالله إن جاع فأطعموه، وإن عطش فاسقوه وقوموا عليه ولا تتعبوه ولا تخذلوه، وكونوا متواصلين متراحمين.

قالوا: نعم. يا أبانا، كلنا لك ولد، وهو أخونا كأحدنا، بل له الفضل علينا بحبك إياه.

فقال: نعم. يا بنيّ، الله خليفتي عليكم، مع أني خائف أن أكون قد ضيعته. ثم إنه أقبل على يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه، ثم قال: استودعتك الله رب العالمين. وانصرف راجعاً.

ـ عن ابن عباس: أرسل يعقوبُ يوسفَ معهم، فأخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة، وضربوه، فجعل يستغيث بهم واحداً بعد واحد، وهم يضربونه، فلا يرى منهم رحيماً، وأخذوا ما كان زوده يعقوب، وأطعموه الكلاب، وضربوه حتى كادوا يقتلونه، وعطش عطشاً شديداً، فقال لهم: اسقوني جرعة من ماء، قبل أن تقتلوني، فلم يسقوه، فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف.

فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه، جعل يصيح ويقول: يا أبتاه، يا يعقوب، لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء. فلما كادوا يقتلونه، قال لهم يهوذا، وكان ابن خالة يوسف، وأحسنهم فيه رأياً: أليس قد أعطيتموني موثقاً، ألا تقتلوه. فانطلقوا به إلى الجب؛ ليطرحوه فيه.

وكان الجب في الأردن، بين مدين ومصر، وقيل: بين طبرية والقدس، على قارعة الطريق في واد من أوديتها، على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وكانت بئراً وحشة مظلمة، أسفلها واسع وأعلاها ضيق، يهلك من طرح فيها؛ من سعة أسفلها فلا يمكنه الصعود، وكان ماؤها ملحاً، وكان الجب من حفر سام بن نوح، ويسمّى: جب الأحزان.

في بئر الأحزان

فلما أرادوا أن يلقوه فيه، جعلوا يدلونه في البئر، فيتعلق بشفير البئر، فربطوا يديه إلى عنقه، ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أستر به عورتي، ويكون لي كفناً بعد مماتي، وأطلقوا يديّ، أطرد بهما عني هوام الجب. فقالوا له: ادع الشمس القمر، والأحد عشر كوكباً، تلبسك وتؤنسك. فدلوه في البئر بحبل، فلما بلغ نصفها، قطعوا الحبل؛ ليسقط، فيموت فيه، فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة لينة ورفعها إلى يوسف، فوقف عليها، وجعل يوسف يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة لحقتهم، فأجابهم فهمّوا أن يرضخوه بالحجارة، فيقتلوه، فمنعهم يهوذا، وقال: لقد أعطيتموني موثقاً، ألا تقتلوه.

قالوا: فلما ألقي يوسف في الجب، أضاء له الجب وعذب ماؤه، حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب، وبعث الله تعالى إليه ملكاً، فحل عنه قيده. وكان إبراهيم، حين ألقي في النار، جرّد من ثيابه، وقُذف في النار عرياناً، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنّة، فألبسه إياه، وكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلما مات إبراهيم ورثه إسحاق، فلما مات إسحاق ورثه يعقوب منه، فلما شبّ يوسف، جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذةٍ وعلقه في عنقه؛ لما كان يخاف عليه من العين، وكان لا يفارقه، فلما ألقي في الجب عرياناً، جاءه الملك وكان عليه التعويذة، فأخرج القميص وألبسه إياه، وجعل يؤنسه بالنهار.

ويُروى أن الملك أتاه بسفرجلةٍ من الجنّة، فأطعمه إياها، فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب، فقال له يوسف: إنك إذا خرجت عني أستوحش. فقال له الملك: قل، إذا هِبتَ شيئاً: يا صريخ المستصرخين. يا غياث المستغيثين، يا مفرج كرب المكروبين، قد ترى مكاني، وتعرف حالي، ولا يخفى عليك شيء من أمري.

فلما دعا يوسف بهذا الدعاء، بعث الله إليه سبعين ملكاً، فحفُّوا به وآنسوه في البئر ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع، أتاه جبريل عليه السلام وقال: يا غلام، من طرحك هاهنا في هذا الجب؟.

قال: أخوتي لأبي.

قال: ولِمَ؟.

قال: حسدوني على منزلتي من أبي.

قال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟.

قال: نعم.

قال: قل: يا صانع كل مصنوع. ويا جابر كل مكسور. ويا حاضر كل ملأ. ويا شاهد كل نجوى. ويا قريباً غير بعيد. ويا مؤنس كل وحيد. ويا غالباً غير مغلوب. ويا علام الغيوب. ويا حياً لا يموت. ويا محيي الموتى، لا إله إلا أنت سبحانك، أسألك، يا من له الحمد. يا بديع السماوات والأرض. يا مالك الملك. ويا ذا الجلال والإكرام، أسألك أن تصلي على محمد، وعلى آل محمد، وأن تجعل لي من أمري ومن ضيقي، فرجاً ومخرجاً، وترزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب.

فقالها يوسف، فجعل الله له من الجب مخرجاً، ومن كيد إخوته فرجاً، وآتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب، وأوحى الله إليه، وهو في البئر: لتنبئن إخوتك بما عملوا، وهم لا يعلمون أنك يوسف، فذلك قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

فلما ألقوه في الجب عمدوا إلى سخلة من الغنم، فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها، ثم إنهم رجعوا إلى يعقوب، وهو قاعد على قارعة الطريق، ينتظرهم متى يأتون بيوسف، فلما دنوا منه اصطرخوا صراخ رجل واحد، ورفعوا أصواتهم بالبكاء، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه، وشقوا جيوبهم وبكوا ففزع يعقوب، وقال: يا بني، وأين يوسف؟ .﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ وهذا قميصه ملطخ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥. تاريخ الطبري ١: ٣٣٢.

وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ...﴾[1]
وإنما فعلوا ذلك، ليكونوا في الظلمة أدرأ على الاعتذار وتزوير ما مكروا.

قال: فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شديداً، وقال لهم: أروني قميصه فأروه. فقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً، أحلم من هذا، أكل ابني ولم يشق له جيباً ولا خرق له شقاً. وصاح صيحة وخرَّ مغشياً عليه، فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة، فلما أفاق بكى بكاء شديداً، ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله، ويضعه على وجهه وعينيه.

قالوا: فلما أصبح أخوة يوسف من الغد، رجعوا إلى مراعيهم فقال بعضهم لبعض: قد رأيتم ما كان من تكذيب أبيكم البارحة، فإن أردتم أن يصدقكم ويخرجكم من الملامة، فمروا بنا على الجب، فنخرج يوسف منه ونفرق بين أضلاعه ولحمه نجيء به، فقال لهم يهوذا: يا أخوتاه، أين العهد الذي بيني وبينكم؟ والله، لئن فعلتم ما تقولون لأخبرن يعقوب بما كان منكم إليه، ثم لأكونن لكم عدواً ما بقيت. فتركوه ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم عشاء، فقال لهم يعقوب: إن كنتم صادقين، أن الذئب أكله، فأين الذئب ائتوني به؟. فعمدوا إلى حبالهم وعصيهم فأخذوها ومضوا إلى الصحراء، فاصطادوا ذئباً وشدوه وأوثقوه كتافاً، ثم حملوه إلى يعقوب وأوقفوه بين يديه، فقال: حلّوا عقاله. فحلوه فقال له يعقوب: أقبل. فأقبل الذئب يتخطى القوم، حتى وقف بين يدي يعقوب، منكساً رأسه فقال له يعقوب: أيها الذئب، أكلت ولدي وقرة عيني وحبيب قلبي وثمرة فؤادي، لقد أورثتني حزناً طويلاً وألماً عظيماً.

قال: فتكلم الذئب وقال: لا. وحق شيبتك يا نبي الله، ما أكلت لك ولداً، وإن لحومكم ودماءكم ـ معشر الأنبياء ـ لمحرمة علينا، وإني لمظلوم مكذوب عليَّ، وإني لذئب غريب من بلاد مصر.

فقال له يعقوب: وما أدخلك أرض كنعان؟

قال: جئت لأجل قرابة لي من الذئاب، أزورهم وأصلهم.

فعند ذلك قال يعقوب لأولاده: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهو

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٦ ـ ١٨.

الذي لا جزع فيه ولا شكوى ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

قال: فمكث يوسف في الجب ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، ودعا بالدعاء الذي علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة، أي رفقة، مارة من قبل مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق وضلوا عنها، حتى نزلوا قريباً من الجب.

قال: وكان الجب في قفر بعيد من العمران، وإنما هو للرعاة والمجتازين، وكان ماؤه مالحاً، فعذب حين ألقي فيه يوسف، فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلاً من العرب من أهل مدين يقال له: مالك بن دعر. ليطلب لهم ماء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، فوصل الوارد إلى البئر، فأدلى دلوه أي أرسلها، فتعلق يوسف بالحبل، فلما وصل إلى فم البئر ورآه مالك بن دعر، فرأى أحسن ما يكون من الغلمان، ﴿قَالَ﴾ مالك ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ﴾ يبشر أصحابه أنه أصاب عبداً ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً﴾[2]. قال المفسرون: أسرَّ مالك بن دعر، وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم، وقالوا لهم: هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس إلى مصر؛ خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة إن علموا حاله.

قال: وكان يهوذا يأتي يوسف بالطعام، كل يوم سراً من أخوته، فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل، فلم يجده في البئر فنظر فإذا هو بمالك وأصحابه نزولاً ويوسف معهم، فرجع يهوذا وأخبر أخوته بذلك، فأتوا إلى مالك وقالوا له: هذا عبدنا أبق منا. وكتم يوسف حاله مخافة أن يقتلوه، فقال مالك: أنا أشتريه منكم. فباعوه منه فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾[3]. أي باعوه بثمن ناقص ظلم حرام، لأن ثمن الحر حرام، ثم بين الثمن فقال: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، وإنما قال ذلك، لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهماً، إنما كانوا يعدونها عداً، فإذا بلغ أوقية وزنوه، لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ، أوقية أربعون درهماً[4].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٠.

(٤) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٦. وفي سفر التكوين/ ٣٧: ٢٨. باعوه بعشرين من الفضة.

في الطريق إلى مصر

ثم إن مالك بن دعر انطلق هو وأصحابه، بيوسف ومعهم أخوتهم يقولون لهم: استوثقوا منه، فإنه آبق سارق كاذب، وقد برئنا إليكم من عيوبه. فحمله مالك على ناقة له وساروا به إلى مصر، وكان طريقهم على قبر أمه، فلما رأى قبر أمه، لم يتمالك أن رمى نفسه عن الناقة إلى القبر، وهو يقول: يا أمي، يا راحيل، حلي عنك عقدة الردى، وارفعي رأسك من الثرى، وانظري إلى ولدك يوسف، وما لقي من بعدك من البلاء، يا أماه، لو رأيت ضعفي وذلي لرحمتني، يا أماه، لو رأيتني وقد نزعوا قميصي وشدوني، وفي الجب ألقوني وعلى حر وجهي لطموني، وبالحجارة رجموني، ولم يرحموني وكما تباع العبيد باعوني، وكما يحمل الأسير حملوني.

قال: فافتقده مالك على الناقة التي كان عليها، فلم يجده فصاح في القافلة: ألا إن الغلام قد رجع إلى أهله. فطلب القوم يوسف فرأوه، فأقبل عليه رجل منهم فقال: يا غلام، قد خبرنا مواليك بأنك آبق سارق، فلم نصدق حتى رأيناك تفعل ذلك. فقال: والله، ما أبقت ولكنكم مررتم على قبر أمي، فلم أتمالك أن رميت نفسي على قبرها.

قال: فرفع مالك بن دعر يده، ولطم حر وجهه، وجره حتى حمله على ناقته. ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر. قال مالك: ما نزلت منزلاً ولا ارتحلت إلا استبان لي بركة يوسف، وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحاً ومساء، وكنت أنظر إلى غمامة بيضاء تظله، وتسير فوق رأسه إذا سار، وتقف على رأسه إذا وقف، فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر أن يغتسل فاغتسل وألبسه ثوباً حسناً وعرضه للبيع، فاشتراه قطفير بن روحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها، وكان على خزائن الملك الأعظم، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام [1].

قال وهب بن منبه: اشتراه رجل من أهل الرفقة، وقيل: تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلىء وجواهر، لا يعلم قيمتها إلا الله،

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٨ ـ ٢٢٩. اشتراه فوطيفار خصي فرعون في سفر التكوين/ ٣٧: ٣٦.

فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن، ولما اشترى مالك بن دعر يوسف من إخوته، كتب بينهم وبينه كتاباً: هذا ما اشترى مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان، مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا يُنقلب به، إلا مقيداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله.

قال: فودعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، ونصركم الله وإن خذلتموني، ورحمكم الله وإن لم ترحموني. قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً؛ لشدة هذا التوديع، وحملوه على قتب، بغير عطاء، ولا وطاء مقيداً مكبلاً مسلسلاً، فمر على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه، وقد كان وكل به أسود، يحرسه، فغفل الأسود، فألقى يوسف نفسه على قبر أمه، فجعل يتمرغ، ويعتنق القبر، ويضطرب، ويقول: يا أماه، ارفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيداً مسلسلاً مغلولاً، فرقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته، إنه أرحم الراحمين.

فتفقده الأسود على البعير، فلم يره فقفا أثره؛ فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه، وضربه ضرباً وجيعاً، فقال له: لا تفعل والله، ما هربت ولا أبقتُ، وإنما مررت بقبر أمي، فأحببت أن أودعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون.

فقال الأسود: والله، إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى!!، فهلا كان هذا عند مواليك ؟!. فرفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم، إن كانت لي عندك خطيئة، أخلقتَ بها وجهي، فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أن تغفر لي، وترحمني. فضجت الملائكة في السماء، ونزل جبريل، فقال له: يا يوسف، غضَّ صوتك، فلقد أبكيت ملائكة السماء، أفتريد أن أقلب الأرض، فأجعل عاليها سافلها؟. قال: تثبَّت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل.

فضرب الأرض بجناحه، فأظلمت وارتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً، فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثاً ؟! فإني أسافر منذ كيت وكيت، ما أصابني قط مثل هذا. فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبراني، فرفع يده إلى السماء، وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا. فقال له: ما أردت إلا هلاكنا، ائتنا به.

فأتاه به، فقال له: يا غلام، لقد لطمك، فجاءنا ما رأيت، فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظن بك. قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني. فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي، ويكرمه، حتى وصل إلى مصر، فاغتسل في نيلها، وأذهب الله عنه كآبة السفر، ورد عليه جماله، ودخل به البلد نهاراً، فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع، فاشتراه قطفير وزير الملك[1]. فلما اشتراه، أتى به منزله، و﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2]. واسمها راعيل بنت رعائيل. قاله ابن إسحاق بن يسار.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: كان إطفير ـ فيما ذكر لي ـ رجلاً لا يأتي النساء، وكانت امرأته راعيل[3] امرأة حسناء ناعمة طامعة في ملك ودنيا[4].

في بيت العزيز

فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله، وقال لامرأته: أكرمي مثواه، فلما تأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه في قلبها وعشقته، فراودته أي طلبت منه متابعتها على هواها وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هلم تدعوه إلى نفسها فقال يوسف عند ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يعني زوجك قطفير سيدي ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرمني وائتمنني فأنا ظالم له و﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[5].

قال ابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، جعلت تذكر له

---

(١) تفسير القرطبي ٩: ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٣) تفسير القرطبي ٩: ١٥٨.وهي ثامار، والقصة تختلف في سفر التكوين/ ٣٨: ١ وما بعد.
(٤) تفسير الطبري ١٢: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٥) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت له: يا يوسف ما أحسن شعرك!. قال: هو أول شيء ينتثر من جسدي. قالت: يا يوسف، ما أحسن عينيك!. قال: هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي. قالت: ما أحسن وجهك!. قال: التراب يأكله. فلم تزل تأمره مرة وتعظمه أخرى وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب مستقبل، يجد شبق الشباب، وهي حسناء جميلة، حتى لان لها، لما يرى من كلفها به، ولم يتخوف منها، حتى خلوا في بعض البيوت وهم بها.

وروى إسحاق بن يسار عن جويبر[1] عن الضحاك[2] ومقاتل[3]، جميعاً عن ابن عباس، فيما كان من محاورتهما قال: فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك!.

قال: هو أول شيء يبلى إذا مت.

قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك!.

قال: ربي تعالى صورني في الرحم.

قالت: يا يوسف، قد أنحلت جسمي بصورة وجهك.

قال: الشيطان يعينك على ذلك.

قالت: يا يوسف، الجنينة قد التهبت ناراً قم فأطفئها.

فقال: إن أطفأتها فمنها احتراقي.

قالت: يا يوسف، الجنينة قد عطشت قم فاسقها.

قال: من كان المفتاح بيده، فهو أحق أن يسقيها مني.

قالت: يا يوسف، بساط الحرير قد بسط لك، قم فاقض حاجتي.

---

(١) جويبر بن سعيد الأزدي أبو القاسم البلخي كوفي، صاحب الضحاك، توفي بين ١٤٠ ـ ١٥٠ هـ. تهذيب التهذيب ٢: ١٠٦.

(٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد، صاحب التفسير، توفي سنة ٢٠٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٤: ٥٩٨.

(٣) كبير المفسرين، أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي، توفي سنة ١٥٠ هـ. سير أعلام النبلاء ٧: ٢٠١.

قال: إذن. يذهب نصيبي من الجنة.

قالت: يا يوسف، ادخل معي تحت الستر، فأسترك به.

قال: ليس شيء يسترني من ربي تعالى، إن عصيته.

قالت: يا يوسف، ضع يدك على صدري تشفني بذلك.

قال: سيدي أحق بذلك مني.

قالت: أما سيدك فأسقيه كأساً في زئبق الذهب، فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه، ثم ألقيه في استبرق وألقيه في القيطون ـ يعني المخدع ـ لا يعلم به أحد من الناس، وأوليك ملكه قليله وكثيره.

قال: فإن الجزاء يوم الجزاء.

قالت: يا يوسف، إني كثيرة الدر والياقوت والزمرد، فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذي في السماء. فأبى يوسف.

قال ابن عباس: فجرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جنب يوسف وباليد الأخرى إلى جنب المرأة حتى جمع بينهما. قال ابن عباس: فبلغ من همّ يوسف إلى أن حل الهميان، وجلس منها مجلس الرجل الخائز.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: كان بعض أهل العلم ـ فيما بلغني ـ يقول: البرهان الذي رأى يوسف، فصرف عنه السوء والفحشاء، يعقوب عاضاً، على إصبعه، فلما رآه انكشف هارباً[1].

قالوا: فلما رأى يوسف البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هارباً مما أرادته فاتبعته المرأة فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ يعني تبادر يوسف وراعيل إلى الباب، أما يوسف ففراراً من ركوب الفاحشة، وأما المرأة فطلباً ليوسف ليقضي حاجتها التي راودته عنها، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها مانعة له من الخروج ﴿وَقَدَّتْ﴾ أي خرقت وشقت ﴿قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أي من خلفه لأن يوسف كان الهارب، والمرأة

(١) تفسير الطبري ١٢: ٢٣٩ ـ ٢٥٠.

الطالبة فلما خرجا ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي وجدا زوجها قطفير عند الباب، جالساً مع ابن عم لراعيل، فلما رأته هابته و﴿قَالَتْ﴾ سابقة بالقول لزوجها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] يعني الضرب بالسياط.

عن ابن عباس: وهذا كالمثل السائر: خذ اللص قبل أن يأخذك. فقال يوسف: بل ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فأبيت وفررت منها فأدركتني وشقت قميصي .﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾. فحكم بما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2] ثم أقبل على يوسف، فقال: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ لا تذكره لأحد. ثم قال لامرأته ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[3] أي من المذنبين حين راودت شاباً عن نفسه وخنت زوجك، فلما استعصم كذبت عليه.

قالوا: فشاع أمر يوسف وراعيل، وتحدث الناس بذلك، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهن امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواة، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي عبدها الكنعاني ﴿حُبًّا﴾ أي دخل حبه في شغاف قلبها وهو حجابه وغلافه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي خطأ بيِّن حيث تراود عبدها عن نفسه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال ابن إسحاق: يعني بكيدهن، وذلك إنما قلنه مكراً بها؛ لتريهن يوسف، لما بلغهن من حسنه وجماله، فاتخذت راعيل مائدة ودعت أربعين امرأة، منهن هؤلاء اللواتي عيرنها، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ اعتدت أي هيأت لهن مجلساً للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) سورة يوسف، الآيات: ٢٥ ـ ٢٩.

وقال وهب: اعتدت لهن أترجاً وبطيخاً وموزاً ورماناً ووردا، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وكانت قد أجلسته في مجلس، غير المجلس الذي هن فيه جلوس، فخرج عليهن يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ وهالهن أمره، وبهتن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين اللاتي معهن، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج وغيره.

وقال وهب: بلغني أن سبعاً من الأربعين امرأة، متن في ذلك المجلس؛ وجداً بيوسف عليه السلام ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، ﴿قَالَتِ﴾ راعيل عند ذلك للنسوة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي في حبه وشغفي به. ثم أنها أبدت لهن الميل الذي عندها فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع واستعصى، فقالت النسوة ليوسف: أطع مولاتك. فقالت راعيل: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فاختار يوسف، حين عاودته المرأة في المراودة، وتوعدته بالسجن، على المخالفة، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي العزيز وأصحابه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على براءة يوسف، وهو قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].

في السجن

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: فطرح في السجن[2] ـ يعني يوسف ـ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ غلامان، كانا للملك الأكبر الريان بن الوليد، كان أحدهما على شرابه، والآخر على بعض أمره، في سخطة سخطها عليهما، اسم أحدهما مجلث، والآخر نبو، ونبو الذي كان على الشراب[3]. غضب عليهما الملك فحبسهما، وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه، وأن ساقيه وافقه على

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٠ ـ ٣٥.

(٢) قال وهب بن منبه: حبس يوسف في السجن سبع سنين. تفسير القرطبي٩: ١٩٨.

(٣) رئيس السقاة ورئيس الخبازين. سفر التكوين/ ٤٠: ٢.

ذلك، وكان السبب فيه أن جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فدسوا إلى هذين الغلامين وضمنوا لهما مالاً؛ ليسما الطعام للملك والشراب فأجاباهم إلى ذلك، ثم إن الساقي نكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام، فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقي: أيها الملك، لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخباز: لا تشرب لأن الشراب مسموم. فقال الملك للساقي: اشرب. فشرب فلم يضره، فقال للخباز: كل من طعامك. فأبى، فجرب ذلك الطعام في دابة من الدواب فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: لما رأى الفتيان يوسف قالا: والله، يا فتى، لقد أحببناك حين رأيناك. قال لهم، حين قالا له ذلك: أنشدكما الله أن لا تحباني!، فوالله، ما أحبني أحد قط، إلا دخل علي من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل علي من حبها بلاء، ثم لقد أحبني أبي فدخل علي بحبه بلاء، ثم لقد أحبتني زوجة صاحبي هذا فدخل علي بحبها إياي بلاء، فلا تحباني ـ بارك الله فيكما ـ.

قال: فأبيا إلا حبه وإلفه حيث كان، وجعلا يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله، وقد كانا رأيا، حين أدخلا السجن، رؤيا، فرأى مجلث أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ورأى نبو أنه يعصر خمراً، فقالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] إن فعلت.

قال: قال لمجلث: أما أنت فتصلب؛ فتأكل الطير من رأسك، وقال لنبو: أما أنت فترد على عملك؛ فيرضى عنك صاحبك، ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2].

قال: قال يوسف لنبو: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي اذكر للملك الأعظم مظلمتي وحبسي. قال: أفعل.

قال: لما خرج نبو، الذي ظن أنه ناج منهما، رُدَّ على ما كان عليه، ورضي عنه صاحبه، فأنساه الشيطان ذكر ذلك للملك، الذي أمره يوسف أن يذكره، فلبث يوسف،

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤١.

بعد ذلك في السجن، بضع سنين. يقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ﴾ لقوله للناجي من صاحبي السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾[1]. عقوبةً له من الله بذلك[2].

رؤيا الملك

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم إن الملك الريان بن الوليد رأى رؤياه التي رأى، فهالته وعرف أنها رؤيا واقعة، ولم يدر ما تأويلها، فقال للملأ حوله من أهل مملكته: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله: ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾[3]. وسمع نبو من ذلك ما سمع، ومسألته عن تأويلها، وذكر يوسف، وما كان عبر له ولصاحبه، وما جاء من ذلك على ما قال من قوله: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ يقول الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[4] أي حقبة من الدهر، فأتاه فقال: يا يوسف، إن الملك قد رأى كذا وكذا. فقصَّ عليه الرؤيا، فقال فيها يوسف ما ذكر الله تعالى لنا في الكتاب، فجاءهم مثل فلق الصبح تأويلها، فخرج نبو من عند يوسف، بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك، وأخبره بما قال. قال: فخرج نبو من عند يوسف بما أفتاهم به من تأويل رؤيا الملك، حتى أتى الملك، فأخبره بما قال، فلما أخبره بما في نفسه، كمثل النهار، وعرف أن الذي قال كائن، كما قال، قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[5].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن السجن في المدينة فبعثوه، فأتى ليوسف فقال له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ يعني فيما عبرت لنا من الرؤيا، والصديق هو كثير الصدق. ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6]. أي فضلك وعلمك. فقال له يوسف: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إلى قوله:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٢: ٢٨٠ ـ ٢٨١. ٢٨٩. ٢٩٠. ٢٩٣.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٥].

(٥) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٤٦.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]. فرجع الساقي إلى الملك، وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار. وعرف الملك أن الذي قال كائن، فقال الملك: ائتوني بالذي عبر رؤياي هذه. فلما جاء الرسول إلى يوسف، أبى أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته، ويعرف صحة أمره من قبل النسوة. فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي سيدك الملك. ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[2].

قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ، قبل أن يعلم الملك شأنه، ما زالت في نفسه منه حاجة، يقول: هو هذا الذي راود امرأتي. وقال رسول الله ﷺ: (لقد عجبت من أخي يوسف وكرمه وصبره، والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة، وبادرت الباب ولم أبتغ العذر، والله إنه كان حليماً ذا أناة)[3].

قال: فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فلما سمع ذلك يوسف قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، فقال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟. فقال يوسف عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ... ﴾، فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾[4] فلما جاء الرسول إلى يوسف، قال له: أجب الملك الآن[5].

فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم وذلك أنه قال: اللهم

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٤٧ ـ ٤٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٠.

(٣) مسند أحمد رقم الحديث ٨٠٤٢. بلفظ آخر.

(٤) سورة يوسف، الآيات: ٥١ ـ ٥٤.

(٥) تفسير الطبري ١٢: ٢٩٥. ٣٠٨. ٢٩٩. ٢: ٣٠٩. ٣١٠.

عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عنهم الأخبار فهم أعمل الناس بالأخبار إلى اليوم في كلِّ بلدة. فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء. ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً حساناً، وقصد إلى الملك.

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي، حسبي ربي من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره. فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره. فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل. ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانياً، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان أبي يعقوب.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما تكلم يوسف بلسان، أجابه بذلك اللسان. فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة، فلما رأى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده: إن هذا علم تأويل رؤياي، ولم تعلمه الكهنة والسحرة، ثم إنه أجلسه وقال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً. فقال يوسف: نعم. أيها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف، كشف لك عنهن نهر النيل، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً، فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن، إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا قعره، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات، عجاف شعث غير ملصقات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس، وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان وافترسنهن افتراس السباع، وأكلن لحمهن ومزّقن جلودهن وحطمن عظامهن، فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبهن، وهن مهازيل، ثم لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن، إذا سبع سنبلات خضر، وسبع أخر سود يابسات، في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك: ما هذا ؟ هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأصولهن في الماء؟ إذ هبت ريح فردّت أوراق السود اليابسات على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سوداً متغيرات، هذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثم إنك انتبهت مذعوراً.

فقال له الملك: والله، ما شأن هذه الرؤيا، وإن كانت عجباً، بأعجب مما سمعته منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟. فقال يوسف الصديق: إني أرى أيها الملك أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتبني الأهرام والخزائن، وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله، ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفاً للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ثم تأتيك الخلق من جميع النواحي فيمتارون منك بحكمك، فيجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبل. فقال له الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني الشغل فيه؟. فقال له يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتب حاسب، وقيل: حفيظ لما استودعتني عليم بسني المجاعة وبلغة من يأتيني، فقال له الملك: ومن أحق به منك؟!. وولاه ذلك كله، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1].

وزارة يوسف

قال ابن عباس: فلما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الملك فتوّجه بتاجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه، وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدر والياقوت، فضرب عليه قبة من استبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشاً وستون نمرقة، ثم أمهر أن يخرج فخرج متوجاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من بياض وجهه الناظر صفاء لونه، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وفوض إليه أمر مصر.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: لما قال يوسف للملك: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، قال الملك: قد فعلت. فولاه ـ فيما يذكرون ـ عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

قال: فذكر لي[1] - والله أعلم - أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة إطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه، قال: أليس هذا خير مما كنت تريدين.

قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق، لا تلمني، فإني كنت امرأة، كما ترى حسناً وجمالاً، ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله، في حسنك وهيئتك، فغلبتني نفسي على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها، فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف[2].

---

(١) قال وهب بن منبه: إنما كان تزويجه زليخاء، امرأة العزيز، بين دخلتي الإخوة؛ وذلك أن زليخا مات زوجها، ويوسف في السجن، وذهب مالها، وعمي بصرها، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة، موكباً زهاء مائة ألف، من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرضت له؛ لعله يسعفك بشيء. ثم قيل لها: لا تفعلي؛ فربما ذكر بعض ما كان منك، من المراودة والسجن، فيسيء إليك. فقالت: أنا أعلم بخلق حبيبي منكم. ثم تركتهم، حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيداً؛ بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكاً؛ بطاعتهم، فقال يوسف: من هذه ؟. فأتوا بها. فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جمتك بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي، فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلي، وعمي بصري، وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر، صرت مرحومتهم، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟!. فقالت: والله، لنظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك. فناولها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً، من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله، فأرسل إليها رسولاً: إن كنت أيماً تزوجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك. فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يُستهزأ بي، الملك لم يردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزي، أفيريدني اليوم، وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟!. فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني، تعرضت له، فقال لها: ألم يبلغك الرسول ؟. فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك، أحب إلي من الدنيا وما فيها. فأمر بها، فأصلح شأنها وهيئت، ثم زفت إليه، فقام يوسف يصلي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فرد الله عليها شبابها وجمالها وبصرها، حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته؛ إكراماً ليوسف - ﷺ -؛ ولما عف عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها فقالت: يا نبي الله، إن زوجي كان عنيناً، لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال، بما لا يوصف. قال: فعاشا في خفض عيش، في كل يوم يجدد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين إفرائيم ومنشا. تفسير القرطبي ٩: ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ٩..

قال: فلما اطمأن يوسف في ملكه، وخلت السنين المخصبة، ودخلت المجدبة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله، فأصاب الناس الجوع، فلما كان بدء القحط نام الملك، فبينما هو نائم إذ أصابها الجوع، فهتف الملك: يا يوسف، الجوع الجوع. فقال يوسف: هذا أوان القحط والجوع، فلما دخل أول سنة من سني الجدب، هلك فيها كل شيء أعدوه من السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم في أول سنة بالنقود من الذهب والفضة، حتى لم يبق في مصر درهم ولا دينار إلا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والحلل والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور، حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم، فإن الرجل كان يشتري بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة، فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا مماليك، وباعهم في السنة السابعة برقابهم وأرواحهم، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكاً له، فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا: تالله ما رأينا ملكاً أجل من هذا وأعظم. ثم قال يوسف: للملك كيف رأيت صنع ربي، فيما خولني فما ترى في هذا؟ فقال له الملك: الرأي رأيك، وإنما نحن لك تبع. فقال يوسف: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر جميعاً، ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم. وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم، وإن يكن عظيماً، من أكثر من حمل بعير؛ تقسيطاً بين الناس وتوسيعاً عليهم. فتزاحم الناس عليه.

مجيء اخوته

قالوا: وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام، من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد. ونزل بيعقوب من ذلك ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر يطلبون الميرة، وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام، وكانوا أهل بادية ومواش. فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه؛ لما أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ما أراده.

قالوا: فلما نظر إليهم يوسف، وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم؟ وما أمركم؟ فإني أنكرت شأنكم.

فقالوا: نحن قوم من أهل الشام، رعاة أصابنا الجهد، فجئنا نمتار.

فقال: لعلكم عيون، جئتم تنظرون عورة بلادي؟.

فقالوا: لا. والله، ما نحن بجواسيس، وإنما نحن كنا اثني عشر، فذهب منا أخ إلى البرية، فهلك فيها وكان أحب إلى أبينا منا.

قال: كم أنتم هاهنا؟.

قالوا: عشرة.

قال: فأين الآخر؟.

قالوا: عند أبينا؛ لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلى به.

قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟.

فقالوا: أيها الملك، إننا في بلاد لا نعرف فيها.

فقال يوسف: فأئتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، فإني أرضى بذلك.

قالوا: ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه.

قال: فضعوا بعضكم عندي رهينة، حتى تأتوني بأخيكم.

فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون، وكان أبرهم بيوسف، فخلفوه عنده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، فقال عند ذلك يوسف: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أي لغلمانه الذين يكيلون الطعام ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي ثمن طعامهم ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٥٩ ـ ٦٢ تفسير الطبري ١٣: ١٠.١١.١٢. ١٤.

ـ قال: خرجوا حتى قدموا على أبيهم، وكان منزلهم[1] ـ فيما ذكر لي بعض أهل العلم ـ بالعربات من أرض فلسطين بغور الشام، وبعض يقول: بالأولاج من ناحية الشعب، أسفل من حسمى.

فلما رجعوا إلى أبيهم، قالوا: يا أبانا، قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة، لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته. فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر، فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له: إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا. ثم قال لهم: أين شمعون؟. فقالوا: إن الملك ارتهنه؛ لنأتيه ببنيامين. ثم أخبروه بالقصة، فقال لهم: ولم أخبرتموه بذلك؟. فقالوا له: أخذنا وقال إنكم جواسيس، حيث كلمناه بالعبرانية. ثم قصوا عليه القصة ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ يعني بنيامين ﴿نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. فقال يعقوب: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾. ففعلوا ذلك، فلما أتوه موثقهم قال يعقوب: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي شاهد بالوفاء.

فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا ذوي جمال وهيبة وصور حسان وقامات ممتدة، وكانوا أولاد رجل واحد[2]، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم البلد؛ لئلا يصابوا بالعين، ثم قال لهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وكان لمصر أربعة أبواب، فدخلوا من أبوابها كلها، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ صدق الله يعقوب عليه السلام فيما قال، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) أرض كنعان. سفر التكوين/ ٤٣: ٢٩.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ١٨

(٣) سورة يوسف، الآيات: ٦٣ ـ ٦٨.

مجيء أخوة يوسف في الكرة الثانية

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ يعني ولد يعقوب ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، قد جئناك به. فذكر لي أنه قال لهم: قد أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي أو كما قال. ثم قال: إني أراكم رجالاً، وقد أردت أن أكرمكم، ودعا صاحب ضيافته، فقال: أنزل كل رجلين على حدة، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما، ثم قال: إني أرى هذا الرجل الذي جئتم به، ليس معه ثان، سأضمه إليَّ، فيكون منزله معي. فأنزلهم رجلين رجلين، في منازل شتى، وأنزل أخاه[1] معه فآواه إليه، فلما خلا به ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أنا يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾[2] بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم شيئا مما أعلمتك[3]. قال كعب: لما قال له ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ قال بنيامين: فإني إذن. لا أفارقك.

قال يوسف: إني قد علمت باغتمام الوالد؛ فإن حبستك زاد غمه، ولا يمكنني حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فظيع.

فقال: لا أبالي، افعل ما تريد.

فقال يوسف: إني أدسّ صاعي هذا في رحلك، ثم أنادي عليكم بالسرقة؛ ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك.

قال: افعل. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وكانت مشربة يشرب بها الملك، وكانت كأساً من الذهب مكللاً مرصعاً بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً يكتال بها.

ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا، ثم إن يوسف أمر بهم، فأدركوا وحبسوا عن المسير، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فوقفوا، فلما قرب منهم الرسول قال لهم: ألم نحسن منزلتكم، ونكرم ضيافتكم، ونوف كيلكم، وفعلنا لكم ما لم نفعل لغيركم؟.

---

(١) بنيامين. سفر التكوين / ٤٣: ٣٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

(٣) تفسير الطبري ١٣: ٢٠.

قالوا: بلى. وما ذاك؟.

قال: سقاية الملك فقدناها، ولم نتهم عليها غيركم.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾، وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحداً بسوء، واسألوا عنا من مررنا به: هل أضررنا أحداً أو أفسدنا شيئاً، وإنا قد رددنا الدراهم، لما وجدناها في رحالنا، فلو كنا سارقين ما رددناها.

فقال الرسول: إنه صاع الملك الأكبر الذي يتكهن فيه، وإنه ائتمنني عليه فإن لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتي عنده، وأفتضح في مصر فمن رده علي فله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من طعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي كفيل.

قالوا: معاذ الله أن نسرق!.

فقال المؤذن وأصحابه: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء من وجد في رحله ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾؟.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فقال الرسول عند ذلك: لا بد من تفتيش أمتعتكم، ولستم ببارحين حتى أفتشها.

ثم إنه انصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[1]. لإزالة التهمة وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً[2].

منطقة إسحاق

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد أبي الحجاج، قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ـ فيما بلغني ـ أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختص بها ممن وليها، كان له سلماً، لا ينازع فيه، يصنع فيه

(١) سورة يوسف، الآيات: ٧٠ ـ ٧٦.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ٢٧. ٣١.

ما شاء. وكان يعقوب، حين ولد له يوسف، كان قد حضنته عمته، فكان معها وإليها، فلم يحب أحد شيئاً من الأشياء حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، ووقعت نفس يعقوب عليه ـ أتاها فقال: يا أخية، سلّمي إليّ يوسف، فوالله، ما أقدر على أن يغيب عني ساعة.

فقالت: والله، ما أنا بتاركته، والله، ما أقدر أن يغيب عني ساعة.

قال: فوالله، ما أنا بتاركه!.

قالت: فدعه عندي أياماً، أنظر إليه، وأسكن عنه؛ لعل ذلك يسليني عنه. أو كما قالت.

فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها؟ ومن أصابها؟. فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله، إنه لي لسلم، أصنع فيه ما شئت.

قال: وأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك، فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك. فأمسكته، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت.

قال: فهو الذي تقول إخوة يوسف، حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[1].

قال الرواة: لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين، دعا يوسف بالصاع فنقره ثم أدناه من أذنهن ثم قال: إن صاعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنكم انطلقتم بأخ فبعتموه، فلما سمع بنيامين ذلك، قام فسجد ليوسف، وقال: أيها الملك، سل صواعك هذا عن أخينا أحي هو؟. فنقره ثم قال له: حي، وسوف تراه. فقال بنيامين: اصنع بي ما شئت، فانه إن علم بي سوف يستنقذني.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٧. تفسير الطبري ١٣: ٣٨ ـ ٣٩ وتاريخه ١: ٢٠٠ والقصة عند الطبري تبدأ بهذا المقطع.

قال: فدخل يوسف إلى منزله، ثم إنه بكى وتوضأ فقال بنيامين: أيها الملك، إني أريد أن تضرب صواعك هذا، فيخبرك بالحق، من الذي سرقه، فجعله في رحله. فنقره ثم إنه قال: إن صواعي غضبان، وهو يقول: كيف تسألني عن صاحبي الذي سرقني، وقد رأيت مع من كنت؟.

قال: وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فغضب روبيل، وقال: أيها الملك، والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا، لأصيحن صيحة لا يبقى في مصر امرأة حامل، إلا ألقت ما في بطنها. وقامت كل شعرة في جسده، فخرجت من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومسَّ أحدهم الآخر، ذهب غضبه.

فقال يوسف لابنه: قم إلى جنب روبيل، ومسّه.

فقام الغلام فمسّه فسكن غضبه، فقال روبيل: إن في هذا البيت لشيئاً من ولد يعقوب.

فقال يوسف: من يعقوب؟.

فغضب روبيل وقال: أيها الملك، لا تذكر يعقوب، فإنه إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

قال يوسف: أنت إذن. إن كنت صادقاً، صادق.

فلما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه، وأنه أولى به منهم، واحتبسه ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه، سألوه أن يخليه لهم ويعطوه واحداً منهم بدله، ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: من سرق تحرزاً عن الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ أن أخذنا بريئاً بسقيم ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ أي خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني في العقل، وهو روبيل ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في هذا الغلام لتردُّونه ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ﴾ أي من قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ فأرجع إلى الملك،

فأناجزه القتال ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي نحن رأينا سرقته معه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ حين سألناك أن ترسله معنا، ولو علمنا الغيب أنه يسرق ما ذهبنا به معنا ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ يعني واسأل أهل القرية ﴿ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يعني قوماً صحبوهم من أهل كنعان ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[1]. لك في قولنا.

فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول، فقال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهو الذي لا جزع فيه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني يوسف وبنيامين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ يعقوب ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[2]. وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف، فأعرض عنهم.

ـ قال: وأنبئت أن يعقوب بن إسحاق دخل عليه جار له، فقال له: يا يعقوب، ما لي أراك قد انهشمت وفنيت، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟!.

قال يعقوب: لا يوصف ما ابتلاني الله به، من هم يوسف وذكره.

فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟.

فقال: يا رب، خطيئة أخطأت بها، فاغفرها لي.

قال: فإني قد غفرت لك.

وكان بعد ذلك، إذا سئل، قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: حُدِّثتُ أن جبرائيل أتى يوسف ـ صلى الله عليهما وسلم ـ وهو بمصر، في

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٧٨ ـ ٨٢.
(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٨٣ ـ ٨٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٦. تفسير الطبري ١٣: ٦١.

صورة رجل، فلما رآه يوسف عرفه، فقام إليه فقال: أيها الملك الطيب ثيابه، الكريم على ربه، هل لك بيعقوب من علم؟.

قال: نعم.

قال: أيها الملك الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، فكيف هو؟.

قال: ذهب بصره.

قال: أيها الملك الطاهر ثيابه، الكريم على ربه وما الذي أذهب بصره ؟.

قال: الحزن عليك.

قال: أيها الملك الطيب ريحه، الطاهر ثيابه، الكريم على ربه، فما أعطي على ذلك؟.

قال: أجر سبعين شهيداً[1].

مجيء أخوة يوسف في الكرة الثالثة

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم إن يعقوب قال لبنيه، وهو على حسن ظنه بربه، مع الذي هو فيه من الحزن: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ إلى البلاد التي منها جئتم، ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي من فرجه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

قال: وخرجوا إلى مصر، راجعين إليها ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به، إلا أن يتجاوز لهم فيها، وقد رأوا ما نزل بأبيهم، وتتابع البلاء عليه في ولده وبصره، حتى قدموا على يوسف. فلما دخلوا عليه قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ رجاء أن يرحمهم في شأن أخيهم ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٣: ٦١ ـ٦٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣: ٦٥.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ذُكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام، غلبته نفسه، فارفضّ دمعه باكياً، ثم باح لهم بالذي يكتم منهم، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ولم يعن بذكر أخيه ما صنعه هو فيه، حين أخذه، ولكن للتفريق بينه وبين أخيه، إذ صنعوا بيوسف ما صنعوا[1].

قال ابن إسحاق: لما قال يوسف لأخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب، فعرفوه فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾. عن ابن عباس أنه قال: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في فرقه علامة، وكان ليعقوب مثلها وكان لإسحاق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة، فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه. وقالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ بأن جمعنا بعد ما فرقتم بيننا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ثم إنهم أقروا بفضل يوسف عليهم وجريمتهم إليه، فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، فقال يوسف، وكان حليماً كريماً موفقاً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فلما عرفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيه فقال: ما فعل أبي من بعدي؟. قالوا: ذهبت عيناه. فأعطاهم قميصه. فقال لهم: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: لما فصلت العير من مصر، استروح يعقوب ريح يوسف، فقال لمن عنده من ولده: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[2].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ

---

(١) تفسير الطبري ١٣: ٧٢.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٨٧ ـ ٩٤.

عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ يقول: رجع وعاد مبصراً بعينيه، بعد ما قد عمي. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: قال يعقوب لمن كان بحضرته حينئذ من ولده: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا بني ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنه سيردُّ عليَّ يوسف، ويجمع بيني وبينه، وكنتم لا تعلمون أنتم من ذلك، ما كنت أعلمه؛ لأن رؤيا يوسف كانت صادقة؛ وذلك أنه كان قد علم من صدق تأويل رؤيا يوسف، التي رآها أن الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدون، ما لم يكونوا يعلمون، فقالوا ليعقوب: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[1] فلما دنا يعقوب، أُخبر يوسف أنه قد دنا منه، فخرج يتلقاه.

قال: وركب معه أهل مصر، وكانوا يعظمونه، فلما دنا أحدهما من صاحبه، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده، يقال له: يهوذا.

قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟. فقال: لا. هذا ابنك يوسف.

قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه، ذهب يوسف يبدؤه بالسلام، فمُنع ذلك وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان. فلما أن دخلوا مصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ السرير وأجلسهما عليه ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ كانت تحية الناس أن يسجد بعضهم لبعض، ﴿وَقَالَ﴾ يوسف لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[2] يعني بذلك، هذا السجود منكم يدل على تأويل رؤياي، التي رأيتها من قبل صنع إخوتي بي ما صنعوا، وتلك الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر، قد جعلها ربي حقاً، يقول: قد حقق الرؤيا بمجيء تأويلها.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا: سلمة عن ابن إسحاق قال: ذُكر لي والله أعلم أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة.

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه[1].

قال: وقبر يوسف، كما ذكر لي، في صندوق من مرمر، في ناحية من النيل في جوف الماء[2].

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي[3]: إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعاً وأربعين سنة[4]، وتوفى عيصو معه في يوم واحد، وقبرا في قبر واحد[5].

وفاة يوسف

قال: فلما جمع الله ليوسف شمله وأقرَّ له عينه، وأتمَّ له تفسير رؤياه، وكان موسعاً عليه في ملك الدنيا ونعيمها، وعلم أن ذلك لا يدوم له، وأنه لا بد من فراقه، فأراد نعيم الجنة، إذ هو أفضل منه، فتاقت نفسه إلى الجنة، فتمنى الموت ودعا به، ولم يتمن نبي قبله ولا بعده الموت، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[6].

موسى بن ميشا بن يوسف

ـ سلمة بن الفضل، حدثني محمد بن إسحاق قال: ثم ولد موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، فتنبأ في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران ـ فيما يزعمون ـ ويزعم

(١) تفسير الطبري ١٣:٩٣.وتفسير القرطبي ٩: ٢٦٨.

(٢) مات يوسف وله مائة وعشر سنين. تاريخ اليعقوبي ا: ٣٢.

(٣) محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي المدني الإمام الثقة أبو عبد الله، توفي سنة ١٢٠ هـ. تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٤.

(٤) مائة وأربعون سنة. تاريخ اليعقوبي ١: ٣٠ وتاريخ المسعودي ١: ٥٩.

(٥) تفسير القرطبي ٩: ٢٧٧.

(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠١. قصص الأنبياء للثعلبي: ٩٦ ـ ١٢٤.

أهل التوراة أنه هو الذي طلب العالم، ليتعلم منه، حتى أدرك العالم الذي أغرق السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن ميشا معه، ثم انصرف عنه حتى بلغ ما بلغ[1].

(١) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٥٩٧ ونسب المسعودي هذه القصة الى أهل التوراة والكتب الأولى. ١: ٦٠.وعرفه الثعلبي في قصص الأنبياء: ١٢٦ بأنه هو موسى الأول، بن ميشا بن أفرايم بن يوسف. قال: وأوحى الله تعالى إلى موسى بن ميشا أن قل لقومك: إنني بريء من سحر أو سُحر له، أو تكهن أو تُكهن له، أو تطيّر أو تُطير له، وإنني صادق، فليثق بي كل صادق، فمن تقرّب مني قرّبته، ومن عدل عني ووثق بغيري، وكلته إلى من وثق إليه، ومن وكلته إلى غيري، فليستعد للبلاء، ومن تباعد مني، كنت أشد تباعداً منه. يا موسى، قل لبني إسرائيل: لو رغبتم إليّ، كما أمرتكم، لأجبتكم إلى ما وعدتكم، وكيف ترجون الإجابة، وأنتم تفترون عن ذكر الله تعالى؟ وكيف ترضون لأنفسكم ذلك؟ ورضاه عنكم أن ترغبوا إليه فيما تأملون، وتتقون فيما تأتون. فإن قالوا: إنما تحملنا حاجةُ الدنيا على الأمل والرغبة في كل ساعة، فقل لهم: لا تجبروا أنفسكم، فإن حاجته تموت، وقلوب من يؤملها ميتة. فإن قالوا: قد خبرنا أنفسنا بذلك، فوجدنا الشهوة تؤذينا. فقل لهم: إن أردتم المعونة على ذلك فادعوني، واذكروا الموت عند كل شهوة، فإن ذلك الموت يميت الشهوات. فقرأ موسى بن ميشا ذلك على بني إسرائيل، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، ولبث موسى فيهم، حتى قبضه الله تعالى. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٢٦.

أصحاب الرس

العبد الأسود

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي: قال قال: رسول الله ﷺ: (إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود). وذلك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بعث نبياً إلى أهل قرية، فلم يؤمن من أهلها أحد، إلا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي عليه السلام[1] وحفروا له بئراً، فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم.

قال: وكان ذلك العبد يذهب، فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه، فيبيعه فيشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى ذلك البئر، فيرفع تلك الصخرة فيعينه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يعيدها كما كانت.

قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذهب يوماً، يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها، فلما أراد أن يحتملها، وجد سِنة، فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنه هبَّ فتمطى فتحول لشقه الآخر، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه هبَّ، فاحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها التي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده. وقد كان بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه.

قال: فكان النبي عليه السلام، يسألهم عن ذلك الأسود: ما فعل ؟. فيقولون: ما ندري.

(١) سماه المسعودي في تاريخه ٢: ٢٥ حنظلة بن صفوان العبسي، وذكر أن للقصة أوجهاً كثيرة.

حتى قبض الله النبي، فأهب الله الأسود من نومته بعد ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (إن ذلك الأسود لأول من يدخل...)[1].

(١) تفسير الطبري ١٩: ٢٠ - ٢١. وتفسير ابن كثير ٣: ٣٢٥. قال القرطبي في تفسيره ١٣: ٣٣ هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم وقال الكلبي: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه وهم أول من عمل نساؤهم السحق. وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين. وقيل: هم بقايا من قوم ثمود وأن الرس البئر المذكورة في الحج في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ على ما تقدم، وفي الصحاح: والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود، وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أصحاب الرس قوم يستحسنون لنسائهم السحق وكان نساؤهم كلهم سحاقات وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: إن من أشراط الساعة أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلكم السحق، وقيل: الرس ماء ونخل لبني أسد. وقيل: الثلج المتراكم في الجبال، وما ذكرناه أولاً هو المعروف وهو كل حفر احتفر بمعروف وهو كل حفر احتفر كالقبر والمعدن والبئر قال أبو عبيدة: الرس كل ركية لم تطو وجمعها رساس. وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا.

أيوب

نسب أيوب

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب ابن منبه أن أيوب[1] كان رجلاً من الروم، (في زمن يعقوب ويوسف)[2]، وهو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم[3].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم، عن وهب بن منبه اليماني، وغيره من أهل الكتب الأول: كان من حديث أيوب أنه، كان رجلاً من الروم، وكان الله قد اصطفاه ونبأه، وابتلاه في الغنى بكثرة الولد والمال وبسط عليه من الدنيا، فوسع عليه في الرزق، وكانت له البثنية[4] من أرض الشأم، أعلاها وأسفلها وسهلها وجبلها، وكان له فيها من أصناف المال كله، من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير، ما لا يكون للرجل أفضل منه في العدة والكثرة، وكان الله قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء. وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يطعم المساكين، ويحمل الأرامل، ويكفل الأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله عليه، مؤدياً لحق الله في الدنيا، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه، ما أصاب من أهل الدنيا، من العزة والغفلة والسهو والتشاغل، عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا. وكان

(١) سفر أيوب من العهد القديم، وهو في اثنين وأربعين إصحاحاً، تتضمن كل القصة.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٢ وتاريخ المسعودي ١: ٦٠.

(٣) تاريخ الطبري ١: ٣٢٢ وعن وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتاب: كان رجلاً عظيم الرأس، جعد الشعر، حسن العينين، قصير العنق، غليظ الساقين والساعدين، وكان مكتوباً على جبهته: المبتلى الصابر. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٣٥.

(٤) ناحية في دمشق.

معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه، وعرفوا فضل ما أعطاه الله على من سواه، منهم رجل من أهل اليمن، يقال له: أليفر، ورجلان من أهل بلاده، يقال لأحدهما: مالك. وللآخر: يلدد[1]. وكانوا من بلاده كهولاً.

إبليس في السماء السابعة

وكان لإبليس عدو الله، منزل من السماء السابعة، يقع به كل سنة موقعاً، يسأل فيه، فصعد إلى السماء في ذلك اليوم الذي كان يصعد فيه، فقال الله له، أو قيل له عن الله: هل قدرت من أيوب عبدي على شيء؟.

قال: أي رب، وكيف أقدر منه على شيء، وإنما ابتليته بالرخاء والنعمة والسعة والعافية، وأعطيته الأهل والمال والولد والغنى، والعافية في جسده وأهله وماله، فما له لا يشكرك الحماقات ويطيعك، وقد صنعت ذلك به؟ لو ابتليته بنزع ما أعطيته، لحال عما كان عليه من شكرك، ولترك عبادتك، ولخرج من طاعتك إلى غيرها، أو كما قال عدو الله. فقال: قد سلطتك على أهله وماله.

وكان الله هو أعلم به، ولم يسلطه عليه إلا رحمة؛ ليعظم له الثواب بالذي يصيبه من البلاء، وليجعله عبرة للصابرين، وذكرى للعابدين، في كل بلاء نزل بهم؛ ليتأسوا به، وليرجوا من عاقبة الصبر في عرض الدنيا، ثواب الآخرة، وما صنع الله بأيوب. فانحط عدو الله سريعاً، فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين من جنوده، فقال: إني قد سُلطت على أهل أيوب وماله، فماذا عليكم؟.

فقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نار، فلا أمر بشيء من ماله إلا أهلكته.

قال: أنت وذاك.

فخرج حتى أتى إبله فأحرقها ورعاتها جميعاً، ثم جاء عدو الله إلى أيوب في صورة، قيّمه عليها، وهو في مصلى فقال: يا أيوب، أقبلت نار حتى غشيت إبلك

---

(١) أليفاز وبلدد وصوفر، كما في سفر أيوب واليفن ومالك وظافر في قصص الأنبياء للثعلبي: ١٣٥ وفيه القصة كاملة.

فأحرقتها، ومن فيها غيري، فجئتك أخبرك بذلك. فعرفه أيوب، فقال: الحمد لله الذي هو أعطاها، وهو أخذها، الذي أخرجك منها كما يخرج الزؤان من الحب النقي.

ثم انصرف عنه، فجعل يصيب ماله مالاً مالاً، حتى مر على آخره، كلما انتهى إليه هلاك مال من ماله، حمد الله، وأحسن عليه الثناء، ورضي بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاء، حتى إذا لم يبق له مال، أتى أهله وولده، وهم في قصر لهم معهم محظياتهم وخدمهم، فتمثل ريحاً عاصفاً، فاحتمل القصر من نواحيه، فألقاه على أهله وولده فشدختهم تحته، ثم أتاه في صورة قهرمان عليهم، قد شدخ وجهه، فقال: يا أيوب قد أتت ريح عاصف، فاحتملت القصر من نواحيه ثم ألقته على أهلك وولدك، فجئتك أخبرك ذلك. فلم يجزع على شيء أصابه، جزعه على أهله وولده، وأخذ تراباً، فوضعه على رأسه، ثم قال: ليت أمي لم تلدني، ولم أك شيئاً.

وسُرَّ بها عدو الله منه، فأصعد إلى السماء جذلاً، وراجع أيوب التوبة مما قال، فحمد الله فسبقت توبته عدو الله إلى الله، فلما جاء وذكر ما صنع، قيل له: قد سبقتك توبته إلى الله ومراجعته.

قال: أي رب، فسلطني على جسده؟.

قال: قد سلطتك على جسده، إلا على لسانه وقلبه ونفسه وسمعه وبصره.

فأقبل إليه عدو الله، وهو ساجد فنفخ في جسده نفخة، أشعل ما بين قرنه إلى قدمه كحريق النار، ثم خرج في جسده ثآليل كأليات الغنم، فحك بأظفاره حتى ذهبت، ثم بالفخار والحجارة حتى تساقط لحمه، فلم يبق منه إلا العروق والعصب والعظام، عيناه تجولان في رأسه للنظر، وقلبه للعقل، ولم يخلص إلى شيء من حشو البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها، فهو يأكل ويشرب على التواء من حشوته، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن ابن دينار، عن الحسن: أنه كان يقول: مكث أيوب في ذلك البلاء سبع سنين وستة أشهر، ملقى على رماد مكنسة في جانب القرية.

امرأة أيوب

ـ قال وهب بن منبه: ولم يبق من أهله، إلا امرأة واحدة تقوم عليه وتكسب له، ولا يقدر عدو الله منه على قليل، ولا كثير مما يريد، فلما طال البلاء عليه وعليها، وسئمها الناس، وكانت تكسب عليه ما تطعمه وتسقي، قال وهب بن منبه: فحدثت أنها التمست له يوماً من الأيام تطعمه، فما وجدت شيئاً حتى جزت قرناً من رأسها، فباعته برغيف، فأتته به، فعشته إياه، فلبث في ذلك البلاء تلك السنين، حتى إن كان المار ليمر فيقول: لو كان لهذا عند الله خير لأراحه مما هو فيه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: فحدثني محمد بن إسحاق قال: وكان وهب بن منبه يقول: لبث في ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً، فلما غلبه[1] أيوب، فلم يستطع منه شيئاً، اعترض لامرأته في هيئة، ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والطول، على مركب ليس من مراكب الناس، له عظم وبهاء وجمال ليس لها، فقال لها: أنت صاحبة أيوب، هذا الرجل المبتلى؟.

قالت: نعم.

قال: هل تعرفينني؟.

قالت: لا.

قال: فأنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت؛ وذلك أنه عبد إله السماء، وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة، رددت عليه، وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي.

ثم أراها إياهم، فيما ترى ببطن الوادي الذي لقيها فيه.

قال: وقد سمعت أنه إنما قال: لو أن صاحبك أكل طعاماً، ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلاء والله أعلم. وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، وما أراها، قال: أوقد أتاك عدو الله، ليفتنك عن دينك؟!. ثم أقسم، إن الله عافاه، ليضربنها مئة ضربة.

(١) الهاء تعود إلى إبليس.

أيوب والمؤمنون به

فلما طال عليه البلاء، جاءه أولئك النفر الذين كانوا معه، قد آمنوا به وصدقوه، ومعهم فتى حديث السن قد كان آمن به وصدقه، فجلسوا إلى أيوب، ونظروا إلى ما به من البلاء، فأعظموا ذلك وفظعوا به، وبلغ من أيوب - صلوات الله عليه - مجهوده؛ وذلك حين أراد الله أن يفرج عنه ما به، فلما رأى أيوب ما أعظموا مما أصابه، قال: أي رب، لأي شيء خلقتني؟.

ولو كنت إذ قضيت علي البلاء، تركتني فلم تخلقني.

ليتني كنت دماً ألقتني أمي.

(ويا ليتني مت فلم أعرف شيئاً.

ولم تعرفني ما الذنب الذي أذنبت، لم يذنبه أحد غيري؟.

وما العمل الذي عملت، فصرفت وجهك الكريم عني؟.

لو كنت أمتني، فألحقتني بآبائي، فالموت كان أجمل بي.

فأسوة لي بالسلاطين الذين صُفت من دونهم الجيوش، يضربون عنهم بالسيوف، بخلاً بهم عن الموت، وحرصاً على بقائهم، أصبحوا في القبور جاثمين. حتى ظنوا أنهم سيخلدون.

وأسوة لي بالملوك الذين كنزوا الكنوز، وطمروا المطامير، وجمعوا، ظنوا أنهم سيخلدون.

وأسوة لي بالجبارين الذين بنوا المدائن والحصون، وعاشوا فيها المئين من السنين، ثم أصبحت خراباً، مأوى للوحوش ومثنى للشياطين.

قال أليفر اليماني: قد أعيانا أمرك، يا أيوب، إن كلمناك فما نرى للحديث منك موضعاً، وإن نسكت عنك، مع الذي نرى فيك من البلاء، فذلك علينا، قد كنا نرى من أعمالك، أعمالاً كنا نرجو لك عليها من ما رأينا، فإنما يحصد امرؤ ما زرع ويجزى بما عمل. أشهد على الله الذي لا يُقدَّر قدر عظمته، ولا يُحصى عدد نعمه. الذي ينزل الماء

من السماء فيحيي به الميت، ويرفع به الخافض ويقوي به الضعيف. الذي تضل حكمة الحكماء عند حكمته، وعلم العلماء عند علمه حتى تراهم من العي في ظلمة يموجون. إن من رجا معونة الله هو القوي، وإن من توكل عليه هو المكفي، هو الذي يكسر ويجبر ويجرح ويداوي.

قال أيوب: لذلك سكت، فعضضت على لساني، ووضعت لسوء الخدمة رأسي، لأني علمت أن عقوبته غيّرت نور وجهي، وأن قوته نزعت قوة جسدي، فأنا عبده ما قضى علي أصابني، ولا قوة لي إلا ما حمل علي، لو كانت عظامي من حديد، وجسدي من نحاس، وقلبي من حجارة، لم أطق هذا الأمر، ولكن هو ابتلاني، وهو يحمله عني. أتيتموني غضاباً، قبل أن تُسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تُضربوا!! كيف بي لو قلت لكم: تصدقوا عني بأموالكم؛ لعل الله أن يخلصني أو قربوا عني قرباناً، لعل الله أن يتقبله مني ويرضى عني.

إذا استيقظت تمنيت النوم رجاء أن أستريح، فإذا نمت كادت تجود نفسي، تقطعت أصابعي، فإني لأرفع اللقمة من الطعام بيدي جميعاً، فما تبلغان فمي إلا على الجهد مني، تساقطت لهواتي ونخر رأسي، فما بين أذني من سداد، حتى إن إحداهما لتُرى من الأخرى، وإن دماغي ليسيل من فمي، تساقط شعري عني، فكأنما حُرّق بالنار وجهي، وحدقتاي هما متدليتان على خدي، ورم لساني، حتى يكتفي، فما أُدخل فيه طعاماً إلا غصني، وورمت شفتاي حتى غطت العليا أنفي، والسفلى ذقني، تقطعت أمعائي في بطني، فإني لأدخل الطعام فيخرج، كما دخل ما أحسه ولا ينفعني.

ذهبت قوة رجلي، فكأنهما قربتا ماء ملئتا لا أطيق حملهما، أحمل لحافي بيدي وأسناني، فما أطيق حمله حتى يحمله معي غيري، ذهب المال فصرت أسأل بكفي، فيطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة، فيمنها عليَّ ويعيرني، هلك بنيَّ وبناتي، ولو بقي منهم أحد، أعانني على بلائي ونفعني. وليس العذاب بعذاب الدنيا؛ إنه يزول عن أهلها ويموتون عنه، ولكن طوبى لمن كانت له راحة في الدار، التي لا يموت أهلها، ولا يتحولون عن منازلهم. السعيد من سعد هنالك، والشقي من شقي فيها.

قال يلدد: كيف يقوم لسانك بهذا القول؟ وكيف تفصح به؟ أتقول: إن العدل

يجور، أم تقول: إن القوي يضعف. ابك على خطيئتك، وتضرع إلى ربك؛ عسى أن يرحمك ويتجاوز عن ذنبك، وعسى إن كنت بريئاً، أن يجعل هذا لك ذخراً في آخرتك، وإن كان قلبك قد قسا، فإن قولنا لن ينفعك ولن يأخذ فيك. هيهات أن تنبت الآجام في المفاوز، وهيهات أن ينبت البردي في الفلاة. من توكل على الضعيف، كيف يرجو أن يمنعه؟! ومن جحد الحق كيف يرجو أن يوفى حقه؟!.

قال أيوب: إني لأعلم أن هذا هو الحق، لن يفلح العبد على ربه، ولا يطيق أن يخاصمه، فأي كلام لي معه؟! وإن كان إلى القوة، فهو الذي سمك السماء فأقامها وحده، وهو الذي يكشطها، إذا شاء فتنطوي له، وهو الذي سطح الأرض فدحاها وحده، ونصب فيها الجبال الراسيات، ثم هو الذي يزلزلها من أصولها، حتى تعود أسافلها أعاليها. وإن كان في الكلام، فأي كلام لي معه؟!. من خلق العرش العظيم بكلمة واحدة، فحشاه السماوات والأرض وما فيهما من الخلق، فوسعه وهو في سعة واسعة، وهو الذي كلم البحار، ففهمت قوله وأمرها فلم تعدُ أمره، وهو الذي يفقه الحيتان والطير وكل دابة، وهو الذي يكلم الموتى فيحييهم قوله، ويكلم الحجارة فتفهمه، ويأمرها فتطيعه؟!.

قال أليفر: عظيم ما تقول يا أيوب، إن الجلود لتقشعر من ذكر ما تقول، إن ما أصابك، ما أصابك بغير ذنب أذنبته. مثل هذه الحدة وهذا القول، أنزلك هذه المنزلة، عظمت خطيئتك وكثر طلابك، وغصبت أهل الأموال على أموالهم، فلبست وهم عراة، وأكلت وهم جياع، وحبست عن الضعيف بابك، وعن الجائع طعامك، وعن المحتاج معروفك، وأسررت ذلك، وأخفيته في بيتك، وأظهرت أعمالاً، كنا نراك تعملها، فظننت أن الله لا يجزيك، إلا على ما ظهر منك، وظننت أن الله لا يطلع على ما غيبت في بيتك، وكيف لا يطلع على ذلك، وهو يعلم ما غيبت الأرضون، وما تحت الظلمات والهواء؟!.

قال أيوب ﷺ: إن تكلمت لم ينفعني الكلام، وإن سكت لم تعذروني، قد وقع علي كيدي، وأسخطت ربي بخطيئتي، وأشمت أعدائي وأمكنتهم من عنقي، وجعلتني للبلاء غرضاً، وجعلتني للفتنة نصباً، لم تنفسني مع ذلك، ولكن أتبعني ببلاء على إثر

بلاء. ألم أكن للغريب داراً، وللمسكين قراراً، ولليتيم ولياً، وللأرملة قيماً ؟. ما رأيت غريباً، إلا كنت له داراً مكان داره، وقراراً مكان قراره، ولا رأيت مسكيناً إلا كنت له مالاً، مكان ماله، وأهلًا مكان أهله، وما رأيت يتيماً إلا كنت له أباً، مكان أبيه، وما رأيت أيِّماً إلا كنت لها قيماً، ترضى قيامه. وأنا عبد ذليل، إن أحسنت لم يكن لي كلام بإحسان، لأن المنّ لربي وليس لي، وإن أسأت فبيده عقوبتي، وقد وقع علي بلاء، لو سلطته على جبل، ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي؟!.

قال أليفر: أتحاج الله يا أيوب، في أمره، أم تريد أن تناصفه، وأنت خاطىء أم تريد أن تبرأ، وأنت غير بريء ؟. خلق السماوات والأرض بالحق، وأحصى ما فيهما من الخلق، فكيف لا يعلم ما أسررت؟ وكيف لا يعلم ما عملت؛ فيجزيك به؟. وضع الله ملائكة، صفوفاً حول عرشه، وعلى أرجاء سماواته، ثم احتجب بالنور، فأبصارهم عنه كليلة، وقوتهم عنه ضعيفة، وعزيزهم عنه ذليل، وأنت تزعم أن لو خاصمك، وأدلي إلى الحكم معك !. وهل تراه فتناصفه ؟، أم هل تسمعه فتحاوره ؟. قد عرفنا فيك قضاءه: إنه من أراد أن يرتفع وضعه، ومن اتضع له رفعه.

قال أيوب ﷺ: إن أهلكني، فمن ذا الذي يعرض له في عبده، ويسأله عن أمره؟!. لا يرد غضبه شيء إلا رحمته، ولا ينفع عبده إلا التضرع له. رب، أقبل علي برحمتك، وأعلمني ما ذنبي الذي أذنبت، أو لأي شيء صرفت وجهك الكريم عني، وجعلتني لك مثل العدو، وقد كنت تكرمني ؟. ليس يغيب عنك شيء، تحصي قطر الأمطار، وورق الأشجار، وذر التراب، أصبح جلدي كالثوب العفن، بأيه أمسكت، سقط في يدي، فهب لي قرباناً من عندك، وفرجاً من بلائي، بالقدرة التي تبعث موتى العباد، وتنشر بها ميت البلاد، ولا تهلكني بغير أن تعلمني ما ذنبي، ولا تفسد عمل يديك، وإن كنت غنياً عني ليس ينبغي في حكمك ظلم، ولا في نقمتك عجل، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وإنما يعجل من يخاف الفوت، ولا تذكرني خطئي وذنوبي.

اذكر كيف خلقتني من طين، فجعلتني مضغة ثم خلقت المضغة عظاماً، وكسوت العظام لحماً وجلداً، وجعلت العصب والعروق لذلك قواماً وشدة، وربيتني صغيراً، ورزقتني كبيراً، ثم حفظت عهدك، وفعلت أمرك. فإن أخطأت فبيّن لي ولا تهلكني غماً،

وأعلمني ذنبي فإن لم أرضك، فأنا أهل أن تعذبني، وإن كنت من بين خلقك، تحصي علي عملي، وأستغفرك فلا تغفر لي، إن أحسنت لم أرفع رأسي، وإن أسأت لم تبلعني ريقي، ولم تقلني عثرتي، وقد ترى ضعفي تحتك، وتضرعي لك، فلمَ خلقتني؟! أو لم أخرجتني من بطن أمي؟!. لو كنت كمن لم يكن، لكان خيراً لي، فليست الدنيا عندي تخطر لغضبك، وليس جسدي يقوم بعذابك، فارحمني وأذقني طعم العافية، من قبل أن أصير إلى ضيق القبر، وظلمة الأرض، وغمّ الموت.

قال صافر: قد تكلمت يا أيوب، وما يطيق أحد أن يحبس فمك، تزعم أنك بريء، فهل ينفعك إن كنت بريئاً، وعليك من يحصي عملك. وتزعم أنك تعلم أن الله يغفر لك ذنوبك.

هل تعلم سمك السماء كم بعده ؟، أم هل تعلم عمق الهواء كم بعده ؟، أم هل تعلم أي الأرض أعرضها ؟، أم هل عندك لها من مقدار، تقدرها به ؟، أم هل تعلم أي البحر أعمقه ؟، أم هل تعلم بأي شيء تحبسه ؟. فإن كنت تعلم هذا العلم، وإن كنت لا تعلمه، فإن الله خلقه وهو يحصيه، لو تركت كثرة الحديث، وطلبت إلى ربك، رجوت أن يرحمك، فبذلك تستخرج رحمته، وإن كنت تقيم على خطيئتك، وترفع إلى الله يديك عند الحاجة، وأنت مصر على ذنبك إصرار الماء الجاري في صبب، لا يستطاع إحباسه، فعند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوه الأشرار، وتظلم عيونهم، وعند ذلك يسر بنجاح حوائجهم، الذين تركوا الشهوات تزيناً بذلك عند ربهم، وتقدموا في التضرع، ليستحقوا بذلك الرحمة، حين يحتاجون إليها، وهم الذين كابدوا الليل، واعتزلوا الفرش، وانتظروا الأسحار)[1].

قال فتى، حضرهم، وسمع قولهم، ولم يفطنوا له، وإنما قيضه الله لهم؛ لما كان من جورهم في المنطق، فأراد الله أن يصغّر به إليهم أنفسهم، وأن يسفه بصغره لهم أحلامهم، فلما تكلم تمادى في الكلام، فلم يزدد إلا حكماً، وكان القوم من شأنهم

(١) ما بين القوسين إضافة من رواية وهب بن منبه، أشار إليها الطبري بقوله: ثم ذكر نحو حديث ابن عساكر عن إسماعيل بن عبد الكريم إلى:وكابده الليل واعتزلوا الفرش وانتظروا الأسحار، وهي في تفسيره ١٧: ٧٩ - ٨٢.

الاستماع والخشوع، إذا وعظوا أو ذكروا فقال: إنكم تكلمتم قبلي ـ أيها الكهول ـ وكنتم أحق بالكلام، وأولى به مني لحق أسنانكم، ولأنكم جربتم قبلي، ورأيتم ما لم أر، وعلمتم ما لم أعلم، وعرفتم ما لم أعرف، ومع ذلك قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، ومن الموعظة أحكم من الذي وصفتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، هل تدرون أيها الكهول، حق من انتقصتم؟، وحرمة من انتهكتم؟، ومن الرجل الذي عبتم؟.

ولم تعلموا ـ أيها الكهول ـ أن أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض، في يومكم هذا، اختاره الله لوحيه واصطفاه لنفسه وائتمنه على نبوته، ثم لم تعلموا، ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئاً من أمره، مذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة، التي أكرمه بها مذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا أن الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم، ووضعه في أنفسكم، فقد علمتم أن الله يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل سخطه عليهم، ولا لهوانه لهم، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة، ولا في النبوة، ولا في الأثرة، ولا في الفضيلة، ولا في الكرامة، إلا أنه أخ، تغط على وجه الصحابة، لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء، ولا يعيره بالمصيبة بما لا يعلم، وهو مكروب حزين، ولكن يرحمه، ويبكي معه، ويستغفر له، ويحزن لحزنه، ويدله على مراشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله ـ أيها الكهول ـ في أنفسكم.

قال: ثم أقبل على أيوب ـ ع ـ فقال: وقد كان في عظمة الله وجلاله، وذكر الموت، ما يقطع لسانك، ويكسر قلبك، وينسيك حججك، ألم تعلم يا أيوب، أن لله عباداً، أسكتتهم خشيته، من غير عي ولا بكم، وإنهم لهم الفصحاء النطقاء النبلاء الألباء، العالمون بالله وبآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله، انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظاماً لله، وإجلالاً، فإذا استفاقوا من ذلك، استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع الظالمين و الخاطئين، وإنهم

لأنزاه براء، ومع المقصرين والمفرطين، وإنهم لكياس أقوياء، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرضون لله بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، فهم مروعون مفزعون معتمون خاشعون وجلون مستكينون معترفون، متى ما رأيتهم، يا أيوب.

قال أيوب: إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب، يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن، ولا الشبيبة، ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا، لم يسقط منزله عند الحكماء، وهم يرون عليه من الله، نور الكرامة، ولكنكم قد أعجبتكم أنفسكم، وظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم، فهنالك بغيتم وتعززتم، ولو نظرتم، فيما بينكم وبين ربكم، ثم صدقتم أنفسكم، لوجدتم لكم عيوباً، سترها الله بالعافية التي ألبسكم، ولكني قد أصبحت اليوم، وليس لي رأي ولا كلام معكم، قد كنت فيما خلا مسموعاً كلامي، معروفاً حقي، منتصفاً من خصمي، قاهراً لمن هو اليوم يقهرني، مهيباً مكاني، والرجال مع ذلك ينصتون لي، ويوقرونني، فأصبحت اليوم، قد انقطع رجائي، ورفع حذري، وملّني أهلي، وعقّني أرحامي، وتنكرت لي معارفي، ورغب عني صديقي، وقطعني أصحابي، وكفرني أهل بيتي، وجُحدت حقوقي، ونسيت صنائعي.

أصرخ فلا يصرخونني، وأعتذر فلا يعذرونني، وإن قضاءه هو الذي أذلني، وأقمأني وأخسأني، وإن سلطانه هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري، وأطلق لساني؛ حتى أتكلم بملء فمي، ثم كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه، لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بين ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إليّ، فرحمني، ولا دنا مني ولا أدناني، فأدلي بعذري، وأتكلم ببراءتي، وأخاصم عن نفسي.

ثواب الصبر

ولما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده، أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب، ثم نودي منه، ثم قيل له: يا أيوب، إن الله يقول: ها أنا ذا قد دنوت منك، ولم أزل منك قريباً، فقم فأدل بعذرك الذي زعمت، وتكلم ببراءتك، وخاصم عن نفسك واشدد إزارك،

فرحمتي سبقت غضبي، ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[1] فيه شفاؤك وقد وهبت لك أهلك، ومثلهم معهم، ومالك ومثله معه.

وزعموا: ومثله معه؛ لتكون لمن خلفك آية، ولتكون عبرة لأهل البلاء، وعزاء للصابرين، فركض برجله فانفجرت له عين، فدخل فيها فاغتسل، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس، وأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه، فلم تجده فقامت كالوالهة متلددة، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلي الذي كان ههنا؟. قال: لا. ثم تبسم فعرفته بمضحكه، فاعتنقته.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: فحدثت عبد الله بن عباس حديثه، واعتناقها إياه، فقال عبد الله: فوالذي نفس عبد الله بيده، ما فارقته من عناقه، حتى مر بهما كل مال لهما، وولد.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: وقد سمعت بعض من يذكر الحديث عنه: أنه دعاها حين سألت عنه، فقال لها: وهل تعرفينه إذا رأيته؟. قالت: نعم. وما لي لا أعرفه؟. فتبسم ثم قال: ها أنا هو، وقد فرج الله عني ما كنت فيه، فعند ذلك اعتنقته[2].

قال وهب: فأوحى الله إليه، في قسمه، ليضربنها في الذي كلمته: أن ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي قد برت يمينك، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3] يقول الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٢.

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي:١٣٥ ـ ١٤١.

(٣) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٤) سورة ص، الآية: ٤٣. تفسير الطبري ١٧: ٨٦ ـ ٩١.

ـ حدثني محمد بن إسحاق قال: ثنا يحيى بن معين[1] قال: ثنا ابن عيينة[2] عن عمرو[3]، عن وهب بن منبه قال: لم يكن بأيوب أكلة إنما كان يخرج به مثل ثدي النساء ثم ينقفه[4].

(١) يحيى بن معين أبو زكريا البغدادي، توفي بالمدينة سنة ٢٣٣ هـ. التاريخ الكبير ٨: ٣٠٧.

(٢) سفيان بن عيينة أبو محمد مولى بني هلال الكوفي سكن مكة، توفي سنة ١٧٨ هـ. التاريخ الكبير ٤: ٩٤.

(٣) عمرو بن دينار المكي أبو محمد الأثرم مولى بن باذان، روى عنه سفيان بن عيينة، توفي سنة ١٢٦ هـ. الجرح والتعديل ٦: ٢٣١.

(٤) تفسير الطبري ١٧: ٩١. وعن وهب بن منبه قال: ثم كان عمر أيوب ثلاثاً وتسعين سنة، وأوصى عند موته إلى ابنه حومل، وقد بعث الله بعده ابنه بشر بن أيوب نبياً، وسماه ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده، وأنه كان مقيماً بالشام عمره، حتى مات، وكان عمره خمساً وسبعين سنة، وإن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان، ثم بعث الله بعدهم شعيباً. تاريخ الطبري ١: ٣٢٥ ومستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١١٨ وقصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٥.

شعيب

نسب شعيب

قال محمد بن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل[1] بن يشجر بن مدين بن إبراهيم، واسمه بالسريانية يثرون[2]، وأمه ميكيل ابنة لوط، وكان شعيب عليه السلام أعمى، فذلك قوله - تعالى - إخباراً عن قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[3]. أي ضريراً[4]، وكان يقال له: خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، وإن الله - تعالى - بعثه إلى أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، والأيكة الشجر الملتف[5].

---

(١) البدء والتاريخ ٣: ٧٥. وقال القرطبي في تفسيره ٧: ٢٤٧ اختلف في نسبه فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام وكان اسمه بالسريانية بيروت، وأمه ميكائيل بنت لوط. وزعم الشرقي بن القطامي أن شعيباً بن عيفاء بن يوبب بن مدين بن إبراهيم،وزعم ابن سمعان أن شعيباً بن جزى بن يشجر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وشعيب تصغير شعب أو شعب. وقال قتادة: هو شعيب بن يوبب. وقيل: شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين ابن إبراهيم والله أعلم.

(٢) نسبه المسعودي في تاريخه: ٢: ١٢٨ شعيب بن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم. ويثرون اسم كاهن مدين، حمو موسى، ويدعى أيضاً، رعويل. قاموس الكتاب المقدس: ١٠٥٤، فهو ليس المقصود في هذه القصة. وذكر شعيباً آخر فقال:شعيب بن مهدم بن حضورا بن عدين وكان نبياً أيضاً. وقال ياقوت في مخلاف حضور (منطقة: مخلاف حضور وهو حضور بن عدي بن مالك اتصل بالذي قبله ومن ولده شعيب النبي عليه السلام ابن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور وهو الذي قتله قومه، وليس بصاحب موسى عليه السلام. معجم البلدان٥: ٦٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٩١.

(٤) حدثني أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا محمد بن شاذان الجوهري حدثنا سعيد بن سليمان الواسطي حدثنا شريك بن عبد الله عن سماك بن حرب وسالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ثم في قوله ﷺ ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال كان شعيب أعمى. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٧٢.

(٥) تاريخ الطبري ١: ٣٢٧. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٥ - ١٤٦. وقال ياقوت في معجم البلدان ٢: =

ـ حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كان من خبر قصة شعيب[1]، وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن: كانوا أهل بخس للناس في مكاييلهم وموازينهم، مع كفرهم بالله، وتكذيبهم نبيهم، وكان يدعوهم إلى الله وعبادته، وترك ظلم الناس، وبخسهم في مكاييلهم وموازينهم، فقال نصحاً لهم، وكان صادقاً: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[2].

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة[3]، إذا ذكر شعيباً، قال: ذاك خطيب الأنبياء[4]. لحسن مراجعته قومه فيما يراد بهم، فلما كذبوه، وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم، وعتوا على الله، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[5]. فبلغني أن رجلاً من أهل مدين، يقال: له عمرو بن جلهاء، لما رآها قال:

يا قوم إن شعيباً مرسل فذروا عنكم سميراً وعمران بن شداد
إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على صمانة الوادي

= ١١٤ عن تبوك: ويقال: إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب ﷺ كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك وتبوك بين جبل حسمى وجبل شرورى. وقال في ١: ٢٩١ ولم أجد هذا في كتب التفسير بل يقولون: الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار والجمع أيك وإن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين. قلت: ومدين وتبوك متجاورتان.

(١) عن وهب بن منبه قال: ثم إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، الشجر الملتف، وكانوا أهل كفر بالله، وبخس للناس في المكاييل والموازين، وإفساد لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق، وبسط لهم في العيش؛ استدراجاً منه لهم مع كفرهم به، فقال لهم شعيب: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ هود/٨٤. فكان من قول شعيب لقومه، وجواب قومه له، ما قد ذكر الله في كتابه. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٧١. ٤٠٧٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٣) يعقوب بن أبي سلمة الماجشون التيمي مولى آل المنكدر أبو يوسف المدني، توفي سنة ١٢٦ هـ. تهذيب التهذيب ١١: ٣٤٠.

(٤) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٧١.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

وإنكم إن تروا فيها ضحاة غد   إلا الرقيم، يمشي بين أنجاد
وسمير وعمران، كاهناهم، والرقيم كلبهم[1].

عذاب الظلة

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني ابن إسحاق، قال: فبلغني ـ والله أعلم ـ أن الله سلط عليهم الحرّ، حتى أنضجهم، ثم أنشأ لهم الظلة[2]، كالسحابة السوداء فلما رأوها، ابتدروها يستغيثون ببردها، مما هم فيه من الحر، حتى إذا دخلوا تحتها، أطبقت عليهم فهلكوا جميعاً، ونجى الله شعيباً، والذين آمنوا معه برحمته[3].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٦.

(٢) قال ابن عباس: بعث الله عليهم حراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذاك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٧٤.

(٣) تفسير الطبري ٩: ٤.

الخضر

الخضر صاحب موسى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة[1]، عن الحكم بن عتيبة[2]، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس، وعنده نفر من أهل الكتاب، فقال بعضهم: يا أبا العباس إن نوفاً ابن امرأة كعب، يزعم عن كعب: أن موسى النبي الذي طلب العالم، إنما هو موسى بن ميشا.

قال سعيد: قال ابن عباس: أنوف يقول هذا؟!.

قال سعيد: فقلت له: نعم. أنا سمعت نوفاً يقول ذلك.

قال: أنت سمعته يا سعيد؟.

قال: قلت: نعم.

قال: كذب نوف.

ثم قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب، أن رسول الله قال: إن موسى من بني إسرائيل سأل ربه، فقال: أي رب، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فادللني عليه؟.

فقال له: نعم. في عبادي من هو أعلم منك.

ثم نعت له مكانه، وأذن له في لقيه، فخرج موسى معه فتاه ومعه حوت مليح، وقد قيل له: إذا حيي هذا الحوت في مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك.

---

(١) الحسن بن عمارة أبو محمد مولى بجيلة، توفي سنة ١٥٣هـ. التاريخ الكبير ٢: ٣٠٣.

(٢) الحكم بن عتيبة مولى امرأة من كندة من بني عدي،أبو محمد الكوفي، توفي سنة ١١٥ هـ. التاريخ الكبير ٢: ٣٣٢.

فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة، وإلى ذلك الماء - ماء الحياة من شرب منه خلد، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي - فلما نزلا ومسَّ الحوت الماء، حيي ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾[1]. فانطلقا فلما جاوزا منقلبه قال موسى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[2]. قال الفتى وذكر الحوت: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾[3].

قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حين انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف في كساء، فسلم عليه موسى، فرد عليه العالم السلام، ثم قال له: وما جاء بك، إن كان لك في قومك لشغل؟.

قال له موسى: جئتك لتعلمني ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾[4]. وكان رجلاً، يعلم علم الغيب قد عُلِّم ذلك.

فقال موسى: بلى.

قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾[5]. أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[6]. وإن رأيت ما يخالفني.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾، وإن أنكرته ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر، يتعرضان الناس، يلتمسان من يحملهما، حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمر بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٦٧.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٦٨.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٦٩.

فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما، فلما اطمئنا فيها، ولجت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها، فضرب فيها بالمنقار، حتى خرقها ثم أخذ لوحاً، فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها.

قال له موسى، ورأى أمراً فظع به ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي ما تركت من عهدك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[1].

ثم خرجا، ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا﴾ أتيا أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون، خلفهما فيهم غلام، ليس في الغلمان أظرف منه ولا أثرى ولا أوضأ منه، فأخذه بيده، وأخذ حجراً.

قال: فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً، لا صبر عليه، صبي صغير لا ذنب له، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي صغيرة بغير نفس، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾[2]. أي قد أعذرت في شأني.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً[3] يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه، فضجر موسى مما رآه يصنع من التكليف، لما ليس عليه صبر، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[4] أي قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يضيفونا، ثم قعدت في غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾. وإنما عبتها لأرده عنها، فسلمت حين رأى العيب الذي صنعت بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٧٠ ـ ٧٣.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ٧٣ ـ ٧٦.

(٣) قال وهب بن منبه كان ذلك الجدار جداراً، طوله في السماء مائة ذراع. تفسير القرطبي ١١: ٣٣.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي ما فعلته عن نفسي، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]. فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً.

فتى موسى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني ابن إسحاق عن الحسن بن عمارة، عن أبيه عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث، وقد كان معه ؟. فقال ابن عباس، فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من الماء، فخلد فأخذه العالم، فطابق به سفينة، ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[2].

(١) سورة الكهف، الآيات: ٧٨ ـ ٨٢.

(٢) تفسير الطبري ١٥: ٣٤٥ ـ ٣٤٨ وتاريخه١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥. ومستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٩٣.

موسى

نسب موسى

- وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق، ذبيح الله، ابن إبراهيم، خليل الله، فيما زعم ابن إسحاق، حدثني بذلك ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل عنه[1].

- قال محمد بن إسحاق: ثم إن لاوي بن يعقوب نكح نابتة ابنة ماري بن يشخر، فولدت له عرشون بن لاوي، ومرزي بن لاوي ومردي بن لاوي، وقاهث بن لاوي. فنكح قاهث بن لاوي فاهي ابنة مسين بن بتويل بن إلياس، فولدت له يصهر بن قاهث فتزوج يصهر شميث ابنة بتاديت بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم، فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر. فنكح عمران يحيب[2] ابنة شمويل بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم، فولدت له هارون بن عمران، وموسى بن عمران.

فرعون موسى

قال: قبض الله يوسف، وهلك الملك الذي كان معه، الريان بن الوليد، وتوارثت الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل، وقبر يوسف حين قبض - كما ذكر لي - في صندوق من مرمر في ناحية من النيل في جوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل تحت أيدي الفراعنة، وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام، متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي

(١) تفسير الطبري ١:٢٨٠ وتفسير القرطبي ١:٣٩٥. وهو موسى بن عمرام بن قهات بن لاوي. قاموس الكتاب المقدس: ٩٣٠.

(٢) يوكابد. في قاموس الكتاب المقدس ٩٣٠ ونجيب. في قصص الأنبياء للثعلبي:١٤٧ عن ابن إسحاق.

بعثه الله إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله، ولا أعظم قولاً، ولا أطول عمراً، في ملكه ـ منه. وكان اسمه ـ فيما ذكروا لي ـ الوليد بن مصعب[1].

قال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم: أنه ملك أربع مائة سنة، شاب السن، أخضر الشارب، لم يصدع، ولم يصبه همّ ولا ناوأه عدوّ[2]. ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة ولا أقسى قلباً، ولا أسوأ ملكة لبني إسرائيل منه، يعذبهم فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنفهم في أعماله: فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله، فعليه الجزية، فسامهم كما قال الله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[3]. وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم، لا يريدون فراقه. وقد استنكح منهم امرأة، يقال لها: آسية بنت مزاحم، من خيار النساء المعدودات[4]، فعمر فيهم وهم تحت يديه، عمراً طويلاً، يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم، وبلغ موسى الأشد، أعطي الرسالة.

قال: وذكر لي، أنه لما تقارب زمان موسى، أتى منجمو فرعون إليه فقالوا: تعلم أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل، قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك ويبدل دينك. فلما قالوا له ذلك، أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان، وأمر بالنساء يُستحيَين، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته فقال لهن: لا يسقطنّ على أيديكن غلام من بني إسرائيل، إلا قتلتموه. فكن يفعلن ذلك، وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحبالى فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد قال: لقد ذكر لي، أنه كان يأمر بالقصب، فيشق حتى يجعل أمثال

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٣ وهو الوليد بن صعب بن معاوية بن أبي نمير بن أبي الهلواس بن هران بن عمرو ابن عملاق، وهو الرابع من فراعنة مصر. تاريخ المسعودي ١: ٦١ وفي قصص الأنبياء للثعلبي:١٤٧ بنسب آخر.

(٢) البدء والتاريخ ٣: ٨١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٤) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٨ عن أهل التاريخ.

الشفار، ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يأتي بالحبالى من بني إسرائيل عليه، فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها، فيقع بين رجليها فتظل تطؤه، تتقي به حز القصب عن رجليها؛ لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل، وإنهم خولك وعمالك[1].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٩ وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس، فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله؛ وذلك شيء أسرها الله به، لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها موسى بن عمران، بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن وفتش النساء تفتيشاً لم يفتشهن قبل ذلك، وحملت أم موسى بموسى فلم يظهر ولم يتغير لونها ولم يفسد لبنها، ولكن القوابل لا تعرض لها. فلما كانت الليلة التي ولد فيها موسى، ولدته أمه ولا رقيب عليها ولا قابل، ولم يطلع عليها أحد إلا أختها مريم، وأوحى الله إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

قال: فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه وعليها، عملت له تابوتاً مطبقاً، ومهدت له فيه، ثم ألقته في البحر ليلاً، كما أمرها الله، وعُمل التابوت على عمل سفن البحر: خمسة أشبار في خمسة أشبار، ولم يقيّر، فأقبل التابوت يطفو على الماء، فألقى البحر التابوت بالساحل في جوف الليل. فلما أصبح فرعون جلس في مجلسه على شاطئ النيل، فبصر بالتابوت، فقال لمن حوله من خدمه: آتوني بهذا التابوت. فأتوه به فلما وضع بين يديه فتحوه، فوجد فيه موسى.قال: فلما نظر إليه فرعون، قال: إني من الأعداء. فأعظمه ذلك وغاظه، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح، وقد أمرت القوابل أن لا يكتمن مولوداً يولد ؟!. قال: وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل، يقال لها: آسية بنت مزاحم، وكانت من خيار النساء المعدودات، ومن بنات الأنبياء، وكانت أماً للمسلمين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم ويدخلون عليها، فقالت لفرعون، وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة، وإنما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة، فدعه يكون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ـ وهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه ـ، وكان فرعون لا يولد له إلا البنات، فاستحياه فرعون ورفعه، وألقى الله إليه محبته ورأفته ورحمته وقال لامرأته: عسى أن ينفعك أنتِ فأما أنا فلا أريد نفعه. قال وهب: قال ابن عباس: لو أن عدو الله قال في موسى، كما قالت امرأته: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله به، ولكنه أبى؛ للشقاء الذي كتب الله عليه، وحرم الله على موسى المراضع ثمانية أيام ولياليهن، كلما أتي بمرضعة لم يقبل ثديها، فرق له فرعون ورحمه، وطلبت له المراضع. وذكر وهب حزن أم موسى وبكاءها عليه، حتى كادت أن تبدي به، ثم تداركها الله برحمته فربط على قلبها، إلى أن بلغها خبره، فقالت لأخته: تنكري واذهبي مع الناس، وانظري ماذا يفعلون به، فدخلت أخته مع القوابل على آسية بنت مزاحم، فلما رأت وجدهم بموسى وحبهم له ورقتهم عليه، قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ إلى أن رُدَّ إلى أمه، فمكث موسى عند أمه حتى فطمته ثم ردته إليه، فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته، يربيانه بأيديهما واتخذاه ولداً. فبينا هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب له، خفيف صغير يلعب به، إذ رفع القضيب، فضرب به رأس=

فأمر أن يقتل الغلمان عاماً، ويستحيوا عاماً، فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون، فكان هارون أكبر منه بسنة[1].

- حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: أصبح فرعون في مجلس له، كان يجلسه على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مر النيل بالتابوت، يقذف به، وآسية بنت مزاحم امرأته، جالسة إلى جنبه، فقالت: إن هذا لشيء في البحر، فأتوني به. فخرج إليه أعوانه حتى جاؤوا به، ففتح التابوت، فإذا فيه صبي في مهده، فألقى الله عليه محبته وعطف عليه نفسه، قالت امرأته آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2].

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3]. قال: ليكون في عاقبة أمره عدواً وحزناً؛ لما أراد الله به، وليس لذلك أخذوه، ولكن امرأة فرعون قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾[4]. فكان قول الله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لما هو كائن في عاقبة أمره لهم.

- حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: قال: ابن إسحاق: قد كانت أم موسى ترفع له، حين قذفته في البحر: هل تسمع له بذكر، حتى أتاها الخبر بأن فرعون أصاب

= فرعون ونظر من ضربه حتى هم بقتله، فقالت آسية بنت مزاحم: أيها الملك لا تغضب ولا يشقن عليك؛ فإنه صبي صغير لا يعقل. جربه إن شئت، اجعل في هذا الطشت جمرة وذهباً، فانظر على أيهما يقبض؟ فأمر فرعون بذلك فلما مد موسى يده ليقبض على الذهب، قبض الملك الموكل به على يده فردها إلى الجمرة، فقبض عليها موسى فألقاها في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها، فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك: إنه لا يعقل شيئاً، ولا يعلمه. وكف عنه فرعون وصدقها وكان أمر بقتله. ويقال: إن العقدة التي كانت في لسان موسى أثر تلك الجمرة التي التقمها. قال وهب بن منبه: ولما بلغ موسى أشده وبلغ أربعين سنة، آتاه الله علماً وحكماً وفهماً، فلبث بذلك اثنتي عشرة سنة داعياً إلى دين إبراهيم وشرائعه، وإلى دين إسحاق ويعقوب، فآمنت طائفة من بني إسرائيل ثم ذكر القصة بطولها. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٩٧.

(١) تاريخ الطبري ١: ٣٨٥ - ٣٨٨ وعن مجاهد في قصص الأنبياء للثعلبي: ١٤٨.
(٢) سورة القصص، الآية: ٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨.
(٤) سورة القصص، الآية: ٩.

الغداة صبياً في النيل في التابوت، فعرفت الصفة، ورأت أنه وقع في يدي عدوه، الذي فرت به منه، وأصبح فؤادها فارغاً من عهد الله إليها.

قال: جمعوا المراضع، حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بامرأة فيقبل ثديها، فيرمضهم ذلك، فيؤتى بمرضع بعد مرضع، فلا يقبل شيئاً منهن ﴿فَقَالَتْ﴾ لهم أخته[1] حين رأت من وجدهم به، وحرصهم عليه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ ويعني بقوله: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ يضمونه لكم، وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[2]. ذكر أنها أخذت، فقيل: قد عرفته، فقالت: إنما عنيت أنهم للملك ناصحون[3].

بلوغ موسى أشده

ـ كان يوسف قد قال لبني إسرائيل: إنكم لن تزالوا في العذاب حتى يأتي غلام جعد، من بني لاوي بن يعقوب، يقال له: موسى بن عمران. فلما طال الأمر على بني إسرائيل ضجوا وأتوا شيخاً منهم، فقال لهم: كأنكم به! فبينا هم في ذلك، إذ وقف عليهم موسى، فلما رآه الشيخ عرفه بالصفة، فقال له: ما اسمك؟ فقال: موسى. قال: ابن من؟ قال: ابن عمران. فقام هو والقوم وقبلوا يديه ورجليه، واتخذهم شيعة[4].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[5]. آتاه الله حكماً وعلماً؛ فكانت له من بني إسرائيل شيعة، يسمعون منه ويطيعونه ويجتمعون إليه[6]. فلما اشتد رأيه وعرف ما هو عليه من الحق، رأى فراق

---

(١) مريم. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٥١. وفي قاموس الكتاب المقدس: ٩٣٠ كانت مريم بكر أبيها، ثم هارون ثم موسى.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٠: ٤٠. ٤٥. ٥٠ و ١٦: ٢٠٢. ٢٠٤. ٢٠٥.وتاريخ اليعقوبي١: ٣٣. وسفر الخروج/ ٢: ١ ـ ١٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ١٣.

(٦) قال وهب بن منبه: ولما بلغ موسى أشده وبلغ أربعين سنة، آتاه الله علماً وحكماً وفهماً، فلبث بذلك اثنتي عشرة سنة داعياً إلى دين إبراهيم وشرائعه، وإلى دين إسحاق ويعقوب، فآمنت طائفة من بني إسرائيل ثم ذكر القصة بطولها. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤٠٩٧.

فرعون وقومهن على ما هم عليه حقاً في دينه، فتكلم وعادى وأنكر، حتى ذُكر ذلك منه، وحتى أخافوه وخافهم، حتى كان لا يدخل قرية فرعون إلا خائفاً مستخفياً، فدخلها يوماً، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

قال: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ مسلم، وهذا من أهل دين فرعون كافر، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في البطش، فغضب فنازعه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ وكزة قتله منها، وهو لا يريد قتله، فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

قال: لما قتل موسى القتيل، خرج فلحق بمنزله من مصر، وتحدث الناس بشأنه وقيل: قتل موسى رجلاً. حتى انتهى ذلك إلى فرعون، فأصبح موسى غادياً الغد وإذا صاحبه بالأمس، معانق رجلاً آخر من عدوه، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2]. أمس رجلاً، واليوم آخر؟.

قال: أصبح الملأ من قوم فرعون، قد أجمعوا لقتل موسى؛ فيما بلغهم عنه، ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يقال له: سمعان[3] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[4].

قال: ذكر لي أنه خرج على وجهه ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ما يدري أي وجه يسلك، وهو يقول: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] فهيأ الله الطريق إلى مدين، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم ولا رغيف، خائفاً يترقب، حتى وقع إلى ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[6]. بمدين[7].

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٨.
(٣) حزقيل مؤمن آل فرعون. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٥٣.
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٠.
(٥) سورة القصص، الآية: ٢١.
(٦) سورة القصص، الآية: ٢٣.
(٧) تفسير الطبري ٢٠: ٥٤، ٥٦، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٥. وتاريخ اليعقوبي ١: ٣٤. وسفر الخروج/٢: ١١ ـ ١٥.

في مدين

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ قال: وجد لهما رحمة ودخلته فيهما خشية، لما رأى من ضعفهما، وغلبة الناس على الماء دونهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ أي ما شأنكما.

قال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر أن يمس ذلك من نفسه، ولا يسقي ماشيته، فنحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا أسقينا، ثم انصرفنا.

قال: أخذ دلوهما موسى، ثم تقدم إلى السقاء؛ بفضل قوته فرقبه القوم على الماء، حتى أخرهم عنه، ثم سقى لهما.

قال: رجعتا إلى أبيهما في ساعة، لا ترجعان فيها، فأنكر شأنهما فسألهما، فأخبرد الخبر فقال لإحداهما: عجلي عليَّ به. فأتته ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، فجاءته ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾. فقام معها ـ كما ذكر لي ـ فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، وأنا أمشي أمامك، فإنّا لا ننظر إلى أدبار النساء. فلما جاءه، أخبره الخبر وما أخرجه من بلاده، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد أخبرت أباها بقوله: إنا لا ننظر إلى أدبار النساء[1].

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾ قال: إحداهما صفورا ابنة يثرون، وأختها شرفا، ويقال: ليا، وهما اللتان كانتا تذودان، وزوجة موسى صفورا أو أختها شرفا أو ليا[2].

﴿أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[3].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٠: ٦٧. ٦٩. ٧٠. ٧١. ٧٥. ٧٦. ٧٧. ٧٩. ٨٢.

(٣) سورة القصص، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني ابن إسحاق، عن حكيم بن جبير[1]، عن سعيد بن جبير قال: قال يهودي بالكوفة وأنا أتجهز للحج: إني أراك رجلاً، تتتبع العلم، أخبرني أي الأجلين قضى موسى؟.

قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب ـ يعني ابن عباس ـ فسائله عن ذلك.

فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك، وأخبرته بقول اليهودي، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إن النبي إذا وعد لم يخلف.

قال سعيد: فقدمت العراق، فلقيت اليهودي فأخبرته، فقال: صدق، وما أنزل على موسى هذان، والله العالم[2].

النبوة

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[3]. خرج ـ فيما ذكر لي ابن إسحاق، عن وهب بن منبه اليماني، فيما ذكر له عنه: ومعه غنم له، ومعه زند له، وعصاه في يده، يهش بها على غنمه نهاره، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه، يتوكأ على عصاه، وكانت ـ كما وُصِف لي عن وهب بن منبه ـ ذات شعبتين في رأسها، ومحجن في طرفها[4].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم من أصحابه: أن كعب الأحبار قدم مكة، وبها عبد الله بن عمرو بن العاص[5]، فقال كعب: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم فإنه عالم: سلوه عن شيء من الجنة وضعه الله للناس في الأرض، وسلوه: ما أول ما وضع في الأرض؟ وما أول شجرة غرست في الأرض؟ فسئل عبد الله عنها فقال: أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنة، فهو هذا

---

(١) حكيم بن جبير الأسدي الكوفي روى عن سعيد بن جبير. التاريخ الكبير٣:١٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٠: ٨٤ ـ ٨٥ وتاريخه ١: ٢٣٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٤) سنان حديد في أسفلها. عن قصص الأنبياء للثعلبي: ١٥٦.

(٥) عبد الله بن عمرو بن العاص، أبو محمد السهمي القرشي، توفي سنة ٦٩ هـ. التاريخ الكبير ٥:٥.

الركن الأسود، وأما أول ما وضع في الأرض فبرهوت[١] باليمن، يرده هام الكفار، وأما أول شجرة غرسها الله في الأرض، فالعوسجة التي اقتطع منها موسى عصاه. فلما بلغ ذلك كعباً، قال: صدق الرجل، عالم والله.

قال: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتداُه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ فيها الطريق[٢]، حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح ناراً لأهله؛ ليبيتوا عليها، حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد عليه زنده، فلا يوري له ناراً، فقدح حتى إذا أعياه لاحت النار، فرآها فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[٣]. بقبس تصطلون، وهدى عن علم الطريق الذي أضللنا بنعت من خبير، فخرج نحوها فإذا هي في شجرة من العُلّيق، وبعض أهل الكتاب يقول: في عوسجة[٤].

فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها، رجع عنها وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه، ثم كُلِّم من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس وقال الله: يا موسى، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٥]. فألقاهما ثم قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ

(١) برهوت واد باليمن يوضع فيه أرواح الكفار والمنافقين، وقيل: برهوت بئر بحضرموت، وهي بئر عادية في فلاة واد مظلم. معجم البلدان ١: ٤٠٥. وفكرة وضع أرواح الكفار والمنافقين في بئر فكرة جديرة بالبحث.

(٢) عن وهب بن منبه: استأذن موسى شعيباً؛ في الرجوع إلى والدته، فأذن له فخرج بأهله بغنمه، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار، فلم تور المقدحة شيئاً، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق، فقال لأهله: امكثوا، أي أقيموا بمكانكم إني آنست ناراً، أي أبصرت. تفسير الطبري ١١: ١٧١.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠.

(٤) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٥٨.وعن وهب بن منبه: لما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء، شديدة الخضرة، يقال لها: العليق، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرماً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً، فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده؛ ليقتبس منها، فمالت إليه فخافها، فتأخر عنها، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها، على أنها مأمورة لا يدري من أمرها، إلى أن ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. تفسير القرطبي ١٣: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢.

غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي منافع أخرى ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[1]. قد صار شعبتاها فمها، وصار محجنها عرفاً لها، في ظهر تهتز، لها أنياب، فهي كما شاء الله أن تكون. فرأى أمراً فظيعاً، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[2]. فناداه ربه أن يا موسى، أقبل ولا تخف؛ ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أي سيرتها عصا، كما كانت.

قال: فلما أقبل قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾[3] أدخل يدك في فمها[4]. وعلى موسى جبة من صوف، فلفّ يده بكمه، وهو لها هائب، فنودي أن ألق كمك عن يدك. فألقاه عنها ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها، فإذا هي عصاه في يده، ويده بين شعبتيها، حيث كان يضعها بموضعه الذي كان، لا ينكر منها شيئاً، ثم قيل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[5]. أي برص، وكان موسى عليه السلام رجلاً آدم، أقنى جعداً طوالاً، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج، ثم ردها في جيبه، فخرجت كما كانت على لونه.

ثم قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به؛ فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[6].

موسى والفرعون

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: خرج موسى، لما بعثه الله ﷺ حتى قدم مصر على فرعون، هو وأخوه هارون، وعلى موسى مدرعة صوف، وفي

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣١.
(٣) سورة طه، الآية: ٢١.
(٤) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٤. وفي سفر الخروج/٤: ٦. أدخل يدك في عتك.
(٥) سورة النمل، الآية: ١٢.
(٦) سورة القصص، الآيات: ٣٢ ـ ٣٥. تاريخ الطبري ١: ٤٠١ ـ ٤٠٣.

وسطه حبل ليف، وفي يده عصا[1]، حتى وقفا على باب فرعون يلتمسان الإذن عليه، وهما يقولان: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغنا سنتين، يغدوان على بابه ويروحان لا يعلم بهما، ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بطال له يلعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك، إن على الباب رجلاً، يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً غيرك![3].

قال: أدخلوه. فدخل ومعه هارون، وبيده عصاه، فلما وقف على فرعون، قال له: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4] فعرفه فرعون، ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[5]. أي خطأ لا أريد ذلك.

ثم أقبل عليه موسى، ينكر عليه ما ذكر من يده عنده، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي اتخذتهم عبيداً تنزع أبناءهم من أيديهم، فتسترق من شئت، وتقتل من شئت، إني إنما صيرني إلى بيتك وإليك ذلك، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إلهه الذي أرسله إليه أي ما إلهك هذا ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي إنكاراً لما قال: ليس له إله غيري .﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الذي خلق آباءكم الأولين من آبائكم. ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ما هذا بكلام صحيح، إذ يزعم أن لكم إلهاً غيري .﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي خالق المشرق والمغرب وما بينهما من الخلق إن كنتم تعقلون. ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ لتعبد غيري وتترك عبادتي﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي بما تعرف بها صدقي وكذبك وحقي، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٣٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٦.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٦١.عن ابن إسحاق.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٤٦.

(٥) سورة الشعراء، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾[1]. فملأت ما بين سماطي فرعون، فاتحة فاها قد صار محجنها عرفاً على ظهرها، فارفض عنها الناس، وحال فرعون عن سريره ينشده بربه، ثم أدخل يده في جيبه، فأخرجها بيضاء مثل الثلج، ثم ردها كهيئتها، وأدخل موسى يده في جيبه، فصارت عصا في يده، يده بين شعبتيها، ومحجنها في أسفلها، كما كانت. وأخذ فرعون بطنه، وكان ـ فيما يزعمون ـ يمكث الخمس والست ما يلتمس المذهب ـ يريد الخلاء ـ كما يلتمسه الناس، وكان ذلك مما زين له أن يقول ما يقول: إنه ليس من الناس بشبه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: حُدثت عن وهب بن منبه اليماني قال: فمشى بضعاً وعشرين ليلة، حتى كادت نفسه أن تخرج، ثم استمسك فقال لملئه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ما ساحر أسحر منه، ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾[2]. أقتله ؟.

فقال مؤمن من آل فرعون، العبد الصالح وكان اسمه فيما يزعمون، حبرك[3]: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ بعصاه ويده، ثم خوفهم عقاب الله، وحذرهم ما أصاب الأمم قبلهم وقال: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾[4]. وقال الملأ من قومه، وقد وهنهم من سلطان الله ما وهنهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾[5]. أي كاثره بالسحرة؛ لعلك أن تجد في السحرة من جاء بمثل ما جاء به[6].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢ ـ ٣٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) وفي موضع آخر عن ابن إسحاق أيضاً، اسمه جبريل. تفسير الطبري ٢٤: ٧٣. ٧٤.وفي قصص الأنبياء للثعلبي: ١٦٣ حزقيل، وقد سبق.

(٤) سورة غافر، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٣٧.

(٦) كان فرعون أراد أن يصدقّه، فقال له هامان: أما في عبيدك، أيها الملك، من يعمل مثل هذا ؟ فأحضر=

وقد كان موسى وهارون خرجا من عنده، حين أراهم من سلطان الله ما أراهم وبعث فرعون مكانه في مملكته، فلم يترك في سلطانه ساحراً، إلا أتى به فذكر لي - والله أعلم - أنه جمع له خمسة عشر ألف ساحر، فلما اجتمعوا إليه أمرهم أمره فقال لهم: قد جاءنا ساحر ما رأينا مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم، وفضلتكم وقربتكم على أهل مملكتي.

قالوا: إن لنا ذلك عليك إن غلبناه؟.

قال: نعم.

قالوا: فعد لنا موعداً نجتمع نحن وهو.

فكان رؤوس السحرة الذين جمع فرعون لموسى، ساتور وحطحط ومصفى، أربعة[1] وهم الذين آمنوا، حين رأوا ما رأوا من سلطان الله، فآمنت السحرة جميعاً وقالوا لفرعون، حين توعدهم القتل والصلب: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[2]. فبعث فرعون إلى موسى: أن اجعل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم عيد، كان فرعون يخرج إليه، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ حتى يحضروا أمري وأمرك، فجمع فرعون الناس لذلك الجمع، ثم أمر السحرة، فقال: ﴿ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي قد أفلح من استعلى اليوم على صاحبه، فصف خمسة عشر ألف ساحر[3]، مع كل ساحر حباله وعصيه.

وخرج موسى ومعه أخوه، يتكئ على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون في

= السحرة من جميع البلاد، وخُبّروا بخبر موسى، فأقاموا حيناً يعملون من جلود البقر حبالاً مجوفة وعصياً مجوفة، ويزوقونها، ويصيرون فيها الزئبق، ثم أحموا المواضع التي أرادوا أن يلقوا فيها الحبال والعصي.ثم جلس فرعون، وأحضره، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فلما حمي الزئبق تحرّك، ومشت الحبال والعصي، فألقى موسى عصاه، فأكلت ذلك كله. تاريخ اليعقوبي ١: ٣٥.

(١) خمسة نفر: سابورا وغادر وجفظ وخطط ومصفى. قصص الأنبياء للثعلبي: ١٦٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٢.

(٣) قال ابن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألف ساحر وروي عن وهب وقيل: كانوا اثني عشر ألفاً. تفسير القرطبي ٧: ٢٥٨.

مجلسه ومعه أشراف أهل مملكته، وقد استكفَّ له الناس، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾. فتراد السحرة بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. ثم قالوا، وأشار بعضهم إلى بعض بتناج: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾. ثم قالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾.

فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي، يركب بعضها بعضاً، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، وقال: والله إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات، وما تعدو عصاي هذه، أو كما حدث نفسه. فأوحى الله إليه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

وفرج عن موسى، فألقى عصاه من يده، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها حية حية، حتى ما يرى في الوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصاه في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾، لو كان هذا سحراً، ما غلبنا.

قال لهم فرعون، وأسف ورأى الغلبة البينة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ﴾ أي لعظيم الساحر الذي علمكم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ أي لن نؤثرك على الله وعلى ما جاءنا من الحجج مع نبيه فاقض ما أنت قاض، أي فاصنع ما بدا لك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التي ليس لك سلطان إلا فيها، ثم لا سلطان لك بعدها ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾[1]. أي خير منك ثواباً وأبقى عقاباً، فرجع عدو الله مغلوباً ملعوناً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي

(١) سورة طه، الآيات: ٥٨ ـ ٧٣.

في الشر، فتابع الله عليه بالآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان[١].

الآيات على فرعون

ـ عن ابن إسحاق قال: فرجع عدو الله ـ يعني فرعون ـ حين آمنت السحرة، مغلوباً مفلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه بالآيات وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان، وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢]. فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر ـ فيما بلغني ـ حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى أُمر أن يمشي إلى كثيب؛ حتى يضربه بعصاه، فمضى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها، فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ولا إناء إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

---

(١) تفسير الطبري ١٦: ٢٣٠. ٢٣١.٢٣٢. ٢٣٤ ـ ٢٣٥ وتاريخه ١: ٤٠٥ ـ ٤١٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدث: أن المرأة من آل فرعون كانت تأتي المرأة من بني إسرائيل، حين جهدهم العطش، فتقول: اسقيني من مائك. فتغرف لها من جرتها، أو تصب لها من قربتها، فيعود في الإناء دماً، حتى إن كانت لتقول لها: اجعليه في فيك، ثم مُجّيه في فيَّ. فتأخذ في فيها ماء، فإذا مجته في فيها، صار دماً، فمكثوا في ذلك سبعة أيام[1]، فقالوا ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2]. فلما كشف عنهم الرجز نكثوا ولم يفوا بشيء مما قالوا.

فأمر الله موسى أن يسير، وأخبره أنه منجيه ومن معه، ومهلك فرعون وجنوده، وقد دعا موسى عليهم فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. فمسخ الله أموالهم حجارة: النخل والرقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التي أراهنَّ الله فرعون.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألني عمر بن عبد العزيز عن التسع الآيات التي أراهن الله فرعون.

فقلت: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وعصاه ويده والطمسة والبحر.

فقال عمر: فإني عرفت أن الطمسة إحداهن؟.

قلت: دعا عليهم موسى وأمّن هارون، فمسخ الله أموالهم حجارة.

فقال: كيف يكون الفقه إلا هكذا ؟!.

ثم دعا بخريطة فيها أشياء، مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان[4] بمصر، إذ كان عليها من بقايا أموال آل فرعون، فأخرج البيضة مقشورة نصفين، وإنها لحجر،

(١) تفسير الطبري ٩: ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي، توفي سنة ٨٥ هـ. التاريخ الكبير ٦: ٨.

والجوزة مقشورة، وإنها لحجر، والحمصة والعدسة[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل الشأم، كان بمصر قال: قد رأيت النخلة، وإنها لحجر، وقد رأيت إنساناً، ما شككت أنه إنسان، وإنه لحجر من رقيقهم، فيقول اللهﷻ: و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَثْبُورًا﴾[2]. يقول: شقياً.

خروج بني إسرائيل من مصر

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن يحيى بن عروة بن الزبير[3] عن أبيه: أن الله، حين أمر موسى بالمسير ببني إسرائيل، أمره أن يحتمل يوسف معه، حتى يضعه بالأرض المقدسة، فسأل موسى عمن يعرف موضع قبره، فما وجد إلا عجوزاً من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله، أنا أعرف مكانه، إن أنت أخرجتني معك ولم تخلفني بأرض مصر، دللتك عليه. قال: أفعل.

وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم، إذا طلع الفجر، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه؛ حتى يخلو من أمر يوسف ففعل، فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل في الماء[4]، فاستخرجه موسى صندوقاً من مرمر فاحتمله معه.قال عروة: فمن ذلك تحمل اليهود موتاها من كل أرض إلى الأرض المقدسة.

قال: كان ـ فيما ذكر لي ـ أن موسى قال لبني إسرائيل، فيما أمره الله به: استعيروا منهم الأمتعة والحلي والثياب؛ فإني منفّلكم أموالهم مع هلاكهم. فلما أذن فرعون في الناس، كان مما يحرض به على بني إسرائيل، أن قال حين ساروا: لم يرضوا

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٧٣. وقصة الآيات في سفر الخروج/٧: ١٩ وما بعدها.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٣) يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي حجازي. التاريخ الكبير ٨:٢٩٦.

(٤) وأخذ موسى أربع صفائح ذهب، فصوّر في واحدة صورة نسر، وأخرى صورة سبع، وأخرى صورة إنسان، وأخرى صورة ثور، وكتب في كل صحيفة اسم الله الأعظم، وألقاها في الماء، فطفا تابوت الحجارة الذي كان فيه جسد يوسف، وبقيت في يد موسى صحيفة واحدة فيها صورة ثور، فوهبها لشارح بنت آشر، وهي العجوز. تاريخ اليعقوبي ١: ٣٥.

أن خرجوا بأنفسهم، حتى ذهبوا بأموالكم معهم.

قال عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد بن الهاد[١]: خرج فرعون في طلب موسى، على سبعين ألفاً من دهم الخيل، سوى ما في جنده من شية الخيل، وخرج موسى حتى إذا قابله البحر، ولم يكن عنه منصرف، طلع فرعون في جنده من خلفهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾[٢]. أي للنجاة وقد وعدني ذلك ولا خلف لموعوده[٣].

قال: فأوحى الله ـ تبارك وتعالى ـ فيما ذكر لي، إلى البحر إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له. فبات البحر يضرب بعضه بعضاً؛ فرقاً من الله وانتظاراً لأمره، فأوحى الله ﷻ إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٤]. أي كالجبل على نشز من الأرض، يقول الله لموسى ﵇: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾[٥]. فلما استقر له البحر على طريق قائمة يبس، سلك فيه موسى ببني إسرائيل، واتبعه فرعون بجنوده.

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي: حُدثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل، فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن يتقدم، فعرض له جبرائيل على فرس أنثى وديق، فقربها منه فشمها الفحل ولما شمها قدمها، فتقدم معه الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون أن فرعون قد دخل، دخلوا معه وجبرائيل أمامه، فهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس خلف القوم يقول: الحقوا بصاحبكم.

(١) عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي أبو الوليد المدني، توفي في ولاية الحجاج. تهذيب التهذيب ٥: ٢٢٢.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١ ـ ٦٢

(٣) تفسير الطبري ١٩: ٩٨.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.

(٥) سورة طه، الآية: ٧٧.

حتى إذا فصل جبرائيل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على الناحية الأخرى ليس خلفه أحد، طبق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذله، وخذلته نفسه، نادى: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

ولما جاوز ببني إسرائيل البحر، أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[2]. ووعد الله موسى، حين أهلك فرعون وقومه ونجاه وقومه، ثلاثين ليلة[3].

الميقات

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق[4] قال: وعد الله موسى، حين أهلك فرعون وقومه ونجاه وقومه، ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة[5]، تلقاه ربه فيها بما شاء، واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال: إني متعجل إلى ربي ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[6] فخرج موسى إلى ربه متعجلاً للقائه؛ شوقاً إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل، ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى؛ ليلحقهم به، فلما كلم الله موسى قال له: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[7]. فلما كلم الله موسى، طمع في رؤيته، فسأل ربه أن ينظر إليه، فقال

(١) سورة يونس، الآية: ٩١. تفسير الطبري ١: ٢٧٥ ـ ٢٧٦ وتاريخه ١: ٤١٦ ـ ٤٢١ وقصص الأنبياء للثعلبي: ١٧٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٩١ ـ ٩٢.

(٣) تاريخ الطبري١: ٤٢١.

(٤) في قصص الأنبياء للثعلبي: ١٧٧ قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين.

(٥) سفر الخروج/ ٢٤: ١٨.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

(٧) سورة طه، الآيتان: ٨٣ ـ ٨٤.

الله لموسى: إنك ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾[1].

قال ابن إسحاق: فهذا ما وصل إلينا في كتاب الله، عن خبر موسى، لما طلب النظر إلى ربه، وأهل الكتاب يزعمون وأهل التوراة: أن قد كان لذلك تفسير وقصة وأمور كثيرة ومراجعة، لم تأتنا في كتاب الله ـ والله أعلم ـ.

قال ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم الأول بأحاديث أهل الكتاب: إنهم يجدون في تفسير ما عندهم من خبر موسى، حين طلب ذلك إلى ربه، أنه كان من كلامه إياه حين طمع في رؤيته، وطلب ذلك منه، ورد عليه ربه منه ما ورد: أن موسى كان تطهر وطهر ثيابه وصام للقاء ربه، فلما أتى طور سينا، ودنا الله له في الغمام، فكلمه سبحه وحمده وكبره وقدسه، مع تضرع وبكاء حزين، ثم أخذ في مدحته، فقال: رب، ما أعظمك وأعظم شأنك كله، من عظمتك أنه لم يكن شيء من قبلك، فأنت الواحد القهار، كان عرشك تحت عظمتك، نار توقد لك، وجعلت سرادق من دونه سرادق من نور، فما أعظمك رب، وأعظم ملكك ؟!. جعلت بينك وبين ملائكتك، مسيرة خمسمائة عام، فما أعظمك رب وأعظم ملكك في سلطانك؟!.

فإذا أردت شيئاً تقضيه في جنودك الذين في السماء، أو الذين في الأرض، وجنودك الذين في البحر، بعثت الريح من عندك، لا يراها شيء من خلقك إلا أنت، إن شئت فدخلت في جوف من شئت من أنبيائك، فبلغوا لما أردت من عبادك، وليس أحد من ملائكتك يستطيع شيئاً من عظمتك ولا من عرشك ولا يسمع صوتك، فقد أنعمت عليَّ، وأعظمت عليَّ في الفضل، وأحسنت إليَّ كل الإحسان، عظّمتني في أمم الأرض، وعظمتني عند ملائكتك، وأسمعتني صوتك وبذلت لي كلامك وآتيتني حكمتك، فإن أعد نعماك لا أحصيها، وإن أردت شكرك لا أستطيعها.

دعوتك رب، على فرعون بالآيات العظام والعقوبة الشديدة، فضربت بعصاي التي

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣. تفسير الطبري ١: ٢٨٠ ـ ١٦.٢٨١: ٢٤٣.

في يدي البحر، فانفلق لي ولمن معي، ودعوتك حين جزت البحر، فأغرقت عدوك وعدوي، وسألتك الماء لي ولأمتي، فضربت بعصاي التي في يدي الحجر، فمنه أرويتني وأمتي، وسألتك لأمتي طعاماً لم يأكله أحد كان قبلهم، فأمرتني أن أدعوك من قبل المشرق ومن قبل المغرب، فناديتك من شرقي أمتي، فأعطيتهم المن من مشرقي لنفسي، وآتيتهم السلوى من غربيهم من قبل البحر، واشتكيت الحر فناديتك فظللت عليهم بالغمام، فما أطيق نعماك عليَّ أن أعدها ولا أحصيها، وإن أردت شكرها لا أستطيعها.

فجئتك اليوم راغباً طالباً سائلاً متضرعاً؛ لتعطيني ما منعت غيري، أطلب إليك وأسألك يا ذا العظمة والعزة والسلطان أن تريني أنظر إليك، فإني قد أحببت أن أرى وجهك الذي لم يره شيء من خلقك.

قال له رب العزة: فلا ترى يا ابن عمران، ما تقول، تكلمت بكلام هو أعظم من سائر الخلق، لا يراني أحد، فيحيا أليس في السماوات معمري، فإنهن قد ضعفن أن يحملن عظمتي، وليس في الأرض معمري، فإنها قد ضعفت أن تسع بجندي، فلست في مكان واحد، فأتجلى لعين تنظر إلي.

قال موسى: يا رب، أن أراك وأموت أحب إليَّ من أن لا أراك ولا أحيا.

قال له رب العزة: يا بن عمران، تكلمت بكلام هو أعظم من سائر الخلق لا يراني أحد فيحيا.

قال: رب، تمم عليَّ نعماك، وتمم عليَّ فضلك، وتمم عليَّ إحسانك، هذا الذي سألتك ليس لي أن أراك، فأقبض ولكن أحب أن أراك، فيطمئن قلبي.

قال له: يا بن عمران، لن يراني أحد فيحيا.

قال موسى: رب، تمم عليَّ نعماك وفضلك، وتمم عليَّ إحسانك، هذا الذي سألتك ليس لي أن أراك، فأموت على أثر ذلك أحب إليَّ من الحياة.

فقال الرحمن المترحم على خلقه: قد طلبت يا موسى، وأعطيتك سؤلك، إن استطعت أن تنظر إليَّ، فاذهب فاتخذ لوحين، ثم انظر إليَّ في رأس الجبل، فإن ما وراءه

وما دونه مضيق، لا يسع إلا مجلسك يا بن عمران، ثم انظر، فإني أهبط إليك وجنودي من قليل وكثير.

ففعل موسى كما أمره ربه، نحت لوحين، ثم صعد بهما إلى الجبل، فجلس على الحجر، فلما استوى عليه، أمر الله جنوده الذين في السماء الدنيا، فقال: ضعي أكنافك حول الجبل. فسمعت ما قال الرب ففعلت أمره، ثم أرسل[1] الله الصواعق والظلمة والضباب على ما كان يلي الجبل، الذي يلي موسى، أربعة فراسخ من كل ناحية، ثم أمر الله ملائكة الدنيا أن يمروا بموسى، فاعترضوا عليه، فمروا به طيران النعر، تنبع أفواههم بالتقديس والتسبيح بأصوات عظيمة، كصوت الرعد الشديد، فقال موسى بن عمران عليه السلام: رب إني كنت عن هذا غنياً، ما ترى عيناي شيئاً، قد ذهب بصرهما من شعاع النور المتصفف على ملائكة ربي.

ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية: أن اهبطوا على موسى، فاعترضوا عليه. فهبطوا أمثال الأسد، لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى ومما سمع، فاقشعرت كل شعرة في رأسه وجلده، ثم قال: ندمت على مسألتي إياك، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟. فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى، اصبر لما سألت، فقليل من كثير ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة: أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فأقبلوا أمثال النسور، لهم قصف ورجف ولجب شديد، وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس، كلجب الجيش العظيم، أو كلهب النار، ففزع موسى - عليه الصلاة والسلام - وأيست نفسه وأساء ظنه وأيس من الحياة، فقال له خير الملائكة ورأسهم: مكانك يا بن عمران، حتى ترى ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة: أن اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران، فأقبلوا وهبطوا عليه، لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم، ألوانهم كلهب النار وسائر

(١) من هنا القصة عن وهب بن منبه في قصص الأنبياء للثعلبي: ١٧٩.

خلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس، لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم، فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه، فقال خير الملائكة ورأسهم: يا بن عمران، اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الخامسة: أن اهبطوا فاعترضوا على موسى، فهبطوا عليه سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه، ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم، وامتلأ جوفه خوفاً، واشتد حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا بن عمران، مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه.

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة: أن اهبطوا على عبدي الذي طلب أن يراني موسى بن عمران واعترضوا عليه. فهبطوا عليه في يد كل ملك، مثل النخلة الطويلة ناراً أشد ضوءاً من الشمس، ولباسهم كلهب النار، إذا سبحوا وقدسوا، جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السماوات كلهم، يقولون بشدة أصواتهم: سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت. في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه.

فلما رآهم موسى، رفع صوته يسبح معهم، حين سبحوا وهو يبكي، ويقول: رب، اذكرني ولا تنس عبدك، لا أدري أنقلب مما أنا فيه أم لا؟! إن خرجت أحرقت، وإن مكثت مت. فقال له كبير الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا بن عمران، أن يمتلىء جوفك، وينخلع قلبك، ويشتد بكاؤك، فاصبر للذي جلست لتنظر إليه يا بن عمران.

وكان جبل موسى جبلاً عظيماً، فأمر الله أن يحمل عرشه، ثم قال: مروا بي على عبدي؛ ليراني، فقليل من كثير ما رأى. فانفرج الجبل من عظمة الرب، وغشي ضوء عرش الرحمن جبل موسى، ورفعت ملائكة السماوات أصواتها جميعاً، فارتج الجبل فاندك، وكل شجرة كانت فيه، وخر العبد الضعيف موسى بن عمران صعقاً على وجهه، ليس معه روحه، فأرسل الله الحياة برحمته، فتغشاه برحمته، وقلب الحجر الذي كان عليه، وجعله كالمعدة كهيئة القبة، لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل الأم، أقامت جنينها حين يصرع.

قال: فقام موسى يسبح الله، ويقول: آمنت أنك ربي وصدقت أنه لا يراك أحد، فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك، انخلع قلبه، فما أعظمك رب، وأعظم ملائكتك؟!. أنت رب الأرباب، وإله الآلهة، وملك الملوك، تأمر الجنود الذين عندك، فيطيعونك وتأمر السماء وما فيها، فتطيعك لا تستنكف من ذلك، ولا يعدلك شيء، ولا يقوم لك شيء، رب، تبت إليك، الحمد لله الذي لا شريك له، ما أعظمك وأجلك رب العالمين؟![1].

قال: لما انتهى موسى إلى قومه، فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، ألقى الألواح من يده ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، يقول: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾[2].

السامري

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن حكيم ابن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرما[3]، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلما فصل هارون في بني إسرائيل، وفصل موسى إلى ربه، قال لهم هارون: أنتم قد تحملتم أوزاراً من زينة القوم آل فرعون، وأمتعة وحلياً، فتطهروا منها؛ فإنها نجس. وأوقد لهم ناراً، فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها. قالوا: نعم. فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة، وذلك الحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا تكسر الحلي فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل، أخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبي الله، ألقي ما في يدي؟. قال: نعم.

ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره، من ذلك الحلي والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسداً له خوار. فكان للبلاء والفتنة، فقال: هذا إلهكم وإله موسى. فعكفوا عليه وأحبوه حباً، لم يحبوا مثله شيئاً قط، يقول الله ﷻ: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي

(١) تفسير الطبري ٩: ٥٠ ـ ٥٢.
(٢) سورة طه، الآيتان: ٩٢ ـ ٩٣. تفسير الطبري ٩: ٦٤ وقصص الأنبياء للثعلبي: ١٨٦.
(٣) باجرما قرية قرب الرقة من أرض الجزيرة. معجم البلدان ١: ٣١٣.

ترك ما كان عليه من الإسلام - يعني السامري .﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[1].

قال: وكان اسم السامري موسى بن ظفر، وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[2]. فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون، إن سار بمن معه من المسلمين، أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾[3]. وكان له هائباً مطيعاً.

ومضى موسى ببني إسرائيل إلى الطور وكان الله ﷻ وعد بني إسرائيل حين أنجاهم وأهلك عدوهم، جانب الطور الأيمن، وكان موسى حين سار ببني إسرائيل من البحر، قد احتاجوا إلى الماء فاستسقى موسى لقومه، فأمر أن يضرب بعصاه الحجر، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[4] لكل سبط عين يشربون منها قد عرفوها. فلما كلم الله موسى، طمع في رؤيته، فسأل ربه أن ينظر إليه، فقال له: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]. ثم قال الله لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ إلى قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[6]. وقال له: ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾[7]. ومعه عهد الله في ألواحه.

ولما انتهى موسى إلى قومه، فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، ألقى الألواح من يده، وكانت - فيما يذكرون - من زبرجد أخضر، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته ويقول:

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٩.

(٢) سورة طه، الآية: ٩١.

(٣) سورة طه، الآية: ٩٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٦) سورة الأعراف، الآيتان: ١٤٤ - ١٤٥.

(٧) سورة طه، الآيات: ٨٣ - ٨٦.

﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾[1]. فقال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فارعوى موسى وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2]. وأقبل على قومه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ إلى قوله ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ وأقبل على السامري، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[3]. ثم أخذ الألواح، يقول الله: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[4].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن صدقة بن يسار[5]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان الله تعالى قد كتب لموسى فيها موعظة وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة، فلما ألقاها رفع الله ستة أسباعها، وأبقى سبعاً، يقول اللهﷻ: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، ثم أمر موسى بالعجل فأحرق رماداً، ثم أمر به فقذف في البحر.

قال ابن إسحاق: فسمعت بعض أهل العلم يقول: إنما كان أحرقه ثم سحله، ثم ذراه في البحر، والله أعلم[6].

التيه

ثم اختار موسى منهم سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه، مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات، وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن

---

(١) سورة طه، الآيات: ٩٢ ـ ٩٤.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) سورة طه، الآيات: ٨٦ ـ ٨٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.
(٥) صدقة بن يسار سكن مكة، روى عنه ابن إسحاق. التاريخ الكبير ٤:٢٩٣.
(٦) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٨٧.

منه وعلم، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه، وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً، فسمعوه، وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل.

فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[1]. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾[2]. وهي الصاعقة، فانفلتت أرواحهم فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾[3]. قد سفهوا، أفتهلك مَن ورائي من بني إسرائيل، مما فعل السفهاء منا؟!، إن هذا هلاك لهم، اخترت منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، أرجعُ إليهم وليس معي رجل واحد، فما الذي يصدقونني به؟. فلم يزل موسى يناشد ربه ويسأله ويطلب إليه، حتى ردَّ إليهم أرواحهم[4]، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا. إلا أن يقتلوا أنفسهم.

وقال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصير لأمر الله.

السير إلى أريحا

فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم وبكى موسى، وبهش إليه الصبيان والنساء، يطلبون العفو عنهم، فتاب عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن يرفع عنهم السيف. ثم أمرهم بالسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس، فساروا حتى إذا كانوا قريباً منه، بعث موسى اثني عشر نقيباً من جميع أسباط بني إسرائيل، فساروا يريدون أن يأتوه بخبر الجبارين،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٤) قصص الأنبياء للثعلبي: ١٨٨.

فلقيهم رجل من الجبارين يقال له: عاج، فأخذ الاثني عشر فجعلهم في حجزته، وعلى رأسه حملة حطب، فانطلق بهم إلى امرأته فقال: انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا. فطرحهم بين يديها، فقال: ألا أطحنهم برجلي !. فقالت امرأته: لا. بل خلّ عنهم؛ حتى يخبروا قومهم بما رأوا. ففعل ذلك.

فلما خرج القوم قال بعضهم لبعض: يا قوم، إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل بخبر القوم، ارتدوا عن نبي الله، ولكن أخبروا نبيَّ الله، فيكونان هما يريان رأيهما، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك؛ ليكتموه ثم رجعوا، فانطلق عشرة فنكثوا العهد، فجعل الرجل منهم يخبر أخاه وأباه بما رأوا من أمر عاج، وكتم رجلان منهم، فأتوا موسى وهارون، فأخبروهما الخبر، فذلك حين يقول الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[1].

فقال لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[2]. يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول: التي أمركم الله بها ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ قَالُوا۟﴾ مما سمعوا من العشرة ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ وهما اللذان كتما، وهما يوشع بن نون فتى موسى[3]، وكالوب بن يوفنة، وقيل: كلاب بن يوفنة ختن موسى[4]، فقالا: يا قوم ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فغضب موسى فدعا عليهم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

(٣) اسمه في الأصل هوشع، ودعاه موسى يشوع، كان خادماً لموسى، وصار خليفته بعد موته. قاموس الكتاب المقدس: ١٠٦٨.

(٤) كالب بن يفنة القنزي، كان، مع يشوع، أميناً في حملة الاستيلاء على أرض كنعان، كما سيأتي. قاموس الكتاب المقدس: ٧٥٨.

وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وكانت عجلة من موسى عجلها، فقال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

فلما ضرب عليهم التيه، ندم موسى، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه، فقالوا له: ما صنعت بنا يا موسى؟. فلما ندم أوحى الله ﷻ إليه: ألا تأس؟ أي لا تحزن على القوم الذي سميتهم فاسقين؟ فلم يحزن فقالوا: يا موسى، فكيف لنا بماء ها هنا؟!، أين الطعام؟!. فأنزل الله عليهم المن والسلوى، فكان يسقط على الشجر الترنجبين[2] والسلوى، وهو طير يشبه السماني، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً، ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام، فأين الشراب؟. فأمر موسى، فضرب بعصاه الحجر ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾[3]. كل سبط من عين، فقالوا: هذا الطعام والشراب، فأين الظل؟. فظلل الله عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟. فكانت ثيابهم تطول معهم، كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾[4]. وقوله: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾[5]. فأجمعوا ذلك، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ وهي الحنطة ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾، وقال: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾[6]. فلما خرجوا من التيه، رفع المن والسلوى، وأكلوا البقول، والتقى موسى وعاج، فنزا موسى في السماء عشرة أذرع، وكانت عصاه عشرة أذرع، وكان طوله عشرة أذرع، فأصاب كعب عاج فقتله[7].

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢١ ـ ٢٦.

(٢) طل يشبه العسل المتجمد.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٦) سورة البقرة، الآيتان: ٦٠ ـ ٦١.

(٧) تفسير الطبري ١: ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ٢٨٧ ـ ٢٨٨. ٢٩٧. ١٦: ٢٥٢. ٢٥٥ وتاريخه ١:٤٢٤ ـ ٣٣١.

الخروج إلى بيت المقدس

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: أمر موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، وقال: إني قد كتبتها لكم داراً وقراراً ومنزلاً، فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو؛ فإني ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً من كل سبط نقيباً، يكون على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به، وقل لهم: إن الله يقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾[1].

وأخذ موسى منهم اثني عشر نقيباً، اختارهم من الأسباط، كفلاء على قومهم بما هم فيه على الوفاء بعهده وميثاقه، وأخذ من كل سبط منهم خيرهم، وأوفاهم رجلاً، يقول الله ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[2]. فسار بهم موسى إلى الأرض المقدسة بأمر الله، حتى إذا نزل التيه بين مصر والشام، وهي بلاد ليس فيها شجر ولا ظل، دعا موسى ربه حين آذاهم الحر، فظلل عليهم بالغمام، ودعا لهم بالرزق، فأنزل الله عليهم المن والسلوى، وأمر الله موسى فقال: أرسل رجالاً، يتجسسون إلى أرض كنعان التي وهبت لبني إسرائيل، من كل سبط رجلاً، فأرسل موسى الرؤوس كلهم الذين فيهم، وهذه أسماء الرهط الذين بعث الله من بني إسرائيل إلى أرض الشام ـ فيما يذكر أهل التوراة ـ ليجوسوها لبني إسرائيل:

من سبط روبيل، شامون بن ركون. ومن سبط شمعون، سافاط بن حربي. ومن سبط يهوذا، كالب بن يوفنا. ومن سبط كاذ، ميخائيل بن يوسف. ومن سبط يوسف، وهو سبط إفرائيم، يوشع بن نون. ومن سبط بنيامين، فلط بن ذنون. ومن سبط ربالون، كرابيل بن سودي. ومن سبط منشا بن يوسف، حدي بن سوشا. ومن سبط دان، حملائل بن حمل. ومن سبط أشار، سابور بن ملكيل. ومن سبط نفتالي، محر بن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.

وقسي. ومن سبط يساخر، حولايل بن منكد. فهذه أسماء[1] الذين بعثهم موسى يتجسسون له الأرض، ويومئذ سمّى يوشع بن نون، يوشع بن نون.

فأرسلهم وقال لهم: ارتفعوا قبل الشمس، فارقوا الجبل، وانظروا ما في الأرض، وما الشعب الذي يسكنونها، أقوياء هم أم ضعفاء؟، أقليل هم أم كثير؟، وانظروا أرضهم التي يسكنون أشمسة هي أم ذات شجر؟، واحملوا إلينا من ثمرة تلك الأرض. وكان في أول ما سمّى لهم من ذلك ثمرة العنب.

ـ حدثني محمد بن سعد[2]، قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[3]. فهم من بني إسرائيل بعثهم موسى؛ لينظروا له إلى المدينة، فانطلقوا فنظروا إلى المدينة، فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل، فقالوا: قدروا قوة قوم، وبأسهم هذه فاكهتهم. فعند ذلك فتنوا، فقالوا: لا نستطيع القتال، ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[4].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: إن كالب بن يوفنا أسكت الشعب عن موسى ﷺ فقال لهم: إنا سنعلو الأرض، ونرثها وإن لنا بهم قوة. وأما الذين كانوا معه، فقالوا: لا نستطيع أن نصل إلى ذلك الشعب من أجل أنهم أجرأ منا. ثم إن أولئك الجواسيس أخبروا بني إسرائيل الخبر، وقالوا: إنا مررنا في أرض وأحسسناها، فإذا هي تأكل ساكنها، ورأينا رجالها جساماً، ورأينا الجبابرة وبني الجبابرة، وكنا في أعينهم مثل الجراد. فأرجفت الجماعة من بني إسرائيل، فرفعوا أصواتهم بالبكاء، فبكى الشعب تلك الليلة، ووسوسوا على موسى وهارون، فقالوا لهما: يا ليتنا متنا في أرض مصر، وليتنا نموت في هذه البرية، ولم يدخلنا الله هذه الأرض، لنقع في الحرب، فتكون نساؤنا وأبناؤنا وأثقالنا غنيمة، ولو كنا قعوداً في أرض مصر، كان خيراً لنا. وجعل

---

(١) الأسباط في قاموس الكتاب المقدس: ٤٥٦ هم: أشير وأفرايم وبنيامين وجاد ودان وراوبين وزبولون وشمعون ولاوي ومنسي ونفتالي ويساكر ويهوذا.والذين اختيروا من أبناء الأسباط في تاريخ اليعقوبي١: ٣٨ ـ ٣٩ بألفاظ أخرى.

(٢) محمد بن سعد الحافظ العلامة البصري، توفي سنة ٢٣٠ هـ. تذكرة الحفاظ ٢: ٤٢٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

الرجل يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رأساً، وننصرف إلى مصر.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول قال: لما همَّ بنو إسرائيل بالانصراف إلى مصر، حين أخبرهم النقباء بما أخبروهم من أمر الجبابرة، خرَّ موسى وهارون على وجوههما؛ سجوداً قدام جماعة بني إسرائيل، وخرق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما، وكانا من جواسيس الأرض، وقالا لجماعة بني إسرائيل: إن الأرض مررنا بها وجسسناها صالحة، رضيها ربنا لنا، فوهبها لنا، وإنها لم تكن تفيض لبناً وعسلاً، ولكن افعلوا واحدة: لا تعصوا الله، ولا تخشوا الشعب الذين بها؛ فإنهم جبناء مدفوعون في أيدينا، إن حاربناهم ذهبت منهم، وإن الله معنا، فلا تخشوهم. فأراد قوم من بني إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة.

قال: حدثني بعض أهل العلم بالكتاب الأول، قال: لما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم، وهمهم بكالب ويوشع، إذ أمراهم بدخول مدينة الجبارين وقالا لهم ما قالا ـ ظهرت عظمة الله بالغمام على نار فيه الرمز على كل بني إسرائيل، فقال ـ جل ثناؤه ـ لموسى: إلى متى يعصيني هذا الشعب؟! وإلى متى لا يصدقون بالآيات كلها التي وضعت بينهم؟! أضربهم بالموت فأهلكهم، وأجعل لك شعباً أشد منهم.

فقال موسى: يسمع أهل المصر، الذين أخرجت هذا الشعب بقوتك من بينهم، ويقول ساكنو هذه البلاد، الذين قد سمعوا أنك أنت الله في هذا الشعب، فلو أنك قتلت هذا الشعب كلهم كرجل واحد، لقالت الأمم الذين سمعوا باسمك: إنما قتل هذا الشعب من أجل لا يستطيع أن يدخلهم الأرض التي خلق لهم؛ فقتلهم في البرية، ولكن لترتفع أياديك ويعظم جزاؤك يا رب، كما كنت تكلمت وقلت لهم، فإنه طويل صبرك، كثيرة نعمك، وأنت تغفر الذنوب، فلا توبق، وإنك تحفظ الآباء على الأبناء، وأبناء الأبناء إلى ثلاثة أجيال وأربعة، فاغفر أي رب، آثام هذا الشعب بكثرة نعمك، وكما غفرت لهم منذ أخرجتهم من أرض مصر إلى الآن.

فقال الله ـ جل ثناؤه ـ لموسى: قد غفرت لهم بكلمتك، ولكن قد أتى: أني أنا

الله، وقد ملأت الأرض محمدتي كلها، ألا ترى القوم الذين قد رأوا محمدتي، وآياتي التي فعلت في أرض مصر، وفي القفار، سألوني عشر مرات، ولم يطيعوني، لا يرون الأرض التي خلقت لآبائهم، ولا يراها من أغضبني، فأما عبدي كالب الذي كان روحه معي، واتبع هواي، فإني مدخله الأرض التي دخلها، ويراها خلفه. وكان العماليق والكنعانيون جلوساً في الجبال، ثم غدوا فارتحلوا في القفار، في طريق يحرسون.

وكلم الله ﷻ موسى وهارون وقال لهما: إلى متى توسوس عليّ هذه الجماعة، جماعة السوء، قد سمعت وسوسة بني إسرائيل. وقال: لأفعلن بكم كما قلت لكم، ولتلقين جيفكم في هذه القفار، وحسابكم من بني عشرين سنة فما فوق، ذلك من أجل أنكم وسوستم عليّ، فلا تدخلوا الأرض التي دفعت إليها، ولا ينزل فيها أحد، غيركالب ابن يوفنا ويوشع بن نون، وتكون أثقالكم، كما كنتم، الغنيمة، وأما بنوكم اليوم، الذين لم يعلموا ما بين الخير والشر، فإنهم يدخلون الأرض، وإني بهم عارف، لهم الأرض التي أردت لهم، وتسقط جيفكم في هذه القفار، وتتيهون في هذه القفار، على نجاسة الأيام التي جسستم الأرض أربعين يوماً، مكان كل يوم سنة، وتقتلون بخطاياكم أربعين سنة، وتعلمون أنكم وسوستم. قد أتى: أني أنا الله، فاعل بهذه الجماعة، جماعة بني إسرائيل الذين وعدوا بأن يتيهوا في القفار، فيها يموتون. فأما الرهط الذين كان موسى بعثهم يتجسسون الأرض، ثم حرشوا الجماعة، فأفشوا فيهم خبر الشر، فماتوا كلهم بغتة، وعاش يوشع وكالب بن يوفنا من الرهط، الذين انطلقوا يتحسسون الأرض.

فلما قال موسى عليه السلام هذا الكلام كله لبني إسرائيل، حزن الشعب حزناً شديداً، وغدوا فارتفعوا على رأس الجبل، وقالوا: نرتقي الأرض التي قال ـ جل ثناؤه ـ من أجل أنا قد أخطأنا. فقال لهم موسى: لمَ تعتدون في كلام الله؟، من أجل ذلك لا يصلح لكم عمل، ولا تصعدوا من أجل أن الله ليس معكم، فالآن تنكسرون من قدام أعدائكم، من أجل العمالقة والكنعانيين أمامكم، فلا تقعوا في الحرب من أجل أنكم انقلبتم على الله، فلم يكن الله معكم. فأخذوا يرقون في الجبل، ولم يبرح التابوت، الذي فيه مواثيق الله ـ جل ذكره ـ وموسى من المحلة ـ يعني من الحكمة ـ حتى هبط العماليق والكنعانيون في ذلك الحائط، فحرقوهم وطردوهم وقتلوهم، فتيههم الله ـ عز ذكره ـ في التيه أربعين

سنة، بالمعصية حتى هلك من كان استوجب المعصية من الله في ذلك.

قال: فلما شب النواشىء من ذراريهم، وهلك آباؤهم، وانقضت الأربعون سنة التي تتيهوا فيها، وسار بهم موسى، ومعه يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وكان - فيما يزعمون - على مريم ابنة عمران، أخت موسى وهارون، وكان لهما صهراً، قدم يوشع ابن نون إلى أريحاء في بني إسرائيل، فدخلها بهم، وقتل الجبابرة[1] الذين كانوا فيها، ثم دخلها موسى ببني إسرائيل[2]، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، لا يعلم قبره أحد من الخلائق[3].

بلعم بن باعور

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: لما نشأت من ذراريهم - يعني من ذراري الذين أبوا قتال الجبارين مع موسى وهلك آباؤهم - وانقضت الأربعون سنة التي فيها سار بهم موسى، ومعه يوشع بن نون وكلاب بن يوفنا، وكان، فيما يزعمون، على مريم ابنة عمران، أخت موسى وهارون فكان لهم صهراً فلما انتهوا إلى أرض كنعان، وبها بلعم بن باعور المعروف[4]، وكان رجلاً، قد آتاه الله علماً، وكان فيما أوتي من العلم اسم الله الأعظم فيما يذكرون الذي، إذا دعي الله به، أجاب وإذا سئل به أعطى.

- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن سالم أبي النضر أنه حدث: أن موسى، لما نزل أرض بني كنعان من أرض الشام، وكان بلعم ببالعة[5]،

---

(١) ولد عمليق بن لاوذ بن سام. تاريخ اليعقوبي ١: ٤٦.

(٢) في رواية اليعقوبي ١: ٤٦ أن يوشع قام بأمر بني إسرائيل بعد موت موسى، ودام حكمه فيهم سبعاً وعشرين سنة.وكذا في رواية المسعودي ١: ٦٣.وهو نفسه في التوراة. قاموس الكتاب المقدس: ١٠٦٨.

(٣) تفسير الطبري ٦: ١٤٩ - ١٥٠. ١٧٦. ١٨٣ - ١٨٤.

(٤) بلعم بن باعورا بن باعر بن أبهد بن مارت بن لوط. قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٠٩.

(٥) قرية من قرى البلقاء، والبلقاء في أرض كنعان وهي مدينة الجبارين، سُميت بلقاء لأن ملكها بالق بن صافورا. قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٠٩.

فلما نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل، أتى قوم بلعم إلى بلعم فقالوا له: يا بلعم هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ويسكنها، وإنا قومك وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم.

فقال: ويلكم ! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟.

قالوا: ما لنا من منزل.

فلم يزالوا به ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حسبان، فما سار عليها غير قليل، حتى ربضت به فنزل عنها فضربها حتى أذلقها، فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً، حتى ربضت به، ففعل مثل ذلك فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً، حتى ربضت به فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها، فكلمته حجةً عليه، فقالت: ويحك يا بلعم !، أين تذهب؟!، ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟!، أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟!.

فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل حسبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، فلا يدعو عليهم بشيء إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل.

فقال له قومه: أتدري يا بلعم، ما تصنع، إنما تدعو لهم وتدعو علينا؟!.

قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه. واندلع لسانه، فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جملوا النساء، وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر؛ يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنه إن زنى رجل واحد منهم، كفيتموهم.

ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر، مرت امرأة من الكنعانيين، اسمها كستى ابنة صور - رأس أمته وبني أبيه من كان منهم في مدين هو كان كبيرهم - برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم، رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول: هذه حرام عليك.

قال: أجل. هي حرام عليك، لا تقربها.

قال: فوالله، لا نطيعك في هذا.

ثم دخل بها قبته، فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل.

وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان رجلاً، قد أعطي بسطة في الخلق، وقوة في البطش، وكان غائباً، حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يحوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبة، وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته، وكان بكر العيزار، فجعل يقول: اللهم، هكذا نفعل بمن يعصيك.

ورفع الطاعون، فحُسب من يهلك من بني إسرائيل في الطاعون، فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول: عشرون ألفاً، في ساعة من النهار، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص بن العيزار بن هارون، من كل ذبيحة ذبحوها، القبة والذراع واللحى؛ لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر العيزار، ففي بلعم بن باعور أنزل الله تعالى على محمد ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، يعني بلعم بن باعور ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. يعني بني إسرائيل: أني قد جئتهم بخبر ما كان فيهم مما

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ - ١٧٦.

يخفون عليك؛ لعلهم يتفكرون، فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر، عما مضى فيهم إلا نبي، يأتيه خبر من السماء[1].

ثم إن موسى قدم يوشع بن نون إلى أريحا في بني أسرائيل، فدخلها بهم، وقتل بها الجبابرة الذين كانوا فيها، وأصاب من أصاب منهم، وبقيت منهم بقية في اليوم الذي أصابهم فيه، وجنح عليهم الليل، وخشي إن لبسهم الليل أن يعجزوه، فاستوقف الشمس، ودعا الله أن يحبسها، ففعلﷺ حتى استأصلهم، ثم دخلها موسى ببني إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، لا يعلم بقبره أحد من الخلائق[2].

مسخ الخنازير

ـ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم، الذي افترض عليكم في عيدكم، يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت، فعظموه وتركوا ما أمروا به، فلما أبوا إلا لزوم السبت، ابتلاهم الله فيه، فحرّم عليهم ما أحلّ لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: مدين.

فحرّم الله عليهم في السبت الحيتان، صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت، أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت، ذهبن فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً، حتى إذا كان يوم السبت، أتين سراً حتى إذا ذهب السبت ذهبن. فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد، وقرموا إلى الحيتان، عمد رجل منهم، فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخرمه بخيط ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء، فأخذه. أي إني لم آخذه في يوم السبت. فانطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله، لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل.

قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً، لم يعجِّل الله بعقوبة، حتى

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢١١. وقصة بلعام بن باعور في سفر العدد/ ٢٢: ٥ وما بعدها بتفاصيل مختلفة.
(٢) تاريخ الطبري ١: ٤٣٧ ـ ٤٣٩ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

صادوها علانية، وباعوها في الأسواق، فقالت طائفة منهم، من أهل التقية: ويحكم اتقوا الله. ونهوهم عما كانوا يصنعون، فقالت طائفة أخرى، لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم، فقدوا الناس، فلم يروهم. قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس شأناً، فانظروا ما هو؟.

فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً، فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه، وإنه لقرد، والمرأة بعينها، وإنها لقردة، والصبي بعينه، وإنه لقرد.

قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء، لقد أهلك الله الجميع منهم.

قال: وهي القرية التي قال ـ جل ثناؤه ـ لمحمد ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[2].

ـ حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن كثير بن أفلح[3]، مولى أبي أيوب الأنصاري، قال: حُدِّثت أن المسخ في بني إسرائيل من الخنازير، كان أن امرأة من بني إسرائيل كانت في قرية من قرى بني إسرائيل، وكان فيها ملك بني إسرائيل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة، إلا أن تلك المرأة كانت على بقية من الإسلام، متمسكة به، فجعلت تدعو إلى الله، حتى إذا اجتمع إليها ناس، فتابعوها على أمرها، قالت لهم: إنه لا بد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله، وأن تنادوا قومكم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٣) عمرو بن كثير بن أفلح المكي. تهذيب الكمال ٢٢: ٢٠٥.

بذلك، فاخرجوا؛ فإني خارجة. فخرجت وخرج إليها ذلك الملك في الناس، فقتل أصحابها جميعاً، وانفلتت من بينهم.

قال: ودعت إلى الله؛ حتى تجمع الناس إليها، حتى إذا رضيت منهم، أمرتهم بالخروج، فخرجوا وخرجت معهم، وأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينهم، ثم دعت إلى الله، حتى إذا اجتمع إليها رجال استجابوا لها، أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت، فأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينهم، فرجعت وقد أيست، وهي تقول: سبحان الله! لو كان لهذا الدين ولي وناصر، لقد أظهره بعد.

قال: فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية، يسعون في نواحيها، خنازير قد مسخهم الله في ليلتهم تلك، فقالت، حين أصبحت، ورأت ما رأت: اليوم أعلم أن الله قد أعز دينه، وأمر دينه.

قال: فما كان مسخ الخنازير في بني إسرائيل، إلا على يدي تلك المرأة[1].

وفاة هارون[2] وموسى

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كان صفي الله قد كره الموت وأعظمه، فلما كرهه أراد الله تعالى أن يحبب إليه الموت، ويكره إليه الحياة، فحولت النبوة إلى يوشع بن نون، فكان يغدو عليه ويروح، فيقول له موسى: يا نبي الله، ما أحدث الله إليك؟. فيقول له يوشع بن نون: يا نبي الله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة،

(١) تفسير الطبري ٦: ٢٠٣.

(٢) عن وهب بن منبه قال: نعى الله هارون لموسى، حين أراد الله أن يقبضه، فلما أقبل الله تعالى عليه، يعزيه ويعظه، فقال له: يا موسى، ما كان ينبغي لك أن تحن إلى فقد شيء معي، ولا أن تستأنس بغيري، ولا أن تشد ركبك إلا بي، ولا أن يكون جزعك، هذا الآن على هارون، إلا لي، وكيف تستوحش إلى شيء من الأشياء، وأنت تسمع كلامي؟!. أم كيف تحن إلى فقد شيء من الدنيا، بعد إذ اصطفيتك برسالاتي وبكلامي؟!. وذكر مناجاة طويلة. قال: فأتى هارون، وموسى ابن سبع عشرة ومائة سنة، قبل أن ينقضي التيه بثلاث سنين، فأتى هارون، وهو ابن عشرين ومائة سنة، بقي موسى بعده ثلاث سنين حتى تم له مائة وعشرون سنة، وبنو إسرائيل متفرقون عليه، يجتمعون عليه مرة ويفترقون أخرى. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٠٨.

فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك، حتى تكون أنت الذي تبتدئ به، وتذكره؟.

فلا يذكر له شيئاً، فلما رأى موسى ذلك، كره الحياة وأحب الموت(١).

قال ابن حميد قال سلمة: قال ابن إسحاق وكان صفي الله ـ فيما ذكر لي وهب ابن منبه(٢) ـ إنما يستظل في عريش، ويأكل ويشرب في نقير من حجر، إذا أراد أن يشرب بعد أن أكل، كرع كما تكرع الدابة في ذلك النقير، تواضعاً لله حين أكرمه الله بما أكرمه به من كلامه.

قال وهب: فذكر لي أنه كان من أمر وفاته: أن صفي الله خرج يوماً من عريشه ذلك؛ لبعض حاجته لا يعلم به أحد من خلق الله، فمرَّ برهط من الملائكة، يحفرون قبراً، فعرفهم وأقبل إليهم حتى وقف عليهم، فإذا هم يحفرون قبراً، لم ير شيئاً قط أحسن منه، ولم ير مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله، لمن تحفرون هذا القبر؟.

قالوا: نحفره لعبد كريم على ربه.

قال: إن هذا العبد من الله لبمنزل! ما رأيت كاليوم مضجعاً ولا مدخلاً!.

وذلك حين حضر من أمر الله ما حضر من قبضه، فقالت له الملائكة: يا صفي الله، أتحب أن يكون لك؟.

قال: وددت.

قالوا: فانزل فاضطجع فيه، وتوجه إلى ربك، ثم تنفس أسهل تنفس قط.

فنزل فاضطجع فيه، وتوجه إلى ربه، ثم تنفس، فقبض الله تعالى روحه، ثم سوت عليه الملائكة، وكان صفي الله زاهداً في الدنيا، راغباً فيما عند الله(٣).

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢١٨.

(٢) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١١٢.

(٣) تاريخ الطبري ١: ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

قارون بن يصهر

ـ قال ابن إسحاق: ما حدثنا به ابن حميد قال: حدثنا سلمة عنه: تزوج يصهر بن قاهث شميت ابنة تباويت بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم، فولدت له عمران بن يصهر، وقارون بن يصهر، فقارون، على ما قال ابن إسحاق، عم موسى أخو أبيه لأبيه وأمه[1].

....

(1) تفسير الطبري ٢٠: ١٢٨ ـ ١٢٩ وتاريخه ١: ٢٦٢ وقصص الأنبياء للثعلبي: ١٨٨. كان ابن عمه، أخي أبيه وكان يسمى المنور من حسن صورته في التوراة، ولكن عدو الله نافق، كما نافق السامري فأهلكه البغي، وكان الله قد آتاه مالاً كثيراً كما وصفه الله ﷻ فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص ٧٦]. قال: نجد مكتوباً في الإنجيل: مفاتيح قارون وقر ستين بغلاً غراً محجلة، ما يزيد مفتاح منها على إصبع، لكل مفتاح منها كنز. فبغى عدو الله؛ لما أراد الله به من الشقاء والبلاء على قومه بكثرة ماله، وقيل: إن بغيه عليهم كان بأن زاد عليهم في الثياب شبراً، فوعظه قومه على ما كان من بغيه عنه وأمروه بإنفاق ما أعطاه الله في سبيله والعمل فيه بطاعته، فكان جوابه إياهم جهلاً منه واغتراراً بحلم الله عنه، أن ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ من هذه الدنيا ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص ٧٨]. فلم يردعه عن جهله وبغيه على قومه، بكثرة ماله، عظة من وعظه، وتذكير من ذكره بالله ونصيحته إياه، ولكنه تمادى في غيه وخسارته، حتى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ راكباً برذوناً أبيض مسرجاً بسرج الأرجوان، قد لبس ثياباً معصفرة، قد حمل معه من الجواري، بمثل هيئته وزينته على مثل برذونه، ثلاثمائة جارية، وأربعة آلاف من أصحابه، فتمنى أهل الخسار من الذين خرج عليهم في زينته، مثل الذي أوتيه فقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص ٧٩]. فأنكر ذلك، من قوله عليهم، أهلُ العلم بالله، فقالوا لهم: ويلكم أيها المتمنون مثل ما أوتي قارون، اتقوا الله، واعملوا بما أمركم الله به، وانتهوا عما نهاكم عنه؛ فإن ثواب الله وجزاءه أهل طاعته، خير لمن آمن به وبرسله، وعمل بما أمره به من صالح الأعمال.فلما عتا الخبيث وتمادى في غيه، وبطر نعمة ربه، ابتلاه الله ﷻ من الفريضة في ماله، والحق الذي ألزمه فيه، ما ساق إليه شحه به، أليم عقابه، وصار به عبرة وعظة للباقين. تاريخ الطبري١: ٤٤٤ وما بعدها.

حزقيل

نسب حزقيل[1]

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: إنما سمي حزقيل بن بوزي، ابن العجوز؛ أنها سألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله لها؛ فبذلك قيل له: ابن العجوز، وهو الذي دعا للقوم، الذين ذكر الله في الكتاب لمحمد ﷺ، كما بلغنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن وهب ابن منبه: أن كالب بن يوفنا، لما قبضه الله بعد يوشع[3]، خلف فيهم ـ يعني في بني إسرائيل ـ حزقيل بن بوذي، وهو ابن العجوز، وهو الذي دعا للقوم الذي ذكر الله في الكتاب لمحمد ﷺ كما بلغنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾[4].

مبعث حزقيل

ـ حدثني[5] محمد بن سهل بن عسكر[6]..............................

---

(١) يقول الطبري: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين من أمتنا وغيرهم أن القيم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كان كالب بن يوفنا ثم حزقيل بن بوذي من بعده، وهو الذي يقال له: ابن العجوز. تاريخ الطبري ١: ٤٥٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(٣) وفي تاريخ اليعقوبي ١: ٤٧ يوشع، ثم دوشان الكفرين وهي واحدة من روايتين ذكرهما المسعودي ١: ٦٥ وتذهب الرواية الأخرى مذهب رواية ابن إسحاق عن وهب.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣. قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٥) هنا ينقل الطبري الرواية عن وهب

(٦) محمد بن سهل بن عسكر التميمي، أبو بكر البغدادي، توفي سنة ٢٥١ هـ. الثقات ٩: ١٢٧.

قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم[1] قال: حدثني عبد الصمد بن معقل[2]، أنه سمع وهب بن منبه يقول: أصاب ناساً من بني إسرائيل بلاء وشدة من الزمان، فشكوا ما أصابهم، فقالوا: يا ليتنا قد متنا، فاسترحنا مما نحن فيه، فأوحى الله إلى حزقيل: إن قومك صاحوا من البلاء، وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا فاستراحوا، وأية راحة لهم في الموت!!، أيظنون أني لا أقدر على أن أبعثهم بعد الموت؟!. فانطلق إلى جبانة كذا كذا، فإن فيها أربعة آلاف.قال وهب: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فقم فيهم فنادهم.

وكانت عظامهم قد تفرقت، فرقتها الطير والسباع، فناداها حزقيل فقال يا أيتها العظام النخرة، إن الله ﷻ يأمرك أن تجتمعي. فاجتمعت عظام كل إنسان منهم معاً، ثم نادى ثانية حزقيل فقال: أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي اللحم. فاكتست اللحم، وبعد اللحم جلداً، فكانت أجساداً، ثم نادى حزقيل الثالثة فقال: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن تعودي في أجسادك. فقاموا بإذن الله، وكبروا تكبيرة واحدة.

قال[3] ابن حميد: قال سلمة: قال ابن إسحاق: فبلغني أنه كان من حديثهم، أنهم خرجوا فراراً من بعض الأوباء، من الطاعون أو من سقم، كان يصيب الناس؛ حذراً من الموت، وهم ألوف، حتى إذا نزلوا بصعيد من البلاد، قال الله لهم: موتوا. فماتوا جميعاً، فعمد أهل تلك البلاد فحظروا عليهم حظيرة، ثم تركوهم فيها؛ وذلك أنهم كثروا عن أن يغيبوا، فمرت بهم الأزمان والدهور، حتى صاروا عظاماً نخرة، فمر بهم حزقيل بن بوذي، فوقف عليهم فتعجب لأمرهم، ودخلته رحمة لهم، فقيل له: أتحب أن يحييهم الله؟.

فقال: نعم.

فقيل له: فقل: أيتها العظام الرميم التي قد رمت وبليت، ليرجع كل عظم إلى

(١) إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه، يروي عن عبد الصمد بن معقل، توفي سنة ٢١٠ هـ. الثقات ٨: ٩٦.

(٢) عبد الصمد بن معقل بن منبه اليماني ابن أخي وهب بن منبه يروي عن عمه وهب بن منبه روى عنه إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني، توفي سنة ١٣٣هـ. الثقات ٧: ١٣٤.

(٣) من هنا يكمل الطبري الرواية عن ابن إسحاق

صاحبه. فناداهم بذلك، فنظر إلى العظام يأخذ بعضها بعضاً، ثم قيل له: قل: أيها اللحم والعصب والجلد اكس العظام بإذن ربك.

قال: فنظر إليها والعصب يأخذ العظام، ثم اللحم والجلد والأشعار، حتى استووا خلقاً، ليست فيهم الأرواح، ثم دعا لهم بالحياة، فتغشاه من السماء شيء كربه، حتى غشي عليه منه، ثم أفاق، والقوم جلوس، يقولون: سبحان الله، فقد أحياهم الله[1].

(١) تفسير الطبري ٢: ٥٨٦. وتاريخه ١: ٤٥٧ـ ٤٥٨.٤٥٩ - ٤٦٠.

إلياس واليسع

نسب إلياس

قال ابن إسحاق، والعلماء من أصحاب الأخبار[1]: لما قبض الله تعالى حزقيل عليه السلام عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر فيهم الفساد ونسوا عهد الله إليهم. في التوراة حتى نصبوا الأوثان، وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبياً[2]، وهو إلياس بن يس بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران. وإنما كانت الأنبياء بعد موسى، يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا، وضيعوا من أحكام التوراة، وبنو إسرائيل يومئذ متفرقون في أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها، بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها، وهم سبط إلياس فبعث الله تعالى إليهم نبياً، وعليهم يومئذ ملك يقال له: لاجب[3]. قد ضل وأضل قومه، وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان هو وقومه يعبدون صنماً، يقال له: بعل. وكان طوله عشرين ذراعاً، وكان له أربعة وجوه.

وقال ابن إسحاق: قد سمعت بعض أهل العلم يقولون: ما كان البعل إلا امرأة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١٥: ١١٥.

(٢) سمرة عن كعب قال: كان إلياس نبي الله صاحب جبال وبرية يخلو فيها يعبد ربه وكان ضخم الرأس خميص البطن دقيق الساقين وكان في رأسه شامة حمراء وإنما رفعه الله إلى أرض الشام ولم يصعد به إلى السماء فأورث اليسع من بعده النبوة. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١١٩.

(٣) أحاب وامرأته أزبل أو أربل عند الطبري.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٢٥.

دعوة قومه إلى عبادة الله

قال: فجعل إلياس يدعوهم إلى الله تعالى، ولا يطيعونه ولا يجيبونه إلى ذلك، إلا ما كان من أمر لاجب الملك الذي كان ببعلبك، فإنه آمن به وصدقه، وكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده. وكان للاجب امرأة يقال لها: أربيل. وكان يستخلفها على رعيته، إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها، فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها، وتركب كما يركب، وتجلس كما يجلس في مجلس القضاء وتقضي بين الناس، وكانت قتالة للأنبياء، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه، وكان قد خلص من بين يديها ثلاثمائة نبي، كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث، سوى الذين قتلتهم، وكانت في نفسها غير محصنة، ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل، وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة، ويقال: إنها ولدت سبعين ولداً.

قال: وكان للاجب هذا جار من بني إسرائيل، رجل صالح يقال له: مزدكي. وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة، يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حيناً. وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكي، وامرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة، وتحتال على غصبها؛ لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها، ويقولون: ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر، ويتعجبون من أمر الملك وامرأته، كيف لم يغصباها. فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينته، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد إليه سبيلاً.

ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد، فلما طالت غيبته اغتنمت امرأته أربيل، أن تتم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكي، في أن تقتله وتأخذ جنينته وهو غافل عما تريد به، مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته، فجمعت أربيل جمعاً من الناس، وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكي بالزور: أنه يسب لاجب الملك. فأجابوها إلى ما سألتهم من الشهادة بالزور، وكان حكمهم في ذلك الزمان، على من يسب الملك، القتل إن قامت البينة، فأحضرت مزدكي، وقالت له: بلغنا عنك أنك شتمت الملك واغتبته. فأنكر

مزدكي ذلك، فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتله. فقتل وأخذت جنينته غصباً، فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح.

فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر، فقال لها: ما أصبت خيراً ولا وفقت، ولا أرانا نفلح بعدها أبداً، وإنا كنا عن جنينته لأغنياء، وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا، وتحرم بنا منذ زمان طويل، فأحسنا جواره وكففنا عنه الأذى، لوجوب حقه علينا، فقبحت بنا الجوار، وما حملك على اجترائك عليه، إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكرك في العواقب.

فقالت: إنما غضبت لك وحكمت بحكمك.

فقال لها: ما كان يسع حلمك وعظيم خطرك، العفو عن رجل واحد، فتحفظين جواره.

فقالت: قد كان ما كان.

فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى لاجب وقومه، وأمره أن يخبرهم: أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه، حين قتلوه بين أظهرهم ظلماً، وقد آلى على نفسه: أنهما إن لم يتوبا من صنعهما، ويردا الجنينة على ورثة مزدكي، وإلاّ يهلكهما ـ يعني لاجب وامرأته ـ في جوف الجنينة أشر ما يكون، ويسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها، حتى تتعرى عظامهما عن لحومهما، ولا يمتنعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس وأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة. فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه. ثم قال له: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً، والله ما أرى فلاناً وفلاناً ـ وسمى ملوكاً منهم عبدوا الأوثان ـ إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون ويتمتعون، مملكين ما ينقص من دنياهم، ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل، شيء، وما نرى لكم علينا من فضل.

قال: ثم هم بتعذيب إلياس وقتله.

هروب إلياس إلى الجبال

قال: فلما سمع إلياس ذلك وأحس بالشر، رفضه وخرج عنه فلحق بشواهق الجبال، وعاد الملك إلى عبادة بعل، فارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه، فدخل مغاراً، فيقال: إنه بقي فيه سبع سنين، شريداً وحيداً فريداً خائفاً، يأوي إلى الشعاب والكهوف، ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، وهم في طلبه، وقد وضعوا عليه العيون يتوقعون أخباره، ويجتهدون في أخذه، والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء. فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله تعالى ابن الملك لاجب وكان أحب أولاده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به، فأدنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً.

وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه، حتى إنهم سموا مدينتهم به، فقالوا لها: بعلبك، وجعلوا له أربعمائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أمناءه، وجعل الشيطان يدخل في جوف الصنم، فيكلمهم بأنواع الكلام، والأربعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان، ويوسوس لهم شريعة من الضلال، فيكتبونها للناس ويعملون بها، ويسمونهم الأنبياء.

مرض ابن الملك

فلما اشتد مرض ابن الملك، طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل، ويطلبوا منه لابنه الشفاء والعافية، فدعوه له فلم يجبهم، ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم، فلم يمكنه الولوج في جوفه، ولا الكلام، وهم مجتهدون في التضرع إليه، والمريض لا يزداد بذلك إلا ألماً وجهداً. فلما طال عليهم ذلك قالوا للاجب: أيها الملك، إن في ناحية الشام آلهة أخرى، وهي في العظم مثل إلهك، فابعث إليها الأنبياء يشفعون لك إليها، فلعلها أن تشفع لك إلى بعل؛ فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك، لكان قد أجابك وشفي مرض ابنك.

فقال لاجب: لأي شيء غضب عليّ، وأنا أطيعه وأطلب رضاه، ولم أسخطه ساعة قط؟.

قالوا: من أجلك إنك لم تقتل إلياس، وفرطت فيه حتى نجا سالماً، وهو كافر

بإلهك يعبد غيره؛ فذلك الذي أغضبه عليك.قال لاجب: وكيف لي أن أقتله، وأريح إلهي منه وأرضيه؟.

قال: ثم إنه بعث الأربعمائة نبي ليشفعوا إلى الآلهة التي بالشام، ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه، فانطلقوا إلى الأصنام وكلموها، فمنع الله ﷻ الشيطان الولوج في الأصنام ولم تكلمهم، فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك، فقال الملك: وكيف لي أن أقتل إلياس في هذا اليوم؟.

قال: فخرج أربعمائة، حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس، أوحى الله إليه: أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم، وقال له: لا تخف وكلمهم، وقال له: لا تخف فإني سأصرف عنك شرهم، وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم، استوقفهم فلما وقفوا قال لهم: إن الله أرسلني إليكم وإلى من وراءكم، فاسمعوا أيها القوم، رسالة ربكم؛ لتبلغوها صاحبكم، ارجعوا إليه وقولوا: إن الله تعالى يقول لك: ألست تعلم يا لاجب، إنني أنا الله لا إله إلا أنا، إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، فلا يحملنك جهلك، وقلة عقلك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء لابنك من غيري، ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً، إلا ما شئت، وإني آليت باسمي لأغيظنك في ابنك، ولأميتنه من فوره؛ هذا حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني.

فلما قال لهم ذلك، رجعوا وقد ملئوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك ووصلوا إليه، قالوا له ما قال لهم إلياس، وأخبروه بأن إلياس انحط عليهم من الجبل، وهو رجل نحيف طويل، وقد قشف وقحل وتمعط شعره ويبس جلده، وعليه جبة من شعر، وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا، فلما وقفنا سار معنا، فقذف له في قلوبنا الرعب والهيبة، وتقطعت ألسنتنا، ونحن في هذا العدد الكثير، وهو واحد فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه، وملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك. ثم إنهم قصوا عليه كلام إلياس، فقال لاجب: لا أنتفع بالحياة ما دام إلياس حياً، ما الذي منعكم أن تبطشوا به، حين لقيتموه، وتوثقوه وتأتوني به وأنتم تعلمون أنه طلبتي وعدوي؟.

قالوا له: قد أخبرناك بالذي منعنا عنه، ومن كلامه والبطش به.

فقال لاجب: إذاً ما نطيق إلياس إلا بالمكر والخديعة.

فقيض له خمسين رجلاً من قومه من ذوي القوة والبأس، وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه، وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به، هم ومن وراءهم، ليطمئن إليهم ويغتر بهم ويمكنهم من نفسه، فيأتون به ملكهم، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام ثم إنهم تفرقوا فيه، وهم ينادون بأعلى أصواتهم، ويقولون: يا نبي الله، أبرز لنا وأشرف علينا بنفسك؛ فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وملكنا لاجب وكذلك جميع قومنا، مقرون بذلك ويقرؤون عليك السلام، ويقولون: قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا إليه، فهلم إلينا، فأنت نبينا ورسول ربنا، فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا، فإننا ننقاد إلى ما أمرتنا، وننتهي عما نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك، وطاعتنا لك، فتداركنا وارجع إلينا.

خديعة قومه

وكل هذا كان مكراً منهم وخديعة، فلما سمع إلياس مقالتهم وقع في قلبه إيمانهم، وخاف الله وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر لهم، ولم يجبهم بعد الذي سمع منهم، فلما صمم على البروز إليهم رجع إلى نفسه، وقال: لو إني دعوت الله تعالى، فسألته أن يعلمني ما في نفوسهم ويطلعني على حقيقة أمرهم. وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى وتوفيقاً له، فقال: اللهم، إن كانوا صادقين فيما يقولون، فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم، وارمهم بنار تحرقهم جميعاً. فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم، فأحرقوا أجمعون.

قال: وبلغ لاجب وقومه الخبر، فلم يرتدع عن إضمار السوء، واحتال ثانياً في أمر إلياس فقيض له فئة أخرى، مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأي، فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل، وارتقوه متفرقين وجعلوا ينادون: يا نبي الله، إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته، إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا، أولئك فرقة نافقوا وخالفوا، فصاروا إليك ليمكروا بك من غير رأينا، ولو علمنا بهم لقتلناهم، والآن قد كفاك الله أمرهم، وأهلكهم بسوء نياتهم، وانتقم لنا ولك منهم. فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى، فأمطر عليهم ناراً فأحرقوا جميعاً عن آخرهم.

كل ذلك وابن الملك في البلاء الشديد من وجعه، كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس: لا يقضي عليه فيموت، ولا يخفف عنه من عذابه، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً، ازداد غيظاً إلى غيظه وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلا أنه شغله من ذلك مرض ابنه، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن، الذي هو كاتب امرأته، رجاء أن يأنس إليه، فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً ولا مكروهاً، وإنما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضياً عنه، لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأي والبصارة بالأمور، فلما وجهه نحوه، أرسل معه فئة من أصحابه وعهد إليهم دون الكاتب، أن يوثقوا إلياس ويأتوه به، إن أراد التخلف عنهم، وإن جاء معهم آنساً بالكاتب وواثقاً بمكانته، لم يوحشوه ولم يروعوه.

ثم إنه أظهر للكاتب الإنابة فقال له: إنه قد آن لي أن أتوب وأتعظ؛ فقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا، والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو علي وعلى جميع قومي، فنهلك بدعوته، فكن رسولنا إليه وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا، وإنه لا يصلحنا في توبتنا، وما نريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا، إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا، يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا.

قال: ثم إنه أمر قومه أن يعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد، وقد أهملنا أمرها حتى ينزل إلينا، فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها. وكان ذلك كله مكراً من الملك.

قال: فانطلق الكاتب والفئة معه، حتى علوا الجبل الذي فيه إلياس، فناداه الكاتب فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه وأنس به، وكان مشتاقاً إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام: أن ابرز إلى أخيك الصالح، فالقه وجدد منه العهد. فبرز إليه وصافحه وسلم عليه، وقال له: ما الخبر؟.

فقال له المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغي وقومه، وقص عليه ما قاله، وقال له: إني لخائف إن رجعت إليه، ولست معي أن يقتلني، فأمرني بما شئت، دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. فأوحى الله تعالى إلى إلياس: أن كل ما جاءك

منهم مكر وكذب ليظفروا بك، وأن لاجب إن أخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل، ولم يأت بك إليه، فإنه يتهمه ويعرف أنه قد داهن في أمرك، ولم يأمن أن يقتله، فانطلق معه؛ فإن انطلاقك معه عذره وبراءته عند لاجب، وإني سأشغله عنكما وأضاعف على ابنه البلاء؛ حتى لا يكون له هم غيره، ثم أميته على شر حال، فإذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده.

قال: فانطلق إلياس معهم حتى قدموا على لاجب، فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع، وأخذ الموت يكظمه، فشغل الله بذلك لاجب وأصحابه عن إلياس، ورجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلما مات ابن لاجب وفرغوا من أمره وقلّ جزعه، انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب المؤمن الذي جاء به، فقال له: ليس لي به علم؛ وذلك أنه قد شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه، ولم أكن أحسبك إلا قد استوقفت منه. فأطرق عنه لاجب وتركه؛ لما كان به من الحزن على ابنه، فلما طال الأمر على إلياس من المكث في الجبل والمقام به، واشتاق إلى العمران والناس، فنزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس بن متّى ذي النون، فاستخفى عندها ستة أشهر، ويونس ابنها يومئذ، مولود رضيع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها.

إحياء الميت

قال: ثم إن إلياس عليه السلام سئم ضيق البيوت، بعد قعوده في الجبال ودوحها، فأحب اللحوق بالجبال، فعاد إلى مكانه في الجبال، فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده، ثم لم يلبث إلا قليلاً، حتى مات ابنها يونس حين فطمته، فعظمت مصيبتها به، فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها، حتى عثرت عليه ووجدته، فسلمت عليه وقالت له: إني فجعت بعدك بموت ابني، وعظمت به مصيبتي واشتد لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره، فارحمني وادع ربك تعالى أن يحيي لي ابني ويجبر مصيبتي، فإني قد تركته مسجى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه.

فقال لها إلياس عليه السلام: ليس هذا مما أمرت به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما أمرني ربي به، ولم يأمرني بهذا.

ففزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب إلياس عليها، فقال لها: ومتى مات ابنك؟.

فقالت: منذ سبعة أيام.

فانطلق إلياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها، فوجد ابنها يونس ميتاً منذ أربعة عشر يوماً، فتوضأ إلياس وصلى ودعا، فأحيا الله يونس بن متى، فلما عاش وجلس، وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه.

قال: فلما طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً وأجهده البلاء، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين، وهو خائف مذعور مجهود: يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه، ألست أميني على وحيي وحجتي في أرضي، وصفوتي من خلقي، فاسألني أعطك؛ فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم؟!.

قال إلياس عليه السلام: تميتني وتلحقني بآبائي؛ فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني وأبغضتهم فيك وأبغضوني.

فأوحى الله إليه: يا إلياس، ما هذا اليوم الذي أعري منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك، ولكن سلني أعطك.

قال إلياس: فإن لم تمتني يا إلهي، فأعطني ثأري من بني إسرائيل.

فأوحى الله تعالى إليه: فأي شيء تريد أن أعطيك يا إلياس؟.

قال: تمكنني من خزائن السماء سبع سنين، فلا تنشئ عليهم سحابة إلا بدعوتي، ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتي؛ فإنهم لا يذلهم إلا ذلك.

قال الله تعالى: يا إلياس، أنا أرحم بعبادي من ذلك وإن كانوا ظالمين.

قال: فست سنين.

قال: أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين.

قال: فخمس سنين، قال: أنا أرحم لخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: فأربع سنين. قال: أنا أرحم لخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. ولكنني أعطيك ثأرك منهم

ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك، ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك.

قال إلياس: فبأي شيء أعيش؟.

قال: أسخر لك جيشاً من الطير، تنقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض، التي لم تقحط.

قال إلياس: قد رضيت.

فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشي والدواب والهوام والشجر، وجهد الناس جهداً شديداً، وإلياس على حاله مختف من قومه بموضع، ينساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومه، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت، قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان. فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شراً.

قال ابن عباس: أصاب بني إسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات، فمر إلياس بعجوز، فقال لها: هل عندك طعام؟.

فقالت: نعم. شيء من دقيق وزيت قليل.

فجاءته بشيء من الدقيق والزيت، فدعا فيهما بالبركة ومسهما، فبارك الله في ذلك حتى ملأت جرابها دقيقاً، وملأت خوابيها زيتاً، فلما رأي بنو إسرائيل ذلك عندها، قالوا لها: من أين لك هذا؟.

قالت: مر بي رجل من حاله كذا وكذا. ووصفته بصفته فعرفوه، وقالوا لها: ذلك إلياس. ثم إنهم طلبوه فوجدوه، فهرب منهم إلى الجبال والله أعلم.

اليسع

ثم إن إلياس أتى إلى بيت امرأة، من بني إسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب، وكان به ضر، فآوته وأخفت أمره فدعا له، فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكبر، وكان اليسع غلاماً شاباً، ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس عليه السلام: أنك قد

أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعصوني سوى بني إسرائيل، من البهائم والدواب والهوام الشجر والنبات، بحبس المطر عن بني إسرائيل.

فيزعمون، والله أعلم، أن إلياس قال: يا رب، دعني أكن الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم؛ لعلهم يرجعون عماهم عليه من عبادة غيرك.

فقيل له: نعم.

فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، وقال لهم: ويلكم ! إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً، وقد هلكت البهائم والدواب والطير الشجر النبات، بحبس المطر عنكم لخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور، فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التي تدعونها من دون الله، لن تغني عنك شيئاً، فاخرجوا بأصنامكم هذه، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور، فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء.

قالوا: أنصفت.

فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها، فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، فقالوا: يا إلياس، إنا قد هلكنا فادع الله لنا. فدعا الله إلياس ومعه اليسع - عليهما السلام - بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر، وهم ينظرون إليها فأقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق، ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثتهم وأحييت بلادهم.

قال: فشكوا إلى إلياس هدم الجدران وعدم البذر، وقالوا: ليست لنا حبوب. فأوحى الله تعالى إليه: أن يأمرهم بأن يبذروا الملح في الأرض. ففعلوا فأنبت الله لهم منه الحمص، وأمرهم أن يبذروا الرمل، فأنبت الله لهم منه الدخن، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر، نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم، ولم يقلعوا عن ضلالهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه، فلما رأى إلياس ذلك دعا ربه أن يريحه منهم، فقيل له: انتظر يوم كذا وكذا، فاخرج إلى موضع كذا وكذا، فإذا جاءك شيء فاركبه ولا تهبه.

رفع إلياس

فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر بالخروج إليه، أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس فانطلق به الفرس، فناداه اليسع: يا إلياس ما تأمروني به؟ فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بني إسرائيل، وذهب إلياس فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش وكان إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً[١].

وسلط الله تعالى على لاجب الملك وامرأته وقومه، عدواً لهم فقصدهم من حيث لا يشعرون به، حتى رهقهم فقتل لاجب الملك وامرأته في بستان مزدكي، فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة، حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما، ونبأ الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام وبعثه نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إليه، وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس، فآمنت له بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع[٢].

(١) تفسير الطبري ٢٣: ١٠٩. ١١١ ـ ١١٣. باختصار شديد.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٥٩٦ ـ ٥٩٧. ونص القصة في قصص الأنبياء للثعلبي:٢٢٣ ـ ٢٣٠.

شمويل وطالوت وجالوت

نسب شمويل

ـ قال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: وهو شمويل[1] بن بالي بن علقمة ابن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم الخليل عليه السلام.

قال وهب بن منبه: كان لأبي شمويل امرأتان، إحداهما عجوز عاقر لم تلد له ولداً وهي أم شمويل، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد.

قال: وكان لبني إسرائيل عيد من أعيادهم، أقاموا فيه شرائطه وقربوا القرابين، فحضر أبو شمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد، فلما قربوا قربانهم، أخذ كل واحد منهم نصيباً وكان لأم الأولاد عشرة أنصبة، وللعجوز نصيب واحد، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغي، فقالت أم الأولاد للعجوز: الحمد لله الذي كثرني بولدي وقللك. فوجمت العجوز وجوماً شديداً، فلما كان عند السحر عمدت إلى متعبدها فقالت: اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتي، واستطالتها علي بنعمك التي أنعمتها عليها، وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان، فارحم ضعفي وارزقني ولداً تقياً رضياً، واجعله لك ذخراً في مسجد من مساجدك يعبدك، ولا يكفرك ويطيعك ولا يجحدك، فإذا رحمت ضعفي ومسكنتي وأجبت دعوتي، فاجعل لي علامة أعرف بها

---

(١) شمويل بن بروحان بن ناحورا. تاريخ المسعودي ١: ٦٧ وهو، في التوراة، صموئيل،وأبوه القانة بن يروحام بن إليهو بن توحو بن صوف. سفر صموئيل الأول/ ١: ١.وقصته كذلك، في تاريخ اليعقوبي ١: ٤٨.

قبول دعائي. فلما أصبحت حاضت، وكانت قبل ذلك قد يئست من الحيض، فجعله الله علامة لما سألته، فألم بها زوجها فحملت وكتمت أمرها.

ولقي بنو إسرائيل في ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة، ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً، يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه، وكان سبط النبوة قد هلك ولم يبق منه، إلا تلك المرأة الحبلى، فلما علموا بحملها، تعجبوا من أمرها، وقالوا: ما حملك هذا إلا نبي؛ لأن اليائسات لا يحملن إلا بالأنبياء، كسارة امرأة إبراهيم عليه السلام حملت بإسحاق، وأيشاع امرأة زكريا حملت بيحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها في بيت، رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام؛ لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها. فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً وسمته شمويل، تقول: سمع الله دعائي. فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة، فكفله عيلي وتبناه، فلما بلغ الغلام الوقت الذي يبعثه الله فيه نبياً، أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلي الكاهن، وكان لا يأمن عليه أحداً، فدعاه جبريل بلحن الشيخ: يا شمويل. فقام الغلام فزعاً مرعوباً إلى الشيخ، وقال: يا أبتاه، أدعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول: لا، فيفزع الغلام، فقال: يا بني، ارجع فنم. فرجع الغلام فنام.

مبعث شمويل

ثم دعاه جبريل ثانياً فانتبه الغلام، وقال: أدعوتني يا أبتاه، فقال الشيخ: ما شأنك؟!. قال: أما دعوتني؟؟ قال: لا. فقال شمويل: فإني سمعت صوتاً في البيت وليس فيه غيرنا. فقال الشيخ: ارجع فتوضأ وصل؛ فإنك إن دعيت باسمك فأجب، وقل لبيك أنا طوعك فأمرني بما شئت أفعل ما تأمرني به. ففعل ذلك الغلام فنودي ثالثة، فقال: لبيك أنا طوعك فأمرني بأمرك أفعل ما تأمرني به. فظهر له جبريل عليه السلام فقال له: اذهب إلى قومك، فبلغهم رسالة ربك؛ فإن الله سبحانه ـ عزَّ وجلَّ ـ قد بعثك فيهم نبياً، وإن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوة، ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذي تاهت عليها ضرتها فيه، فلا أحد اليوم أشد منها عضداً ولا ملاذاً، فانطلق إلى عيلي قل له: إنك كنت خليفة الله على عباده ودينه، فقمت زماناً بأمره حاكماً بكتابه محافظاً على حدوده، فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوتك وفني عمرك، وقرب أجلك وصرت أفقر ما يكون إلى

الله تعالى، ولم تزل فقيراً إليه، عطلت الحدود وجرت بين الخصوم، وعملت بالرشا والمصانعات، وأضعفت حكم الحق حتى عزَّ الباطل وأهله، وذلَّ الحق وحزبه، وظهر المنكر وخفي المعروف وفشا الكذب وقل الصدق، وما كان الله عاهدك على هذا، ولا عليه استخلفك، فبئسما ختمت به عملك، والله لا يحب الخائنين، بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة.

فلما بلغه شمويل هذه الرسالة فزع وجزع، وكان السبب فيما عاتب الله عبده عيلي ووبخه عليه، أنه كان له ابنان شابان، فأحدثا شيئاً في القربان لم يكن فيه، وذلك أنه كان مسواط القربان الذي كانوا يسوطونه به كلابين، فما أخرجا كان للكاهن الذي كان يسوطه، فجعله ابناه كلاليب، فأوحى الله إلى شمويل: أن انطلق إلى عيلي فقل له: منعك حب الولد أن تزجر ابنيك أن يحدثا في قرباني، وأن يعصياني فلأنزعن الكهانة منك، ومن ولديك ولأهلكنك وإياهما. فأخبر شمويل عيلي ففزع فزعاً شديداً، وسار إليهم عدوهم ومن حولهم، فأمر عيلي ابنيه أن يخرجا بالناس، فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فلما تأهبوا للقتال جعل عيلي يتوقع ماذا صنع القوم، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه، فأخبره بأن الناس قد انهزموا وأن ابنيك قد قتلا. قال: فما فُعل بالتابوت. قال: ذهب به العدو.

قال: فشهق ووقع على قفاه من كرسيه فمات، وذهب الذين سبوا التابوت؛ حتى وضعوه في بيت آلهتهم، ولهم صنم يعبدونه فوضعوه تحت الصنم، والصنم من فوقه، فأصبح من الغد الصنم تحته، وهو فوق الصنم، ثم أخذوه فوضعوه فوقه، وسمروا قدميه في التابوت، فأصبح من الغد قد قطعت يد الصنم ورجلاه، وأصبح ملقى تحت التابوت. فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء، فأخرجوه من بيت آلهتكم. فأخرجوا التابوت فوضعوه في ناحية من قريتهم.

فأخذ أهل تلك الناحية التي وضعوا فيها التابوت، وجع في أعناقهم، فقالوا: ما هذا؟.

فقالت لهم جارية، كانت عندهم من سبي بني إسرائيل: لا تزالون ترون ما تكرهون ما كان هذا، فأخرجوه من قريتكم.

قالوا: كذبت.

قالت: إن آية ذلك أن تأتوا ببقرتين، لهما أولاد لم يوضع عليهما نير قط، ثم تضعوا وراءهما العجل، ثم تضعوا التابوت على العجلين وتسيروهما وتحبسوا أولادهما، فإنهما تنطلقان به حتى إذا خرجتا من أرضكم، ووقعتا في أدنى أرض بني إسرائيل، كسرتا نيرهما، وأقبلتا إلى أولادهما.

ففعلوا ذلك، فلما خرجنا من أرضهم ووقعتا في أدنى أرض بني إسرائيل، كسرتا نيرهما، وأقبلتا إلى أولادهما، ووضعتاه في خربة، فيها حصاد من بني إسرائيل، ففزع إليه بنو إسرائيل، وأقبلوا إليه، فجعل لا يدنو منه أحد إلا مات، فقال لهم نبيهم شمويل: اعترضوا، فمن آنس من نفسه قوة، فليدن منه. فعرضوا عليه الناس، فلم يقدر أحد على أن يدنو منه، إلا رجلان من بني إسرائيل، أذن لهما بأن يحملاه إلى بيت أمهما، وهي أرملة.

فلما بلغ ملكهم إيلاف الخبر: أن التابوت قد سلب وأن عيلي قد مات. مات كمداً، فلما مات مات الأمير والوزير، وأُخذ التابوت ومرج أمر بني إسرائيل واختل، واجترأ عليهم عدوهم، فقالوا لشمويل: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. وذلك بعد ما دبر شمويل أمرهم عشر سنين، فلما نالهم الذل والهوان والقتل والسبي من عدوهم بشؤم معصيتهم، سألوا نبيهم شمويل أن يبعث لهم ملكاً، يقاتلون معه في سبيل الله، وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملك، وإطاعة الملك للأنبياء، وكان الملك هو الذي يسير بالجيوش ويقاتل العدو، وكان النبي منهم هو الذي يقيم له أمره، ويشير عليه ويرشده، ويأتيه بالخبر من عند الله تعالى.

قال وهب بن منبه: بعث الله شمويل نبياً، فلبثوا أربعين سنة في أحسن حال، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، فسألوا شمويل عليه السلام أن يبعث لهم ملكاً، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني شمويل، وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالي بن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمه صاحب عموصا بن عزريا. فقال لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فأجابوا بما قص الله في كتابه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾[1]. فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً[2].

ملك طالوت

وإن شمويل لما قالوا له: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً فأتى بعصا، وقرن فيه دهن القدس، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً، طوله طول هذه العصا، وانظر إلى القرن الذي في الدهن، فإذا دخل عليك رجل، فنشَّ الدهن الذي في القرن، فهو ملك بني إسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم. ثم إنهم قاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها وكان طالوت بطولها، واسمه بالسريانية سادل، وبالعبرانية شاول بن قيس بن أفيل بن صارو بن تحزت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام وكان رجلاً دباغاً يعمل الأدم.

قال وهب بن منبه: ضاعت حمر[3] لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له يطلبانها، فمرا ببيت شمويل عليه السلام فقال غلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي، فسألناه في أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير. فقال له: نعم. فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمر، إذ نشَّ الدهن في القرن، فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا، فكانت على طوله، فقال له شمويل: قرِّب رأسك إلي. فدهنه بدهن القدس، ثم إنه قال له: أنت ملك بني إسرائيل وقد أمرني ربي أن أملكك عليهم.

فقال طالوت: أنا!.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٢) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٣) جمع حمار.

فقال: نعم.

قال: أوما علمت أن سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل؟

قال: بلى.

قال: أوما علمت أن بيتي أدنى بيت في بني إسرائيل؟

قال: بلى.

قال: فبأي آية؟.

قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك الحمر.

فكان كذلك، ثم إن شمويل قال لبني إسرائيل: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط مملكة، وكان سبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب، ومنهم موسى وهارون. وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله عليهم، ونزع النوبة والملك منهم.

فلما قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط، فقالوا: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه، ومع ذلك إنه فقير لم يؤت سعة من المال.

فقال لهم شمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1]. بالحرب والجسم يعني بالطول في قومه والقوة، وإنما سمي طالوت لطوله، ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكبيه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

قالوا: فما آية ذلك؟ .﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: ثني بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال: قال شمويل لبني إسرائيل، لما قالوا له: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ و﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ وإن تمليكه من قبل الله ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ فيرد عليكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾[2]. وهو الذي كنتم تهزمون به من لقيكم من العدو، وتظهرون به عليه. قالوا: فإن جاءنا التابوت، فقد رضينا وسلمنا.

وكان العدو الذين أصابوا التابوت، أسفل من الجبل، جبل إيليا، فيما بينهم وبين مصر، وكانوا أصحاب أوثان، وكان فيهم جالوت، وكان جالوت رجلاً، قد أعطي بسطة في الجسم، وقوة في البطش، وشدة في الحرب، مذكوراً بذلك في الناس، وكان التابوت حين استبي، قد جعل في قرية من قرى فلسطين، يقال لها: أردن. فكانوا قد جعلوا التابوت في كنيسة فيها أصنامهم.

فلما كان من أمر النبي ما كان، من وعد بني إسرائيل أن التابوت سيأتيهم، جعلت أصنامهم، تصبح في الكنيسة منكسة على رؤوسها، وبعث الله على أهل تلك القرية فأراً، تقرض الفأرة الرجل، فيصبح ميتاً، قد أكلت ما في جوفه من دبره. قالوا: تعلمون والله، لقد أصابكم بلاء، ما أصاب أمة من الأمم قبلكم، وما نعلمه أصابنا إلا مذ كان هذا التابوت بين أظهرنا، مع أنكم قد رأيتم أصنامكم، تصبح كل غداة منكسة، شيء لم يكن يصنع بها، حتى كان هذا التابوت معها، فأخرجوه من بين أظهركم. فدعوا بعجلة فحملوا عليها التابوت، ثم علقوها بثورين ثم ضربوا على جنوبهما، وخرجت الملائكة بالثورين تسوقهما، فلم يمر التابوت بشيء من الأرض، إلا كان قدساً، فلم يرعهم إلا التابوت على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨. تاريخ الطبري ١: ٤٦٩ ـ ٤٧٢ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

عجلة يجرها الثوران؛ حتى وقف على بني إسرائيل، فكبروا وحمدوا الله وجدوا في حربهم، واستوثقوا على طالوت[1].

قال: فلما أوحى الله إلى شمويل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود، لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضرير لضره أو معذور لعذره، وذلك أنهم لما رأوا التابوت، قالوا: قد أتانا التابوت. وهو نصر لا شك فيه، فسارعوا إلى الجهاد. فقال طالوت: لا حاجة لي فيما أرى، لا يخرج معي رجل بني بناء لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة مشتغل بها، ولا رجل عليه دين، ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها، ولا يتبعني إلا الشاب النشط الفارغ.

فاجتمع ثمانون ألفاً على شرطه، فخرج بهم وكان في حر شديد، فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم، وقالوا: إن المياه لا تحملنا، فادع الله تعالى أن يخرج لنا نهراً. فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم. وهو نهر بين الأردن وبين فلسطين[2]، عذب يقال: له أدمى. ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ أي من أهل ديني وطاعتي ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ لم يشربه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾. وهو ملء الكف، ومن فتح الغين - من كلمة غرفة - أراد المرة الواحدة. ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾[3].

قال: وكانوا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فمن اغترف غرفة بيده، كما أمر الله تعالى، قوي قلبه وصح ورجع إيمانه وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه، وحمله ودوابه، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى، اسودت شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وبقوا على شاطئ النهر، وجبنوا عن لقاء العدو، ولم يشهدوا الفتح، فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه، ﴿قَالُواْ﴾ يعني الذين شربوا، وخالفوا أمر الله تعالى: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ وانصرفوا عن طالوت ولم

(١) تفسير الطبري ٢: ٦٠٨ - ٦٠٩.
(٢) تفسير الطبري ٢: ٢١٨.
(٣) تفسير الطبري ٢: ٦٢١.

يشهدوا قتال جالوت، و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يعلمون ويوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]. ومروا قاصدين الجهاد.

وعبر النهر مع طالوت، فيمن عبر، إيشا أبو داود ومعه ثلاثة عشر ابناً له، وكان داود أصغرهم وأحقرهم، فأتى ذات يوم أباه فقال: يا أبتاه، ما قذفت بمقلاعي هذه شيئاً، إلا أصبته وصرعته.

فقال: أبشر يا بني، فإن الله قد جعل رزقك في قذّافتك، يعني في مقلاعك.

ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه، لقد دخلت بين الجبال، فرأيت أسداً رابضاً فركبته وقبضت بأذنيه، فلم يهمني فقبضت على فكيه، ففطرتهما برأسه وعنقه إلى لبته بيدي، من غير سكين ولا ضرب بحديد، وتراه هناك مقتولاً.

فقال له أبوه: أبشر يا بني، فإن هذا خير أعطاكه الله.

ثم أتاه يوماً آخر وقال: يا أبتاه، إني لأمشي بين الجبال فأسبّح، فما يبقى جبل إلا سبح معي.

قال: أبشر يا بني، فإن هذا خير أعطاكه الله وسيكون لك شأن عظيم.

قال: فلما وصلت غزاة بني إسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت، أرسل جالوت إلى طالوت: أن ابرز إليّ أو أبرز إليّ من يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشق ذلك على طالوت فنادى في عسكره: من قتل جالوت زوّجته ابنتي، وناصفته مملكتي. فهاب الناس قتال جالوت فلم يجبه أحد، فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام فدعا الله تعالى في ذلك، فأتي بقرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد، وقيل له: إن الذي يقتل جالوت هو الذي يوضع هذا القرن على رأسه، فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه، ولا يسيل على وجهه، بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

قتل داود جالوت

فدعا طالوت أشداء بني إسرائيل وأقوياءهم فجربهم، فلم يوافقه منهم أحد، فأوحى الله إلى شمويلﷺ: إن في ولد إيشا من يقتل جالوت، وإني أريد أن أجعله خليفة في الأرض من بعدك، أعلمه فصل الخطاب وهو راعي الغنم، فقل لإيشا: يعرض عليك بنيه واحداً واحداً. فدعا إيشا وقال له: اعرض علي بنيك. فأخرج له اثني عشر ولداً، أمثال السواري، وفيهم رجل بارع فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئاً، ويقول لذلك الجسيم: ارجع. فيردده على التنور، فأوحى الله تعالى إليه: إنا لا نأخذ الرجال على صورهم، ولكنا نأخذهم على صلاح هممهم وقلوبهم، فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟.

قال لا.

قال شمويل: رب قد زعم أنه ليس له ولد غيرهم.

فقال: كذب.

فقال شمويل: يا إيشا إن ربي كذبك.

قال: صدق الله يا نبي الله، إن لي ابناً صغيراً، يقال له: داود. استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته، وخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا.

وكان داودﷺ قصيراً سقيماً مصفراً أزرق العينين، فدعاه طالوت، ويقال: خرج إليه فوجد الوادي قد حال بالماء بينه، وبين الزريبة التي كان يتروح إليها، فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء، فلما رآه شمويل قال: هذا هو لا شك فيه، هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس، فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه في التنور فملأه. فلما رأى طالوت ذلك قال له: هل لك أن تقتل جالوت، وأزوجك ابنتي وأجري حكمك في مملكتي؟

قال: نعم.

قال: فهل لقيت من نفسك شيئاً تتقوى به على قتله؟.

قال: نعم. أنا راعي الغنم، فيجيء الأسد والنمر والذئب ليأخذ شيئاً، فأقوم إليه وأقبضه وأفتح لحييه عنها، وأحرفهما إلى قفاه.فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره.

فمرّ داود عليه السلام في الطريق بحجر فناداه: يا داود احملني، فإني حجر هارون الذي قتل به ملك كذا وكذا. فوضعه في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر فناداه: يا داود احملني فإني حجر موسى عليه السلام الذي قتل به ملك كذاو كذا. فحمله في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل به جالوت وقد خبأني الله لك. فوضعه في مخلاته، فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة، فانتدب له داود وكان طالوت أعطاه فرساً ودرعاً وسلاحاً، فركب الفرس ولبس السلاح، وسار قليلاً فوجد في نفسه زهواً، فانصرف وعاد سريعاً إلى الملك، فقال من حوله: جبن الغلام فجاء حتى وقف على الملك. فقال له: ما شأنك؟. فقال له داود: إن الله تعالى إن لم ينصرني، فما يغني عني هذا السلاح شيئاً، فدعني أقاتل كما أريد. فقال له طالوت: افعل ما تريد.

فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع، ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بيضة وزنها ثلاثمائة رطل حديد، وكان له فرس أبلق مثله في الشدة والقوة وعظم الخلق، فلما برز جالوت إلى داود، ألقى الله تعالى في قلبه الرعب، فقال له: أنت تبرز إلي؟!.

قال: نعم.

وكان جالوت راكباً على فرس أبلق، وعليه السلاح التام، فقال له: يا بني، تأتيني بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر؟.

قال: نعم. أنت أشر من الكلب.

قال: لا جرم، لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء.

فقال داود: باسم الله، ويقسم الله لحمك بين السباع وطير السماء.

وأخذ حجراً منها وقال: باسم إله إبراهيم. ووضعه في مقلاعه، وأخذ حجراً ثانياً

وقال: باسم الله إله إسحاق. ووضعه في مقلاعه، ثم أخرج ثالثاً وقال: باسم الله إله يعقوب. ووضعه في مقلاعه.

قال: فصارت الأحجار الثلاث كلها حجراً واحداً، وأدار المقلاع ورمى به، فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة، فخالط دماغه، وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً.

ويقال: إنه من بعد ما خرج من قفاه، تكسر وتفتت بإذن الله تعالى، حتى عمَّ جميع جنود جالوت، فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة، فانهزم الجيش، وخرَّ جالوت قتيلاً، وأسرع إليه داودعليه السلام فحز رأسه وانتزع من يده خاتمه، وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين، بحمد الله رب العالمين.

مراوغة طالوت داود

ولما قتل داود جالوت، ذكر الناس داود وعظم في أنفسهم، فجاء داود إلى طالوت وقال له: أنجز إليَّ ما وعدتني واعطني امرأتي.

فقال له طالوت: أتريد ابنة الملك بغير صداق، عجل صداق ابنتي وشأنك بها.

فقال داود لطالوت: ما شرطت علي صداقاً، وليس لي شيء، فتحكم في الصداق بما تريد وأفرضني مهرها، وعلي الأداء والوفاء لك به.

فقال طالوت: أصدقها نصيبك من الملك.

فقال له بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجز له ما وعدته.

فلما رأى طالوت ميل بني إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال: لا حاجة لابنتي في المال، ولا أكفلك ما لا تطيق، أنت رجل جريء، وفي جبالنا أعداء من المشركين، فانطلق فجاهدهم، فإذا قتلت منهم مائتي رجل، وجئتني برؤوسهم، زوجتك ابنتي.

فأتاهم داودعليه السلام وجعل، كلما قتل منهم رجلاً، احتز رأسه ونظمه في خيط حتى

نظم رؤوسهم، ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له: ادفع إلي امرأتي. فزوّجه امرأته، وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داودعَلَيْهِ السَّلَامُ وأحبه بنو إسرائيل، وأكثروا من ذكره، فوجد طالوت من ذلك في نفسه، فأراد قتله.

قال وهب بن منبه: كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكؤون على العصي، ويغرزون في أطراف العصي أزجة من حديد، وكان داودعَلَيْهِ السَّلَامُ جالساً في ناحية البيت فدخل طالوت، فرماه بالعصا بغتة؛ ليقتله بها صبراً، فلما أحس داود بذلك، حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه، فارتكزت العكازة في الجدار فقال له داود: أردت قتلي؟.

قال له طالوت: لا. بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان، وربط جأشك للأقران.

فقال له داودعَلَيْهِ السَّلَامُ: أفلقيته على ما قدرته فيَّ؟.

قال: نعم. ولكنك لعلك فزعت؟!.

قال: معاذ الله أن أخاف إلا الله، ولا ألجأ إلا إليه، ولا يدفع الشر إلا هو.

ثم إن داود انتزعها[1] من الجدار، وهزها هزة منكرة، وقال له: اثبت لي كما ثبتُّ لك.

فأيقن طالوت بالهلاك فقال له: أنشدك الله، وبحرمة المصاهرة التي بيني وبينك. وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت، ولكن كان مقال تخويف وتحذير، فقال داود لطالوت: إن الله قد كتب في التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة، والبادي أظلم.

قال طالوت: أفلا تقول قول هابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾.

فقال داود: قد عفوت عنك لوجه الله تعالى.

---

(١) العصا.

فلبث طالوت زماناً يريد قتل داودﷺ فعزم على أن يأتيه ويقتله في داره، فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود، أخبرها رجل يقال له: ذو العينين. فقالت لداود: إنك لمقتول الليلة.

قال: ومن يقتلني؟.

قالت: أبي.

قال: وهل أجرمت جرماً؟.

قالت: حدثني من لا يكذب، ولا عليك بأس أن تغيب الليلة، حتى تنظر مصداق ذلك.

فقال: لئن كان أراد ذلك، لا أستطيع خروجاً، ولكن ائتيني بزق من خمر.

فأتته به فوضعه في مضجعه على السرير وسجاه، ودخل تحت السرير.

قال: فدخل طالوت نصف الليل، وأراد أن يقتل داود فلم يجده، فقال لابنته: أين بعلك؟.

فقالت: هو نائم على السرير.

فضربه بالسيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الخمر قال: رحم الله داود، ما كان أكثر شربه للخمر!. وخرج فلما أصبح، علم أنه لم يفعل شيئاً. فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني. ثم إنه استتر بحجابه وحراسه، وأغلق دونه الأبواب.

قال: فأتى داود ذات ليلة، وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب، وفتح الله له الأبواب، فدخل عليه وهو نائم على فراشه، فوضع سهماً عند رأسه، وسهماً عند رجليه، وسهماً عن يمينه، وسهماً عن شماله ثم خرج، فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها فقال: رحم الله داود هو خير مني، ظفرت به فقصدت قتله، وظفر بي فكف عني، لو شاء لوضع هذا السهم في حلقي، وما أنا بالذي آمنه. فلما كانت الليلة القابلة أتاه داود ثانياً، وأعمى الله عنه أعين الحجاب، فدخل وهو نائم على فراشه، فأخذ إبريق

طالوت الذي كان يتوضأ منه، وكوزه الذي كان يشرب به، وقطع شعرات من لحيته وشيئاً من هدب ثيابه، ثم خرج وهرب وتوارى، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون، وشدد في طلبه فلم يقدر عليه.

ثم إن طالوت ركب ذات يوم، فوجد داودﷺ يمشي في البرية، فقال طالوت في نفسه: اليوم أقتل داود، أنا راكب وهو ماش. وكان داود إذا فرّ لم يُدرك فركض طالوت في أثره، واشتد داود في الجري فدخل غاراً، فأوحى الله إلى العنكبوت فنسجت عليه بيتاً، فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال: لو كان هاهنا لخرج بيت العنكبوت. فتركه ومضى فلما مضى خرج داود من الغار، وانطلق إلى الجبل مع المتعبدين، فجعل يتعبد فيه، فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله، فجعل يقتل العلماء فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم ويطيق قتله، إلا قتله، ولم يكن يحارب جيشاً إلا هزمه، حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم، فأمر خبازه بقتلها، فرحمها الخباز وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم. فتركها.

توبة طالوت

ووضع الله في قلب طالوت التوبة، فندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور، فيبكي وينادي: أنشد الله عبداً، يعلم لي توبة إلا أخبرني بها. فلما كثر عليهم بكاؤه ناداه مناد من القبور: يا طالوت، أما ترضى أنك قتلتنا أحياء حتى تؤذينا أمواتاً. فازداد حزناً وبكاء، فرحمه الخباز وقال له: ما لك أيها الملك؟!.

فقال: هل تعلم لي في الأرض عالماً، أسأله: هل لي من توبة.

فقال له الخباز: أيها الملك، هل تدري ما مثلك؟.

قال: لا.

قال: مثلك ألا كمثل ملك، نزل قرية عشاء، فصاح الديك فتطير منه، فقال: لا تتركوا في هذه القرية ديكاً، إلا ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح

الديك فأيقظونا حتى ندلج. فقيل له: وهل تركت ديكاً، يسمع صوته، وأنت، هل تركت عالماً في الأرض؟.

فازداد حزناً وبكاء، فلما رأى الخباز ذلك قال: أرأيت، إن دللتك على عالم لعلك تقتله.

قال: لا.

فتوثق منه الخباز بالأيمان، فأخبره أن المرأة العالمة عنده، فقال له: انطلق بنا إليها اسألها: هل لي من توبة. وكانت تعلم الاسم الأعظم، وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها، فنيت رجالهم، وعلمت نساؤهم، فلما بلغ طالوت الباب قال له الخباز: إنها إن رأتك فزعت منك. ثم جعله خلفه ودخل عليها الخباز، فقال: ألست أعظم الناس عليك منة؛ أنجيتك من القتل وأوثقتك عندي؟.

قالت: بلى.

قال: لي إليك حاجة، هذا طالوت يسأل: هل له من توبة؟.

فلما سمعت بذكره غشي عليها من الفرق فلما أفاقت، قال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك: هل من توبة؟.

قالت: لا. والله، ما له من توبة، ولكن هل تعلمون قبر اليسع بن أخطوب[1]؟.

قالوا: نعم.

قالت: فانطلقوا بنا إلى قبره. فلما وصلوا إليه صلت عنده ركعتين، ثم إنها نادت: يا صاحب القبر، فخرج اليسع من القبر، ينفض التراب عن رأسه، فلما نظر إلى الثلاثة: المرأة والخباز والملك، قال لهم: أقامت القيامة؟.

(١) هذه رواية ابن إسحاق في تاريخ الطبري ١: ٤٧٥. وبقية المصادر تذهب إلى أن النبي هو شمويل.

قالوا: لا. ولكن هذا طالوت يسألك: هل له من توبة؟.

فقال له: ما فعلت يا طالوت بعدي؟.

قال: لم أدع شيئاً من الشر إلا فعلته، وقد جئت أطلب التوبة.

قال: كم لك من ولد؟.

قال: عشرة رجال.

قال: ما أعلم لك من توبة، إلا أن تتخلى من ملكك، وتخرج أنت وولدك، تجاهد في سبيل الله، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك، ثم إنك تقاتل حتى تقتل آخرهم.

ثم رجع اليسع إلى القبر، فسقط ميتاً، ورجع طالوت أحزن ما يكون، وخاف أن لا يتابعه ولده، فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه، ونحل جسمه فدخل عليه أولاده، فقال لهم: أرأيتم لو دفعت إلى النار، أكنتم تنقذونني؟.

قالوا: نعم. ننقذك بما قدرنا عليه.

قال: فإنها النار، إن لم تفعلوا ما أقول لكم.

قالوا: فاعرض علينا مقالتك.

فذكر لهم القصة، فقالوا: وإنك لمقتول بعدنا؟.

قال: نعم.

قالوا: لا خير لنا في الحياة بعدك، قد طابت أنفسنا بالذي سألت.

فتجهز بأولاده إلى الغزو، وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا، ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل، فجاء قاتله إلى داود يبشره بقوله له: قد قتلت عدوك. فقال داود: ما كنتَ بالذي تحيا بعده فضرب عنقه[1].

---

(١) تفسير الطبري ٢: ٦٢٦ ـ ٦٢٧ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٣٥ ـ ٢٤٣.

داود

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق: فيما ذكر لي بعض أهل العلم عن وهب بن منبه، قال: لما قتل داود جالوت وانهزم جنده، قال الناس: قتل داود جالوت، وخلع طالوت، وأقبل الناس على داود مكانه، حتى لم يسمع لطالوت بذكر، فأعطوه خزانة طالوت، وملكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتل داود طالوت بسبع سنين، ولم تجتمع نبو إسرائيل على ملك واحد، بعد يوشع بن نون، إلا على داود عليه السلام فذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1].

قال: ولما اجتمعت بنو إسرائيل على داود[2]، أنزل الله عليه الزبور بالعبرانية مئة وخمسين سورة[3]، في خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر وأهل بابل، وفي خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم، وفي خمسين منها موعظة وحكمة، ولم يكن فيها حلال ولا حرام.فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[4]. وعلمه صنعة الحديد، وألانه له، وكان سبب ذلك أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل، كان من عادته أن يخرج إلى الناس، متنكراً فإذا رأى رجلاً لا يعرفه، تقدم إليه فيسأله عن داود، فيقول له: ما تقول في داود، واليكم هذا؟. أي الرجل هو؟. فيثنى عليه ويقول: خير.

فبينما هو كذلك، يوماً من الأيام، إذ قيّض الله له ملكاً، في صورة الآدميين، فلما رآه، تقدم إليه داود على عادته، فسأله فقال له المَلَك: نعم الرجل هو، لولا خصلة فيه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) عن وهب بن منبه قال: كان نبي الله داود بن إيشا بن عويد بن باعر بن سلمون بن يحسون بن يارب ابن رام بن حضرون بن فارص بن يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ رجلاً قصيراً أزرق، قليل الشعر طاهر القلب نقيهاً. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٣٠.

(٣) تاريخ المسعودي ١: ٦٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٥. ما بين المعقوفتين إضافات من قصص الأنبياء للثعلبي:٢٤٤وما بعدها. وقد اختصر الطبري هنا ولخّص كثيراً.

فراع داود ذلك، فقال: ما هي يا عبد الله؟!. قال: إن داود يأكل، ويطعم عياله من بيت المال.

صنعة داود

قال: فتنبه لذلك، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً، يستغني به عن بيت المال، فينفق منه ويطعم عياله؛ فألان له الحديد، فصار في يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول، وكان يصرفه بيده كيف يشاء، من غير إدخال النار، ولا ضرب بحديد.

وعلّمه الله تعالى صنعة الدروع، فكان يتخذ الدروع، وهو أول من عملها، وكانت قبل ذلك صفائح، فيقال: إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف ردهم، فيأكل ويطعم عياله، ويتصدق منها على الفقراء والمساكين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي دروعاً كوامل واسعات، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[٢]. أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتعلق، ولا غلاظاً فتكسر الحلق، فكان يفعل ذلك، حتى اعتد من ذلك مالاً.

وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾[٤]. ويقال: إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال، فسبح الله تعالى، جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح، ثم قال في نفسه ليلة من الليالي: لأعبدن الله تعالى عبادة، لم يعبده أحد بمثلها، فصعد الجبل، فلما كان جوف الليل، داخلته وحشة، فأوحى الله تعالى إلى الجبال: أن آنسي داود. فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل، فقال داود في نفسه: كيف يسمع صوتي مع هذه الأصوات؟!. فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده؛ حتى انتهى به إلى البحر، فوكزه برجله، فانفرج له البحر، فانتهى به إلى الأرض، فوكزها برجله، فانفجرت له الأرض،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٤) سورة ص، الآية: ١٨.

فانتهى به إلى الحوت، فوكزه برجله، فانتهى به إلى الصخرة، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت فخرج منها دودة تنش، فقال له جبريل: إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة في هذا الوضع.

مزامير داود

ولم يعط الله ـ فيما يذكرون ـ أحداً من خلقه مثل صوته، كان إذا قرأ الزبور، برز إلى البرية، فيقوم وتقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه، وتقوم الناس خلف العلماء، وتقوم الجن خلف الناس، وتقوم الشياطين خلف الجن، وتدنو الوحوش والسباع، ويؤخذ بأعناقها، وتظله الطيور مضحية، ويركد الماء الجاري، ويسكن الريح، وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج إلا على صوته؛ وذلك أن إبليس ـ لعنه الله ـ حسده واشتد عليه، فقال لعفاريته: ألا ترون ما دهاكم؟!. فقالوا: له مرنا بما شئت. فقال: إنه لا يصرف الناس عن داود، إلا ما يضاده ويحاده في مثل حاله، فهيئوا المزامير والعيدان والأوتار والملاهي على أجناس أصوات داود، فسمعها سفهاء الناس، فمالوا إليها؛ فاغتروا بها.

ويقال: إن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور، بعد ما قارف الذنب، لا يقف له الماء، ولا تصغي له الوحوش ولا البهائم ولا الطير، كما كانت قبلها، ونقصت نغمته، فقال: إلهي، ما هذا؟!.

فأوحى الله تعالى إليه: ذلك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية، يا داود، إن الخطيئة هي التي غيرت صوتك.

فقال: إلهي، أو ليس قد غفرتها لي؟!.

قال: بلى، ولكن ارتفعت الحالة التي بيني وبينك، من الود والقرب، فلن تدركها أبداً.

وكان شديد الاجتهاد، دائب العبادة كثير البكاء، وكان، كما وصفه الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ

بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾[1]. يعني بذلك ذا القوة[2].

ـ كان داودعليه السلام فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: قصيراً أزرق العينين، أحمر الوجه، دقيق الساقين، قليل الشعر، أبيض الجسم، طويل اللحية، فيها جعودة، حسن الصوت، طاهر القلب نقيه[3].

الخطيئة

قال: فأقام في بني إسرائيل، يحكم فيهم بأمر الله، نبياً مستخلفاً، وكان شديد الاجتهاد من الأنبياء، كثير البكاء، ثم عرض من فتنة تلك المرأة ما عرض له، وكان له محراب، يتوحد فيه لتلاوة الزبور، ولصلاته إذا صلى، وكان أسفل منه جنينة، لرجل من بني إسرائيل، وكان عند ذلك الرجل المرأة، التي أصاب داود فيها ما أصابه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: أن داود حين دخل محرابه ذلك اليوم، قال: لا يدخلنَّ عليَّ محرابي اليوم أحد حتى الليل، ولا يشغلنّي شيء عما خلوت له، حتى أمسي. ودخل محرابه ونشر زبوره يقرؤه، وفي المحراب كوة تطلعه على تلك الجنينة، فبينا هو جالس يقرأ زبوره، إذ أقبلت حمامة من ذهب؛ حتى وقعت في الكوة، فرفع رأسه فرآها فأعجبته، ثم ذكر ما كان قال: لا يشغله شيء عما دخل له. فنكس رأسه وأقبل على زبوره، فتصوبت الحمامة للبلاء والاختبار من الكوة، فوقعت بين يديه، فتناولها بيده، فاستأخرت غير بعيد، فاتبعها فنهضت إلى الكوة، فتناولها في الكوة، فتصوبت إلى الجنينة، فأتبعها بصره، أين تقع، فإذا المرأة جالسة، تغتسل بهيئة، الله أعلم بها في الجمال والحسن والخلق.

فيزعمون: أنها لما رأته نقضت رأسها فوارت به جسدها منهن، واختطفت قلبه، ورجع إلى زبوره ومجلسه، وهي من شأنه، لا يفارق قلبه ذكرها، وتمادى به البلاء؛ حتى

(١) سورة ص، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٤٧٧ ـ ٤٧٩.

(٣) تاريخ الطبري ١: ٤٧٦.ومستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٣٠ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٤٤.

أغزى زوجها[1]، ثم أمر صاحب جيشه ـ فيما يزعم أهل الكتاب ـ أن يقدم زوجها للمهالك؛ حتى أصابه بعض ما أراد به من الهلاك، ولداود تسع وتسعون امرأة، فلما أصيب زوجها خطبها داود فنكحها، فبعث الله إليه، وهو في محرابه، مَلَكين يختصمان إليه، مثلاً يضربه له ولصاحبه، فلم يرع داود إلا بهما واقفين على رأسه في محرابه، فقال: ما أدخلكما عليّ؟.

قالا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لم ندخل لبأس ولا لريبة، ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لتقضي بيننا، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي احملنا على الحق، ولا تخالف بنا إلى غيره.

قال الملك الذي يتكلم عن أوريا بن حنانيا، زوج المرأة: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي على ديني ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي احملني عليها ثم ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[2]. أي قهرني في الخطاب، وكان أقوى مني هو وأعز؛ فحاز نعجتي إلى نعاجه، وتركني لا شيء لي.

فغضب داود، فنظر إلى خصمه الذي لم يتكلم، فقال: لئن كان صدقني ما يقول، لأضربن بين عينيك بالفأس. ثم ارعوى داود فعرف أنه هو الذي يراد بما صنع في امرأة أوريا، فوقع ساجداً تائباً منيباً باكياً، فسجد أربعين صباحاً صائماً، لا يأكل فيها ولا يشرب، حتى أنبت دمعه الخضر تحت وجهه، وحتى أندب السجود في لحم وجهه، فتاب الله عليه وقبل منه.

ويزعمون: أنه قال: أي رب، غفرت ما جنيت في شأن المرأة، فكيف بدم القتيل المظلوم؟!. قيل له: يا داود ـ فيما زعم أهل الكتاب ـ أما إن ربك لم يظلمه بدمه، ولكنه سيسأله إياك، فيعطيه فيضمه عنك.

فلما فرج عن داود ما كان فيه، رسم خطيئته في كفه اليمنى، بطن راحته، فما

(١) أوريا بن حنان. تاريخ اليعقوبي ١: ٥٢.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

رفع إلى فيه طعاماً ولا شراباً قط، إلا بكى إذا رآها، وما قام خطيباً في الناس قط، إلا نشر راحته، فاستقبل بها الناس؛ ليروا رسم خطيئته في يده[١].

....

(١) تفسير الطبري ٢٣: ١٧٧: ١٧٩ وقصص الأنبياء للثعلبي:.٢٥٤ وعن وهب بن منبه: يزعم أهل الكتاب أن داود لم يزل قائماً بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا ما كان، فلما واقع ما واقع من الخطيئة، اشتغل بالتوبة منها ـ فيما زعموا ـ استخف به بنو إسرائيل، ووثب عليه ابن له، يقال له: إيشي. فدعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل. قالوا: فلما تاب الله على داود، ثابت إليه ثائبة من الناس، فحارب ابنه حتى هزمه ووجه في طلبه قائداً من قواده، وتقدم إليه: أن يتوقى حتفه، ويتلطف لأسره. فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة، فركض فيها، وكان ذا جمة، فتعلق بعض أغصان الشجرة بشعره، فحبسه ولحقه القائد، فقتله مخالفاً لأمر داود، فحزن داود عليه حزناً شديداً، وتنكر للقائد. وأصاب بني إسرائيل في زمانه طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس، يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك ـ فيما قيل ـ لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذي قتل أخاه، فلما دفنه سليمان، نفذ لأمره في القائد وقتله، واستتم بناء المسجد، وقيل في بناء ذلك المسجد، عن وهب بن منبه قال: إن داود أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم. فبعث لذلك عرفاء ونقباء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فعتب الله عليه ذلك، وقال: قد علمت أني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته؛ حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء، وأجعلهم لا يحصى عددهم، فأردتَ أن تعلم عدد ما قلت: إنه لا يحصى عددهم، فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين، أو أسلط عليكم العدو ثلاثة أشهر، أو الموت ثلاثة أيام. فاستشار داود في ذلك بني إسرائيل، فقالوا: ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبراً، ولا بالعدو ثلاثة أشهر، فليس لهم بقية، فإن كان لا بد، فالموت بيده لا بيد غيره. فذكر وهب بن منبه أنه مات منهم في ساعة من نهار، ألوف كبيرة، لا يدرى ما عددهم، فلما رأى ذلك داود، شق عليه ما بلغه من كثرة الموت، فتبتل إلى الله ودعاه، فقال: يا رب، أنا آكل الحمّاض، وبنو إسرائيل يضرسون ! أنا طلبت ذلك، فأمرت به بني إسرائيل، فما كان من شيء فبي، واعف عن بني إسرائيل. فاستجاب الله له، ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالّين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سلم من ذهب، من الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد.

فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه: أن هذا بيت مقدس، وأنك قد صبغت يديك في الدماء، فلست ببانيه، ولكن ابنٌ لك، أملّكه بعدك، أسميه سليمان، أسلّمه من الدماء. فلما ملك سليمان، بناه وشرّفه، وكان عمر داود ـ فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ مائة سنة، وأما بعض أهل الكتاب فإنه زعم أن عمره كان سبعاً وسبعين سنة، وأن مدة ملكه كانت أربعين سنة. تاريخ الطبري ١: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

سليمان

ملك سليمان

ـ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس ابن بكير عن محمد بن إسحاق، عن الزهري عن الشعبي[1]، قال: أرخ بنو إسحاق من مبعث موسى إلى ملك سليمان بن داود. قال: وورث سليمان داود. قال: أخذت إليه النبوة والرسالة أن يهب له ملكاً، لا ينبغي لأحد من بعده، فسُخّر له الجن والإنس والطير والريح[2].

---

(١) عامر بن شراحيل أبو عمرو الشعبي كوفي، توفي سنة ١٠٤ هـ. التاريخ الكبير ٦: ٤٥٠.

(٢) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٤٠. عن وهب بن منبه، قال: كان لسليمان بن داود ﷺ ألف بيت، أعلاه قوارير، وأسفله حديد، فركب الريح يوماً، فمر بحرّاث، فنظر إليه الحراث، فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً. فحملت الريح كلامه، فألقته في أذن سليمان. قال: فنزل حتى أتى الحراث فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك؛ لئلا تتمنى ما لا يقدر عليه؛ لتسبيحة واحدة، يقبلها الله منك، لخير مما أوتي آل داود. فقال الحراث: أذهب الله همك، كما أذهبت همي. تفسير القرطبي ١٥: ٢٠٥.وعن وهب بن منبه قال: أمر إسحاق ابنه يعقوب أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأن ينكح من بنات خاله لايان بن تاهر بن آزر، وكان مسكنه فلسطين، فتوجه إليها يعقوب، وأدركه في بعض الطريق الليل، فبات متوسداً حجراً، فرأى فيما يرى النائم كأن سلماً منصوباً إلى باب السماء عند رأسه، والملائكة تنزل منه، وتعرج فيه، وأوحى الله إليه: إني أنا الله لا إله إلا أنا، إلهك وإله آبائك، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة، وذريتك من بعدك، وباركت فيك، وفيهم الكتاب والحكمة والنبوة، ثم أنا معك حتى تدرك إلى هذا المكان، فاجعله بيتاً، تعبدني فيه، أنت وذريتك. فيقال: إنه بيت المقدس. فبناه داود وابنه سليمان، ثم أخربته الجبابرة بعد ذلك، فاجتاز به شعيا، وقيل: عزير ﷺ فرآه خراباً، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأماته الله مائة عام ثم بعثه، كما قص ﷺ في كتابه الكريم، ثم بناه ملك من ملوك فارس، يقال له: كوشك، وكان قد اتخذ سليمان في بيت المقدس أشياء عجيبة، منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة، ينالها صاحب الحق، ولا ينالها المبطل، وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً، وأحكمه وصقله، فإذا دخله الفاجر والورع، تبين الفاجر من الورع؛ لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض، والفاجر يظهر خياله أسود، وكان أيضاً مما اتخذ من الأعاجيب، أن ينصب في زاوية من زواياه عصا آبنوس، فكان مَن مسها من أولاد الأنبياء، لم تضره، =

حكمة سليمان

ـ حدثنا ابن بشار[1] قال: ثنا عبد الرحمن[2] قال: ثنا سفيان[3]، عن ابن إسحاق، عن مرة[4]، في قوله: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾[5]. قال: كان الحرث نبتاً، فنفشت فيه ليلاً، فاختصموا فيه إلى داود، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث، فمروا على سليمان، فذكروا ذلك له فقال: لا تدفع الغنم، فيصيبون منها ـ يعني أصحاب الحرث ـ ويقوم هؤلاء على حرثهم، فإذا كان كما كان ردوا عليهم. فنزلت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[6]. قال: كان الحكم بما قضى به سليمان ولم يعنف الله داود في حكمه[7].

الهدهد

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: كان سليمان بن داود[8]، إذا خرج من بيته إلى مجلسه، عكفت

= ومن مسها من غيرهم، أحرقت يده. معجم البلدان ٥: ١٦٧ ـ ١٦٨. وعن محمد بن كعب قال: ثم بلغنا أن سليمان بن داود كان عسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب منها ثلاث مائة صريحة وسبع مائة سرية فأمر الريح العاصف فرفعته فأمر الريح فسارت به فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح فأخبرتك. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٤١.

(١) محمد بن بشار العبدي أبو بكر ويعرف ببندار، روى عن عبد الرحمن بن مهدي، توفي سنة ٢٥٢ هـ. الجرح والتعديل ٧: ٢١٤.

(٢) عبد الرحمن بن مهدي الإمام الناقد المجود سيد الحفاظ، حدث عنه بندار، توفي سنة ١٩٨ هـ. طبقات الحفاظ ١: ١٤٤.

(٣) سفيان بن عيينة أبو محمد مولى بني هلال الكوفي، توفي سنة ١٧٨ هـ. التاريخ الكبير ٤: ٩٤.

(٤) مرة الطيب، مرة الخير، وهو مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي المفسر العابد، توفي في حدود سنة ٩٠ هـ. تذكرة الحفاظ ١: ٦٧.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٨.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٧) تفسير الطبري ١٧: ٦٩. ٧١.

(٨) عن محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه قال: ثم أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سليمان بن داود سبعمائة سنة وستة أشهر ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع وأعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي ما سمع بها الناس وسخرت له فلم يزل مدبراً بأمر الله ونوره وحكمته حتى إذا أراد الله أن يقبضه =

عليه الطير، وقام له الجن والإنس؛ حتى يجلس على سريره، حتى إذا كان ذات غداة في بعض زمانه غدا، إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه، فتفقد الطير، وكان ـ فيما يزعمون ـ يأتيه نوباً، من كل صنف من الطير طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها قد حضره إلا الهدهد، فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾[1]. أخطأه بصري في الطير، أم غاب فلم يحضر؟.

ـ عن ابن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه حدث: أن عذابه الذي كان يعذب به الطير نتف جناحه.

ـ عن ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: ثم جاء الهدهد فقال له سليمان: ما خلفك عن نوبتك؟.

قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[2]. يقول: وجئتك من سبأ بخبر يقين، أي أدركت ملكاً، لم يبلغه ملكك[3]، وذلك أنه لما نزل سليمان، قال الهدهد في نفسه: إن سليمان قد اشتغل بالنزول. فارتفع إلى نحو السماء، ونظر إلى طول الدنيا وعرضها، ونظر يميناً وشمالاً، فرأى بستان بلقيس، فمال إلى الخضرة، فوقع فيها، فإذا هو بهدهد اليمن، فهبط عليه، وكان اسم هدهد سليمان: يعفور، واسم هدهد اليمن: عفير، فقال عفير ليعفور: من أين أقبلت، وإلى أين تريد؟.

قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام.

فقال له الهدهد: ومن سليمان بن داود؟.

قال: ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟.

= أوحى إليه أن استودع علم الله وحكمته أخاه ولد داود وكانوا أربع مائة وثمانين رجلاً بلا رسالة. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٣٩.

(١) سورة النمل، الآية: ٢٠. تفسير الطبري ١٩: ١٧٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ٢٢.

(٣) تفسير الطبري ١٩: ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠.

قال: أنا من هذه البلاد.

قال: ومن هو ملكها؟.

قال: امرأة.

قال: وما اسمها؟.

قال: يقال لها: بلقيس، وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً، ولكن ليس ملك بلقيس دونه؛ فإنها ملكة اليمن كله، وتحت يدها اثنا عشر ألف قيل، مع كل قيل مئة ألف مقاتل ـ والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن ـ فهل أنت منطلق معي؛ حتى ننظر إلى ملكها؟.

قال: فإني أخاف أن يتفقدني سليمان، في وقت الصلاة، إذا احتاج إلى الماء.

فقال الهدهد اليماني، إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة.

فانطلق معه، حتى أتى بلقيس، ونظر إلى ملكها، وما رجع إلى سليمان إلا وقت صلاة العصر.

قال: فلما نزل سليمان، ودخل عليه وقت صلاة العصر، طلب الهدهد؛ وذلك أنه نزل على غير ماء، فسأل الإنس عن الماء، فقالوا: لا نعلم ها هنا ماء. وسأل الجن والشياطين، فقالوا: لا نعلم، فتفقد، عند ذلك، الهدهد، فلم يجده فتوعده[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: كتب ـ يعني سليمان بن داود مع الهدهد: بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود إلى بلقيس بنت ذي سرح وقومها، أما بعد ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[2].

قال: فأخذ الهدهد الكتاب برجله، فانطلق به حتى أتاها، وكانت لها كوة في بيتها، إذا طلعت الشمس، نظرت إليها فسجدت لها، فأتى الهدهد الكوة فسدَّها

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٧٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٣١.

بجناحيه، حتى ارتفعت الشمس، ولم تعلم، ثم ألقى الكتاب من الكوة، فوقع عليها في مكانها الذي هي فيه فأخذته[1].

بلقيس

- عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه قال: كانت بلقيس امرأة لبيبة أديبة، في بيت ملك لم تملك إلا لبقايا من مضى من أهلها؛ إنه قد سيست وساست حتى أحكمها ذلك، وكان دينها ودين قومها - فيما ذكر - الزنديقية، فلما قرأت الكتاب، سمعت كتاباً، ليس من كتب الملوك التي كانت قبلها، فبعثت إلى المقاولة من أهل اليمن فقالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2]. ثم قالت: إنه قد جاءني كتاب، لم يأتني مثله من ملك من الملوك قبله، فإن يكن الرجل نبياً مرسلاً، فلا طاقة لنا به ولا قوة، وإن يكن الرجل ملكاً، يكاثر، فليس بأعز منا ولا أعد. فهيأت هدايا مما يهدى للملوك، مما يفتنون به، فقالت: إن يكن ملكاً، فسيقبل الهدية، ويرغب في المال، وإن يكن نبياً، فليس له في الدنيا حاجة، وليس إياها يريد؛ إنما يريد أن ندخل معه في دينه، ونتبعه على أمره. أو كما قالت[3].

قال: لما أتت الهدايا سليمان، فيها الوصائف والوصفاء، والخيل العراب، وأصناف من أصناف الدنيا، قال للرسل الذين جاءوا به: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[4]. لأنه لا حاجة لي بهديتكم، وليس رأيي فيه كرأيكم، فارجعوا إليها بما جئتم به من عندها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾[5].

قال: لما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: والله، عرفت ما هذا بملك،

---

(١) تفسير الطبري ١٩: ١٨٥.

(٢) سورة النمل، الآيات: ٢٩ - ٣٥.

(٣) تفسير الطبري ١٩: ١٩٠.

(٤) سورة النمل، الآية: ٣٦.

(٥) سورة النمل، الآية: ٣٧. تفسير الطبري ١٩: ١٩٢.

وما لنا به طاقة، وما نصنع بمكاثرته شيئاً. وبعثت: إني قادمة عليك بملوك قومي؛ حتى أنظر ما أمرك؟، وما تدعو إليه من دينك؟. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجُعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، وكانت إنما يخدمها النساء، معها ستمائة امرأة يخدمنها، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وبسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينّه أحد، حتى آتيك. ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل، معها من ملوك اليمن، تحت يد كل قيل منهم، ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن، فيأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت، جمع من عنده من الجن والإنس، ممن تحت يده، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[1].

قال: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ﴾ لسليمان ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾[2]. قال: اسمه كوزن. وزعموا أن سليمان بن داود قال: أبتغي أعجل من هذا. فقال آصف بن برخيا، وكان صديقاً، يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى: ﴿أَنَا۠﴾ يا نبي الله، ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾.

قال: ذكروا أن آصف بن برخيا توضأ، ثم ركع ركعتين، ثم قال: يا نبي الله، امدد عينك حتى ينتهي طرفك. فمدَّ سليمان عينه، ينظر إليه نحو اليمن، ودعا آصف، فانخرق بالعرش مكانه الذي هو فيه، ثم نبع بين يدي سليمان، فلما رآه سليمان مستقراً عنده، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾[3].

قال: لما انتهت إلى سليمان وكلمته، أخرج لها عرشها، ثم قال: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾[4].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٨. تفسير الطبري ١٩: ١٩٤ - ١٩٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٣٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النمل، الآية: ٤٢.

قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج، كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، وجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ ليريها ملكاً، هو أعز من ملكها، وسلطاناً، هو أعظم من سلطانها[١]، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادخلي، ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، وعاتبها في عبادتها الشمس دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس وسقط في يديها، حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه، قال: ويحك، ماذا قلت؟.

قال: وأُنسيت ما قالت، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. وأسلمت فحسن إسلامها[٣].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، قال[٤]: فزعم أن سليمان، قال لها حين أسلمت، وفرغ من أمرها: اختاري رجلاً من قومك أزوجكه.

قالت: ومثلي يا نبي الله، ينكح الرجال، وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان لي؟!.

قال: نعم. إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك.

فقالت: زوجني، إن كان لا بد، ذا تبع، ملك همدان. فزوجه إياها ثم ردها إلى

---

(١) عن محمد بن كعب القرظي قال: قالت الجن لسليمان في بلقيس: إن رجلها رجل حمار، وإن أمها كانت من الجن. فأمر سليمان بالصرح، فعمل فسجن فيه دواب البحر الحيتان والضفادع، فلما بصرت بالصرح، قالت: ما وجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلا الغرق. فحسبته لجة وكشفت عن ساقيها، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، قال: فضن سليمان بساقها عن الموسى،فاتخذت النورة بذلك السبب. تفسير الطبري ١٩: ٢٠٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٤.

(٣) تفسير الطبري ١٩: ١٩٧. ١٩٩. ٢٠١. ٢٠٣. ٢٠٥.

(٤) تفسير القرطبي ١٣: ٢١٠.

اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا زوبعة أمير جن اليمن، فقال: اعمل لذي تبع ما استعملك لقومه.

قال: فصنع لذي تبع الصنائع باليمن، ثم لم يزل بها ملكاً، يُعمل له فيها ما أراد، حتى مات سليمان بن داود عليه السلام.

خاتم سليمان

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن بعض العلماء قال: قال وهب بن منبه[1]: سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر، يقال لها: صيدون[2]. بها ملك عظيم السلطان، لم يكن للناس إليه سبيل؛ لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً، لا يمتنع منه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليه، إذا ركب على الريح، فخرج إلى تلك المدينة، تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستبى ما فيها وأصاب ـ فيما أصاب ـ ابنة لذلك الملك، لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة، وأحبها حباً، لم يحبه شيئاً من نسائه، ووقعت نفسه عليها، فكانت على منزلتها عنده، لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها، فقال لها لما رآى ما بها، وهو يشق عليه، ما يرى: ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ؟.

قالت: إن أبي، أذكره وأذكر ملكه، وما كان فيه، وما أصابه، فيحزنني ذلك.

قال: فقد أبدلك الله به ملكاً، هو أعظم من ملكه، وسلطاناً، هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام، وهو خير من ذلك كله !.

---

(١) قال شهر بن حوشب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه في البحر في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه لا تنظر إليه إلا شزراً ولا تكلمه إلا نزراً وكان لا يرقأ لها دمع حزناً على أبيها وكانت في غاية من الجمال ثم إنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له وسجدت معها جواريها وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم حتى مضت أربعون ليلة وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره وحرقه ثم ذراه في البحر. تفسير القرطبي ١٥: ١٩٩.

(٢) صيدون اسم ملك الجزيرة في قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٨٧.

قالت: إن ذلك لكذلك، ولكني إذا ذكرته أصابني ما قد ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا صورة أبي في داري التي أنا فيها؛ أراها بكرة وعشياً، لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي.

فأمر سليمان الشياطين فقال: مثلوا لها صورة أبيها في دارها؛ حتى ما تنكر منه شيئاً. فمثلوا لها حتى نظرت إلى أبيها في نفسه، إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه لها، فأزرته وقمّصته وعممته وردّته بمثل ثيابه، التي كان يلبس، مثل ما كان يكون فيه من هيئة، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها، تغدو عليه في ولائدها، حتى تسجد له ويسجدن له، كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك، لا يعلم سليمان بشيء من ذلك أربعين صباحاً.

وبلغ ذلك آصف بن برخيا ـ وكان صدّيقاً، وكان لا يرد عن أبواب سليمان، أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل، حاضراً كان سليمان أو غائباً ـ فأتاه فقال: يا نبي الله، كبرت سني ودق عظمي ونفد عمري، وقد حان مني ذهاب، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله، وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل.

فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله، فأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر ما فضله الله به، حتى انتهى إلى سليمان وذكره، فقال: ما كان أحلمك في صغرك، وأروعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم التابعين في صغرك، وأبعدك من كل ما يكره في صغرك. ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه؛ حتى ملأه غضباً، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه.

فقال: يا آصف، ذكرت من مضى من أنبياء الله، فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم، وعلى كل حال من أمرهم، فلما ذكرتني، جعلت تثني عليَّ بخير في صغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري، فما الذي أحدثت في آخر أمري؟.

قال: إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً؛ في هوى امرأة.

فقال: في داري؟!.

فقال: في دارك.

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد عرفت أنك ما قلت إلا عن شيء بلغك.

ثم رجع سليمان إلى داره، فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة، ثم أمر بثياب الطهر، فأُتي بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار، ولا ينسجها إلا الأبكار، ولا يغسلها إلا الأبكار، ولا تمسها امرأة قد رأت الدم، فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد، ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله، حتى جلس على ذلك الرماد، فتمعّك فيه بثيابه؛ تذللاً لله - جل وعز - وتضرعاً إليه، يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره، ويقول، فيما يقول - فيما ذكر لي والله أعلم -: رب، ما كان ينبغي لآل داود أن يعبدوا غيرك، وأن يقروا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك.

فلم يزل كذلك يومه، حتى أمسى يبكي إلى الله، ويتضرع إليه ويستغفره، ثم رجع إلى داره، وكانت أم ولد له، يقال لها: الأمينة. كان إذا دخل مذهبه، أو أراد إصابة امرأة من نسائه، وضع خاتمه عندها حتى يتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء، أتاه بها جبريل عليه السلام، مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله[1]، وكان ملكه في خاتمه، فوضعه يوماً من تلك الأيام عندها، كما كان يضعه، ثم دخل مذهبه، وأتاها الشيطان صاحب البحر، وكان اسمه صخراً في صورة سليمان، لا تنكر منه شيئاً، فقال: خاتمي يا أمينة. فناولته إياه فجعله في يده، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينة، وقد غُيرت حالته وهيئته، عند كل من رآه، فقال: يا أمينة، خاتمي.

فقالت: ومن أنت؟.

قال: أنا سليمان بن داود.

---

(١) من قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٨٨.

فقالت: كذبت، لست بسليمان بن داود، وقد جاء سليمان فأخذ خاتمه، وهو ذاك جالس على سريره في ملكه.

فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود. فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون، أي شيء يقول، يزعم أنه سليمان بن داود؟!.

فلما رأى سليمان ذلك، عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق، فيعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى السمكتين بأرغفة وشوى الأخرى، فأكلها فمكث بذلك أربعين صباحاً، عدة ما عبد ذلك الوثن في داره، فأنكر آصف بن برخيا وعظماء بني إسرائيل، حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين صباحاً، فقال: آصف يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت؟.

قالوا: نعم.

قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه، فأسألهن: هل أنكرن منه في خاصة أمره، ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته.

فدخل على نسائه وقال: ويحكن هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟.

فقلن: أشده ما يدع امرأة منا في دمها، ولا يغتسل من جنابة.

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين.

ثم خرج إلى بني إسرائيل، فقال: ما في الخاصة أعظم مما في العامة.

فلما مضى أربعون صباحاً، طار الشيطان عن مجلسه ثم مر بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، وبصر بعض الصيادين فأخذها، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك، حتى إذا كان العشي، أعطاه فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم، ثم خرج سليمان، فيبيع التي ليس في بطنها الخاتم، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها، فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه فجعله في يده، ووقع ساجداً لله، وعكف عليه الطير والجن، وأقبل عليه الناس، وعرف أن الذي دخل عليه؛ لما كان أحدث في داره فرجع إلى ملكه، وأظهر

التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين، فقال: ائتوني به[1]. فطلبته له الشياطين حتى أخذوه، فأتى به فجاب له صخرة فأدخله فيها، ثم سدَّ عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أُمر به فقذف في البحر[2]. فلما حال الحول، وتبينت الجن موت سليمان[3]، أقبل رجل منهم، فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن، صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن، إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم.

قال: فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين، فكتبوا فيهما كتاباً بالمسند: نحن بنينا سلحين سبعة وسبعين خريفاً دائبين، وبنينا صرواح ومراح وبينون برحاضة أيدين وهندة وهنيدة وسبعة أمجلة بقاعة، وتلثوم بريدة، ولولا صارخ بتهامة، لتركنا بالبون إمارة.

قال: وسلحين وصرواح ومراح وبينون وهندة وهنيدة وتلثوم حصون، كانت باليمن، عملتها الشياطين لذي تبع، ثم رفعوا أيديهم ثم انطلقوا، وانقضى ملك ذي تبع، وملك بلقيس، مع ملك سليمان بن داود عليه السلام[4].

ـ قال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين، حين عرفت موت سليمان ابن داود عليه السلام فكتبوا أصناف السحر: من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا. حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان ابن داود من ذخائر كنوز العلم. ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل، حتى أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه، قالوا: والله، ما كان ملك سليمان إلا بهذا. فأفشوا السحر في الناس، فتعلموه وعلموه، فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله[5].

---

(١) يريد صخر الجني.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٤٩٦ ـ ٤٩٩ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) مات وله اثنتان وخمسون سنة. تاريخ اليعقوبي ١: ٦٠ والمسعودي ١: ٧١.

(٤) تاريخ الطبري ١: ٤٩٤ ـ ٤٩٥ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٥) تفسير ابن كثير ١: ١٣٧.وقال أهل التاريخ: كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة حكمه منها أربعين سنة. قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٩٣.وقصته كاملة في سفر الملوك الأول.

ملوك بني إسرائيل بعد سليمان

رحبعام بن سليمان

ثم[1] ملك بعد سليمان بن داود على جميع بني إسرائيل ابنه رحبعم بن سليمان، وكان ملكه - فيما قيل - سبع عشرة سنة[2]، ثم افترقت ممالك بني إسرائيل - فيما ذكر - بعد رحبعم، فكان أبيا[3] بن رحبعم ملك سبط يهوذا وبنيامين، دون سائر الأسباط، وذلك أن سائر الأسباط ملكوا عليهم يوربعم بن نابط، عبد سليمان؛ لسبب القربان الذي كانت زوجة سليمان قربته في داره، وكانت قربت فيها جرادة لصنم، فتوعده الله بإزالة بعض الملك عن ولده، فكان ملك رحبعم إلى أن توفي - فيما ذكر - ثلاث سنين[4].

أسا بن أبيا

ثم ملك أسا بن أبيا أمر السبطين اللذين كان أبوه يملك أمرهما، وهما سبط يهوذا وسبط بنيامين، إلى أن توفي إحدى وأربعين سنة[5].

زرح ملك الهند

- حدثني محمد بن سهل بن عسكر قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن ملكاً من ملوك إسرائيل،

---

(١) لم ينسب الطبري هذه الأخبار لأحد، ولكنه ينسب قصة أسا بن أبيا الى وهب بن منبه، وفي نهايتها يذكر اختلاف رواية ابن إسحاق عن رواية وهب لها، مما يدل على اتفاق الروايتين في البدء.أي في قصة رحبعام وما بعدها، عدا نهاية الفصل.

(٢) كان نبياً ولم يكن رسولاً. قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٩٣.

(٣) أبيام. تاريخ اليعقوبي ١: ٦٢ وفي تاريخ المسعودي ١: ٧١ ملك ثلاث سنين.

(٤) سبع عشرة سنة في سفر الملوك الأول / ١٤: ٢١ وفي تاريخ اليعقوبي١: ٦١ .

(٥) سفر الملوك الأول/ ٩: ١٥.

يقال له: أسا بن أبيا كان رجلاً صالحاً، وكان أعرج، وكان ملك من ملوك الهند، يقال له: زرح[1]. وكان ملكاً جباراً فاسقاً، يدعو الناس إلى عبادته، وكان أبيا، عابدَ أصنام، له صنمان يعبدهما من دون الله، ويدعو الناس إلى عبادتهما، حتى أضل عامة بني إسرائيل، وكان يعبد الأصنام، حتى توفي.

ثم ملك ابنه أسا من بعده، فلما ملكهم، بعث فيهم منادياً ينادي: ألا إن الكفر قد مات وأهله، وعاش الإيمان وأهله، وانتكست الأصنام وعبادتها، وظهرت طاعة الله وأعمالها، فليس كافر من بني إسرائيل يطلع رأسه، بعد اليوم بكفر في ولايتي ودهري، إلا أني قاتله؛ فإن الطوفان لم يغرق الدنيا وأهلها، ولم يخسف بالقرى، ولم تمطر الحجارة والنار من السماء، إلا بترك طاعة الله وإظهار معصيته، فمن أجل ذلك ينبغي لنا ألا نقر لله معصية يعمل بها، ولا نترك طاعة لله إلا أظهرناها جهدنا، حتى نطهر الأرض من نجسها، ونطهرها من دنسها، ونجاهد من خالفنا في ذلك بالحرب والنفي من بلادنا.

فلما سمع ذلك قومه، ضجوا وكرهوا فأتوا أم أسا الملك، فشكوا إليها فعل ابنها بهم، ودعاءه إياهم إلى مفارقة دينهم، والدخول في عبادة ربهم، فتحملت لهم أمه أن تكلمه وتصرفه إلى عبادة أصنام والده، فبينا الملك قاعد وعنده أشراف قومه ورؤوسهم وذوو طاعتهم، إذ أقبلت أم الملك فقام لها الملك من مجلسه، وأمرها أن تجلس فيه؛ معرفة بحقها وتوقيراً لها، فأبت عليه وقالت: لست ابني، إن لم تجبني إلى ما أدعوك إليه، وتضع طاعتك في يدي، حتى تفعل ما آمرك به وتجيبني إلى أمر، إن أطعتني فيه رشدت وأخذت بحظك، وإن عصيتني فحظك بخست، ونفسك ظلمت، إنه بلغني يا بني، أنك بدأت قومك بالعظيم، دعوتهم إلى مخالفة دينهم، والكفر بآلهتهم، والتحول عما كان عليه آباؤهم، وأحدثت فيهم سنة وأظهرت فيهم بدعة؛ أردت بذلك ـ فيما زعمت ـ تعظيماً ومعرفة بمكانك وتشديداً، وفي التقصير يا بني، دخلت وبالشين أخذت، ودعوت جميع الناس إلى حربك، وانتدبت لقتالهم وحدك؛ أردت بذلك أن تعيد الأحرار لك عبيداً، والضعيف لك شديداً، سفهت بذلك رأي العلماء وخالفت الحكماء

(١) زارح الكوشي في سفر الأيام الثاني/ ١٤: ٩ وفي تاريخ اليعقوبي١: ٦٢: وفي زمانه صار زارح ملك الحبشة، وأقبل ملك الهند الى بيت المقدس.

واتبعت رأي السفهاء، ولعمري ما حملك على ذلك يا بني، إلا كثرة وحداثة سنك وقلة علمك، فإن أنت رددت عليَّ كلامي، ولم تعرف حقي، فلست من نسل والدك، ولا ينبغي الملك لمثلك.

يا بني، بأي شيء تدل على قومك؛ لعلك أوتيت من الحروف مثل ما أتى موسى إلى فرعون أن غرقه، وأنجى قومه من الظلمة، أو لعلك أوتيت من القوة ما أوتي داود أن قتل الأسد لقومه، ولحق الذئب فشق شدقه وقتل جالوت الجبار وحده، أو لعلك أوتيت من الملك والحكمة، أفضل مما أوتي سليمان بن داود رأس الحكماء، إذ صارت حكمته مثلاً للباقين بعده.يا بني، إنه ما يأتك من حسنة فأنا أحظى الناس بها، وإن تكن الأخرى فأنا أشقاهم.

فلما سمعها الملك، اشتد غضبه وضاق صدره، فقال لها: يا أمه، إنه لا ينبغي أن آكل على مائدة واحدة مع حبيبي وعدوي، كذلك لا ينبغي أن أعبد غير ربي، هلمي إلى أمر إن أطعتني فيه رشدت، وإن تركته غويت: أن تعبدي الله بكل آلهة دونه، فإنه ليس أحد يرد هذا عليَّ، إلا هو لله عدو، وأنا ناصره لأني عبده.

قالت له: ما كنت لأفارق أصنامي، ولا دين آبائي وقومي، ولا أترك ذلك لقولك، ولا أعبد الرب الذي تدعوني إليه.

فقال لها الملك حينئذ: يا أمه إن قولك هذا، قد قطع فيما بيني وبينك رحمي. وأمر بها الملك عند ذلك، فأخرجوها، ثم أوصى إلى صاحب شرطته وبابه أن يقتلها، إن هي ألمت بمكانه.

هجرة الأسباط إلى الهند

لما سمع ذلك منه الأسباط الذين كانوا حوله، وقعت في قلوبهم المهابة، فأذعنوا له بالطاعة، وانقطعت فيما بينهم وبينه كل حيلة، وقالوا: قد فعل هذا بأمه، فأين نقع نحن منه، إذا خالفنا أمره، ولم نجبه إلى دينه. فاحتالوا له كل حيلة، فحفظه الله وأباد مكرهم، فلما لم يكن لهم عن ذلك صبر، ولا على فراق دينهم قوام، ائتمروا بأن يهربوا من بلاده، ويسكنوا بلاداً غيرها، فخرجوا متوجهين إلى زرح ملك الهند، يطلبون أن

يستحملوه على أسا ومن اتبعه، فلما دخلوا على زرح، سجدوا له، فقال لهم: من أنتم؟.

قالوا: نحن عبيدك؟.

قال: وأي عبيدي أنتم؟.

قالوا: نحن من أرضك، أرض الشام، وأنا كنا نعتز بملكك، حتى ظهر فينا ملك صبي حديث السن سفيه، فغير ديننا وسفه رأينا وكفر آباءنا، وهان عليه سخطنا، فأتيناك لنعلمك ذلك، فتكون أنت أولى بملكنا، ونحن رؤوسهم، وهي أرض، كثير مالها، ضعيف أهلها، طيبة معيشتها، كثيرة أنضارها، وفيهم الكنوز وملك ثلاثين ملكاً، وهم الذين كان يوشع بن نون، خليفة موسى، سار بهم في البحر هو وقومه، فنحن وأرضنا لك وبلادنا بلادك، وليس أحد فيها يناصبك، هم دافعون أيديهم إليك بغير قتال، بأموالهم وأنفسهم مسالمة.

قال لهم: لعمري، ما كنت لأجيبكم إلى ما دعوتموني إليه، ولا أستجيب إلى مقاتلة قوم؛ لعلهم أطوع لي منكم، حتى أبعث إليهم من قومي أمناء، فإن وقع الأمر على ما تكلمتم به قدامي، نفعكم ذلك عندي، وجعلتكم عليها ملوكاً، وإن كان كلامكم كذباً، فإني منزل بكم العقوبة التي تنبغي لمن كذبني.

قال القوم: تكلمت بالعدل وحكمت بالقسط، ونحن به راضون.

فأمر عند ذلك بالأرزاق، فأجريت عليهم، واختار من قومه أمناء جواسيس، فأوصاهم بوصيته، وخوفهم وحذرهم بطشه، إن هم كذبوه، ووعدهم المعروف إن هم صدقوه، وقال: إني مرسلكم لأمانتكم، وشحّكم على دينكم، وحسن رأيكم في قومكم، لتطالعوا أرضاً من أرضي، وتبحثوا لي عن شأنها: علم أهلها وملكها وجنودها وعددها وعدد مياهها وفجاجها وطرقها ومخارجها وسهولتها وصعوبتها، حتى كأني شاهد ذلك وعالمه، وحاضر ذلك وخابره، وخذوا معكم من الخزائن من الياقوت والمرجان والكسوة، ما يفرغون إليه، إذا رأوه، ويشترون منكم إذا نظروا إليه.

الأمناء الجواسيس

فأمكنهم من خزائنه حتى أخذوا منها، فجهزهم لبرّهم وبحرهم، ووصف لهم القوم

الذين أتوهم الطرقَ، ودلوهم على مقاصدها، فساروا كالتجار حتى نزلوا ساحل البحر، ثم ركبوا منه، حتى أرسوا على ساحل إيلياء، ثم ساروا حتى دخلوها، فخلفوا أثقالهم فيها، وأظهروا أمتعتهم وبضاعتهم، ودعوا الناس إلى أن يشتروا منهم، فلم يفرغوا لبضاعتهم، وكسدت تجارتهم، فجعلوا يعطون بالشيء القليل الشيء الكثير؛ لكيلا يخرجوهم من قريتهم، حتى يعلموا أخبارهم، ويحققوا شأنهم، ويستخرجوا ما أمرهم به ملكهم من أخبارهم.

وكان أسا الملك قد تقدم إلى نساء بني إسرائيل، ألا يقدر على امرأة لا زوج لها بهيئة امرأة لها زوج، إلا قتلها، أو نفاها من بلاده إلى جزائر البحار، فإن إبليس لم يدخل على أهل الدين في دينهم، بمكيدة هي أشد من النساء، فكانت المرأة التي لا زوج لها لا تخرج، إلا منتقبة في رِثة الثياب؛ لئلا تعرف، فلما بذل هؤلاء الأمناء بضاعتهم، ما ثمنه مائة درهم بدرهم، جعل نساء بني إسرائيل يشترين خفية بالليل سراً، لا يعلم بهن أحد من أهل دينهن، حتى أنفقوا بضاعتهم، واشتروا بها حاجتهم، واستوعبوا خبر مدينتهم، وحصونهم وعدد مياههم، وكانوا قد كتموا رؤوس بضاعتهم ومحاسنها، من اللؤلؤ والمرجان والياقوت؛ هدية للملك، وجعل الأمناء يسألون من رأوا من أهل القرية عن خبر الملك وشأنه، إذ لم يشتر منهم شيئاً، وقالوا: ما شأن الملك لا يشتري منا شيئاً، إن كان غنياً، فإن عندنا من طرائف البضاعات، فنعطيه ما شاء مما لم يدخل مثله في خزائنه، وإن كان محتاجاً، فما يمنعه أن يشهدنا، فنعطيه ما شاء بغير ثمن.

قال لهم من حضرهم من أهل القرية: إن له من الغنى والخزائن وفنون المتاع، ما لم يقدر على مثله، إنه استفرغ الخزائن التي كان موسى سار بها من مصر، والحلي التي كان بنو إسرائيل أخذوا، وما جمع يوشع بن نون خليفة موسى، وما جمع سليمان رأس الحكماء والملوك، من الغنى الكثير والآنية التي لا يقدر على مثلها.

قال الأُمناء: فما قتاله؟. وبأي شيء عظمته؟. وما جنوده؟. أرأيتم لو أن ملكاً انحرف عليه ففتق ملكه، ما كان إذاً قتاله إياه؟. وما عدته وعدد جنوده؟. أم بأي الخيل والفرسان غلبته؟. أم من أجل كثرة جمعه وخزائنه، وقعت في قلوب الرجال هيبته؟.

فأجابهم القوم، وقالوا: إن أسا الملك قليلة عدته، ضعيفة قوته، غير أن له صديقاً،

لو دعاه واستعان به على أن يزيل الجبال أزالها، فإذا كان معه صديقه، فليس شيء من الخلق يطيقه.

قال لهم الأمناء: ومن صديق أسا؟. وكم عدد جنوده؟. وكيف مواجهته وقتاله؟. وكم عدد عساكره ومراكبه؟. وأين قراره ومسكنه؟.

فأجابهم القوم: أما مسكنه ففوق السماوات العلا، مستو على عرشه، لا يحصى عدد جنوده، وكل شيء من الخلق له عبد، لو أمر البحر لطم على البر، ولو أمر الأنهار لغارت في عنصرها، لا يرى ولا يعرف قراره، وهو صديق أسا وناصره. فجعل الأمناء يكتبون كل شيء، أخبروا به من أمر أسا وقضية أمره، فدخل بعض هؤلاء الأمناء عليه، فقالوا: يأيها الملك، إن معنا هدية، نريد أن نهديها لك من طرائف بلادنا، أو تشتري منا فنرخّصه عليك.

قال لهم: ائتوني بذلك؛ حتى أنظر إليه.

فلما أتوه به، قال لهم: هل يبقى هذا لأهله، ويبقون له؟.

قالوا: بل يفنى هذا، ويفنى أهله.

قال لهم أسا: لا حاجة لي فيه، إنما طلبتي ما تبقى بهجته لأهله، لا تزول ولا يزولون عنه.

عودة الأمناء

فخرجوا من عنده وردَّ عليهم هديتهم، فساروا من بيت المقدس متوجهين إلى الهندي ملكهم، فلما أتوه نشروا له كتاب خبرهم، وأنبؤوه بما انتهى إليهم من أمر ملكهم، وأخبروه بصديق أسا، فلما سمع زرح كلامهم، استحلفهم بعزته وبالشمس والقمر اللذين يعبدونهما، ولهما يصلون، ألا يكتموه من خبر ما رأوا في بني إسرائيل شيئاً، فصدقوه.

فلما فرغوا من خبرهم وخبر أسا ملكهم وصديقه، قال لهم: إن بني إسرائيل، لما علموا أنكم جواسيس، وأنكم قد اطلعتم على عوراتهم، ذكروا لكم صديق أسا وهم كاذبون، أرادوا بذلك أن صديق أسا لا يطيق أن يأتي بأكثر من جندي، ولا بأكمل من

عدتي ولا بأقسى قلوباً، ولا أجرأ على القتال من قومي، إن لقيني بألف لقيته بأكثر من ذلك.

ثم عمد عند ذلك، فكتب إلى كل من في طاعته، أن يجهزوا من كل مخلاف جنداً بعدتهم، حتى استمد يأجوج ومأجوج والترك وفارس، مع من سواهم من الأمم ممن جرت عليه طاعة، كتب: من الجبار الهندي ملك الأرضين إلى من بلغته كتبي، أما بعد فإن لي أرضاً، قد دنا حصادها، وأينع ثمرها، وأردت أن تبعثوا إليَّ بعمال، أغنّمهم ما حصدوا منها، وهم قوم قصوا عني، وغلبوا على أطراف من أرضي، وقهروا من تحت أيديهم من رقيقي، وقد منحتهم من نهض إليهم معي، فإن قصرت بكم قوة، فعندي قوتكم، فإنه لا تتعطل خزائني.

فاجتمعوا إليه من كل ناحية بالخيل والفرسان والرجالة والعدة، فلما اجتمعوا عنده، أمكنهم من السلام والجهاز من خزائنه، ثم أمر بإحصاء عددهم، فبلغ عددهم ألف ألف ومائة ألف، سوى أهل بلادهم وأمر بمائة مركب، فقرن له البغال، كل أربعة أبغل جميعاً، عليها سرير وقبة، وفي كل قبة منها جارية، ومع كل مركب عشرة من الخدم، وخمسة أفيال من فيلته، فبلغ في كل عسكر من عساكره مائة ألف، وجعل خاصته، الذين يركبون معه مائة من رؤوسهم، وجعل في كل عسكر عرفاء، وخطبهم وحرّضهم على القتال، فلما نظر إليهم سار فيهم تعزز وتعظم شأنه، في قلوب من حضره، ثم قال زرح: أين صديق أسا؟. هل يستطيع أن يعصمه مني؟. أو من يطيق غلبتي؟. فلو أن أسا وصديقه ينظران إليَّ، وإلى جندي ما اجترآ على قتالي؛ لأن عندي بكل واحد من جنده ألفاً من جنودي، ليدخلن أسا أرضي أسيراً بقومه، سبياً في جنودي.

دعاء أسا

فجعل زرح ينتقص أسا، ويقول فيه ما لا ينبغي، فبلغ أسا صنيع زرح وجمعه عليه، فدعا ربه، فقال: اللهم، أنت الذي بقوتك خلقت السماوات والأرض، ومن فيهن حتى صار جميع ذلك في قبضتك، أنت ذو الأناة الرفيقة والغضب الشديد، أسألك ألا تذكرنا بخطايانا فيما بيننا وبينك، ولا تعمدنا ولا تجزينا على معصيتك، ولكن تذكرنا برحمتك التي جعلتها للخلائق، فانظر إلى ضعفنا وقوة عدونا، وانظر إلى قلتنا وكثرة عدونا، وانظر

إلى ما نحن فيه من الضيق والغم، وانظر إلى ما فيه عدونا من الفرح والراحة. فغرِّق زرحاً وجنوده في اليم، بالقدرة التي غرَّقت بها فرعون وجنوده، وأنجيت موسى وقومه، وأسألك أن تحل على زرح وقومه عذابك بغتة.

فأُري أسا في المنام ـ والله أعلم ـ أني قد سمعت كلامك، ووصل إليَّ، وأني على عرشي، وأني إن غرقت الهندي وقومه، لم يعلم بنو إسرائيل، ولا من كان بحضرتهم كيف صنعت بهم، ولكن سأظهر في زرح وقومه لك ولمن اتبعك، قدرة من قدرتي؛ حتى أكفيك مؤنتهم، وأهب لك غنيمتهم، وأضع في أيديكم عساكرهم؛ حتى يعلم أعداؤك أن صديق أسا لا يطاق وليه، ولا يهزم جنده، ولا يخيب مطيعه، فأنا أتمهل له حتى يفرغ من حاجته، ثم أسوقه إليك عبداً، وعساكره لك ولقومك خَوَلاً.

مسير زرح إلى القدس

فسار ومن معه، حتى حلوا على ساحل ترشيش[1]، فلم يكن إلا محلة يوم، حتى دفنوا أنهارها ومحوا مروجها، حتى كان الطير عليهم والوحش لا تستطيع الهرب منهم، فساروا حتى كانوا على مرحلتين من إيلياء، ففرق زرح عساكره منها إلى إيلياء، وامتلأت منهم تلك الأرض، جبالها وسهولها، وامتلأت قلوب أهل الشام منهم رعباً، وعاينوا هلكتهم، فسمع بهم أسا الملك، فبعث إليهم طليعة من قومه، وأمرهم أن يخبروه بعددهم وهيئتهم، فسار القوم الذي بعثهم أسا، حتى نظروا إليهم من رأس تل، ثم رجعوا إلى أسا، فأخبروه أنه لم تر عيون بني آدم، ولا سمعت آذانهم مثلهم، ومثل أفيالهم وخيولهم وفرسانهم، وما ظننا أن في الناس مثلهم كثرة وعدة، فُلَّت من إحصائهم عقولنا، وفُلَّت من قتاله حيلتنا، وانقطع فيما بيننا وبينهم رجاؤنا. فسمع بذلك أهل القرية فشقوا ثيابهم وذروا التراب على رؤوسهم، وعجُّوا بالعويل في أزقتهم وأسواقهم، وجعل بعضهم يودع بعضاً، ثم ساروا حتى أتوا الملك، فقالوا: نحن خارجون بأجمعنا إلى هؤلاء القوم، فدافعون إليهم أيدينا؛ لعلهم أن يرحمونا في بلادنا.

---

(١) مريشة في أخبار الملوك الثاني/١٤: ١٠.

قال لهم أسا الملك: معاذ الله أن نلقي بأيدينا في أيدي الكفرة، وأن نخلي بيت الله وكتابه!.

قالوا: فاحتل لنا حيلة، واطلب إلى صديقك وربك الذي كنت تعدنا بنصره، وتدعونا إلى الإيمان به، فإن هو كشف عنا هذا البلاء، وإلا وضعنا أيدينا في أيدي عدونا، لعلنا نتخلص بذلك من القتل.

قال لهم أسا: إن ربي لا يطاق إلا بالتضرع والتبتل والاستكانة.

قالوا: فأبرز له، لعله أن يجيبك فيرحم ضعفنا، فإن الصديق لا يسلم صديقه على مثل هذا.

فدخل أسا المصلى، ووضع تاجه من رأسه وخلى ثيابه ولبس المسوح، وافترش الرماد، ثم مد يده يدعو ربه، بقلب حزين وتضرع كثير ودموع سجال، وهو يقول: اللهم، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، أنت المستخفي من خلقك حيث شئت، لا يدرك قرارك ولا يطاق كنه عظمتك، أنت اليقظان الذي لا تنام، والجديد الذي لا تبليك الليالي والأيام.

أسألك بالمسألة التي سألك بها إبراهيم خليلك، فأطفأت بها عنه النار، وألحقته بها بالأبرار، وبالدعاء الذي دعاك به نجيك موسى، فأنجيت بني إسرائيل من الظلمة، وأعتقتهم به من العبودية، وسيرتهم في البر والبحر، وغرّقت فرعون ومن اتبعه، وبالتضرع الذي تضرع لك عبدك داود، فرفعته ووهبت له من بعد الضعف القوة، ونصرته على جالوت الجبار، وبالمسألة التي سألك بها سليمان نبيك، فمنحته الحكمة، ووهبت له الرفعة، وملكته على كل دابة. أنت محيي الموتى، ومفني الدنيا، وتبقى وحدك خالداً، لا تفنى، وجديداً لا تبلى، أسألك يا إلهي، أن ترحمني بإجابة دعوتي، فإني أعرج مسكين من أضعف عبادك حيلة، وقد حل بنا كرب عظيم وحزب شديد، لا يطيق كشفه غيرك ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، فارحم ضعفنا بما شئت، فإنك ترحم من تشاء بما تشاء.

وجعل علماء بني إسرائيل يدعون الله خارجاً، وهم يقولون: اللهم، أجب اليوم

عبدك؛ فإنه قد اعتصم بك وحدك، ولا تخلِّ بينه وبين عدوك، واذكر حبه إياك وفراقه أمه وجميع الخلائق، إلا من أطاعك.

فألقى الله على أسا النوم، وهو في مصلاه ساجداً، ثم أتاه من الله آت - والله أعلم - فقال: يا أسا، إن الحبيب لا يسلم حبيبه، وإن الله ﷻ يقول: إني قد ألقيت عليك محبتي: ووجب لك نصري، فأنا الذي أكفيك عدوك؛ فإنه لا يهون من توكل عليّ، ولا يضعف من تقوّى بي، كنت تذكرني في الرخاء وأسلمك عند الشدائد؟!، وكنت تدعوني آمناً وأنا أسلمك خائفاً؟!. إن الله القوي يقول: أنا أقسم أن لو كايدتك السماوات والأرض بمن فيهن، لجعلت لك من جميع ذلك مخرجاً، فأنا الذي أبعث طرفاً من زبانيتي يقتلون أعدائي، فإني معك ولن يخلص إليك، ولا إلى من معك أحد.

فخرج أسا من مصلاه، وهو يحمد الله مسفراً وجهه، فأخبرهم بما قيل له، فأما المؤمنون فصدقوهن وأما المنافقون فكذبوه، وقال بعضهم لبعض: إن أسا دخل أعرج، وخرج أعرج، ولو كان صادقاً أن الله قد أجابه، إذاً لأصلح رجله، ولكن يغرنا حتى تقع الحرب فينا فيهلكنا.

فبينا الملك يخبرهم عن صنع الله بهم، إذ قدم رسل من زرح، فدخلوا إيلياء ومعهم كتب من زرح إلى أسا، فيها شتم له ولقومه، وتكذيب بالله، وكتب فيها أن: ادع صديقك الذي أضللت به قومك، فليبارزني بجنوده، وليظهر لي، مع ما أني أعلم أنه لن يطيقني هو ولا غيره؛ لأني أنا الهندي الملك.

فلما قرأ أسا الكتب التي قدم بها عليه، هملت عيناه بالبكاء، ثم دخل مصلاه، ونشر تلك الكتب بين يدي الله، ثم قال: اللهم، ليس لي شيء من الأشياء، أحب عليّ من لقائك، غير أني أتخوف أن يطفأ هذا النور، الذي أظهرته في أيامي هذه، وقد حضرتْ هذه الصحائف، وعلمت ما فيها، ولو كنتُ المراد بها كان ذلك يسيراً، غير أن عبدك زرحاً يكايدك ويتناول، فخَر بغير فخر، وتكلّم بغير صدق، وأنت حاضر ذلك وشاهده.

الخروج إلى زرح

فأوحى الله إلى أسا ـ والله أعلم ـ: أنه لا تبديل ولا خلف لموعدي، ولا تحويل لأمري، فاخرج من مصلاك، ثم مر خيلك أن تجتمع، ثم اخرج بهم وبمن اتبعك، حتى تقفوا على نشز من الأرض. فخرج أسا، فأخبرهم بما قيل له، فخرج اثنا عشر رجلاً من رؤسائهم، مع كل رجل منهم رهط من قومه، فلما أن خرجوا ودّعوا أهاليهم بألا يرجعوا إلى الدنيا، فوقفوا على رابية من الأرض، فأبصروا منها زرحاً وقومه، فلما أبصرهم نفض رأسه؛ ليسخر منهم وقال: إنما نهضت من بلادي، وأنفقت أموالي لمثل هؤلاء؟!. ودعا عند ذلك بالنفر الذين كانوا نعتوا عنده أسا وقومه، فقال: كذبتموني وزعمتم أن قومكم كثير عددهم. فأمر بهم وبالأمناء الذين كان بعثهم؛ ليخبروه خبرهم، فقتلوا جميعاً، وأسا في ذلك كثير تضرعه، معتصم بربه.

فقال زرح: ما أدري ما أفعل بهؤلاء القوم، وما أدري ما قدر قلتهم في كثرتنا؟. إني لأستقلهم عن المحاربة، وأرى ألا أقاتلهم. فأرسل إلى أسا فقال له: أين صديقك الذي كنت تعدنا به، وتزعم أنه يخلصك مما يحل بكم من سطواتي؟!. أفتضعون أيديكم في يدي، فأمضي فيكم حكمي، أو تلتمسون قتالي؟.

فأجابه أسا فقال: يا شقي، إنك لست تعلم ما تقول، ولست تدري أتريد أن تغالب ربك بضعفك أم تريد أن تكاثره؟. هو أعز شيء وأعظمه وأغلب شيء، وعباده أذل وأضعف عنده من أن ينظروا إليه معاينة، هو معي في موقفي هذا، ولم يُغلب أحد كان الله معه، فاجتهد يا شقي، بجهدك حتى تعلم ماذا يحل بك.

فلما اصطف قوم زرح، وأخذوا مراتبهم، أمر الرماة من قومه أن يرموهم بنشابهم، فبعث الله ملائكة من كل سماء ـ والله أعلم ـ عوناً لأسا وقومه، ومادة له، فوقفهم أسا في مواقفهم، فلما رموا نشابهم حال المشركون بين ضوء الشمس وبين الأرض؛ كأنها سحابة طلعت، فنحّتها الملائكة عن أسا وقومه، ثم رمت بها الملائكة قوم زرح، فأصابت كل رجل منهم نشابته التي رمى بها، فقتل رماتهم بها كلها، وأسا وقومه في كل ذلك يحمدون الله كثيراً، ويعجون إليه بالتسبيح، وتراءت الملائكة لهم ـ والله أعلم ـ فلما رآهم الشقي، وقع الرعب في قلبه وسقط في يده، وقال: إن أسا لعظيم كيده، ماض سحره، وكذلك بنو إسرائيل، حيث كانوا لا يغلب سحرهم ساحر، ولا

يطيق مكرهم عالم؛ وإنما تعلموه من مصر، وبه ساروا في البحر.

ثم نادى الهندي في قومه أن سلوا سيوفكم، ثم احملوا عليهم حملة واحدة. فسلوا سيوفهم ثم حملوا على الملائكة، فقتلتهم الملائكة، فلم يبق منهم غير زرح ونسائه ورقيقه، فلما رأى ذلك، ولى مدبراً فاراً، هو ومن معه، وهو يقول: إن أسا ظهر علانية، وأهلكني صديقه سراً، وإني كنت أنظر إلى أسا ومن معه واقفين، لا يقاتلون، والحرب واقعة في قومي.

فلما رأى أسا أن زرحاً قد ولى مدبراً قال: أللهم، إن زرحاً قد ولى مدبراً، وإنك إن لم تحل بيني وبينه، استنفر علينا قومه ثانية. فأوحى الله إلى أسا: إنك لم تقتل من قُتل منهم، ولكني قتلتهم، فقف مكانك، فإني لو خليت بينك وبينهم، أهلكوكم جميعاً، إنما يتقلب زرح في قبضتي، ولن ينصره أحد مني، وأنا بالمكان الذي لا يستطيع صدوداً عنه، ولا تحويلاً، وإني قد وهبت لك ولقومك عساكره، وما فيها من فضة ومتاع ودابة، فهذا أجرك إذا اعتصمت بي، ولا ألتمس منك أجراً على نصرتك.

هلاك زرح وقومه

فسار زرح حتى أتى البحر، يريد بذلك الهرب، ومعه مائة ألف، فهيّؤوا سفنهم ثم ركبوا فيها، فلما ساروا في البحر، بعث الله الرياح من أطراف الأرضين، والبحار إلى ذلك البحر، واضطربت من كل ناحية أمواجه، وضربت السفن بعضها بعضاً، حتى تكسرت، فغرق ومن كان معه، واضطربت بهم الأمواج، حتى فزع لذلك أهل القرى حولهم، ورجفت الأرض، فبعث أسا من يعلمه علم ذلك، فأوحى الله إليه ـ والله أعلم ـ: أن اهبط أنت وقومك أهل قراكم، فخذوا ما غنمكم الله بقوة، وكونوا فيه من الشاكرين؛ فإني قد سوغت كل من أخذ من هذه العساكر شيئاً، ما أخذه. فهبطوا يحمدون الله ويقدسونه، فنقلوا تلك العساكر إلى قراهم ثلاثة أشهر ـ والله أعلم ـ.

الملوك بعد أسا

ثم ملك بعده يهوشافاظ[1] بن أسا إلى أن هلك، خمساً وعشرين سنة.

(١) يهوشافاط في أخبار الأيام الثاني/ ٢٠: ٣١ وتاريخ اليعقوبي ١: ٦٢.

ثم ملكت عتليا[1]، وتسمى: ابنة عمرم أم أخزيا، وكانت قتلت أولاد ملوك بني إسرائيل، فلم يبق منهم إلا يواش بن أخزيا، فإنه سُتر عنها، ثم قتلها يواش وأصحابه، وكان ملكها سبع سنين.

ثم ملك يواش بن أخزيا، إلى أن قتله أصحابه، وهو الذي قتل جدته، فكان ملكه أربعين سنة[2].

ثم ملك أموصيا[3] بن يواش إلى أن قتله أصحابه، تسعاً وعشرين سنة.

ثم ملك عوزيا[4] بن أموصيا، وقد يقال لعوزيا: غوزيا، إلى أن توفي اثنتين وخمسين سنة.

ثم ملك يوتام[5] بن عوزيا إلى أن توفي ست عشرة سنة.

ثم ملك آحاز[6] بن يوتام إلى أن توفي ست عشرة سنة.

ثم ملك حزقيا بن آحاز إلى أن توفي، وقيل: إنه صاحب شعيا[7] الذي أعلمه شعيا انقضاء عمره، فتضرع إلى ربه فزاده وأمهله، وأمر شعيا بإعلامه ذلك.

وأما محمد بن إسحاق فإنه قال: صاحب شعيا الذي هذه القصة قصته، اسمه صديقة[8].

---

(١) تولى الملك بعد يهوشافاط ابنه يهورام، يورام. أخبار الأيام الثاني/ ٢١: ١ وفي تاريخ اليعقوبي ١: ٦٢. خبر ملك عتلايا بنت عمرين وفي تاريخ المسعودي ١: ٧١ عيلان والقصة في أخبار الأيام الثاني/ ٢٣: ١٢.

(٢) أخبار الأيام الثاني/ ٢٤: ١ وفي تاريخ اليعقوبي ١: ٦٣.

(٣) أمصيا في أخبار الأيام الثاني/ ٢٥: ١.

(٤) عُزيّا في أخبار الأيام الثاني/ ٢٦: ٣.

(٥) يوثام في أخبار الأيام الثاني/٢٧: ١.

(٦) أخبار الأيام الثاني/ ٢٨: ١.

(٧) أشعيا النبي، وهذا الخبر في تاريخ اليعقوبي ١: ٦٤.وهو في سفر الملوك الثاني / ١ - ٦.

(٨) تاريخ الطبري ١: ٥١٧ - ٥٣١.

أشعيا

الملك صديقة

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال ثني ابن إسحاق، قال: كان مما أنزل الله على موسى في خبره عن بني إسرائيل، وفي أحداثهم، ما هم فاعلون بعده، فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[١].

فكانت بنو إسرائيل، وفيهم الأحداث والذنوب، وكان الله في ذلك متجاوزاً عنهم، متعطفاً عليهم، محسناً إليهم، فكان مما أنزل بهم في ذنوبهم ما كان قدم إليهم في الخبر، على لسان موسى مما أنزل بهم في ذنوبهم، فكان أول ما أنزل بهم من تلك الوقائع، أن ملكاً منهم، كان يُدعى: صديقة[٢].

وكان الله إذا ملّك الملك عليهم، بعث نبياً يسدده ويرشده ويكون فيما بينه وبين الله، ويحدث إليه في أمرهم، لا ينزل عليهم الكتب؛ إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها، وينهونهم عن المعصية، ويدعونهم إلى ما تركوا من الطاعة. فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه شعياء بن أمصيا، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى، وشعياء الذي بشر بيت المقدس، حين شكا إليه الخراب، فقال: أبشر؛ فإنه (يأتيك راكب الحمار، ومن بعده صاحب البعير)[٣].

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤ ـ ٨.

(٢) صدقيّا بن يوشيا، آخر ملوك يهوذا، كان اسمه متّنيا، فغيره نبوخذنصر. سفر الملوك الثاني/ ٢٤: ١٧ ـ ١٨. ويبدو أن النبي الذي كان معه إرميا، وليس أشعيا، سفر إرميا/ ١: ٣.

(٣) ما بين المعقوفتين عبارة الثعلبي، وهي عند الطبري: بعيسى ومحمد.

سنحاريب

فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زماناً، فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث ـ، وشعياء معه ـ بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل، ومعه ست مئة ألف راية، فأقبل سائراً، حتى نزل نحو بيت المقدس، والملك مريض في ساقه قرحة، فجاء النبي شعياء، فقال له: يا ملك بني إسرائيل، إن سنحاريب ملك بابل، قد نزل بك، هو وجنوده ست مئة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرقوا منهم. فكبر ذلك على الملك، فقال: يا نبي الله، هل أتاك وحي من الله، فيما حدث فتخبرنا به، كيف يفعل الله بنا، وبسنحاريب وجنوده؟. فقال له النبي عليه السلام: لم يأتني وحي أحدث إليَّ في شأنك.

فبيناهم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي: أن ائت ملك بني إسرائيل، فمره أن يوصي وصيته، ويستخلف على ملكه، من شاء من أهل بيته. فأتى النبي شعياء ملك بني إسرائيل، صديقة، فقال له: إن ربك قد أوحى إليَّ أن آمرك أن توصي وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك، من أهل بيتك؛ فإنك ميت.

فلما قال ذلك شعياء لصديقة، أقبل على القبلة، فصلى وسبح ودعا وبكى، فقال، وهو يبكي ويتضرع إلى الله، بقلب مخلص، وتوكل وصبر، وصدق وظن صادق: اللهم، رب الأرباب، وإله الآلهة، قدوس المتقدسين، يا رحمن يا رحيم المترحم الرؤوف، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك، فأنت أعلم به من نفسي، سري وعلانيتي لك. وإن الرحمن استجاب له، وكان عبداً صالحاً، فأوحى الله إلى شعياء أن يخبر صديقة الملك: أن ربه قد استجاب له، وقبل منه ورحمه، وقد رأى بكاءه، وقد أخر أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنوده.

فأتى شعياء النبي إلى ذلك الملك، فأخبره بذلك، فلما قال له ذلك، ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن، وخر ساجداً، وقال: يا إلهي وإله آبائي، لك سجدت وسبحت وكرمت وعظمت، أنت الذي تعطي الملك من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، أنت الذي أحببت دعوتي، ورحمت تضرعي.

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء: إن قل للملك صديقة، فيأمر عبداً من عبيده بالتينة، فيأتيه بماء التين، فيجعله على قرحته، فيشفى ويصبح وقد برأ. ففعل ذلك فشفي.

وقال الملك لشعياء النبي: سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا هذا. قال: فقال الله لشعياء النبي: قل له إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منه، وإنهم سيصبحون موتى كلهم، إلا سنحاريب وخمسة من كتابه. فلما أصبحوا، جاءهم صارخ ينبئهم، فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله قد كفاك عدوك، فاخرج؛ فإن سنحاريب ومن معه، قد هلكوا. فلما خرج الملك التمس سنحاريب، فلم يوجد في الموتى، فبعث الملك في طلبه، فأدركه الطلب في مغارة وخمسة من كتابه، أحدهم بختنصر، فجعلوهم في الجوامع، ثم أتوا بهم ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خر ساجداً من حين طلعت الشمس حتى كانت العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم، ألم يقتلكم بحوله وقوته، ونحن وأنتم غافلون؟.

فقال سنحاريب له: قد أتاني خبر ربكم، ونصره إياكم ورحمته التي رحمكم بها، قبل أن أخرج من بلادي، فلم أطع مرشداً، ولم يلقني في الشقوة إلا قلة عقلي، ولو سمعت أو عقلت ما غزوتكم، ولكن الشقوة غلبت عليَّ، وعلى من معي.

فقال ملك بني إسرائيل: الحمد لله رب العزة، الذي كفاناكم بما شاء، إن ربنا لم يبقك، ومن معك لكرامة بك عليه؛ ولكنه إنما أبقاك ومن معك، لما هو شر لك، لتزدادوا شقوة في الدنيا، وعذاباً في الآخرة، ولتخبروا من وراءكم بما لقيتم من فعل ربنا، ولتنذروا من بعدكم، ولولا ذلك ما أبقاكم، فلدمك ودم من معك أهون على الله، من دم قراد، لو قتلته.

ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه، فقذف في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً، حول بيت المقدس إيليا، وكان يرزقهم في كل يوم خبزتين من شعير، لكل رجل منهم، فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما يفعل بنا، فافعل ما أمرت. فنقل بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعياء النبي أن قل لملك بني إسرائيل: يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم، وليكرمهم ويحملهم، حتى يبلغوا بلادهم. فبلغ النبي شعياء الملك ذلك ففعل، فخرج سنحاريب ومن معه، حتى قدموا

بابل فلما قدموا، جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسحرته: يا ملك بابل، قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله إلى نبيهم، فلم تطعنا، وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، فكان أمر سنحاريب مما خوفوا، ثم كفاهم الله تذكرة وعبرة، ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين، ثم مات.

بختنصر

قال: لما مات سنحاريب استخلف بختنصر، ابن ابنه على ما كان عليه جده، يعمل بعمله ويقضي بقضائه، فلبث سبع عشرة سنة، ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صديقة، فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضاً عليه، ونبيهم شعياء معهم، لا يذعنون إليه ولا يقبلون منه، فلما فعلوا ذلك قال الله ـ فيما بلغنا ـ لشعياء: قم في قومك، أوح على لسانك.

فلما قام النبي أنطق الله لسانه بالوحي، فقال: يا سماء استمعي، ويا أرض أنصتي؛ فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل، الذين رباهم بنعمته، واصطفاهم لنفسه، وخصهم بكرامته، وفضلهم على عباده، وفضلهم بالكرامة، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردتها، وجمع ضالتها، وجبر كسيرها، وداوى مريضها، وأسمن مهزولها، وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها، فقتل بعضها بعضاً، حتى لم يبق منها عظم صحيح، يجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة !، وويل لهؤلاء القوم الخاطئين الذين لا يدرون أين جاءهم الحين!.

إن البعير ربما يذكر وطنه فينتابه، وإن الحمار ربما يذكر الآري الذي شبع عليه فيراجعه، وإن الثور ربما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من حيث جاءهم الحين، وهم أولو الألباب والعقول، ليسوا ببقر ولا حمير، وإني ضارب لهم مثلاً، فليسمعوه.

قل لهم: كيف ترون في أرض، كانت خواء زماناً خربة، مواتاً لا عمران فيها، وكان لها رب حكيم قوي، فأقبل عليها بالعمارة، وكره أن تخرب أرضه، وهو قوي؟.أو يقال: ضيع وهو حكيم، فأحاط عليها جداراً، وشيد فيها قصراً، وأنبط فيها نهراً، وصف

فيها غراساً من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها، وولى ذلك واستحفظه قيّماً، ذا رأي وهمة، حفيظاً قوياً أميناً، وتأنى طلعها وانتظرها، فلما أطلعت جاء طلعها خروباً؟.

قالوا: بئست الأرض هذه، نرى أن يهدم جدرانها وقصرها، ويدفن نهرها، ويقبض قيمها، ويحرق غراسها، حتى تصير، كما كانت أول مرة خربة مواتاً لا عمران فيها.

قال الله لهم: فإن الجدار ذمتي، وإن القصر شريعتي، وإن النهر كتابي، وإن القيّم نبيي، وإن الغراس هم، وإن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وإني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم، وإنه مثل ضربه الله لهم؛ يتقربون إليَّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحم ولا آكله، ويدعون أن يتقربوا بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها، فأيديهم مخضوبة منها، وثيابهم متزملة بدمائها، يشيدون لي البيوت مساجد، ويطهرون أجوافها، وينجسون قلوبهم وأجسامهم، ويدنسونها، ويزوقون لي البيوت والمساجد ويزينونها، ويخربون عقولهم وأحلامهم ويفسدونها، فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت، ولست أسكنها؟. وأي حاجة إلى تزويق المساجد ولست أدخلها؟. إنما أمرت برفعها؛ لأذكر فيها وأسبح فيها، ولتكون معلماً لمن أراد أن يصلي فيها.

يقولون: لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها، ولو كان الله يقدر على أن يفقه قلوبنا لأفقهها، فاعمد إلى عودين يابسين، ثم ائت بهما، نادهما في أجمع ما يكونون، فقل للعودين: إن الله يأمركما أن تكونا عوداً واحداً. فلما قال لهما ذلك، اختلطا فصارا واحداً، فقال الله: قل لهم إني قدرت على ألفة العيدان اليابسة، وعلى أن أولف بينها، فكيف لا أقدر على أن أجمع ألفتهم، إن شئت؟!.

أم كيف لا أقدر على أن أفقه قلوبهم، وأنا الذي صورتها؟!.

يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا، وصلينا فلم تنور صلاتنا، وتصدقنا فلم تزك صدقاتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام، وبكينا بمثل عواء الذئب، في كل ذلك لا نُسمع، ولا يستجاب لنا. قال الله: فسلهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم؟.ألست أسمع السامعين، وأبصر الناظرين، وأقرب المجيبين، وأرحم الراحمين؟.

ألأن ذات يدي قلت، كيف، ويداي مبسوطتان بالخير؟، أنفق كيف أشاء ومفاتيح الخزائن عندي، لا يفتحها ولا يغلقها غيري.

ألا وإن رحمتي وسعت كل شيء، إنما يتراحم المتراحمون بفضلها. أو لأن البخل يعتريني، أو لست أكرم الأكرمين؟. والفتاح بالخيرات أجود من أعطى، وأكرم من سئل.

لو أن هؤلاء القوم، نظروا لأنفسهم بالحكمة التي نورت في قلوبهم، فنبذوها واشتروا بها الدنيا، إذاً لأبصروا من حيث أتوا، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى العداة لهم، فكيف أرفع صيامهم، وهم يلبسونه بقول الزور، ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟!.

وكيف أنور صلاتهم، وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني، وينتهك محارمي؟!.

أم كيف تزكو عندي صدقاتهم، وهم يتصدقون بأموال غيرهم، وإنما أوجر عليها أهلها المغصوبين؟!.

أم كيف أستجيب لهم دعاءهم؟!. وإنما هو قول بألسنتهم، والفعل من ذلك بعيد، وإنما أستجيب للداعي اللين، وإنما أسمع من قول المستضعف المسكين، وإن من علامة رضاي رضا المساكين، فلو رحموا المساكين، وقربوا الضعفاء، وأنصفوا المظلوم، ونصروا المغصوب، وعدلوا للغائب، وأدوا إلى الأرملة واليتيم والمسكين، وكل ذي حق حقه، ثم لو كان ينبغي أن أكلم البشر، إذاً لكلمتهم، وإذاً لكنت نور أبصارهم، وسمع آذانهم، ومعقول قلوبهم، وإذاً لدعمت أركانهم، فكنت قوة أيديهم وأرجلهم، وإذاً لثبت ألسنتهم وعقولهم.

يقولون، لما سمعوا كلامي، وبلغتهم رسالاتي: بأنها أقاويل منقولة، وأحاديث متوارثة، وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم، لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله، فعلوا، وأن يطلعوا على الغيب بما توحي إليهم الشياطين، اطلعوا، وكلهم يستخفي بالذي يقول ويسرُّ، وهم يعلمون أني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما يبدون وما

يكتمون، وإني قد قضيت يوم خلقت السماوات والأرض قضاء، أثبته على نفسي، وجعلت دونه أجلاً مؤجلاً، لا بد أنه واقع.

فإن صدقوا بما ينتحلون من علم الغيب، فليخبروك متى أنفذه، أو في أي زمان يكون، وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون، فليأتوا بمثل القدرة التي بها أمضيت، فإني مظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا ما يشاؤون، فليؤلفوا مثل الحكمة التي أدبر بها أمر ذلك القضاء، إن كانوا صادقين.

فإني قد قضيت يوم خلقت السماوات والأرض، أن أجعل النبوة في الأجراء، وأن أحول الملك في الرعاء، والعز في الأذلاء، والقوة في الضعفاء، والغنى في الفقراء، والثروة في الأقلاء، والمدائن في الفلوات، والآجام في المفاوز، والبردى في الغيطان، والعلم في الجهلة، والحكم في الأميين. فسلهم متى هذا؟، ومن القائم بهذا؟، وعلى يد من أسنه؟، ومن أعوان هذه الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون؟. فإني باعث لذلك نبياً أمياً، ليس أعمى من عميان، ولا ضالاً من ضالين، وليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل، أهب له كل خلق كريم، أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والعرف خلقه، والعدل والمعروف سيرته، والحق شريعته والهدى إمامه، والإسلام ملته وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأشهر به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به قلوباً مختلفة وأهواء مشتتة وأمماً متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ توحيداً لي وإيماناً وإخلاصاً. يصلون لي قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، يقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم؛ ابتغاء رضواني، ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح، والحمد والمدحة والتمجيد لي، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم، يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأسواق، ويطهرون لي الوجوه والأطراف، ويعقدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

مقتل أشعيا

فلما فرغ نبيهم شعياء إليهم من مقالته عدوا عليه ـ فيما بلغني ـ ليقتلوه فهرب منهم، فلقيته شجرة، فانفلقت فدخل فيها، وأدركه الشيطان، فأخذ بهدبة من ثوبه، فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها، فنشروها حتى قطعوها، وقطعوه في وسطها[١].

(١) تفسير الطبري ١٥: ٣٠ ـ ٣٥.وتاريخه ١: ٥٣٢ ـ ٥٣٧. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٢٩٣ ـ ٢٩٧.وتفسير القرطبي ١٠: ٢١٥.

إرميا

نسب إرميا

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني ابن إسحاق، قال: فيما بلغني، استخلف اللهُ على بني إسرائيل بعد ذلك ـ يعني بعد قتلهم شعياء ـ رجلاً منهم، يقال له: ناشئة[١] ابن آموص، فبعث الله الخضر نبياً، وكان رسول الله ـ فيما قد بلغني ـ يقول: (إنما سمي الخضر خضراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فقام عنها وهي تهتز خضراء)[٢].

قال: واسم الخضر ـ فيما كان وهب بن منبه، يزعم عن بني إسرائيل ـ إرميا بن حلقيا[٣]، وكان من سبط هارون بن عمران[٤].

مبعث إرميا

حدثني محمد بن سهل بن عسكر، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه[٥]، قالا:

---

(١) وفي تاريخ الطبري١: ٥٤٧: ياشية بن أموص.

(٢) صحيح البخاري رقم الحديث ٣٢٢١.

(٣) إرميا بن حَلْقِيًا، والملك الذي كان معه هو يوشيا بن آمون، ولإرميا سفر في التوراة من ٥٢ إصحاحاً، فيه القصة نفسها.

(٤) تاريخ المسعودي ١: ٧٥ وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر هو إرميا وكان نبياً وقال ابن اسحاق: إرميا هو الخضر وحكاه النقاش عن وهب بن منبه قال ابن عطية: وهذا كما تراه إلا أن يكون أعطى وافق أعطى لأن الخضر معاصر لموسى وهذا الذي مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما رواه وهب بن منبه، قلت: إن كان الخضر هو إرميا فلا يبعد أن يكون هو لأن الخضر لم يزل حياً من وقت موسى حتى الآن على الصحيح في ذلك. تفسير القرطبي ٣: ٢٨٩.

(٥) محمد بن عبد الملك بن زنجويه البغدادي، جار أحمد بن حنبل وصاحبه، توفي سنة ٢٥٨ هـ. تهذيب الكمال ٢٦: ١٧.

ثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: ثنا ابن عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه، وحدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يُتهم عن وهب بن منبه اليماني ـ واللفظ لحديث ابن حميد[1] ـ: أنه كان يقول: قال الله ـ تبارك وتعالى ـ لإرميا حين بعثه نبياً إلى بني إسرائيل: يا إرميا من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في بطن أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ السعي نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك، ولأمر عظيم اجتبيتك.

فقال إرميا: إني ضعيف إن لم تقوني، عاجز إن لم تنصرني.

فقال الله تعالى: أنا ألهمك.

فقام إرميا فيهم خطيباً، ولم يدر ما يقول، فألهمه الله تعالى في الوقت، خطبة بليغة طويلة، بين لهم فيها ثواب الطاعة، وعقاب المعصية. وقال لهم في آخرها: إن الله قال: فإني أحلف بعزتي وجلالي، إن لم ينتهوا، لأُقيضن لهم فتنة، يتحير فيها الحليم، ولأسلطن عليهم جباراً، فبعث الله ﷺ إرميا؛ يسدده ويرشده، ويأتيه بالخبر من الله، فيما بينه وبين الله.

قال: ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي، واستحلوا المحارم، ونسوا ما كان الله تعالى صنع بهم، وما نجاهم من عدوهم، سنحاريب وجنوده، فأوحى الله تعالى إلى إرميا: أن ائت قومك من بني إسرائيل، واقصص عليهم ما آمرك به، وذكرهم نعمتي عليهم، وعرفهم أحداثهم.

فقال إرميا: إني ضعيف إن لم تقوّني، عاجز إن لم تبلّغني، مخطىء إن لم تسددني، مخذول إن لم تنصرني، ذليل إن لم تعزّني.

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: أو لم تعلم أن الأمور كلها، تصدر عن مشيئتي، وأن القلوب كلها، والألسنة بيدي، أقلبها كيف شئت فتطيعني، وإني أنا الله الذي لا شيء مثلي، قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي، وأنا كلمت البحار ففهمت قولي،

(١) متن القصة يرد نفسه في قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٩٨ وما بعدها، مما يدل على نقل الثعلبي من كتاب ابن إسحاق الذي ينقل بدوره من كتاب وهب بن منبه. ولعل هذا يسوغ إيراد القصة برواية وهب.

وأمرتها فعقلت أمري، وحددت عليها بالبطحاء، فلا تعدي حدي، تأتي بأمواج كالجبال، حتى إذا بلغت حدي، ألبستها مذلة طاعتي خوفاً؛ واعترافاً لأمري.

إني معك ولن يصل إليك شيء معي، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي، لتبلغهم رسالاتي، وتستحق بذلك مثل أجر من تبعك منهم، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وإن تقصر عنها، فلك مثل وزر من تركت في عماه، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، انطلق إلى قومك، فقل: إن الله ذكر بكم صلاح آبائكم، فحمله ذلك على أن يستتيبكم ـ يا معشر الأبناء ـ وسلهم كيف وجد آباؤهم مغبة طاعتي، وكيف وجدوا هم مغبة معصيتي؟!، وهل علموا أن أحداً قبلهم أطاعني فشقي بطاعتي، أو عصاني فسعد بمعصيتي، وإن الدواب مما تذكر أوطانها الصالحة تنتابها، وإن هؤلاء القوم قد رتعوا في مروج الهلكة.

أما أحبارهم ورهبانهم، فاتخذوا عبادي خولاً يتعبدونهم دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي، حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري، وغرّوهم مني.

وأما أمراؤهم وقادتهم، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، ونبذوا كتابي، ونسوا عهدي، وغيروا سنتي، فأدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي، ويتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني؛ جراءة علي وغرة، وفرية عليَّ وعلى رسلي، فسبحان جلالي، وعلو مكاني، وعظم شأني، فهل ينبغي لبشر أن يطاع في معصيتي؟!، وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً، أجعلهم أرباباً من دوني؟!.

وأما قرّاؤهم وفقهاؤهم، فيتعبدون في المساجد، ويتزينون بعمارتها لغيري؛ لطلب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم، ويتعلمون فيها لغير العمل.

وأما أولاد الأنبياء فمكثورون مقهورون مغترون، يخوضون مع الخائضين، ويتمنون عليَّ مثل نصرة آبائهم، والكرامة التي أكرمتهم بها، ويزعمون أن لا أحد أولى بذلك منهم، مني بغير صدق ولا تفكر ولا تدبر، ولا يذكرون كيف كان نصر آبائهم لي، وكيف كان جدهم في أمري، حين غيَّر المغيِّرون، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم، فصبروا وصدقوا، حتى عز أمري، وظهر ديني، فتأنيت بهؤلاء القوم؛ لعلهم يستجيبون، فأطولت لهم، وصفحت عنهم؛ لعلهم يرجعون، فأكثرت ومددت لهم في العمر؛ لعلهم

يتفكرون، فأعذرت.

وفي كل ذلك أمطر عليهم السماء، وأنبت لهم الأرض، وألبسهم العافية، وأظهرهم على العدو، فلا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني، فحتى متى هذا؟!.أبي يتمرسون أم إياي يخادعون؟!. وإني أحلف بعزتي، لأقيضنَّ لهم فتنة، يتحير فيها الحليم، ويضل فيها رأي ذي الرأي، وحكمة الحكيم، ثم لأسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً، ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرأفة والرحمة والبيان، يتبعه عدد سواد مثل الليل المظلم، له عساكر مثل قطع السحاب، ومراكب أمثال العجاج، كأن خفيق راياته طيران النسور، وكأن حملة فرسانه كزبر العقبان. ثم أوحى الله ﷻ إلى إرميا: إني مهلك بني إسرائيل بيافث - ويافث من أهل بابل - فهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام.

فلما سمع إرميا وحي ربه، صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه، وقال: ملعون يوم ولدت فيه، ويوم لقيت التوراة، ومن شر أيامي يوم ولدت فيه، فما أبقيت آخر الأنبياء إلا لما هو أشر علي. لو أراد بي خيراً ما جعلني آخر الأنبياء من بني إسرائيل، فمن أجلي تصيبهم الشقوة والهلاك !.

فلما سمع الله تضرع الخضر[1] وبكاءه، وكيف يقول، ناداه: يا إرميا، أشقَّ ذلك عليك، فيما أوحيت لك؟!. قال: نعم. يا رب، أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسر به. فقال الله: وعزتي العزيزة، لا أهلك بيت المقدس وبني إسرائيل، حتى يكون الأمر من قبلك في ذلك. ففرح عند ذلك إرميا؛ لما قال له ربه وطابت نفسه، وقال: لا. والذي بعث موسى وأنبياءه بالحق، لا آمر ربي بهلاك بني إسرائيل أبداً. ثم أتى ملك بني إسرائيل[2]، فأخبره ما أوحى الله إليه، فاستبشر وفرح، وقال: إن يعذبنا ربنا، فبذنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا، وإن عفا عنّا، فبقدرته.

ثم إنهم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين، لم يزدادوا إلا معصية وتمادياً في الشر، وذلك حين اقترب هلاكهم، فقل الوحي حين لم يكونوا يتذكرون الآخرة، وأمسك عنهم حين ألهتهم الدنيا وشأنها، فقال لهم ملكهم: يا بني إسرائيل، انتهوا عما أنتم عليه، قبل

(١) إرميا هو الخضر، في هذه القصة.

(٢) هو ناشئة بن آموص.

أن يمسكم بأس الله، وقبل أن يبعث عليكم قوم، لا رحمة لهم بكم، وإن ربكم قريب التوبة، مبسوط اليدين بالخير رحيم بمن تاب إليه. فأبوا عليه أن ينزعوا عن شيء مما هم عليه.

تسليط بختنصر عليه

وإن الله قد ألقى في قلب بختنصر بن نبوزراذان بن سنحاريب بن داریاس بن نمرود بن فالغ بن عابر ـ ونمرود صاحب إبراهيم عليه السلام الذي حاجه في ربه ـ أن يسير إلى بيت المقدس، ثم يفعل فيه ما كان جده سنحاريب أراد أن يفعل، فخرج في ست مئة ألف راية، يريد أهل بيت المقدس[1]، فلما فصل سائراً، أتى ملك بني إسرائيل الخبر: أن بختنصر قد أقبل هو وجنوده، يريدكم. فأرسل الملك إلى إرميا فجاءه، فقال: يا إرميا أين ما زعمت لنا أن ربك أوحى إليك أن لا يهلك أهل بيت المقدس، حتى يكون منك الأمر في ذلك؟!. فقال إرميا للملك: إن ربي لايخلف الميعاد، وأنا به واثق.

فلما اقترب الأجل ودنا انقطاع ملكهم، وعزم الله على هلاكهم، بعث الله ملكاً، من عنده، فقال له: اذهب إلى إرميا فاستفته. وأمره بالذي يستفتى فيه، فأقبل إلى إرميا، وكان قد تمثل له رجلاً من بني إسرائيل، فقال له إرميا: من أنت؟.

قال رجل من بني إسرائيل: أستفتيك في بعض أمري.

فأذن له، فقال له الملك: يا نبي الله أتيتك أستفتيك في أهل رحمي؛ وصلتُ أرحامهم بما أمرني الله به، لم آت إليهم إلا حسناً، ولم آلهم كرامة، فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلا إسخاطاً لي، فأفتني فيهم يا نبي الله.

فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله، وصل ما أمرك الله أن تصل، وأبشر بخير. وانصرف عنه.

فمكث أياماً، ثم أقبل إليه في صورة ذلك الذي جاءه، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١: ٦٥ و تاريخ المسعودي ١: ٧٣.

قال: أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي.

فقال له نبي الله: أو ما ظهرت لك أخلاقهم بعد؟، ولم تر منهم الذي تحب؟.

فقال: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، ما أعلم كرامة، يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه، إلا قد أتيتها إليهم، وأفضل من ذلك.

فقال النبي: ارجع إلى أهلك، فأحسن إليهم، أسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين، أن يصلح ذات بينكم، وأن يجمعكم على مرضاته، ويجنبكم سخطه.

فقام الملك من عنده، فلبث أياماً، وقد نزل بختنصر وجنوده، حول بيت المقدس ومعه خلائق من قومه، كأمثال الجراد، ففزع منهم بنو إسرائيل فزعاً شديداً، وشقَّ ذلك على ملك بني إسرائيل، فدعا إرميا، فقال: يا نبي الله، أين ما وعدك الله؟.

فقال: إني بربي واثق.

ثم إن الملك أقبل إلى إرميا، وهو قاعد على جدار بيت المقدس، يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده، فقعد بين يديه، فقال له إرميا: من أنت؟.

قال: أنا الذي كنت أتيتك في شأن أهلي مرتين.

فقال له النبي: أو لم يَئِنْ لهم أن يمتنعوا من الذي هم فيه مقيمون عليه؟!.

فقال له الملك: يا نبي الله، كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم، كنت أصبر عليه، وأعلم أن مآلهم في ذلك سخطي، فلما أتيتهم اليوم، رأيتهم في عمل لا يرضي الله، ولا يحبه الله ﷻ.

فقال له نبي الله: على أي عمل رأيتهم؟.

قال: يا نبي الله، رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه قبل اليوم، لم يشتد عليهم غضبي، وصبرت لهم ورجوتهم، ولكن غضبت اليوم لله ولك، فأتيتك؛ لأخبرك خبرهم، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق، إلا ما دعوت عليهم ربك: أن يهلكهم؟.

فقال إرميا: يا مالك السماوات والأرض، إن كانوا على حق وصواب فأبقهم، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم.

فما خرجت الكلمة من في إرميا، حتى أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس، فالتهب مكان القربان، وخسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى ذلك إرميا صاح وشق ثيابه، ونبذ الرماد على رأسه، وقال: يا ملك السماوات والأرض، بيدك ملكوت كل شيء، وأنت أرحم الراحمين، أين ميعادك الذي وعدتني؟.

فنودي: إرميا، إنهم لم يصبهم الذي أصابهم، إلا بفتياك التي أفتيت بها رسولنا، فاستيقن النبي، أنها فتياه التي أفتى بها ثلاث مرات، وأنه رسول ربه. ثم إن إرميا طار[1] حتى خالط الوحش.

سبي بختنصر

ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس، فوطىء الشام، وقتل بني إسرائيل، حتى أفناهم وخرب بيت المقدس، وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه تراباً، ثم يقذفه في بيت المقدس، فقذفوا فيه التراب حتى ملأوه، ثم انصرف راجعاً إلى أرض بابل، واحتمل معه سبايا بني إسرائيل، وأمرهم أن يجمعوا مَن كان في بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي، فلما خرجت غنائم جنده وأراد أن يقسمها فيهم، قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك، لك غنائمنا كلها، واقسم بيننا الذين اخترتهم من بني إسرائيل. ففعل وأصاب كل رجل منهم أربعة أغلمة.

وكان من أولئك الغلمان: دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب، وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط أشر بن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون بن يعقوب، ونفثالي بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ابني يعقوب، ومن بقي من بني إسرائيل. وجعلهم بختنصر ثلاث فرق: فثلثاً أقر بالشام، وثلثاً

(١) سار. في قصص الأنبياء للثعلبي: ٢٩٩.

سبي، وثلثاً قتل، وذهب بآنية بيت المقدس حتى أقدمها بابل، وذهب بالصبيان السبعين الألف، حتى أقدمهم بابل، فكانت هذه الوقعة الأولى، التي أنزلها الله ببني إسرائيل بإحداثهم وظلمهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾(١).

خلود إرميا

ـ قال محمد بن إسحاق بن يسار عن وهب بن منبه: فلما ولى بختنصر عنهم، راجعاً إلى بابل بمن معه من سبايا بني إسرائيل، أقبل إرميا على حمار له، معه عصير، من عنب في ركوة، وسلة تين، حتى غشي إيلياء، فلما وقف عليها ورأى ما بها من الخراب، دخله شك، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٢).

فأماته الله مائة عام، وحماره وعصيره وسلة تينه عنده، حيث أماته الله وأمات حماره معه، وأعمى الله عنه العيون، فلم يره أحد، ثم بعثه الله، فقال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يقول: لم يتغير ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾(٣).

فنظر إلى حماره، يتصل بعض إلى بعض ـ وقد كان مات معه ـ بالعروق والعصب، ثم كيف كسى ذلك منه اللحم، حتى استوى، ثم جرى فيه الروح، فقام ينهق ثم نظر إلى عصيره وتينه، فإذا هو على هيئته حين وضعه، لم يتغير. فلما عاين من قدرة الله ما عاين، قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤). ثم عمر الله إرميا بعد ذلك، فهو الذي يرى بفلوات الأرض والبلدان(٥).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥. قصص الأنبياء للثعلبي ٢٩٧ ـ ٢٩٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩. قصص الأنبياء للثعلبي ٢٩٧ ـ ٢٩٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٥) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٨.

رؤيا بختنصر وتاويل دانيال

ثم إن بختنصر أقام في سلطانه، ما شاء الله أن يقيم، ثم رأى رؤيا، فبينما هو قد أعجبه ما رأى، إذ رأى شيئاً أصابه، فأنساه الذي كان رأى، فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا[1] ـ من ذراري الأنبياء ـ فقال: أخبروني عن رؤيا رأيتها، ثم أصابني شيء، وقد كانت أعجبتني، ما هي؟.

قالوا له: أخبرنا بها، نخبرك بتأويلها.

قال: ما أذكرها، وإن لم تخبروني بتأويلها، لأنزعن أكتافكم.

فخرجوا من عنده، فدعوا الله واستغاثوا وتضرعوا إليه، وسألوه أن يعلمهم إياها، فأعلمهم الذي سألهم عنه، فجاؤوه فقالوا له: رأيت تمثالاً.

قال: صدقتم.

قالوا: قدماه وساقاه من فخار، وركبتاه وفخذاه من نحاس، وبطنه من فضة، وصدره من ذهب، ورأسه وعنقه من حديد.

قال: صدقتم.

قالوا: فبينما أنت تنظر إليه، قد أعجبك، فأرسل الله عليه صخرة من السماء، فدقَّته، فهي التي أنستكها.

قال: صدقتم، فما تأويلها؟.

قالوا: تأويلها، أنك أريت مُلْك الملوك، فكان بعضهم ألين ملكاً من بعض، وبعضهم كان أحسن ملكاً من بعض، وبعضهم كان أشد ملكاً من بعض، فكان أول الملك الفخار وهو أضعفه وألينه، ثم كان فوقه النحاس وهو أفضل منه وأشد، ثم كان فوق النحاس الفضة وهي أفضل من ذلك وأحسن، ثم كان فوق الفضة الذهب فهو أحسن من الفضة وأفضل، ثم كان الحديد ملكك، فهو كان أشد الملوك، وأعز مما كان قبله، وكانت الصخرة التي رأيت، أرسل الله عليه من السماء نبياً، يبعثه الله من السماء،

(١) في قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٢ دانيال فقط والتعبير مختلف.

فيدق ذلك أجمع، ويصير الأمر إليه.

ثم إن أهل بابل قالوا لبختنصر: أرأيت هؤلاء الغلمان، من بني إسرائيل الذين كنا سألناك أن تعطيناهم، ففعلت، فإنا والله، لقد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا علقن بهم، وصرفن وجوههن إليهم، فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم. قال: شأنكم بهم، فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده، فليفعل.

فأخرجوهم، فلما قربوهم للقتل، تضرعوا إلى الله، فقالوا: يا ربنا، أصابنا البلاء بذنوب غيرنا. فتحنن الله عليهم برحمته، فوعدهم أن يحييهم بعد قتلهم، فقتلوا إلا من استبقى بختنصر منهم، وكان ممن استبقى منهم، دانيال وحنانيا وعزاريا.

هلاك بختنصر

قال محمد بن إسحاق: ثم إن الله ـ تبارك وتعالى ـ حين أراد هلاك بختنصر، انبعث فقال لمن كان في يديه من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي أخربت، وهؤلاء الناس الذين قتلت من هم؟، وما هذا البيت؟.

قالوا: هذا بيت الله، ومسجد من مساجده، وهؤلاء أهله، كانوا من ذراري الأنبياء، فظلموا وتعدوا وعصوا، فسلطت عليهم بذنوبهم، وكان ربهم رب السماوات والأرض، ورب الخلق كلهم، يكرمهم ويمنعهم ويعزهم، فلما فعلوا ما فعلوا، أهلكهم الله، وسلط عليهم غيرهم.

قال: فأخبروني ما الذي يطلع بي إلى السماء العليا؛ لعلي أطلع إليها، فأقتل من فيها وأتخذها ملكاً، فإني قد فرغت من الأرض ومن فيها.

قالوا له: ما تقدر على ذلك، وما يقدر على ذلك أحد من الخلائق.

قال: لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم.

فبكوا إلى الله وتضرعوا إليه، فبعث الله بقدرته؛ ليريه ضعفه وهوانه عليه ـ بعوضة فدخلت في منخره ثم ساخت في دماغه، حتى عضت بأم دماغه، فما كان يقر ولا يسكن، حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه. فلما عرف الموت، قال لخاصته من أهله: إذا

مت، فشقوا رأسي فانظروا ما هذا الذي قتلني. فلما مات شقوا رأسه، فوجدوا البعوضة بأم دماغه؛ ليري الله العباد قدرته وسلطانه، ونجى الله من كان بقي في يديه من بني إسرائيل، وترحم عليهم وردهم إلى الشأم، وإلى إيلياء المسجد المقدس، فبنوا فيه وربلوا وكثروا، حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه. فيزعمون ـ والله أعلم ـ أن الله أحيا أولئك الموتى الذين قتلوا فلحقوا بهم[1].

عُزير

ثم إنهم لما دخلوا الشأم، دخلوها وليس معهم عهد من الله؛ كانت التوراة قد استبيت منهم فحرقت وهلكت، وكان عُزير من السبايا الذين كانوا ببابل[2]، فرجع إلى الشأم يبكي عليها ليله ونهاره، قد خرج من الناس، فتوحد منهم، وإنما هو ببطون الأودية يبكي.

فبينما هو كذلك في حزنه على التوراة وبكائه عليها، إذ أقبل إليه رجل، وهو جالس فقال: يا عُزير، ما يبكيك؟.

قال: أبكي على كتاب الله وعهده، كان بين أظهرنا، فبلغت بنا خطايانا، وغضب ربنا علينا، أن سلط علينا عدونا، فقتل رجالنا وأخرب بلادنا، وأحرق كتاب الله الذي بين أظهرنا، الذي لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره، أو كما قال، فعلام أبكي إذا لم أبك على هذا؟!.

قال: أفتحب أن يرد ذلك عليك؟.

قال: وهل إلى ذلك من سبيل؟.

قال: نعم. ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك، ثم موعدك هذا المكان غداً.

فرجع عُزير فصام وتطهر وطهر ثيابه، ثم عمد إلى المكان الذي وعده، فجلس فيه فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء ـ وكان ملَكاً بعثه الله إليه[3] ـ فسقاه من ذلك الإناء

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٤.

(٢) في التوراة: عزرا، وهو كاهن عاد من السبي البابلي الى القدس. سفر نحميا/ ١٢:١.

(٣) كلّفه ملك فارس أرتحشستا أن يكتب شريعة موسى، ويعلّمها بني إسرائيل. سفر عزرا/ ٧: ١ ـ ٢٨.

فمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل، فوضع لهم التوراة، يعرفونها بحلالها وحرامها وسننها وفرائضها وحدودها، فأحبوه حباً لم يحبوه شيئاً قط، وقامت التوراة بين أظهرهم وصلح بها أمرهم، وأقام بين أظهرهم عُزير مؤدياً لحق الله، ثم قبضه الله على ذلك، ثم حدثت فيهم الأحداث، حتى قالوا لعُزير: هو ابن الله[١]. وعاد الله عليهم فبعث فيهم نبياً، كما كان يصنع بهم، يسدد أمرهم ويعلمهم ويأمرهم بإقامة التوراة وما فيها[٢].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ثم عمدت بنو إسرائيل بعد ذلك، يحدثون الأحداث ـ يعني بعد مهلك عُزير[٣] ـ ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون، وفريقا يقتلون، حتى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم، زكريا ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، وكانوا من بيت آل داود[٤].

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٩.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٥٤٧ ـ ٥٥٧.

(٣) يواصل ابن إسحاق أحداث القصة على رواية وهب لها؛ لذلك أكملت ما جاء منها في تفسير الطبري بما جاء في تاريخه، وهو يستمدها من وهب في الموضعين، ويشير الى نقل ابن إسحاق لها. ويؤيد هذا نقل الثعلبي عن ابن إسحاق، قال: إنما الصحيح في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار، قال: عمّرت بنو إسرائيل بيت المقدس، بعد ما عمّرت الشام، وعاد إليها ملكها بعد إخراب بختنصر إياها، وسبيهم منها، فجعلوا يحدثون الأحداث، بعد مهلك عزير عليه السلام. قصص الأنبياء: ٣٠٥.

(٤) تفسير الطبري ١٥: ٤٨ ـ ٥٣.

ذو القرنين

نسب ذي القرنين

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا محمد بن إسحاق قال[١]: ثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب، ممن قد أسلم مما توارثوا من علم ذي القرنين: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مردبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح[٢].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، قال ثني محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد[٣]، عن خالد بن معدان الكلاعي[٤]، وكان خالد رجلاً، قد أدرك الناس يحدّثون أن رسول الله سئل عن ذي القرنين، فقال: (ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب)[٥]. قال خالد: وسمع عمر بن الخطاب رجلاً، يقول: يا ذا القرنين. فقال: اللهم، غفراً، أما رضيتم أن تسمّوا بأسماء الأنبياء، حتى تسمّوا بأسماء الملائكة. فإن كان رسول الله قال ذلك، فالحق ما قال، والباطل ما خالفه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني محمد بن إسحاق، قال: فحدثني من لا أتهم، عن وهب بن منبه اليماني، وكان له علم بالأحاديث الأُوَل: أنه كان يقول: ذو

(١) العظمة رقم الحديث ٩٧٥٢٢ وتفسير القرطبي ١١: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) البدء والتاريخ ٣: ٧٩.وهناك من يرى أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مرائد. التيجان لوهب ٩١. ١٢٠. وليس غريباً أن تدعي الأمم نسبة الأبطال الأسطوريين إليها، بل تنسج صورهم على وفق ما تريد.

(٣) ثور بن يزيد الكلاعي أبو خالد الرحبي روى عن خالد بن معدان، توفي سنة ١٥٣ هـ.. الجرح والتعديل ٢: ٤٦٨.

(٤) خالد بن معدان الكلاعي، أبو عبد الله، أدرك سبعين من أصحاب محمد ﷺ توفي سنة ١٠٣ هـ. التاريخ الكبير ٣: ١٧٦.

(٥) العظمة رقم الحديث ٩٧٦٢٣.

القرنين رجل من الروم، ابن عجوز من عجائزهم، ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر. وإنما سُمّي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس[1].

مبعثه إلى أمم الأرض

فلما بلغ، وكان عبداً صالحاً، قال اللهﷻ له: يا ذا القرنين، إني باعثك إلى أمم الأرض، وهي أمم مختلفة ألسنتهم، وهم جميع أهل الأرض، ومنهم أمتان، بينهما طول الأرض كله، ومنهم أمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم في وسط الأرض، منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض، فأمة عند مغرب الشمس، يقال لها: ناسك. وأما الأخرى، فعند مطلعها، يقال لها: منسك. وأما اللتان بينهما عرض الأرض، فأمة في قطر الأرض الأيمن، يقال لها: هاويل. وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر، فأمة يقال لها: تاويل.

فلما قال الله له ذلك، قال له ذو القرنين: إلهي، إنك قد ندبتني لأمر عظيم، لا يقدر قدره إلا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم التي بعثتني إليها؛ بأي قوة أكابرهم؟، وبأي جمع وحيلة أكاثرهم؟، وبأي حيلة أكايدهم؟، وبأي صبر أقاسيهم؟، وبأي لسان أناطقهم؟، وكيف لي بأن أفقه لغاتهم؟، وبأي سمع أعي قولهم؟، وبأي بصر أنفذهم؟، وبأي حجة أخاصمهم؟، وبأي قلب أعقل عنهم؟، وبأي وحكمة أدبر أمرهم؟، وبأي قسط أعدل بينهم؟، وبأي حلم أصابرهم؟، وبأي معرفة أفصل بينهم؟، وبأي علم أتقن أمورهم؟، وبأي يد أسطو عليهم؟، وبأي رجل أطؤهم؟، وبأي طاقة أخاصمهم؟، وبأي جند أقاتلهم؟، وبأي رفق أستألفهم؟. فإنه ليس عندي يا إلهي، شيء مما ذكرت، يقوم لهم، ولا يقوى عليهم، ولا يطيقهم، وأنت الرب الرحيم، الذي لا يكلّف نفساً إلا وسعها، ولا يحمّلها إلا طاقتها، ولا يعنتها ولا يفدحها، بل أنت ترأفها وترحمها.

قال اللهﷻ: سأطوّقك ما حمّلت؛ أشرح لك صدرك، فيسع كل شيء، وأشرح

---

(١) قال: كان له قرنان تحت عمامته. تفسير القرطبي ٤: ٤٧. وفي تاريخ المسعودي ١: ٧٩ عن وهب أن ذا القرنين، وهو الإسكندر، كان بعد المسيح في الفترة، وأنه حلم حلماً، رأى فيه أنه دنا من الشمس، فأخذ بقرنيها في شرقيها وغربيها، فقص رؤياه على قومه، فسموه بذي القرنين.

لك فهمك فتفقه كل شيء، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل شيء، وأفتح لك سمعك فتعي كل شيء، وأمد لك بصرك فتنفذ كل شيء، وأدبر لك أمرك فتتقن كل شيء، وأحصي لك فلا يفوتك شيء، وأحفظ عليك فلا يعزب عنك شيء، وأشدُّ لك ظهرك فلا يهدُّك شيء، وأشدُّ لك ركنك فلا يغلبك شيء، وأشدُّ لك قلبك فلا يروعك شيء، وأسخّر لك النور والظلمة، ، فأجعلهما جنداً من جنودك، يهديك النور أمامك، وتحوط بك الظلمة من ورائك، وأشدُّ لك عقلك فلا يهولك شيء، وأبسط لك من بين يديك، فتسطو فوق كل شيء، وأشدُّ لك وطأتك فتهدّ كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يرومك شيء.

القتال بالنور والظلمة

فلما قيل له ذلك، حدثته نفسه بالمسير وألحّ عليه قومه بالمقام، فلم يفعل وقال: لا بد من طاعة الله تعالى. ثم أمرهم أن يبنوا له مسجداً، وأن يجعلوا طول المسجد أربعمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع، وعرض أساس حائطه أربعة وعشرين ذراعاً، وطوله في السماء مائة ذراع، وأمرهم أن ينصبوا فيه السواري. قالوا: كيف نصنع؟. قال: إذا فرغتم من شأن الحيطان فاكبسوها بالتراب، حتى يستوي الكبس مع حائط المسجد، فإذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره، وعلى المقتر قدره، وقطعتموه مثل قلامة الظفر، ثم خلطتموه بذلك الكبس، وجعلتم خشباً من نحاس ووتداً من نحاس وصفائح من نحاس، تذيبون ذلك وأنتم ممكنون من العمل، كيف شئتم على أرض مستوية، وجعلتم طول كل خشبة مائة ذراع وأربعة وعشرين ذراعاً ومائتي ذراع فيما بين الحيطان، لكل حائط اثنا عشر ذراعاً، ثم تدعون المساكين لنقل التراب فيسارعون إليه، لما فيه من الذهب والفضة، فمن حمل شيئاً فهو له. ففعلوا ذلك فأخرج المساكين ذلك التراب، واستقر السقف بما عليه واستغنى المساكين، فكان جندهم أربعين ألفاً، فجعلهم أربعة أجناد في كل جند عشرة آلاف، ثم عرض جنده فوجدهم، فيما قيل ألف ألف[1].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٢٥.

ثم انطلق يؤم الأمة التي عند مغرب الشمس، فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

فلما بلغهم وجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله، وقوة وبأساً لا يطيقه إلا الله، (وألسنة مختلفة، وأهواء متشتتة، وقلوباً متفرقة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾[1])[2].

فلما رأى ذلك كاثرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاثة عساكر منها، فأحاطتهم من كل مكان، وحاشتهم في مكان واحد، ثم أخذ عليه بالنور، فدعاهم إلى الله، وإلى عبادته، فمنهم من آمن له، ومنهم من صدّ عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه، فأدخل عليهم الظلمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، ودخلت في بيوتهم ودورهم، وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب منهم، فماجوا فيها وتحيروا، فلما أشفقوا أن يهلكوا فيها، عجُّوا إليه بصوت واحد، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، فدخلوا في دعوته.

فجنّد من أهل المغرب أمماً عظيمة، فجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم من خلفهم، وتحرسهم من حولهم، والنور أمامهم يقودهم ويدلهم، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى، وهو يريد الأمة التي في قطر الأرض الأيمن، التي يقال لها: هاويل.

وسخر الله له يده وقلبه ورأيه وعقله ونظره وائتماره، فلا يخطئ إذا ائتمر، وإذا عمل عملاً أتقنه، فانطلق يقود تلك الأمم، وهي تتبعه، فإذا انتهى إلى بحر أو مخاضة، بنى سفناً من ألواح صغار، أمثال النعال، فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه، من تلك الأمم وتلك الجنود، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها، ثم دفع إلى كل إنسان لوحاً، فلا يكرثه حمله، فلم يزل كذلك دأبه، حتى انتهى إلى هاويل، فعمل فيها كعمله في ناسك.

فلما فرغ منها، مضى على وجهه في ناحية الأرض اليمنى، حتى انتهى إلى

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

(٢) ما بين المعقوفتين من قصص الأنبياء للثعلبي.

منسك، عند مطلع الشمس، فعمل فيها، وجنَّد منها جنوداً، كفعله في الأمتين اللتين قبلها، ثم كرَّ مقبلاً في ناحية الأرض اليسرى، وهو يريد تاويل، وهي الأمة التي بحيال هاويل، وهما متقابلتان، بينهما عرض الأرض كله، فلما بلغها عمل فيها، وجند منها، كفعله فيما قبلها، فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾[1]. فلما فرغ منها، عطف منها إلى الأمم التي في وسط الأرض، من الجن وسائر الناس، ويأجوج ومأجوج.

ياجوج وماجوج

فلما كان في بعض الطريق، مما يلي منقطع الترك نحو المشرق، قالت له أمة من الإنس صالحة: يا ذا القرنين، إن بين هذين الجبلين خلقاً من خلق الله، وكثير منهم مشابه للإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش، كما تفترسها السباع، ويأكلون خشاش الأرض كلها، من الحيات والعقارب، وكل ذي روح، مما خلق الله في الأرض، وليس لله خلق ينمو نماءهم في العام الواحد، ولا يزداد كزيادتهم، ولا يكثر ككثرتهم، فإن كانت لهم مدة على ما نرى من نمائهم وزيادتهم، فلا شكَّ أنهم سيملؤون الأرض، ويجلون أهلها عنها، ويظهرون عليها فيفسدون فيها، وليست تمرُّ بنا سنة، منذ جاورناهم إلا، ونحن نتوقعهم، وننتظر أن يطلع علينا أوائلهم، من بين هذين الجبلين، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾[2]. أعدُّوا إليَّ الصخور والحديد والنحاس، حتى أرتاد بلادهم، وأعلم علمهم، وأقيس ما بين جبليهم.

ثم انطلق يؤمهم؛ حتى دُفع إليهم وتوسط بلادهم، فوجدهم على مقدار واحد، ذكرهم وأنثاهم، مبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخالب في موضع الأظفار من أيدينا، وأضراس وأنياب كأضراس السباع وأنيابها، وأحناك كأحناك الإبل قوة، تُسمع لها حركة، إذا أكلوا، كحركة الجرة من الإبل، أو كقضم الفحل المسنّ، أو الفرس القوي، وهم هلب عليهم من الشعر، في أجسادهم، ما يواريهم، وما

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.

يتقون به الحر والبرد إذا أصابهم، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، إحداهما وبرة ظهرها وبطنها، والأخرى زغبة ظهرها وبطنها، تسعانه اذا لبسهما، يلتحف إحداهما، ويفترش الأخرى، ويصيّف في إحداهما، ويشتي في الأخرى.

وليس منهم ذكر ولا أنثى، إلا وقد عرف أجله الذي يموت فيه، ومنقطع عمره؛ وذلك أنه لا يموت ميت من ذكورهم، حتى يخرج من صلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى، حتى يخرج من رحمها ألف ولد، فإذا كان ذلك أيقن بالموت، وهم يرزقون التنين أيام الربيع، ويستمطرونه إذا تحيّنوه، كما نستمطر الغيث لحينه، فيقذفون منه كل سنة بواحد فيأكلونه، عامهم كله إلى مثله من العام القابل، فيغنيهم على كثرتهم ونمائهم، فإذا أمطروا وأخصبوا، وعاشوا وسمنوا ورؤي أثره عليهم، درَّت عليهم الإناث، وشبقت منهم الرجال الذكور، وإذا أخطأهم هزلوا وأجدبوا، وجفرت الذكور، وحالت الإناث، وتبين أثر ذلك عليهم، وهم يتداعون تداعي الحمام، ويعوون عواء الكلاب، ويتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم. فلما عاين ذلك منهم ذو القرنين، انصرف إلى ما بين الصدفين[1]، فقاس ما بينهما، وهو في منقطع أرض الترك ـ مما يلي مشرق الشمس ـ فوجد بعد ما بينهما مئة فرسخ[2].

بناء السد

فلما أنشأ في عمله، حفر له أساساً، حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً، وجعل حشوه الصخور، وطينه النحاس، يذاب ثم يصب عليه، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض، ثم علاه وشرّفه بزبر الحديد والنحاس المذاب، وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر، فصار كأنه برد محبَّر، من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد[3]، فلما فرغ منه وأحكمه، انطلق عامداً إلى جماعة الإنس والجن.

---

(١) الجبلين.

(٢) روى في طول ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً، قاله وهب بن منبه. تفسير القرطبي ١١: ٦٢.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٢٨.

الأمة الصالحة

فبينا هو يسير، دُفع إلى أمة صالحة، يهدون بالحق وبه يعدلون، فوجد أمة مقسطة مقتصدة، يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، ويتآسون ويتراحمون، حالهم واحدة، وكلمتهم واحدة، وأخلاقهم مشتبهة، وطريقتهم مستقيمة، وقلوبهم متألفة، وسيرتهم حسنة، وقبورهم بأبواب بيوتهم، وليس على بيوتهم أبواب، وليس عليهم أمراء، وليس بينهم قضاة، وليس بينهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف، ولا يتفاوتون، ولا يتفاضلون، ولا يختلفون، ولا يتنازعون، ولا يستبُّون، ولا يقتتلون، ولا يقحطون، ولا يحردون، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس، وهم أطول الناس أعماراً، وليس فيهم مسكين ولا فقير ولا فظ ولا غليظ.

فلما رأى ذلك ذو القرنين من أمرهم، عجب منه، وقال: أخبروني أيها الـ خبركم؛ فإني قد أحصيت الأرض كلها، برها وبحرها، وشرقها وغربها، ونورها وظلمته، فلم أجد مثلكم، فأخبروني خبركم.

قالوا: نعم. فسلنا عما تريد؟.

قال: أخبروني ما بال قبور موتاكم على أبواب بيوتكم؟!.

قالوا: عمداً فعلنا ذلك؛ لئلا ننسى الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا.

قال: فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب؟!.

قالوا: ليس فينا متهم، وليس منا إلا أمين مؤتمن.

قال: فما لكم ليس عليكم أمراء؟!.

قالوا: لا نتظالم.

قال: فما بالكم ليس فيكم حكام؟!.

قالوا: لا نختصم.

قال: فما بالكم أغنياء؟!.

قالوا: لا نتكاثر.

قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟!.

قالوا: لا نتكابر.

قال: فما بالكم لا تتنازعون، ولا تختلفون؟!.

قالوا: من قبل ألفة قلوبنا، وصلاح ذات بيننا.

قال: فما بالكم لا تستبتون، ولا تقتتلون؟!.

قالوا: من قبل أنا غلبنا طبائعنا بالعزم وسسنا أنفسنا بالأحلام.

قال: فما بالكم كلمتكم واحدة، وطريقتكم مستقيمة مستوية؟!.

قالوا: من قبل أنا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضاً.

قال: فأخبروني من أين تشابهت قلوبكم، واعتدلت سيرتكم؟!.

قالوا: صحت صدورنا، فنزع بذلك الغل والحسد من قلوبنا.

قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟!.

قالوا: من قبل أنا نقتسم بالسوية.

قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟!.

قالوا: من قبل الذل والتواضع.

قال: فما جعلكم أطول الناس أعماراً؟!.

قالوا: من قبل أنا نتعاطى الحق، ونحكم بالعدل.

قال: فما بالكم لا تقحطون؟!.

قالوا: لا نغفل عن الاستغفار.

قال: فما بالكم لا تحردون؟!.

قالوا: من قبل أنا وطأنا أنفسنا للبلاء منذ كنا، وأحببناه وحرصنا عليه فعرينا منه.

قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات، كما تصيب الناس؟!.

قالوا: لا نتوكل على غير الله، ولا نعمل بالأنواء والنجوم.

قال: حدثوني أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟!.

قالوا: نعم. وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويستغفرون لمن سبّهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أماناتهم، ويحفظون وقتهم لصلاتهم، ويوفون بعهودهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم، فأصلح الله لهم بذلك أمرهم، وحفظهم ما كانوا أحياء، وكان حقاً على الله أن يحفظهم في تركتهم[1].

قال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ فذكر أن ذا القرنين قال لتلك الأمة: لو كنت مقيماً، لأقمت فيكم ولكن لم أؤمر بالقيام.[2]

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ثم الظفري[3]، عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل[4]، عن أبي سعيد الخدري[5]، قال: سمعت رسول الله يقول: يُفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله ﷻ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[6]. فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمرّ بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يابساً، حتى إن مَن بعدهم ليمرّ بذلك النهر، فيقول: لقد كان ها هنا ماء مرة، حتى لم يبق من الناس أحد، إلا انحاز إلى حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء.

---

(١) قصة الأمة المؤمنة في التيجان لوهب:١١٢.

(٢) العظمة رقم الحديث ٩٦٥١٢. ورواية ابن إسحاق للقصة الكاملة فيه.

(٣) ... الظفري الأنصاري الأوسي المديني، روى عنه محمد بن إسحاق، توفي سنة ١٢٠ هـ. التاريخ الكبير ٦: ٤٧٨.

(٤) محمود بن لبيد الأشهلي الأنصاري، توفي سنة ٩٦ هـ. التاريخ الكبير ٧: ٤٠٢.

(٥) سعد بن مالك بن سنان أبو سعيد الخدري الأنصاري، توفي سنة ٧٤ هـ. التاريخ الكبير ٤: ٤٤.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

قال: ثم يهزُّ أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مخضبة دماً؛ للبلاء والفتنة، فبيناهم على ذلك، بعث الله عليهم دوداً في أعناقهم كالنغف، فتخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حسّ، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه، فينظر ما فعل العدو؟.

قال: فيتجرد رجل منهم لذلك، محتسباً لنفسه قد وطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا؛ فإن الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنهم أحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابت قط[1].

(١) تفسير الطبري ١٦: ٢٣ ـ ٢٩. والحديث في صحيح ابن حبان رقم الحديث ٦٨٣٠.

زكريا ويحيى

آل داود

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: عمدت بنو إسرائيل، بعد ذلك يحدثون الأحداث ـ يعني بعد مهلك عزير ـ ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون، وفريقا يقتلون، حتى كان آخر من بعث الله فيهم، من أنبيائهم، زكريا، ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم، وكانوا من بيت آل داود(١).

ـ عن ابن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، أنه قال: مريم ـ فيما بلغني عن نسبها ـ ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن منشأ بن حزقيا بن أحزق بن يوثام بن عزريا ابن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن يهشافاظ بن أسا بن أبيا بن رحبعم بن سليمان(٢). فولد لزكريا يحيى، ابن خالة عيسى بن مريم، فنبئ صغيراً فساح ثم دخل الشأم، يدعو الناس، ثم اجتمع يحيى وعيسى، ثم افترقا بعد أن عمَّد يحيى عيسى(٣). وأما امرأة عمران، فهي أم مريم ابنة عمران، أم عيسى ابن مريم ـ صلوات الله عليه ـ وكان اسمها ـ فيما ذكر لنا ـ حنة ابنة فاقوذ بن قتيل.

---

(١) تفسير الطبري ١٥: ٥٣ وتاريخه١: ٥٩٠ وفي تاريخ المسعودي ١: ٧٥ زكريا بن أدق من ولد داود من سبط يهوذا، تزوج أشباع بنت عمران، أخت مريم بنت عمران واسم أم أشباع ومريم حنة. وكان زكريا نجاراً، وقد أشاعت اليهود أنه ركب من مريم الفاحشة فقتلوه، كان، لما أحس بهم لجآ الى شجرة فدخل في جوفها، فدلهم عليه إبليس فنشروا الشجرة، وهو فيها. وفي الإنجيل:كان في أيام هيرودس، ملك اليهودية، كاهن اسمه زكريا، من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون اسمها إلبصابات. إنجيل لوقا/١: ٥ وقصته فيه.

(٢) عمران بن ماتان بن يعاميم من ولد داود. تاريخ المسعودي ١: ٧٥، وفي قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٣٣ بألفاظ أخرى.

(٣) تاريخ الطبري ١: ٥٨٦ وتفسير ابن كثير ١: ٣٥٩.وبينهما اختلاف في اللفظ.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني محمد بن إسحاق، قال: تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا، وكانت أم مريم عند عمران، فهلك عمران، وأم مريم حامل بمريم، فهي جنين.

قال: وكانت ـ فيما يزعمون ـ قد أمسك عنها الولد، حتى أسنت، وكانوا أهل بيت، من الله ـ جل ثناؤه ـ بمكان[1]، فبينا هي في ظل شجرة، نظرت إلى طائر يطعم فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، وقالت: اللهم، لك عليَّ، إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه؛ نذراً وشكراً[2] فحملت بمريم وهلك عمران، فلما عرفت أن في بطنها جنيناً، جعلته لله نذيرة، والنذيرة أن تعبده لله، فتجعله حبساً في الكنيسة، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا[3]، فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران: ويحك، ماذا صنعت؟ أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى، والأنثى عورة، لا تصلح لذلك؟.

فوقعا جميعاً في همٍّ من ذلك، فهلك عمران، وحنة حامل بمريم، فلما وضعتها، إذا هي جارية، فقالت حنة، وكانت ترجو أن يكون غلاماً؛ اعتذاراً إلى الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي في خدمة الكنيسة والعبادة فيها؛ لعورتها وضعفها وما يعتورها من الحيض والنفاس والأذى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[4]. وهي بلغتهم العابدة والخادمة، وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن في وقتها، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ يعني سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبت في المدة اليسيرة، كما ينبت المولود في المدة الطويلة.

ـ حدثنا أبو كريب قال: ثنا عبدة بن سليمان[5]، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد

(١) مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٤٨.

(٢) من قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٣٣.

(٣) تفسير الطبري ٣: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وتفسير ابن كثير ١: ٣٦٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٥) عبدة بن سليمان الحافظ الحجة أبو محمد الكلابي الكوفي، توفي سنة ١٨٨هـ. سير أعلام النبلاء ٨: ٥١١.

ابن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: (ما من نفس مولود يولد، إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة، وبها يستهل الصبي، إلا ما كان من مريم ابنة عمران، فإنها لما وضعتها، قالت: رب، إني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، فضُرب دونها حجاب، فطعن فيه)(١).

فلما ولدت مريم، أخذتها أمها حنة، فلفتها في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، أبناء هارون، وهم يومئذٍ، ثلاثون في بيت المقدس، كما يلي الحجبة أمر الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار؛ لأنها كانت بنت أمامهم وصاحب قربانهم، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها منكم؛ لأن عندي خالتها. فقالت له الأحبار: لا تفعل ذلك؛ فإنها لو تركت لأحق للناس، وأقربهم إليها، لتركت لأمها التي ولدتها، ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه.

فاتفقوا على ذلك ثم انطلقوا، وكانوا تسعة عشر رجلاً إلى نهر جار، فألقوا أقلامهم أي سهامهم، وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، في الماء، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، وانحدرت أقلامهم، ورسبت في الماء. قاله ابن إسحاق وجماعة.

كفالة زكريا

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، قال: ثني محمد بن إسحاق قال: كفلها زكريا(٢)، بعد هلاك أمها، فضمها إلى خالتها أم يحيى حتى، إذا بلغت أدخلوها الكنيسة؛ لنذر أمها الذي نذرت فيها، فجعلت تنبت وتزيد.

قال: ثم أصابت بني إسرائيل أزمة، وهي على ذلك من حالها، حتى ضعف زكريا عن حملها، فخرج على بني إسرائيل، فقال: يا بني إسرائيل، أتعلمون والله، لقد ضعفت عن حمل ابنة عمران؟. فقالوا: ونحن لقد جهدنا، وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم. فتدافعوها بينهم، وهم لا من حملها بداً، حتى تقارعوا بالأقلام، فخرج السهم بحملها

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٣٨ ـ ٢٣٩. والحديث في صحيح ابن حبان رقم الحديث ٦٢٣٥ بلفظ آخر.

(٢) هو، كما أشرنا، من فرقة أبيا، وهو أبو يحيى، يوحنا المعمدان، ولكن اليعقوبي في تاريخه ١: ٦٨ قال: زكريا بن برخيا... وكان كاهن الهيكل.وهذا غير ذاك بحسب ما جاء في قاموس الكتاب المقدس: ٤٢٨. فربما حصل تداخل بين الشخصيتين.

على رجل من بني إسرائيل، نجار يقال له: جريج[1].

قال: فعرفت مريم في وجهه ذلك عليه، فكانت تقول له: يا جريج، أحسن بالله الظن، فإن الله سيرزقنا. فجعل جريج يرزق بمكانها، فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها، فإذا أدخله عليها، وهي في الكنيسة، أنماه الله وكثّره، فيدخل عليها زكريا، فيرى عندها فضلاً من الرزق، وليس بقدر ما يأتيها به جريج، فيقول: يا مريم، أنى لك هذا؟!. فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

وإنما كان زكريا يقول ذلك لها؛ لأنه كان ـ فيما ذكر لنا ـ يغلق عليها سبعة أبواب، ويخرج ثم يدخل عليها، فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فكان يعجب مما يرى من ذلك، ويقول لها تعجباً مما يرى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ فتقول: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، حدثني بذلك المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع، وحدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثني بعض أهل العلم. فذكر نحوه.

دعاء زكريا

قال: فدعا زكريا، عند ذلك، بعد ما أسنَّ، ولا ولد له، وقد انقرض أهل بيته، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[3]. ثم شكا إلى ربه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[4]. ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾[5]. وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان، ويفتح باب المذبح، فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول، فبينما هو في محرابه عند المذبح قائم يصلي، والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول، إذا هو برجل

---

(١) يوسف بن يعقوب بن ماثان، وكان ابن عم لها. قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٣٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٤) سورة مريم، الآيات: ٤ ـ ٦.

(٥) تفسير الطبري ٣: ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨.

شاب عليه ثياب بيض، ففزع منه، فناداه، وهو جبريل عليه السلام: يا زكريا ﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾[1].

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه اليماني، قال: أخذ الله بلسانه من غير سوء، فجعل لا يطيق الكلام، وإنما كلامه لقومه بالإشارة، حتى مضت الثلاثة الأيام التي جعلها الله آية، لمصداق ما وعده من هبته له[2].

يحيى بن زكريا

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن يحيى بن سعيد[3]، عن سعيد بن المسيب[4]، أنه قال: ثني ابن العاص[5] أنه سمع رسول الله يقول: كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا. قال: ثم دلّى رسول الله يده إلى الأرض، فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: وذلك أنه لم يكن له ما للرجال، إلا مثل هذا العود، وبذلك سماه الله سيداً وحصوراً[6]. وهو يحيى[7] بن زكريا بن أدى بن مسلم بن صدوق بن نحشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخية بن شفاطية بن فاحور بن شلوم بن يهفاشاط بن أسا بن أبيا بن رحبعم بن سليمان بن داود.

مقتل يحيى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثني محمد بن إسحاق، عن عمر بن عبد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩. قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٣٦.

(٢) تفسير الطبري ١٦: ٦٦.

(٣) أبو سعيد يحيى بن سعيد الأنصاري سمع أنساً وابن المسيب، توفي سنة ٤٣ هـ. الكنى والأسماء ١: ٣٥٧.

(٤) سعيد بن المسيب بن حزن أبو محمد القرشي، توفي سنة ٩٣ هـ. التاريخ الكبير ٣: ٥١٠.

(٥) عمرو بن العاص بن وائل الإمام أبو عبد الله، توفي سنة ٤٢ هـ. سير أعلام النبلاء ٣: ٥٤.

(٦) تفسير الطبري ٣: ٢٥٥. وعن سمرة عن كعب قال: ثم كان يحيى بن زكريا سيداً وحصوراً، وكان لا يقرب النساء ولا يشتهيهن، وكان شاباً حسن الوجه والصورة، لين الجناح قليل الشعر قصير الأنف أقرن الحاجبين دقيق الصوت، كثير العبادة قوياً في طاعة الله. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٥٠. والحديث في مجمع الزوائد، باب في ذكر يحيى وزكريا.

(٧) يوحنا المعمدان، مهيئ طريق المسيح. قاموس الكتاب المقدس ١١٠٦.

الله بن عروة، عن عبد الله بن الزبير أنه قال، وهو يحدث عن قتل يحيى بن زكريا، قال: ما قتل يحيى بن زكريا، إلا بسبب امرأة بغي، من بغايا بني إسرائيل، كان فيهم ملك، وكان يحيى بن زكريا تحت يدي ذلك الملك، فهمت ابنة ذلك الملك بأبيها، فقالت: لو أني تزوجت بأبي، فاجتمع لي سلطانه دون النساء.

فقالت له: يا أبت، تزوجني.

ودعته إلى نفسها، فقال لها: يا بنية، إن يحيى بن زكريا لا يحلّ لنا هذا.

فقالت: من لي بيحيى بن زكريا، ضيّق عليَّ، وحال بيني وبين أن أتزوج بأبي، فأغلب على ملكه ودنياه دون النساء.

قال: فأمرت اللعابين ومحلت بذلك؛ لأجل قتل يحيى بن زكريا، فقالت: ادخلوا عليه فالعبوا، حتى إذا فرغتم فإنه سيحكمكم، فقولوا: دم يحيى بن زكريا، ولا تقبلوا غيره.

وكان اسم الملك رواد، واسم ابنته البغي[1]، وكان الملك فيهم، إذا حدث فكذب، أو وعد فأخلف، خلع فاستبدل به غيره، فلما ألعبوه، وكثر عجبه منهم، قال: سلوني أعطكم.

فقالوا له: نسألك دم يحيى بن زكريا، أعطنا إياه.

قال: ويحكم هذا !.

فقالوا: لا نسألك شيئاً غيره.

فخاف على ملكه، إن هو أخلفهم؛ أن يستحل بذلك خلعه، فبعث إلى يحيى بن زكريا، وهو جالس في محرابه يصلي، فذبحوه في طست، ثم حزوا رأسه، فاحتمله رجل في يده، والدم يحمل في الطست معه.

قال: فطلع برأسه يحمله، حتى وقف به على الملك، ورأسه يقول، في يدي الذي يحمله: لا يحل لك ذلك.

(١) وبّخ يوحنا الملك هيرودوس؛ لأنه يريد الزواج من زوجة هيروديا أخيه فيلبس فحبسه ثم قطع رأسه. إنجيل لوقا/ ٧: ١٩ - ٢٠ وإنجيل متى/١٤: ٣ - ١١ وتاريخ اليعقوبي١: ٧١.

فقال رجل من بني إسرائيل: أيها الملك، لو أنك وهبت لي هذا الدم؟.

فقال: وما تصنع به؟.

قال: أطهر منه الأرض، فإنه كان قد ضيّقها علينا.

فقال: أعطوه هذا الدم.

فأخذه فجعله في قلة، ثم عمد به إلى بيت في المذبح، فوضع القلة فيه، ثم أغلق عليه، ففار في القلة حتى خرج منها من تحت الباب من البيت، الذي هو فيه، فلما رأى الرجل ذلك، فظع به فأخرجه فجعله في فلاة من الأرض، فجعل يفور وعظمت فيهم الأحداث، ومنهم من يقول: أقرّ مكانه في القربان، ولم يحول.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: قال ابن إسحاق: فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم، وقتلوا يحيى بن زكريا، وبعض الناس يقول: وقتلوا زكريا، ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل، يقال له: خردوس[(١)]. فسار إليهم بأهل بابل، حتى دخل عليهم الشام، فلما ظهر عليهم، أمر رأساً من رؤوس جنده، يدعى: نبوزراذان صاحب القتل[(٢)]. فقال له: إني قد كنت حلفت بإلهي، لئن أظهرنا على أهل بيت المقدس، لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، إلا أن لا أجد أحداً أقتله. فأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم. وإن نبوزراذان دخل بيت المقدس، فأقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم، فوجد فيها دماً يغلي، فسألهم فقال: يا بني إسرائيل، ما شأن هذا الدم الذي يغلي؟ أخبروني خبره، ولا تكتموني شيئاً من أمره.

فقالوا: هذا دم قربان، كان لنا كنا قربناه، فلم يتقبل منا؛ فلذلك هو يغلي، كما تراه، ولقد قربنا منذ ثمان مئة سنة، القربان فتقبل منا، إلا هذا القربان.

قال: ما صدقتموني الخبر.

---

(١) هو في تاريخ المسعودي ١: ٧٤ حردوس، ملك بعثه الله عليه من ناحية المشرق، وهو نبوخذ نصر. الملك البابلي، معنى اسمه نبو حامي الحدود. قاموس الكتاب المقدس: ٩٥٤.

(٢) نبو زراذان رئيس شرط نبوخذنصر. سفر الملوك الثاني/٢٥: ٨ ـ ٩.

قالوا له: لو كان كأول زماننا، لقُبل منا، ولكنه قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي؛ فلذلك لم يتقبل منا.

فذبح منهم نبوزراذان؛ على ذلك الدم، سبع مئة وسبعين روحاً من رؤوسهم، فلم يهدأ، فأمر بسبع مئة غلام من غلمانهم، فذبحوا على الدم، فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من شيعهم وأزواجهم، فذبحهم على الدم، فلم يبرد ولم يهدأ، فلما رأى نبوزراذان أن الدم لا يهدأ، قال لهم: ويلكم يا بني إسرائيل، أصدقوني واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض، تفعلون فيها ما شئتم، قبل أن لا أترك منكم نافخ نار، لا أنثى ولا ذكراً إلا قتلته.

فلما رأوا الجهد وشدة القتل، صدقوه الخبر، فقالوا له: إن هذا دم نبي منا، كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله، فلو أطعناه فيها، لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم، فلم نصدقه، فقتلناه فهذا دمه.

فقال لهم نبوزراذان: ما كان اسمه؟.

قالوا: يحيى بن زكريا.

فقال: الآن صدقتموني، بمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

فلما رأى نبوزراذان أنهم صدقوه، خرَّ ساجداً، وقال لمن حوله: غلّقوا الأبواب أبواب المدينة، وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوس. وخلا في بني إسرائيل. ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربي وربك، ما قد أصاب قومك من أجلك، وما قتل منهم من أجلك، فاهدأ بإذن الله، قبل أن لا أبقي من قومك أحداً.

فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله، ورفع نبوزراذان عنهم القتل، وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل، وصدقت وأيقنت أنه لا رب غيره، ولو كان معه آخر، لم يصلح، ولو كان له شريك، لم تستمسك السماوات والأرض، ولو كان له ولد، لم يصلح، فتبارك وتقدس وتسبح وتكبر وتعظم ملك الملوك، الذي له ملك السماوات السبع

والأرض، وما فيهن وما بينهما، وهو على كل شيء قدير، فله الحلم والعلم والعزة والجبروت، وهو الذي بسط الأرض، وألقى فيها رواسي؛ لا تزول، فكذلك ينبغي لربي أن يكون ويكون ملكه.

فأوحى الله إلى رأس من رؤوس بقية الأنبياء: أن نبوزراذان حبور صدوق - والحبور بالعبرانية حديث الإيمان - وإن نبوزراذان قال لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل، إن عدو الله خردوس، أمرني أن أقتل منكم، حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لست أستطيع أن أعصيه. قالوا له: افعل ما أُمرت به. فأمرهم فحفروا خندقاً، وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والإبل، فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قبل ذلك، فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، حتى كانوا فوقهم، فلم يظن خردوس إلا أن ما كان في الخندق، من بني إسرائيل. فلما بلغ الدم عسكره، أرسل إلى نبوزراذان: أن ارفع عنهم، فقد بلغتني دماؤهم، وقد انتقمت منهم بما فعلوا. ثم انصرف عنهم إلى أرض بابل، وقد أفنى بني إسرائيل، أو كاد.

وهي الوقعة الآخرة التي أنزل الله ببني إسرائيل، يقول الله - عز ذكره - لنبيه محمد: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾[١].

فكانت الوقعة الأولى لبختنصر وجنوده ثم رد الله لكم الكرة عليهم، وكانت لهم الديانة والرئاسة، وكانت الوقعة الآخرة لخردوس وجنوده، وهي كانت أعظم الوقعتين، فيها كان خراب بلادهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، فلم تقم بعد ذلك قائمة،

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤ - ٨.

ولا راية، وانتُقل عن الشام ونواحيها إلى الروم واليونانية، إلى أن تناسل بنو إسرائيل، وكثروا وانتشروا بعد ذلك، وأحدثوا الأحداث، واستحلوا المحارم، وضيعوا الحدود، فسلط الله عليهم بلطوس بن أسنابوس، فخرب بلادهم، وطردهم منها، ونزع الله تعالى منهم الملك والرئاسة، وضرب عليهم الذلة، فليسوا في أمة من الأمم، إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية، والملك في غيرهم، وبقي بيت المقدس خراباً، إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعمره المسلمون بأمره[1].

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾، ثم عاد الله عليهم فأكثر عددهم، ونشرهم في بلادهم، ثم بدلوا وأحدثوا الأحداث، واستبدلوا بكتابهم غيره، وركبوا المعاصي، واستحلوا المحارم، وضيعوا الحدود.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن أبي عتاب، رجل من تغلب كان نصرانياً عمراً من دهره، ثم أسلم بعد، فقرأ القرآن، وفقه في الدين وكان، فيما ذكر، أنه كان نصرانياً أربعين سنة، ثم عمر في الإسلام أربعين سنة، قال: كان آخر أنبياء بني إسرائيل نبياً، بعثه الله إليهم، فقال لهم: يا بني إسرائيل إن الله يقول لكم: إني قد سلبت أصواتكم وأبغضتكم بكثرة أحداثكم. فهموا به؛ ليقتلوه، فقال الله ـ تبارك وتعالى ـ له: ائتهم واضرب لي ولهم مثلاً، فقل لهم: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول لكم: اقضوا بيني وبين كرمي، ألم أختر له البلاد، وطيبت له المدرة، وحظرته بالسياج، وعرّشته السويق والشوك والسياج والعوسج، وأحطته بردائي، ومنعته من العالم، وفضلته، فلقيني بالشوك والجذوع، وكل شجرة لا تؤكل. ما لهذا اخترت البلدة، ولا طيبت المدرة، ولا حظرته بالسياج، ولاعرّشته السويق، ولا أحطته بردائي، ولا منعته من العالم. فضلتكم وأتممت عليكم نعمتي، ثم استقبلتموني بكل ما أكره من معصيتي، وخلاف أمري، لمه؟!. إن الحمار ليعرف مذوده، و البقرة لتعرف سيدها؟!. وقد حلفت بعزتي العزيزة، وبذراعي الشديد، لآخذن ردائي، ولأمرجن الحائط، ولأجعلنكم تحت أرجل العالم.

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٧.

قال: فوثبوا على نبيهم، فقتلوه فضرب الله عليهم الذل، ونزع منهم الملك، فليسوا في أمة من الأمم، إلا وعليهم ذل وصغار وجزية، يؤدونها، والملك في غيرهم من الناس، فلن يزالوا كذلك أبداً، ما كانوا على ما هم عليه.

قال: قال: فهذا ما انتهى إلينا من جماع أحاديث بني إسرائيل[1].

---

(١) تفسير الطبري ١٥: ٥٣ ـ ٥٦ وتاريخه ١: ٥٩٠ ـ ٥٩٣ وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٠٥ ـ ٣٠٧.

مريم وعيسى

مولد عيسى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال ثني ابن إسحاق، قال: كانت مريم[1] حبيساً في الكنيسة، ومعها في الكنيسة غلام، اسمه يوسف[2]، وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيراً حبيساً، فكانا في الكنيسة جميعاً، وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف، أخذا قلتيهما، فانطلقا إلى المفازة التي فيها الماء الذي يستعذبان منه، فيملآن قلتيهما، ثم يرجعان إلى الكنيسة، والملائكة في ذلك مقبلة على مريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]. فإذا سمع ذلك زكريا قال: إن لابنة عمران لشأناً[4].

قال: فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبرائيل، وكان أطول يوم في السنة، وأشده حراً، نفد ماؤها، فقالت: يا يوسف، ألا تذهب بنا نستقي؟.

قال: إن عندي لفضلاً من ماء، أكتفي به يومي هذا إلى غد.

قالت: لكني والله، ما عندي ماء، فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها، حتى دخلت المغارة، فوجدت عندها جبرائيل، قد مثله الله لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾[5]. وهي تحسبه رجلاً من بني آدم[6].

---

(١) قصة مريم وكثير من تفصيلاتها في الأناجيل المعروفة.

(٢) يوسف النجار، من آل داود، كانت مريم مخطوبة له. إنجيل متى/١: ١٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٤) تفسير الطبري ٣: ٢٦٤.

(٥) سورة مريم، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٦) تقي اسم فاجر معروف، في ذلك الوقت. قاله وهب بن منبه. تفسير القرطبي ١١: ٩١.

فقال لها: يا مريم، إن الله قد بعثني إليك؛ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾[1]. أي أن الله قد قضى أن ذلك كائن[2]. فلما قال ذلك، استسلمت لقضاء الله، فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها، وملأت قلتها.

ـ وقد روي عن وهب بن منبه قول هذا، وذلك ما حدثنا به ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال: لما حضر ولادها ـ يعني مريم ـ ووجدت ما تجد المرأة من الطلق، خرجت من المدينة مغربة من إيلياء، حتى تدركها الولادة، إلى قرية من إيلياء على ستة أميال، يقال لها: بيت لحم[3]. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾[4]. إلى أصل نخلة، إليها مدود بقرة، تحتها ربيع من الماء، فوضعته عندها.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال: أنساها ـ يعني مريم ـ كرب البلاء وخوف الناس، ما كانت تسمع من الملائكة، من البشارة بعيسى، حتى إذا كلمها ـ يعني عيسى ـ وجاءها مصداق ما كان الله وعدها، احتملته ثم أقبلت به إلى قومها.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال: لما رأوها ورأوه معها، ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[5]. أي الفاحشة غير المقاربة[6].

ـ عن وهب بن منبه: لما أتت به قومها تحمله، تسامع بذلك بنو إسرائيل فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدت امرأة يدها إليها؛ لتضربها فأجف الله شطرها، فحملت كذلك،

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٢) تفسير الطبري ١٦: ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) تاريخ المسعودي ١: ٧٦ وإنجيل لوقا/٢: ٥.

(٤) سورة مريم، الآية: ٢٣.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٧.

(٦) تفسير الطبري ١٦: ٨٢. ٩٦. ٩٧.

وقال آخر: ما أراها إلا زنت. فأخرسه الله تعالى، فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون، فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[1].

قال: حدثني محمد بن سهل بن عسكر البخاري قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال: حدثني عبد الصمد بن معقل ابن أخي وهب قال: سمعت وهباً قال: لما أرسل الله ﷻ جبرئيل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. ثم نفخ في جيب درعها، حتى وصلت النفخة إلى الرحم، واشتملت على عيسى.

قال: وكان معها ذو قرابة لها، يقال له: يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان ذلك المسجد، يومئذ، من أعظم مساجدهم، وكانت مريم ويوسف، يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان، وكان لخدمته فضل عظيم، فرغبا في ذلك، فكانا يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وكناسته وطهوره، وكل عمل يعمل فيه، فكان لا يُعلم من أهل زمانهما، أحد أشد اجتهاداً وعبادة منهما، وكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف، فلما رأى الذي بها استفظعه، وعظم عليه، وفظع به، ولم يدر على ماذا يضع أمرها، فإذا أراد يوسف أن يتهمها، ذكر صلاحها وبراءتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها، رأى الذي ظهر بها. فلما اشتد عليه ذلك كلمها، فكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد وقع في نفسي من أمرك أمر، قد حرصت على أن أميته، وأكتمه في نفسي، فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري.

قالت: فقل قولاً جميلاً.

قال: ما كنت لأقول إلا ذلك، فحدثيني هل ينبت زرع بغير بذر؟.

قالت: نعم.

قال: فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟.

---

(١) تفسير القرطبي ١١: ٩٩.

قالت: نعم.

قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟.

قالت: نعم. ألم تعلم أن الله أنبت الزرع، يوم خلقه، من غير بذر؟، والبذر إنما كان من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر؟. أولم تعلم أن الله أنبت الشجر من غيرغيث؟، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجرة، بعد ما خلق كل واحد منهما وحده؟. أو تقول: لم يقدر الله على أن ينبت الشجر، حتى استعان عليه بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته؟.

قال لها يوسف: لا أقول ذلك، ولكني أعلم أن الله بقدرته على ما يشاء، يقول لذلك: كن فيكون.

قالت له مريم: أو لم تعلم أن الله ﷻ خلق آدم وامرأته، من غير ذكر ولا أنثى؟.

قال: بلى.

فلما قالت له ذلك، وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله ﷻ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه؛ وذلك لما رأى من كتمانها لذلك، ثم تولى يوسف خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه؛ وذلك لما رأى من رقة جسمها، واصفرار لونها، وكلف وجهها، وضعف قوتها، ودأب نظرها، ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك.

فلما دنا نفاسها، أوحى الله إليها: أن اخرجي من أرض قومك؛ فإنهم إن ظفروا بك عيروك، وقتلوا ولدك، فأفضت عند ذلك إلى أختها، وأختها حينئذ حبلى، وقد بشرت بيحيى، فلما التقيا وجدت أم يحيى ما في بطنها خرَّ لوجهه ساجداً معترفاً بعيسى[1]، فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، ليس بينها، حين ركبت الحمار وبين الإكاف، شيء، فانطلق يوسف بها حتى إذا كان متاخماً لأرض مصر في منقطع بلاد قومها، أدرك مريم النفاس، وألجأها إلى أري حمار - يعني مزود الحمار - في أصل نخلة، وذلك في زمان الشتاء، فاشتد على مريم المخاض، فلما وجدت منه شدة، التجأت إلى النخلة، فاحتضنتها واحتوشتها الملائكة، وقاموا صفوفاً، محدقين بها.

(١) إنجيل لوقا/١: ٤٤.

فلما وضعت، وهي محزونة، قيل لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ إلى ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1]. فكان الرطب يتساقط عليها، وذلك في الشتاء، فأصبحت الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، حين ولدت بكل أرض، مقلوبة منكوسة على رؤوسها، ففزعت الشياطين وراعها، فلم يدروا ما سبب ذلك، فساروا عند ذلك مسرعين، حتى جاؤوا إبليس، وهو على عرش له، في لجة خضراء، يتمثل بالعرش، يوم كان على الماء، يتمثل بحجب النور التي من دون الرحمن، فأتوه وقد خلا ست ساعات من النهار، فلما رأى إبليس جماعتهم، فزع من ذلك ولم يرهم جميعاً، منذ فرقهم قبل تلك الساعة، إنما كان يراهم أشتاتاً، فسألهم فأخبروه أنه قد حدث في الأرض حدث، أصبحت الأصنام منكوسة على رؤوسها، ولم يكن شيء أعون على هلاك بني آدم منها، كنا ندخل في أجوافها فنكلمهم أمرهم، فيظنون أنها التي تكلمهم، فلما أصابها هذا الحدث صغرها في أعين بني آدم وأذلها وأدناها ذلك، وقد خشينا ألا يعبدوها بعد هذا أبداً، وأعلم أنا لم نأتك، حتى أحصينا الأرض والبحار وكل شيء قوينا عليه، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلاً. قال لهم إبليس: إن هذا الأمر عظيم، لقد علمت بأني كتمته، وكونوا على مكانكم هذا.

فطار إبليس عند ذلك فلبث عنهم ثلاث ساعات، فمر فيهن بالمكان الذي ولد فيه عيسى، فلما رأى الملائكة محدقين بذلك المكان، علم أن ذلك الحدث فيه، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه، فإذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم عند السماء، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض، فإذا أقدام الملائكة راسية أسفل مما أراد إبليس، ثم أراد أن يدخل من بينهم فنحوه عن ذلك.

ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال لهم: ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها، مشرقها ومغربها وبرها وبحرها، والخافقين، والجو الأعلى، وكل هذا بلغت في ثلاث ساعات. وأخبرهم بمولد المسيح وقال لهم: لقد كتمت شأنه، وما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمي، ولا وضعته قط إلا وأنا حاضرها، وأني لأرجو أن أضل به أكثر مما يهتدى به، وما كان نبي قبله، أشد عليّ وعليكم منه.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٦.

وخرج في تلك الليلة قوم، يؤمّونه من أجل نجم، طلع أنكروه، وكان قبل ذلك يتحدثون: أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال. فخرجوا يريدونه، ومعهم الذهب والمر واللبان، فمروا بملك من ملوك الشأم، فسألهم أين يريدون، فأخبروه بذلك. قال: فما بال الذهب والمر واللبان أهديتموها له من بين الأشياء كلها؟!. قالوا: تلك أمثاله؛ لأن الذهب هو سيد المتاع كله، وكذلك هذا النبي هو سيد أهل زمانه، ولأن المر يجبر به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبي يشفي به الله كل سقيم ومريض، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، كذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء، لا يرفع في زمانه أحد غيره.

فلما قالوا ذلك، لذلك الملك، حدث نفسه بقتله فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك؛ فإني أرغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره.

فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى هذا الملك؛ ليعلموه مكان عيسى، فلقيهم ملَك فقال لهم: لا ترجعوا إليه، ولا تعلموه بمكانه؛ فإنه إنما أراد بذلك ليقتله. فانصرفوا في طريق آخر، واحتملته مريم على ذلك الحمار، ومعها يوسف حتى وردا أرض مصر؛ فهي الربوة التي قال الله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[1].

نشاة عيسى

فمكثت مريم اثنتي عشرة سنة، تكتمه من الناس، لا يطلع عليه أحد، وكانت مريم لا تأمن عليه ولا على معيشته أحداً؛ كانت تلتقط السنبل من حيث ما سمعت بالحصاد، والمهد في منكبها، والوعاء الذي تجعل فيه في منكبها الآخر، حتى تم لعيسى عليه السلام اثنتا عشرة سنة. فكان أول آية رآها الناس منه، أن أمه كانت نازلة في دار دهقان من أهل مصر، فكان ذلك الدهقان قد سرقت له خزانة، وكان لا يسكن في داره إلا المساكين، فلم يتهمهم فحزنت مريم لمصيبة الدهقان، فلما أن رأى عيسى حزن أمه

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠. تاريخ الطبري ١: ٥٩٣ ـ ٥٩٧.

بمصيبة صاحب، قال لها: يا أمه، أتحبين أن أدله على ما له؟.

قالت: نعم، يا بني.

قال: قولي له: يجمع لي مساكين داره.

فقالت مريم للدهقان ذلك، فجمعت له مساكين داره، فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم، أحدهما أعمى والآخر مقعد، فحمل المقعد على عاتق الأعمى، ثم قال له: قم به.

قال الأعمى: أنا أضعف من ذلك.

قال عيسى عليه السلام: فكيف قويت على ذلك البارحة؟!.

فلما سمعوه يقول ذلك، بعثوا الأعمى حتى قام به، فلما استقل قائماً حاملاً، هوي المقعد إلى كوة الخزانة.

قال عيسى: هكذا احتالا لمالك البارحة؛ لأنه استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينيه. فقال المقعد والأعمى: صدق.

فردّا على الدهقان ماله ذلك، فوضعه الدهقان في خزانته، وقال: يا مريم، خذي نصفه.

قالت: إني لم أخلق لذلك.

قال الدهقان: فأعطيه ابنك.

قالت: هو أعظم مني شأناً.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: لما بلغ عيسى تسع سنين، أو عشراً، أو نحو ذلك[1]، أدخلته أمه الكتّاب ـ فيما يزعمون ـ فكان عند رجل من المكتبين، يعلمه كما يعلم الغلمان، فلا يعلمه شيئاً مما يعلمه الغلمان، إلا بدره إلى علمه قبل أن يعلمه إياه، فيقول: ألا تعجبون لابن هذه الأرملة، ما أذهب أعلمه شيئاً، إلا

(١) حدثت قصة عيسى مع المعلم، وله اثنتا عشرة سنة. إنجيل لوقا/ ٢: ٤٢.

وجدته أعلم به مني؟![1].

ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس ابن له، فصنع له عيداً، فجمع عليه أهل مصر كلهم، فلما انقضى ذلك، زاره قوم من أهل الشأم، لم يعلم الدهقان حتى نزلوا به، وليس عنده يومئذ شراب، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك، دخل بيتاً من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار، فأمرَّ عيسى يده على أفواهها، وهو يمشي فكلما أمر يده على جرة، امتلأت شراباً، حتى أتى عيسى على آخرها، وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة، فلما فعل ذلك عيسى، فزع الناس لشأنه، وما أعطاه الله من ذلك، فأوحى الله ﷻ إلى أمه مريم: أن اطلعي به إلى الشأم. ففعلت الذي أمرت به.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا ابن إسحاق: أن عيسى ـ صلوات الله عليه ـ جلس يوماً مع غلمان من الكتاب، فأخذ طيناً، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائراً.

قالوا: وتستطيع ذلك؟.

قال: نعم، بإذن ربي.

ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر، نفخ فيه، ثم قال: كن طائراً بإذن الله. فخرج يطير بين كفيه، فخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروه لمعلمهم، فأفشوه في الناس، وترعرع، فهمت به بنو إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حمير لها، ثم خرجت به هاربة. وذُكر أنه لما أراد أن يجعل الطير من الطين، سألهم: أي الطير أشد خلقاً؟. فقيل له: الخفاش[2].

مبعث عيسى

فلم يزل بالشأم حتى كان ابن ثلاثين سنة، فجاءه الوحي على ثلاثين سنة[3]، وكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه، فلما رآه إبليس يوم لقيه على العقبة، لم يطق

(١) تفسير الطبري ٣: ٢٧٩.

(٢) تفسير الطبري ٣:٢٧٥.

(٣) إنجيل لوقا/٣: ٢٣.

منه شيئاً، فتمثل له برجل ذي سن وهيئة، وخرج معه شيطانان، كما تمثل إبليس، حتى خالطوا جماعة الناس.

وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى، في الجماعة الواحدة، خمسون ألفاً، فمن أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق ذلك منهم أتاه عيسى عليه السلام يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله عز وجل، فجاءه إبليس في هيئة يبهر الناس حسنها وجمالها، فلما رآه الناس فرغوا له ومالوا نحوه، فجعل يخبرهم بالأعاجيب، فكان في قوله: إن شأن هذا الرجل لعجب، تكلم في المهد، وأحيا الموتى، وأنبأ عن الغيب، وشفى المريض؛ فهذا الله.

قال أحد صاحبيه: جهلت أيها الشيخ، وبئس ما قلت؛ لا ينبغي لله أن يتجلى للعباد، ولا يسكن الأرحام، ولا تسعه أجواف النساء، ولكنه ابن الله.

وقال الثالث: بئس ما قلتما، كلاكما قد أخطأ وجهل، ليس ينبغي لله أن يتخذ ولداً، ولكنه إله معه. ثم غابوا حين فرغوا من قولهم، فكان ذلك آخر العهد منهم[1].

رفع عيسى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كان اسم ملك بني إسرائيل، الذي بعث إلى عيسى؛ ليقتله رجلاً منهم، يقال له: داود، فلما أجمعوا لذلك منه، لم يفظع عبد من عباد الله بالموت ـ فيما ذكر لي ـ فظعه ولم يجزع منه جزعه، ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول ـ فيما يزعمون ـ: اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك، فاصرفها عني. وحتى إن جلده من كرب ذلك، ليتفصد دماً. فدخل المدخل، الذي أجمعوا أن يدخل عليه فيه؛ ليقتلوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى، فلما أيقن أنهم داخلون عليه، قال لأصحابه من الحواريين، وكانوا اثني عشر رجلاً[2]: بطرس، ويعقوب بن زبدي،

(١) تاريخ الطبري ١: ٥٩٧ ـ ٥٩٩ وقصته مع إبليس في إنجيل لوقا/٤:١ وما بعدها، بألفاظ أخرى.

(٢) هم سمعان بطرس وأندراوس ويعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه وفيلبس وبرثولماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفي ولباوس الملقب تداوس، ويسمى يهوذا بن حلفي وسمعان القانوي، وهو الغيور، ويهوذا الإسخريوطي. قاموس الكتاب المقدس: ٤٠٣ .

ويحنس أخو يعقوب، وأندراوس، وفيلبس، وأبرثلما، ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلقيا، وتداوس، وفتاتيا، ويودس زكريا يوطا[١].

قال ابن حميد: قال سلمة: قال ابن إسحاق: وكان فيهم - فيما ذكر لي - رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً، سوى عيسى، جحدته النصارى؛ وذلك أنه هو الذي شُبِّه لليهود مكان عيسى.

قال: فلا أدري ما هو من هؤلاء الاثني عشر، أم كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى، وكفروا بما جاء به محمد من الخبر عنه؟. فإن كانوا ثلاثة عشر، فإنهم دخلوا المدخل، حين دخلوا، وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر، فإنهم دخلوا المدخل، حين دخلوا، وهم بعيسى ثلاثة عشر.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ثني رجل كان نصرانياً، فأسلم: أن عيسى، حين جاءه من الله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[٢]. قال: يا معشر الحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة؛ حتى يشبه للقوم في صورتي، فيقتلوه مكاني. فقال سرجس: أنا يا روح الله. قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه، ورُفع عيسى - صلوات الله عليه - فدخلوا عليه، فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه، وشبه لهم به، وكانت عدتهم، حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم فأحصوا عدتهم، فلما دخلوا عليه ليأخذوه، وجدوا عيسى وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدة، فهو الذي اختلفوا فيه.

وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريايوطا ثلاثين درهماً؛ على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه، فإني سأقبّله، وهو الذي أقبل، فخذوه. فلما دخلوا عليه، وقد رفع عيسى، رأى سرجس في صورة عيسى، فلم يشك أنه هو عيسى، فأكبَّ عليه، فقبله فأخذوه فصلبوه. ثم إن يودس زكريايوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه[٣]، وهو ملعون في النصارى، وقد كان أحد

(١) هو يهوذا الإسخريوطي، التلميذ الذي خان، فدلّ على عيسى، كما سيأتي.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٣) إنجيل متى/ ٢٧: ٥.

المعدودين من أصحابه. وبعض النصارى يزعم أن يودس زكريايوطا هو الذي شبه لهم، فصلبوه، وهو يقول: إني لست بصاحبكم، أنا الذي دللتكم عليه. والله أعلم أي ذلك كان[١].

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عمن لا يتهم، عن وهب ابن منبه اليماني قال: توفى الله عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار، حتى رفعه الله إليه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أنه توفاه الله سبع ساعات من النهار، ثم أحياه الله، فقال له: اهبط فأنزل على مريم المجدلانية[٢] في جبلها، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها، ولم يحزن عليك أحد حزنها، ثم لتجمعْ لك الحواريين، فبثّهم في الأرض، دعاة إلى الله، فإنك لم تكن فعلت ذلك.

مريم المجدلانية

وكانت قصة مريم المجدلانية[٣]، أنها كانت من بني إسرائيل، في قرية من قرى إنطاكية يقال لها: مجدلان، وكانت امرأة صالحة، وكانت تستحاض فلا تطهر، فخطبها أشراف بني إسرائيل فامتنعت، فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم، ولم يكن ذلك ترفعاً، وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم، فلما سمعت بمجيء عيسى عليه السلام وبما كان يشفي الله على يديه من المرضى الزمنى[٤]، أقبلت إليه رجاء الشفاء، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة، استحيت وانصرفت إلى ورائه، ووضعت يدها على ظهره، فقال عيسى: لقد مسّني ذو عاهة بنية حسنة، ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتي. فأذهب الله عنها ما بها، وبرأت وطهرت، فلما أمر الله عيسى بالنزول بعد سبعة أيام من رفعه، هبط عليها. فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل، حين هبط نوراً، فجمعت له الحواريين، فبثّهم وأمرهم أن يبلغوا الناس عنه ما أمره الله به، ثم رفعه الله إليه، فكساه الريش، وألبسه النور، وقُطع

(١) تفسير الطبري ٤: ١٤ ـ ١٥.
(٢) من تلميذات عيسى، تبعته من الجليل تخدمه. إنجيل متى/٥٥ ـ ٥٦.
(٣) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٦١.
(٤) أصحاب العاهات.

عن لذة المطعم والمشرب، فطار في الملائكة، وهو معهم حول العرش، فكان إنسياً ملكياً، سمائياً أرضياً، وتفرق الحواريون حيث أمرهم، فتلك الليلة التي أهبط فيها، الليلة التي تدخن فيها النصارى[1].

الحواريون

وكان ممن وجه من الحواريين والأتباع، الذين كانوا في الأرض بعدهم، بطرس الحواري، ومعه بولس، وكان من الأتباع، ولم يكن من الحواريين إلى رومية[2]، وأندرايس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وهي - فيما نرى - للأساود، وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق، وفيلبس إلى القيروان وقرطاجنة، وهي إفريقية، ويحنس إلى قرية الفتية، أصحاب الكهف، ويعقوبس إلى أوريشلم، وهي إيليا بيت المقدس، وابن تلما إلى العرابية، وهي أرض الحجاز، وسيمن إلى أرض البربر، دون إفريقية، ويهوذا، ولم يكن من الحواريين إلى أريوبس؛ جُعل مكان زكريا يوطا، حين أحدث ما أحدث.

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن عمر بن عبد الله بن عروة ابن الزبير، عن ابن سليم الأنصاري ثم الزرقي، قال: كان على امرأة منا نذر؛ لتظهرن على رأس الجماء - جبل بالعقيق من ناحية المدينة -.

قال: فظهرت معها حتى إذا استوينا على رأس الجبل، إذا قبر عظيم عليه حجران عظيمان: حجر عند رأسه، وحجر عند رجليه، فيهما كتاب بالمسند، لا أدري ما هو، فاحتملت الحجرين معي، حتى إذا كنت ببعض الجبل منهبطاً، ثقلا علي، فألقيت أحدهما، وهبطت بالآخر، فعرضته على أهل السريانية: هل يعرفون كتابه؟، فلم يعرفوه، وعرضته على من يكتب بالزبور من أهل اليمن، ومن يكتب بالمسند، فلم يعرفوه.

---

(١) قال وهب: وزعمت النصارى أن مريم ولدت عيسى لمضي ثلاث مائة سنة وثلاث وستين من وقت ولادة الإسكندر، وزعموا أن مولد يحيى بن زكريا كان قبل مولد عيسى بستة أشهر، وزعموا أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع ابن اثنين وثلاثين سنة، وأنها عاشت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها ستاً وخمسين سنة. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٦٤.

(٢) بطرس وبولص. تاريخ المسعودي ١: ٣٤٣.

قال: فلما لم أجد أحداً ممن يعرفه، ألقيته تحت تابوت لنا، فمكث سنين، ثم دخل علينا ناس من أهل ماه من الفرس، يبتغون الخرز، فقلت لهم: هل لكم من كتاب؟. فقالوا: نعم. فأخرجت إليهم الحجر، فإذا هم يقرؤونه، فإذا هو بكتابهم: هذا قبر رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام إلى أهل هذه البلاد، فإذا هم كانوا أهلها في ذلك الزمان، مات عندهم، فدفنوه على رأس الجبل.

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ثم عدوا على بقية الحواريين، يشمّسونهم ويعذبونهم، وطافوا بهم، فسمع بذلك ملك الروم، وكانوا تحت يديه، وكان صاحب وثن، فقيل له: إن رجلاً كان في هؤلاء الناس الذين تحت يديك من بني إسرائيل، عدوا عليه، فقتلوه، وكان يخبرهم أنه رسول الله قد أراهم العجائب، وأحيا لهم الموتى، وأبرأ لهم الأسقام، وخلق لهم من الطين كهيئة الطير، ونفخ فيه فكان طائراً بإذن الله، وأخبرهم بالغيوب.

قال: ويحكم، فما منعكم أن تذكروا هذا لي من أمره، وأمرهم فوالله، لو علمت ما خليت بينهم وبينه؟!. ثم بعث إلى الحواريين، فانتزعهم من أيديهم، وسألهم عن دين عيسى وأمره، فأخبروه خبره، فتابعهم على دينهم، واستنزل سرجس فغيبه، وأخذ خشبته التي صلب عليها، فأكرمها وصانها؛ لما مسها منه، وعدا على بني إسرائيل، فقتل منهم قتلى كثيرة، فمن هنالك كان أصل النصرانية في الروم[1].

عودة عيسى

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري، عن حنظلة بن علي الأسلمي[2]، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليهبطن الله عيسى ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يجد من يأخذه، وليسلكن الروحاء حاجاً، أو معتمراً، أو يدين بهما جميعاً)[3].

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٦٠١ ـ ٦٠٤.وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٦٢.

(٢) حنظلة بن علي بن الأسقع الأسلمي،سمع أبا هريرة وروى عنه الزهري. التاريخ الكبير ١: ٣٨.

(٣) مسند أبي يعلى رقم الحديث ٥٨٧٧. بلفظ مقارب.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن عبد الرحمن بن آدم[١]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه خليفتي على أمتي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر، وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، ويقاتل الناس على الإسلام، حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة، الكذاب الدجال، وتقع في الأرض الأمنة، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمر مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان بالحيات، لا يضر بعضهم بعضاً، فيثبت في الأرض أربعين سنة، ثم يُتوفى، فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه)[٢].

---

(١) عبد الرحمن بن آدم صاحب السقاية مولى أم برثن البصري، روى عن أبي هريرة، من التابعين. التاريخ الكبير ٥: ٢٥٤.

(٢) تفسير الطبري ٣: ٢٩١ ومستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٦٣.

أصحاب الكهف[1]

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: مرج أمر أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، وطغت فيهم الملوك؛ حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم على ذلك بقايا على أمر عيسى ابن مريم، متمسكون بعبادة الله وتوحيده.

الملك دقينوس

فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم، ملك من الروم يقال له: دقينوس. كان قد عبد الأصنام، وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه في ذلك، ممن أقام على دين عيسى ابن مريم[2]. وكان ينزل في قرى الروم، فلا يترك في قرية ينزلها، أحداً ممن يدين بدين عيسى ابن مريم إلا قتله، حتى يعبد الأصنام ويذبح للطواغيت، حتى نزل دقينوس مدينة الفتية، أصحاب الكهف[3]، فلما نزلها دقينوس، كبر ذلك على أهل الإيمان،

---

(١) كان أصحاب الكهف في أيام ملوك الطوائف، وهؤلاء، كما قال الطبري: سُمّوا ملوك الطوائف؛ لأن كل ملك منهم كان ملكه قليلاً من الأرض، إنما هي قصور وأبيات، وحولها خندق وعدوّه قريب منه، له من الأرض مثل ذلك ونحوه، يغير أحدهما على صاحبه ثم يرجع. تاريخ الطبري ١: ٦١٠.

(٢) من الناس من زعم أن أصحاب الكهف كانوا في زمن الفترة، ومنهم من زعم غير ذلك. تاريخ المسعودي ١: ٧٩.

(٣) روى وهب بن منبه: أن أول أمرهم إنما كان حواري لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف، يريد دخولها فأجر نفسه من صاحب الحمام، وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه أمره وعرف ذلك الرجل فتيان من المدينة، فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك، بامرأة أراد الخلوة بها، فنهاه ذلك الحواري فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه في دخول الحمام مع البغي، فدخل فماتا فيه جميعاً، فأتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعاً، حتى دخلوا الكهف. وقيل في هذا: وأما الكلب، فروي أنه كان كلب صيد لهم، وروي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً، له كلب، فاتبعهم الراعي على رأيهم، وذهب الكلب معهم. تفسير القرطبي ١٠: ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

فاستخفوا منه، وهربوا في كل وجه.

وكان دقينوس قد أمر، حين قدمها، أن يُتبع أهل الإيمان، فيُجمعوا له، واتخذ شُرَطاً من الكفار من أهلها، فجعلوا يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم التي يستخفون فيها؛ فيستخرجونهم إلى دقينوس، فقدمهم إلى المجامع التي يذبح فيها للطواغيت، فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة، ويفظع بالقتل فيفتتن، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل، فلما رأى ذلك أهل الصلابة من أهل الإيمان بالله، جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل؛ فيقتلون ويقطعون، ثم يربط ما قطع من أجسادهم، فيعلق على سور المدينة من نواحيها كلها، وعلى كل باب من أبوابها، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فمنهم من كفر فتُرك، ومنهم من صلب على دينه فقتل، فلما رأى ذلك الفتية، أصحاب الكهف حزنوا حزناً شديداً، حتى تغيرت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، واستعانوا بالصلاة والصيام، والصدقة والتحميد، والتسبيح والتهليل، والتكبير والبكاء، والتضرع إلى الله، وكانوا فتية أحداثاً أحراراً من أبناء أشراف الروم.

شخصيات أصحاب الكهف

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حُدثت أنه كان على بعضهم من حداثة أسنانه، وضح الورق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك في عبادة الله، ليلهم ونهارهم، يبكون إلى الله ويستغيثونه، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا، وكان أكبرهم، وهو الذي كلم الملك عنهم، ومحسيميلنينا، ويمليخا، ومرطوس، وكشوطوش، ويرونس، ودينموس، ويطونس قالوس.

فلما أجمع دقينوس أن يُجمع أهل القرية؛ لعبادة الأصنام والذبح للطواغيت، بكوا إلى الله وتضرعوا إليه، وجعلوا يقولون: اللهم، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾[1]. اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة، وادفع عنهم البلاء، وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك، ومُنعوا عبادتك إلا سراً، مستخفين بذلك، حتى يعبدوك علانية.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٤.

فبينما هم على ذلك، عرفهم عرفاؤهم من الكفار، ممن كان يجمع أهل المدينة؛ لعبادة الأصنام والذبح للطواغيت، وذكروا أمرهم، وكانوا قد خلوا في مصلى لهم، يعبدون الله فيه، ويتضرعون إليه، ويتوقعون أن يذكروا لدقينوس، فانطلق أولئك الكفرة، حتى دخلوا عليهم مصلاهم، فوجدوهم سجوداً على وجوههم، يتضرعون ويبكون، ويرغبون إلى الله، أن ينجيهم من دقينوس وفتنته، فلما رآهم أولئك الكفرة من عرفائهم، قالوا لهم: ما خلفكم عن أمر الملك؟ انطلقوا إليه.

ثم خرجوا من عندهم، فرفعوا أمرهم إلى دقينوس، وقالوا: تجمع الناس للذبح، لآلهتك، وهؤلاء فتية من أهل بيتك، يسخرون منك، ويستهزئون بك، ويعصون أمرك، ويتركون آلهتك، ويعمدون إلى مصلى لهم، ولأصحاب عيسى ابن مريم يصلون فيه، ويتضرعون إلى إلههم، وإله عيسى وأصحاب عيسى، فلم تتركهم يصنعون هذا، وهم بين ظهراني سلطانك وملكك، وهم ثمانية نفر، رئيسهم مكسلمينا، وهم أبناء عظماء المدينة؟.

أمام الملك

فلما قالوا ذلك لدقينوس، بعث إليهم فأتى بهم من المصلى الذي كانوا فيه، تفيض أعينهم من الدموع، معفرة وجوههم في التراب، فقال لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لآلهتنا التي تُعبد في الأرض، وأن تجعلوا أنفسكم أسوة لسراة أهل مدينتكم، ولمن حضر منا من الناس، اختاروا مني إما أن تذبحوا لآلهتنا، كما ذبح الناس، وإما أن أقتلكم.

فقال مكسلمينا: إن لنا إلهاً، نبعده ملأ السماوات والأرض عظمته، لن ندعو من دونه إلهاً أبداً، ولن نقر بهذا الذي تدعونا إليه أبداً، ولكننا نعبد الله ربنا، له الحمد والتكبير والتسبيح من أنفسنا، خالصاً أبداً إياه نعبد، وإياه نسأل النجاة والخير، فأما الطواغيت وعبادتها، فلن نقر بها أبداً، ولسنا بكائنين عباداً للشياطين، ولا جاعلي أنفسنا وانفسنا عباداً لها، بعد إذ هدانا الله له، فاصنع بنا ما بدا لك. ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقينوس مثل ما قال.

قال: فلما قالوا ذلك له، أمر بهم فنُزع عنهم لبوس، كان عليهم من لبوس

عظمائهم، ثم قال: أما إذ فعلتم ما فعلتم، فإني سأؤخركم أن تكونوا من أهل مملكتي، وبطانتي وأهل بلادي، وسأفرغ لكم؛ فأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة، وما يمنعني أن أعجل ذلك لكم، إلا أني أراكم فتياناً حديثة أسنانكم، ولا أحب أن أهلككم، حتى أستأني بكم، وأنا جاعل لكم أجلاً، تذكرون فيه، وتراجعون عقولكم. ثم أمر بحلية، كانت عليهم من ذهب وفضة، فنزعت عنهم، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده، وانطلق دقينوس مكانه إلى مدينة، سوى مدينتهم التي هم بها، قريباً منها لبعض ما يريد من أمره.

فلما رأى الفتية دقينوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه، وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يُذكَّر بهم، فائتمروا بينهم أن يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت أبيه، فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل، يقال له: بنجلوس. فيمكثوا فيه ويعبدوا الله، حتى إذا رجع دقينوس أتوه، فقاموا بين يديه، فيصنع بهم ما شاء.

خروج أصحاب الكهف

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، عمد كل فتى منهم، فأخذ من بيت أبيه نفقة، فتصدق منها، وانطلقوا بما بقي معهم من نفقتهم، واتبعهم كلب لهم، حتى أتوا ذلك الكهف الذي في ذلك الجبل، فلبثوا فيه، ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح والتكبير والتحميد؛ ابتغاء وجه الله تعالى، والحياة التي لا تنقطع، وجعلوا نفقتهم إلى فتى منهم، يقال له: يمليخا، فكان على طعامهم، يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة، سراً من أهلها؛ وذلك أنه كان من أجملهم وأجلدهم، فكان يمليخا يصنع ذلك، فإذا دخل المدينة يضع ثياباً، كانت عليه حساناً، ويأخذ ثياباً كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها، ثم يأخذ ورقه، فينطلق إلى المدينة، فيشتري لهم طعاماً وشراباً، ويتسمع ويتجسس لهم الخبر: هل ذُكر هو وأصحابه بشيء من ملأ المدينة، ثم يرجع إلى أصحابه بطعامهم وشرابهم، ويخبرهم بما سمع من أخبار الناس، فلبثوا بذلك ما لبثوا.

ثم قدم دقينوس الجبار المدينة التي منها خرج إلى مدينته، وهي مدينة أفسوس، فأمر عظماء أهلها، فذبحوا للطواغيت، ففزع من ذلك أهل الإيمان، فتخبأوا من كل مخبأ، وكان يمليخا بالمدينة، يشتري لأصحابه طعامهم وشرابهم، ببعض نفقتهم، فرجع

إلى أصحابه، وهو يبكي ومعه طعام قليل، فأخبرهم أن الجبار دقينوس قد دخل المدينة، وأنهم قد ذُكروا وافتُقِدوا والتُمِسوا مع عظماء أهل المدينة؛ ليذبحوا للطواغيت، فلما أخبرهم بذلك، فزعوا فزعاً شديداً، ووقعوا سجوداً على وجوههم، يدعون الله، ويتضرعون إليه، ويتعوذون به من الفتنة.

ثم إن يمليخا قال لهم: يا إخوتاه، ارفعوا رؤوسكم، فاطعموا من هذا الطعام الذي جئتكم به، وتوكلوا على ربكم، فرفعوا رؤوسهم، وأعينهم تفيض من الدمع حذراً، وتخوفاً على أنفسهم، فطعموا منه، وذلك مع غروب الشمس، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون، ويذكر بعضهم بعضاً على حزن منهم، مشفقين مما أتاهم به صاحبهم من الخبر.

النوم في الكهف

فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[1]. ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾[2]. بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم، وهم مؤمنون موقنون مصدقون بالوعد، ونفقتهم موضوعة عندهم، فلما كان الغد فقدهم دقينوس فالتمسهم، فلم يجدهم فقال لعظماء أهل المدينة: لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا، لقد كانوا يظنون أن بي غضباً عليهم، فيما صنعوا في أول شأنهم؛ لجهلهم ما جهلوا من أمري، ما كنت لأجهل عليهم في نفسي، ولا أؤاخذ أحداً منهم بشيء، إن هم تابوا وعبدوا آلهتي، ولو فعلوا لتركتهم، وما عاقبتهم بشيء، سلف منهم. فقال له عظماء أهل المدينة: ما أنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة، مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم، وقد كنت أجلتهم أجلاً، وأخرتهم عن العقوبة التي أصبت بها غيرهم، ولو شاؤوا لرجعوا في ذلك الأجل، ولكنهم لم يتوبوا، ولم ينزعوا، ولم يندموا على ما فعلوا، وكانوا منذ انطلقت، يبذرون أموالهم بالمدينة، فلما علموا بقدومك، فروا فلم يروا بعد، فإن أحببت أن تُؤتى بهم، فأرسل إلى آبائهم، فامتحنهم واشدد عليهم، يدلوك عليهم؛ فإنهم مختبئون منك.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٨.

فلما قالوا ذلك لدقينوس الجبار، غضب غضباً شديداً، ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فسألهم عنهم، وقال: أخبروني عن أبنائكم المردة، الذين عصوا أمري، وتركوا آلهتي، ائتوني بهم، وأنبئوني بمكانهم. فقال له آباؤهم: أما نحن، فلم نعص أمرك، ولم نخالفك، قد عبدنا آلهتك، وذبحنا لهم، فلِمَ تقتلنا في قوم مردة، قد ذهبوا بأموالنا، فبذروها وأهلكوها في أسواق المدينة، ثم انطلقوا فارتقوا في جبل يدعى بنجلوس، وبينه وبين المدينة أرض بعيدة؛ هرباً منك.

فلما قالوا ذلك، خلّى سبيلهم، وجعل يأتمر ماذا يصنع بالفتية، فألقى الله ﷻ في نفسه أن يأمر بالكهف، فيُسدُّ عليهم؛ كرامة من الله، أراد أن يكرمهم، ويكرم أجساد الفتية، فلا يجول ولا يطوف بها شيء، وأراد أن يحييهم ويجعلهم آية، لأمة تستخلف من بعدهم، وأن يبين لهم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

فأمر دقينوس بالكهف أن يُسد عليهم، وقال: دعوا هؤلاء الفتية المردة، الذين تركوا آلهتي فليموتوا، كما هم في الكهف، عطشاً وجوعاً، وليكن كهفهم الذي اختاروا لأنفسهم قبراً لهم. ففُعِل بهم ذلك عدو الله، وهو يظن أنهم أيقاظ، يعلمون ما يصنع بهم، وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم، وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، قد غشاه الله ما غشاهم، يقلبون ذات اليمين وذات الشمال.

ثم إن رجلين مؤمنين، كانا في بيت الملك دقينوس، يكتمان إيمانهما، اسم أحدهما بيدروس، واسم الآخر روناس، فائتمرا أن يكتبا شأن الفتية، أصحاب الكهف، أنسابهم وأسماءهم وأسماء آبائهم، وقصة خبرهم، في لوحين من رصاص، ثم يصنعا له تابوتاً من نحاس، ثم يجعلا اللوحين فيه، ثم يكتبا عليه في الكهف، بين ظهراني البنيان، ويختما على التابوت بخاتمهما وقالا: لعل الله أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين، قبل يوم القيامة، فيعلم من فتح عليهم، حين يقرأ هذا الكتاب، خبرهم. ففعلا ثم بنيا عليه في البنيان، فبقي دقينوس، وقرنه الذين كانوا منهم، ما شاء الله أن يبقوا، ثم هلك دقينوس، والقرن الذي كانوا معه، وقرون بعده كثيرة، وخلفت الخلوف بعد الخلوف.

الملك الصالح

- حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق - فيما ذكر من حديث أصحاب الكهف - قال: ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح، يقال له: تيذوسيس، فلما ملك بقي في ملكه ثماني وستين سنة[1]، فتحزب الناس في ملكه، فكانوا أحزاباً، فمنهم من يؤمن بالله ويعلم أن الساعة حق، ومنهم من يكذب، فكبر ذلك على الملك الصالح تيذوسيس، وبكى إلى الله، وتضرع إليه، وحزن حزناً شديداً؛ لما رأى أهل الباطل يزيدون، ويظهرون على أهل الحق، ويقولون: لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإنما تبعث النفوس، ولا تبعث الأجساد، ونسوا ما في الكتاب.

فجعل تيذوسيس يرسل إلى من يظن فيه خيراً، وأنهم أئمة في الحق، فجعلوا يكذبون بالساعة، حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق، وملة الحواريين، فلما رأى ذلك الملك الصالح تيذوسيس، دخل بيته فأغلقه عليه، ولبس مسحاً وجعل تحته رماداً، ثم جلس عليه، فدأب ذلك ليله ونهاره زماناً، يتضرع إلى الله، ويبكي إليه مما يرى فيه الناس، ثم إن الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة العباد، أراد أن يظهر على الفتية أصحاب الكهف، ويبين للناس شأنهم، ويجعلهم آية لهم وحجة عليهم؛ ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن يستجيب لعبده الصالح تيذوسيس، ويتم نعمته عليه، فلا ينزع منه ملكه، ولا الإيمان الذي أعطاه، وأن يعبد الله لا يشرك به شيئاً، وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد، الذي به الكهف، وكان الجبل بنجلوس الذي فيه الكهف لذلك الرجل - وكان اسم ذلك الرجل أولياس - أن يهدم البنيان الذي على فم الكهف، فيبني به حظيرة لغنمه، فاستأجر عاملين، فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة، حتى نزعا ما على الكهف، حتى فتحا عنهم باب الكهف، وحجبهم الله من الناس بالرعب، فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر إليهم، غاية ما يمكنه أن يدخل من باب الكهف، ثم يتقدم حتى يرى كلبهم دونهم إلى باب الكهف نائماً.

(١) هودسيوس، وقد ملك سنة واحدة، وفي أيامه ظهر أصحاب الكهف، بعد أن كانوا ماتوا بعد دهر طويل. تاريخ اليعقوبي١ - ١٥٤.

البعث من النوم

فلما نزعا الحجارة، وفتحا عليهم باب الكهف، أذن الله ذو القدرة والعظمة والسلطان محيي الموتى للفتية، أن يجلسوا بين ظهري الكهف، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم، طيبة أنفسهم، فسلم بعضهم على بعض، حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها، إذا أصبحوا من ليلتهم، التي يبيتون فيها.

ثم قاموا إلى الصلاة، فصلوا حيث كانوا يفعلون، ولا يرى في وجوههم، ولا أبشارهم، ولا ألوانهم شيء ينكرونه، كهيئتهم حين رقدوا بعشي أمس، وهم يرون أن ملكهم دقينوس الجبار في طلبهم والتماسهم، فلما قضوا صلاتهم، كما كانوا يفعلون، قالوا ليمليخا، وكان هو صاحب نفقتهم، الذي كان يبتاع لهم طعامهم وشرابهم من المدينة، وجاءهم بالخبر: إن دقينوس يلتمسهم، ويسأل عنهم أنبئنا يا أخي، ما الذي قال الناس في شأننا، عشي أمسى عند هذا الجبار؟.

وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون، وقد خيل إليهم أنهم قد ناموا، كأطول ما كانوا ينامون في الليلة التي أصبحوا فيها، حتى تساءلوا بينهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ نياماً؟ .﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[1]. وكل ذلك في أنفسهم يسير.

فقال لهم يمليخا: افتُقدتم والتُمستم بالمدينة، وهو يريد أن يؤتى بكم اليوم، فتذبحون للطواغيت، أو يقتلكم، فما شاء الله بعد ذلك.

فقال لهم مكسلمينا: يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقون؛ فلا تكفروا بعد إيمانكم، إذا دعاكم عدو الله، ولا تنكروا الحياة التي لا تبيد، بعد إيمانكم بالله، والحياة من بعد الموت.

ثم قالوا ليمليخا: انطلق إلى المدينة، فتسمّع ما يقال لنا بها اليوم، وما الذي نُذكر به عند دقينوس، وتلطف، ولا يشعرن بنا أحد، وابتع لنا طعاماً، فأتنا به؛ فإنه قد آن لك، وزدنا على الطعام الذي قد جئتنا به؛ فإنه قد كان قليلاً، فقد أصبحنا جياعاً. ففعل

(١) سورة الكهف، الآية: ١.

يمليخا كما كان يفعل، ووضع ثيابه، وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها، وأخذ ورقاً من نفقتهم، التي كانت معهم، التي ضربت بطابع دقينوس الملك، فانطلق يمليخا خارجاً.

فلما مر بباب الكهف، رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف، فعجب منها، ثم مر فلم يبال بها، حتى أتى المدينة مستخفياً، يصد عن الطريق؛ تخوفاً أن يراه أحد من أهلها، فيعرفه فيذهب به إلى دقينوس، ولا يشعر العبد الصالح أن دقينوس، وأهل زمانه، قد هلكوا قبل ذلك بثلاث مئة وتسع سنين، أو ما شاء الله من ذلك، إذ كان ما بين أن ناموا إلى أن استيقظوا ثلاث مئة وتسع سنين.

فلما رأى يمليخا باب المدينة، رفع بصره، فرأى فوق ظهر الباب علامة، تكون لأهل الإيمان، إذا كان ظاهراً فيها، فلما رآها عجب وجعل ينظر مستخفياً إليها، فنظر يميناً وشمالاً، فتعجب بينه وبين نفسه، ثم ترك ذلك الباب، فتحول إلى باب آخر من أبوابها، فنظر فرأى من ذلك ما يحيط بالمدينة كلها، ورأى على كل باب مثل ذلك، فجعل يخيل إليه أن المدينة ليس بالمدينة التي كان يعرف، ورأى ناساً كثيراً محدثين، لم يكن يراهم قبل ذلك، فجعل يمشي ويعجب ويخيل إليه أنه حيران، ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه، فجعل يعجب بينه وبين نفسه، ويقول: يا ليت شعري، أما هذه عشية أمس، فكان المسلمون يخفون هذه العلامة، ويستخفون بها، وأما اليوم فإنها ظاهرة، لعلي حالم !. ثم يرى أنه ليس بنائم، فأخذ كساءه فجعله على رأسه.

ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها، فيسمع أناساً كثيراً، يحلفون باسم عيسى ابن مريم، فزاده فرقاً، ورأى أنه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة، ويقول في نفسه: والله، ما أدري ما هذا؟! أما عشية أمس، فليس على الأرض إنسان، يذكر عيسى ابن مريم إلا قتل، وأما الغداة فأسمعهم، وكل إنسان يذكر أمر عيسى، لا يخاف. ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف، أسمع كلام أهلها، ولا أعرف أحداً منهم، والله، ما أعلم مدينة قرب مدينتنا!. فقام كالحيران، لا يتوجه وجهاً، ثم لقي فتى من أهل المدينة، فقال له: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟.

قال: اسمها أفسوس.

فقال في نفسه: لعل بي مساً، أو بي أمر، أذهب عقلي، والله، يحق لي أن أسرع

الخروج منها قبل أن أخزى فيها، أو يصيبني شر فأهلك.

هذا الذي يحدث به يمليخا أصحابه حين تبين لهم ما به، ثم إنه أفاق فقال: والله، لو عجلت الخروج من المدينة، قبل أن يفطن بي، لكان أكيس لي، فدنا من الذين يبيعون الطعام، فأخرج الورق التي كانت معه، فأعطاها رجلاً منهم، فقال: بعني بهذه الورق يا عبد الله، طعاماً.

فأخذها الرجل، فنظر إلى ضرب الورق ونقشها، فعجب منها، ثم طرحها إلى رجل من أصحابه، فنظر إليها، ثم جعلوا يتطارحونها بينهم، من رجل إلى رجل، ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم، ويقول بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد أصاب كنزاً خبيئاً في الأرض منذ زمان. فلما رآهم يتشاورون من أجله، فرق فرقاً شديداً، وجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به، وعرفوه وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقينوس؛ يسلمونه إليه، وجعل أناس آخرون يأتونه، فيتعرفونه، فقال لهم، وهو شديد الفرق منهم: أفضلوا عليّ، فقد أخذتم ورقي، فأمسكوا، وأما طعامكم فلا حاجة لي به. قالوا له: من أنت يا فتى؟، وما شأنك؟، والله، لقد وجدت كنزاً من كنوز الأولين، فأنت تريد أن تخفيه منا، فأرناه وشاركنا فيه، نخف عليك ما وجدت، فإنك إن لا تفعل، نأت بك السلطان فنسلمك إليه فيقتلك.

فلما سمع قولهم، عجب في نفسه فقال: قد وقعت في كل شيء، كنت أحذر منه. ثم قالوا: يا فتى، إنك والله، ما تستطيع أن تكتم ما وجدت، ولا تظن في نفسك أنه سيخفى حالك. فجعل يمليخا لا يدري ما يقول لهم، وما يرجع إليهم، وفرق حتى ما يحير إليهم جواباً، فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه، فطوقوه في عنقه، ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة ملبباً، حتى سمع به من فيها، فقيل: أُخذ رجل عنده كنز. واجتمع عليه أهل المدينة، صغيرهم وكبيرهم، فجعلوا ينظرون إليه، ويقولون: والله، ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة، وما رأيناه فيها قط، وما نعرفه.

فجعل يمليخا لا يدري ما يقول لهم، مع ما يسمع منهم، فلما اجتمع عليه أهل المدينة، فرق فسكت فلم يتكلم، ولو أنه قال: إنه من أهل المدينة. لم يصدق، وكان مستيقناً أن أباه وإخوته بالمدينة، وأن حسبه من أهل المدينة، من عظماء أهلها، وأنهم

سيأتونه، إذا سمعوا، وقد استيقن أنه من عشية أمس، يعرف كثيراً من أهلها، وأنه لا يعرف اليوم من أهلها أحداً.

فبينما هو قائم كالحيران، ينتظر متى يأته بعض أهله، أبوه أو بعض إخوته، فيخلصه من أيديهم، إذ اختطفوه، فانطلقوا به إلى رئيس المدينة ومدبرها اللذين يدبران أمرها، وهما رجلان صالحان، كان اسم أحدهما أريوسن واسم الآخر أسطيوس، فلما انطُلق به إليهما، ظن يمليخا أنه يُنطلق به إلى دقينوس الجبار ملكهم، الذي هربوا منه، فجعل يلتفت يميناً وشمالاً، وجعل الناس يسخرون منه، كما يُسخر من المجنون والحيران، فجعل يمليخا يبكي، ثم رفع رأسه إلى السماء، وإلى الله ثم قال: اللهم إله السماوات والأرض، أولج معي روحاً منك اليوم، تؤيدني به عند هذا الجبار. وجعل يبكي، ويقول في نفسه: فُرّق بيني وبين إخوتي، يا ليتهم يعلمون ما لقيت، وأنى يذهب بي إلى دقينوس الجبار، فلو أنهم يعلمون، فيأتون فنقوم جميعاً بين يدي دقينوس، فإنا كنا تواثقنا لنكونن معاً، لا نكفر بالله، ولا نشرك به شيئاً، ولا نعبد الطواغيت من دون الله. فُرّق بيني وبينهم، فلن يروني ولن أراهم أبداً، وقد كنا تواثقنا أن لا نفترق في حياة، ولا موت أبداً. يا ليت شعري، ما هو فاعل بي أقاتلي هو أم لا؟. ذلك الذي يحدث به يمليخا نفسه، فيما أخبر أصحابه حين رجع إليهم.

فلما انتهى إلى الرجلين الصالحين: أريوس وأسطيوس، فلما رأى يمليخا أنه لم يذهب به إلى دقينوس، أفاق وسكن عنه البكاء، فأخذ أريوس وأسطيوس الورق، فنظرا إليها، وعجبا منها، ثم قال أحدهما: أين الكنز الذي وجدت يا فتى؟ هذا الورق يشهد عليك أنك قد وجدت كنزاً.

فقال لهما يمليخا: ما وجدت كنزاً، ولكن هذه الورق ورق آبائي، ونقش هذه المدينة وضربها، ولكن والله، ما أدري ما شأني؟، وما أدري ما أقول لكم؟.

فقال له أحدهما: ممن أنت؟.

فقال له يمليخا: ما أدري، فكنت أرى أني من أهل هذه القرية.

قالوا: فمن أبوك؟، ومن يعرفك بها؟.

فأنبأهم باسم أبيه، فلم يجدوا أحداً يعرفه، ولا أباه، فقال له أحدهما: أنت رجل كذاب، لا تنبئنا بالحق.

فلم يدر يمليخا ما يقول لهم، غير أنه نكس بصره إلى الأرض، فقال له بعض من حوله: هذا رجل مجنون.

فقال بعضهم: ليس بمجنون، ولكنه يحمق نفسه عمداً؛ لكي ينفلت منكم.

فقال له أحدهما، ونظر إليه نظراً شديداً: أتظن أنك إذ تتجانن، نرسلك، ونصدقك بأن هذا مال أبيك، وضرب هذه الورق ونقشها، منذ أكثر من ثلاث مئة سنة، وإنما أنت غلام شاب، تظن أنك تأفكنا، ونحن شمط كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة، وولاة أمرها، إني لأظنني سآمر بك، فتعذب عذاباً شديداً، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدت.

فلما قال ذلك، قال يمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدقتكم عما عندي، أرأيتم دقينوس الملك، الذي كان في هذه المدينة عشية أمس، ما فعل؟.

فقال له الرجل: ليس على وجه الأرض رجل اسمه دقينوس، ولم يكن إلا ملك قد هلك منذ زمان، وهلكت بعده قرون كثيرة.

فقال له يمليخا: فوالله، إني إذاً لحيران، وما هو بمصدق أحد من الناس بما أقول، والله، لقد علمت، لقد فررنا من الجبار دقينوس، وإني قد رأيته عشية أمس، حين دخل مدينة أفسوس، ولكن لا أدري أمدينة أفسوس هذه أم لا؟، فانطلقا معي إلى الكهف الذي في جبل بنجلوس، أريكم أصحابي.

فلما سمع أريوس ما يقول يمليخا، قال: يا قوم، لعل هذه آية من آيات الله، جعلها لكم على يدي هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه، يرنا أصحابه كما قال.

فانطلق معه أريوس وأسطيوس، وانطلق معهم أهل المدينة، كبيرهم وصغيرهم، نحو أصحاب الكهف؛ لينظروا إليهم، ولما رأى الفتية أصحاب الكهف يمليخا، قد احتبس عليهم بطعامهم وشرابهم، عن القدر الذي كان يأتي به، ظنوا أنه قد أُخذ، فذُهب به إلى ملكهم دقينوس الذي هربوا منه، فبينما هم يظنون ذلك، ويتخوفونه إذ سمعوا الأصوات،

وجلبة الخيل مصعدة نحوهم، فظنوا أنهم رسل الجبار دقينوس، بعث إليهم؛ ليؤتي بهم، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة، وسلم بعضهم على بعض، وأوصى بعضهم بعضاً، وقالوا: انطلقوا بنا نأت أخانا يمليخا، فإنه الآن بين يدي الجبار دقينوس، ينتظر متى نأتيه.

فبينما هم يقولون ذلك، وهم جلوس بين ظهري الكهف، فلم يروا إلا أريوس، وأصحابه وقوفاً على باب الكهف، وسبقهم يمليخا، فدخل عليهم وهو يبكي، فلما رأوه يبكي بكوا معه، ثم سألوه عن شأنه، فأخبرهم خبره وقص عليهم النبأ كله، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياماً، بأمر الله ذلك الزمان كله، وإنما أوقظوا؛ ليكونوا آية للناس، وتصديقاً للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

ثم دخل على أثر يمليخا أريوس، فرأى تابوتاً من نحاس، مختوماً بخاتم من فضة، فقام بباب الكهف ثم دعا رجالاً من عظماء أهل المدينة، ففتح التابوت عندهم، فوجدوا فيه لوحين من رصاص، مكتوباً فيهما كتاب، فقرأهما فوجد فيهما أن مكسلمينا ومحسلمينا ويمليخا ومرطونس وكسطونس ويبورس ويكرنوس ويطبيونس وقالوش، كانوا فتية هربوا من ملكهم دقينوس الجبار؛ مخافة أن يفتنهم عن دينهم، فدخلوا هذا الكهف، فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف، فشُدَّ عليهم بالحجارة، وإنا كتبنا شأنهم، وقصة خبرهم؛ ليعلمه من بعدهم، إن عثر عليهم. فلما قرأوه، عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية للبعث فيهم، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه.

ثم دخلوا على الفتية الكهف، فوجدوهم جلوساً بين ظهريه، مشرقة وجوههم، لم تبل ثيابهم، فخر أريوس وأصحابه سجوداً وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته، ثم كلم بعضهم بعضاً، وأنبأهم الفتية عن الذين لقوا من ملكهم دقينوس، ذلك الجبار الذي كانوا هربوا منه، ثم إن أريوس وأصحابه بعثوا بريداً إلى ملكهم الصالح تيذوسيس: أن عجل، لعلك تنظر إلى آية من آيات الله، جعلها الله على ملكك، وجعلها آية للعالمين؛ لتكون لهم نوراً وضياء وتصديقاً بالبعث، فاعجل على فتية بعثهم الله، وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاث مئة سنة.

فلما أتى الملك تيذوسيس الخبر، قام من المسندة التي كان عليها، ورجع إليه رأيه وعقله وذهب عنه همه، ورجع إلى الله ﷻ، فقال: أحمدك اللهم رب السماوات والأرض،

أعبدك وأحمدك وأسبح لك تطولت عليَّ، ورحمتني برحمتك، فلم تطفىء النور الذي كنت جعلته لآبائي، وللعبد الصالح قسطيطينوس الملك. فلما نبأ به أهل المدينة، ركبوا إليه وساروا معه، حتى أتوا مدينة أفسوس، فتلقاهم أهل المدينة وساروا معه، حتى صعدوا نحو الكهف حتى أتوه، فلما رأى الفتية تيذوسيس، فرحوا به وخروا سجوداً على وجوههم، وقام تيذوسيس قدامهم، ثم اعتنقهم وبكى، وهم جلوس بين يديه على الأرض، يسبحون الله ويحمدونه، ويقول: والله، ما أشبه بكم إلا الحواريون، حين رأوا المسيح. وقال: فرج الله عنكم، كأنكم الذي تدعون فتحشرون من القبور. فقال الفتية لتيذوسيس: إنا نودعك السلام، والسلام الله عليك ورحمة الله، حفظك الله، وحفظ لك ملكك بالسلام، ونعيذك بالله من شر الجن والإنس.

فبينما الملك قائم، إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا، وتوفي الله أنفسهم بأمره، وقام الملك إليهم، فجعل ثيابه عليهم، وأمر أن يجعل لكل رجل منهم، تابوت من ذهب، فلما أمسوا ونام أتوه في المنام، فقالوا: إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة، ولكنا خلقنا من تراب، وإلى التراب نصير، فاتركنا، كما كنا في الكهف على التراب، حتى يبعثنا الله منه. فأمر الملك حينئذ، بتابوت من ساج، فجعلوهم فيه، وحجبهم الله، حين خرجوا من عندهم بالرعب، فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم، وأمر الملك، فجعل كهفهم مسجداً، يصلى فيه، وجعل لهم عيداً عظيماً، وأمر أن يؤتى كل سنة. فهذا حديث أصحاب الكهف[1].

---

(١) تفسير الطبري ١٥: ٢٥١ ـ ٢٠٠، ٢٧١ ـ ٢٧٧ و تاريخه ٢: ٦ ـ ٩.

يونس بن متى

في نينوى

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن يزيد بن زياد[1]، عن عبد الله بن أبي سلمة[2]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعثه الله تعالى ـ يعني يونس ـ إلى أهل قريته[3]، فردُّوا عليه ما جاءهم به، وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك، أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فأخرج من بين أظهرهم. فأعلم قومه الذي وعدهم الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم، فهو والله، كائن ما وعدكم. فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها، أدلج وراءه القوم، فحذروا فخرجوا من القرية، إلى براز[4] من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله، واستقالوه فأقالهم، وتنظَّر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مارّ، فقال: ما فعل أهل القرية؟.

فقال: فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب؛ فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، وفرقوا بين كل ذات ولد وولدها، ثم عجوا إلى الله، وتابوا إليه، فقبل منهم وأخرَّ عنهم العذاب.

قال: فقال يونس عند ذلك، وغضب: والله، لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، وعدتهم العذاب في يوم، ثم رُدَّ عنهم. ومضى على وجهه مغاضباً لربه، فاستزّله الشيطان[5] حتى

(١) يزيد بن زياد القرظي، روى عنه ومحمد بن إسحاق. الجرح والتعديل ٩: ٢٦٣.

(٢) عبد الله بن أبي سلمة الماجشون القرشي التيمي مولى آل المنكدر، توفي سنة ١٠٦ هـ. تهذيب الكمال ١٥: ٥٥.

(٣) نينوى من قرى الموصل في العراق.

(٤) فضاء خال من الشجر.

(٥) تفسير الطبري ١٧: ١٠١ وتاريخه ٢: ١٣.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[1]. وكان له سلف وعبادة، فأبى الله أن يدعه للشيطان، فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة، فحملوه بغير أجرة، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت، والسفن تسير يميناً وشمالاً فقال الملاحون: إن فيها عبداً آبقاً من سيده، وهذا رسم السفينة اذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق. فقالوا: تلقى في الماء. فاقترعوا ثانياً وثالثاً، فخرجت القرعة على يونس، فزجَّ نفسه في الماء، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾[2].

في بطن الحوت

فلما وقع في الماء، وكل الله به حوتاً فابتلعه، وأوحى الله تعالى إلى الحوت: أني لم أجعله لك رزقاً، بل جعلناك له حرزاً ومسكناً، فخذه ولا تكسر له عظماً ولا تخدش له لحماً. وابتلع الحوت حوت آخر، ، فأهوى به إلى مسكنه في البحر فالتقمه حوت آخر، وانطلق به من ذلك المكان، حتى مر به على الأبلة، ثم مر به على دجلة، ثم انطلق به إلى نينوى. ويقال: إن الله تعالى رقق له جلد الحوت، حتى كان يرى جميع ما في البحر.

فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟!. فأوحى الله تعالى اليه، وهو في بطن الحوت: أن هذا تسبيح دواب البحر. فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً معروفاً بأرض مجهولة. قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد لك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟. قال: نعم.

قال: فشفعوا له عند ذلك، وهو قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. معترفاً بذنبه تائباً من خطيئته[4].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧. تفسير الطبري ١٧: ١٠٧ وتفسير ابن كثير٣: ١٨٧. وقصص الأنبياء للثعلبي: ٣٦٨.

(٤) تفسير الطبري ١٧: ١٠٦.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن عبد الله ابن أبي سلمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبي المنفوس، لم ينقص من خلقه شيء[1].

رجوعه إلى قومه

فلما أخرجه الله من بطن الحوت، أنبت له شجرة من يقطين، وهو القرع، فجعل يستظل بها، ووكل الله به وعلة، تختلف إليه فيشرب منها لبناً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي عنده ﴿شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ﴾[2]. فيبست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله اليه: أتبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون، أردتَ أن أهلكهم؟!. ثم ذهب يونس فاذا هو بغلام يرعى غنماً، قال: من أين أنت يا غلام؟.

قال: أنا من قوم يونس.

فقال له: إذا رجعت اليهم، فقل إلهم: إنك لقيت يونس.

فقال الغلام: إن كنت يونس، فأنت تعلم أنه إن لم يكن لي بينة قُتلت، فمن يشهد لي؟.

فقال يونس: تشهد لك هذه البقعة، وهذه الشجرة، وهذه الشاة.

وأشار إلى شاة من غنمه، فقال له الغلام: فمرهم.

قال لهم يونس: إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له.

قالوا: نعم.

فرجع الغلام إلى قومه، ثم قال للملك: إني قد لقيت يونس، وإنه يقرأ عليكم السلام.

فأمر الملك بقتله، وقال: كذبت.

---

(١) تفسير الطبري ٢٣: ١٢٢ وتاريخه ٢: ١٣ ـ ١٦. وعن ابن عباس قال: مكث يونس في بطن الحوت أربعين يوماً. مستدرك الحاكم رقم الحديث ٤١٢٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٦.

فقال: إن لي بينة، فأرسلوا معي أحداً يشهد.

فأرسلوا معه رجالاً، فأتى البقعة والشجرة والشاة، وقال: أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس؟.

قالوا: نعم. فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهدت له الشجرة والأرض والشاة. فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني.

قال: فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة، ثم إنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه، ففرحوا به وآمنوا به فأقام لهم أمرهم.

ويروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلاً فأضافه رجل، وكان ذلك الرجل قد عمل كثيراً من الفخار. فأوحى الله إليه: يا يونس مُرْ صاحب هذا الفخار أن يكسر تلك الفخارات. فقال له يونس ذلك، فلما سمع منه ذلك، شتمه وقال: شيء عملته بيدي أعيش منه، وأتمتع بثمنه أنا وعيالي، تأمرني بكسره؟!.. فبكى يونس، فأوحى الله إليه: هذا عمل فخاراً من طين، لم تطب نفسه بكسره، وأنت طبت نفساً ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون، من عبادي؟!. فمضى يونس وهبط وادياً.

قال: فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغلام، وكانت الشاة التي كانت مع الغلام قالت لهم: إن أردتم يونس فاهبطوا الوادي. فهبطوا فإذا هم بيونس، فانكبوا على رجليه يقبلونهما، وسألوه أن يدخل معهم المدينة. فقال: لا حاجة لي في مدينتكم. فبكوا وألحوا عليه فأجابهم للدخول، فأتى بعجلة من فضة، وأجلس عليها فتمثل له جبريل عليه السلام عاضّاً على سبابته، وهو ينادي: هذا مجلس الجبارين!. فوثب يونس عن العجلة، وجعل يمشي حتى دخل معهم المدينة، فمكث مع أهله وولده أربعين ليلة، ثم خرج سائحاً وخرج الملك معه وصير الغلام الراعي ملكاً لتلك المدينة، كما ذكرنا، فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى، حتى ماتا عليهما السلام. وكانت نبوة يونس في زمان ملوك الطوائف والله أعلم[1].

(١) قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

من حواري عيسى

الرسل الثلاثة إلى إنطاكية

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: ثنا ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، وعن وهب بن منبه، قال: كان بمدينة إنطاكية[1] فرعون من الفراعنة، يقال له: أبطيحس[2] بن أبطيحس. يعبد الأصنام صاحب شرك، فبعث الله المرسلين، وهم ثلاثة: صادق ومصدوق وسلوم[3]، فقدم إليه وإلى أهل مدينته منهم اثنان، فكذبوهما، ثم عزز الله بثالث، فلما دعته الرسل، ونادته بأمر الله، وصدعت بالذي أُمرت به، وعابت دينه، وما هم عليه قال لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

قالوا: كان رجلاً من أهل إنطاكية، وكان اسمه حبيباً، وكان يعمل الحرير، وكان رجلاً سقيماً، قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبوب المدينة قاصياً، وكان مؤمناً ذا صدقة، يجمع كسبه إذا أمسى ـ فيما يذكرون ـ فيقسمه نصفين: فيطعم نصفاً عياله، ويتصدق بنصف، فلم يهمه سقمه ولا عمله ولا ضعفه، عن عمل ربه. فلما أجمع قومه على قتل الرسل، بلغ ذلك حبيباً، وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم، يذكرهم بالله، ويدعوهم إلى اتباع المرسلين، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5].

قالوا: ناداهم ـ يعني نادى قومه ـ بخلاف ما هم عليه من عبادة الأصنام، وأظهر لهم دينه وعبادة ربه، وأخبرهم أنه لا يملك نفعه ولا ضره غيره، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ

---

(١) كانت على نهر العاصي، على مسافة خمسة عشر ميلاً من البحر البيض المتوسط، وقد أسسها سلوقس نيكاتور، أحد قواد جيش الإسكندر الأكبر عام ٣٠٠ ق. م ودعاها إنطاكية نسبة الى أبيه أنطيوخس. قاموس الكتاب المقدس: ١٢٤.

(٢) أنطيخس. في تاريخ الطبري٢: ١٨.

(٣) صادق وصدوق وشلوم. التعريف والإعلام للسهيلي: ٢٦٨ وهم توما وبطرس وبولس الثالث الذي أُرسل بعدهما، أو الثالث حبيب النجار. تاريخ المسعودي ١: ٧٩ ـ ٨٠.

(٤) سورة يس، الآية: ١٨.

(٥) سورة يس، الآية: ٢٠.

ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، ثم عابها فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ وشدة ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[1]. فوثبوا وثبة رجل واحد، فقتلوه؛ لضعفه وسقمه، ولم يكن أحد يدفع عنه.

ـ حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أصحابه: أن عبد الله بن مسعود[2] كان يقول: وطئوه بأرجلهم، حتى خرج قصبه من دبره، قال: قال الله له: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، فدخلها حياً يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، فلما أفضى إلى رحمة الله، وجنته وكرامته، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[3]. وقال: غضب الله له ـ يعني لهذا المؤمن ـ لاستضعافهم إياه غضبة، لم تبق من القوم شيئاً، فعجل لهم النقمة بما استحلوا منه، وقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: ما كاثرناهم بالجموع. أي الأمر أيسر علينا من ذلك .﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[4]. فأهلك الله ذلك الملك، وأهل إنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم تبق منهم باقية[5].

شمسون بن منوح

نذيرة أمه

ـ حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن المغيرة بن أبي لبيد[6]، عن وهب بن منبه اليماني: أن شمسون[7] كان فيهم رجلاً مسلماً، وكانت أمه قد جعلته نذيرة، وكان من أهل قرية من قراهم، كانوا كفاراً، يعبدون الأصنام، وكان

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلي، توفي قبل عثمان. التاريخ الكبير ٥:٢.

(٣) سورة يس، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

(٤) سورة يس، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٢: ١٩٠ ـ ١٩١، ١٩٢ ١٩٣. ٢٣: ٣ ـ ٤ و تاريخه ٢: ١٨ ـ ٢١.

(٦) عبد الله بن أبي لبيد مولى لآل الأخنس بن شريق الثقفي من أهل المدينة كنيته أبو المغيرة من عباد أهل المدينة، توفي في ولاية أبي جعفر. الثقات ٥: ٤٦. فيكون اسمه: أبا المغيرة بن أبي لبيد.

(٧) شمشون بن منوحن كان قاضياً لبني إسرائيل معروفاً بقوته العجيبة. قاموس الكتاب المقدس ٥٢٠.

منزله منها على غير كثيرة، وكان يغزوهم وحده في الله[1]، فيصيب منهم وفيهم حاجته، فيقتل ويسبي، ويصيب المال، وكان إذا لقيهم بلحى بعير، لا يلقاهم بغيره، فإذا قاتلوه وقاتلهم، وتعب وعطش، انفجر له من الحجر الذي مع اللحي، ماء عذب فيشرب منه، حتى يروى.

وكان قد أُعطي قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم في الله، ويغزوهم ويصيب منهم حاجته، لا يقدرون منه على شيء، حتى قالوا: لن تأتوه إلا من قبل امرأته. فدخلوا على امرأته، فجعلوا لها جعلاً، فقالت: نعم، أنا أوثقه لكم. فأعطوها حبلاً وثيقاً، وقالوا: إذا نام فأوثقي يده إلى عنقه، حتى نأتيه فنأخذه. فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بذلك الحبل، فلما هبَّ جلبه بيده، فوقع من عنقه، فقال لها: لِمَ فعلت؟.

فقالت: أجرب به قوتك، ما رأيت مثلك قط.

فأرسلت إليهم: أني قد ربطته بالحبل، فلم أغن عنه شيئاً.

فأرسلوا إليها بجامعة من حديد، فقالوا: إذا نام، فاجعليها في عنقه. فلما نام جعلتها في عنقه، ثم أحكمتها، فلما هب جذبها، فوقعت من يده ومن عنقه، فقال لها: لِمَ فعلت هذا؟.

قالت: أجرب به قوتك، ما رأيت مثلك في الدنيا يا شمسون، أما في الأرض شيء يغلبك؟.

قال: لا. إلا شيء واحد.

قالت: وما هو؟.

قال: ما أنا بمخبرك به.

---

(١) قال ابن مسعود: إن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل، لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فنزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله.ونحوه عن ابن عباس، عن وهب بن منبه. تفسير القرطبي ٢٠: ١٣١ - ١٣٢.

فلم تزل به تسأله عن ذلك، وكان ذا شعر كثير، فقال لها: ويحك إن أمي جعلتني نذيرة، فلا يغلبني شيء أبداً، ولا يضبطني إلا شعري[1].

فلما نام أوثقت يده إلى عنقه، بشعر رأسه، فأوثقه ذلك، وبعثت إلى القوم فجاؤوا فأخذوه، فجدعوا أنفه وأذنيه وفقؤوا عينيه، ووقفوه للناس بين ظهراني المئذنة، وكانت مئذنة ذات أساطين.

وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس؛ لينظروا إلى شمسون، وما يصنع به، فدعا اللهَ شمسون، حين مثلوا به، ووقفوه: أن يسلّطه عليهم، فأُمر أن يأخذ بعمودين من عمد المئذنة[2]، التي عليها الملك والناس الذين معه، فيجذبها. فجذبهما، فرد الله عليه بصره[3]، وما أصابوا من جسده، ووقعت المئذنة بالملك ومن عليها من الناس، فهلكوا فيه هدماً[4].

---

(١) سفر القضاة/١٦: ١٧.

(٢) كان البيت قائماً عليهما.

(٣) كان الكفار قد قلعوا عينيه. سفر القضاة/١٦: ٢١.

(٤) تاريخ الطبري ٢: ٢٢ ـ ٢٣.والقصة في قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٩٢.

فلما رآها جرجيس تصنف له، أوجس في نفسه خيفة وجزعاً، ثم أقبل على نفسه يعاتبها، بأعلى صوته، وهم يسمعون، فلما فرغ من عتابه نفسه، مدوه بين خشبتين، ووضعوا عليه سيفاً على مفرق رأسه، فوشروه، حتى سقط بين رجليه، وصار جزلتين، ثم عمدوا إلى جزلتيه، فقطعوهما قطعاً، وأحضروا وله سبعة أسد ضارية، في جب، وكانت صنفاً من أصناف عذابه، ثم رموا بجسده إليها، فلما هوى نحوها، أمر الله الأسد، فخضعت برؤوسها وأعناقها، وقامت على براثنها، لا تألو أن تقيه الأذى، فظل يومه ذلك ميتاً، فكانت أول ميتة ذاقها.

فلما أدركه الليل جمع الله له جسده الذي قطعوه، بعضه على بعض؛ حتى سواه، ... ملكاً، فأخرجه من قعر الجب، وأطعمه وسقاه، وبشره وعزاه.

جرجيس

في الموصل

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن وهب بن منبه، وغيره من أهل العلم: أنه كان بالموصل داذانه[1]، وكان قد ملك الشأم كله، وكان جباراً عاتياً، لا يطيقه إلا الله تعالى، وكان جرجيس رجلاً صالحاً من أهل فلسطين، وكان مؤمناً، يكتم إيمانه في عصبة معه صالحين، يستخفون بإيمانهم، وكانوا قد أدركوا بقايا من الحواريين[2]، فسمعوا منهم وأخذوا عنهم. وكان جرجيس كثير المال عظيم التجارة عظيم الصدقة، فكان يأتي عليه الزمان، يتلف ماله في الصدقة، حتى لا يبقى منه شيء، حتى يصير فقيراً، ثم يضرب الضربة، فيصيب مثل ماله أضعافاً مضاعفة، فكانت هذه حاله في المال، وكان إنما يرغب في المال ويعمره ويكسبه؛ من أجل الصدقة، لولا ذلك كان الفقر أحب إليه من الغنى.

وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه؛ مخافة أن يؤذوه في دينه، أو يفتنوه عنه، فخرج يؤم ملك الموصل، ومعه مال يريد أن يهديه له؛ لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك، عليه سلطاناً دونه، فجاءه حين جاءه، وقد برز في مجلس له، وعنده عظماء قومه وملوكهم، وقد أوقد ناراً، وقرب أصنافاً من أصناف العذاب الذي كان يعذب به من خالفه، وقد أمر بصنم يقال له: أفلّون، فنصب؛ فالناس يعرضون عليه، فمن لم يسجد له، ألقي في تلك النار، وعذب بأصناف ذلك العذاب.

فلما رأى جرجيس ما يصنع، فظع به وأعظمه، وحدث نفسه بجهاده، وألقى الله

(١) زادانه ملك في الموصل. قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٨٦ وكل القصة فيه.

(٢) كان في الفترة، وقد أدرك بعض الحواريين، فأرسله الله الى بعض ملوك الموصل... وذلك موجود في كتاب المبتدأ والسير لوهب بن منبه وغيره. تاريخ المسعودي١: ٧٩.

قال له: ادع لي بثور من البقر.

فلما أتي به، نفث في إحدى أذنيه، فانشقت باثنتين، ثم نفث في الأخرى، فإذا هو ثوران، ثم أمر ببذر، فحرث وبذر، ونبت الزرع، وأينع وحصد، ثم داس وذرى، وطحن وعجن، وخبز وأكل، ذلك في ساعة واحدة، كما ترون !.

قال له الملك: هل تقدر على أن تمسخه لي دابة؟.

قال الساحر: أي دابة أمسخه لك؟.

قال: كلباً.

قال: ادع لي بقدح من ماء.

فلما أُتي بالقدح، نفث فيه الساحر، ثم قال للملك: اعزم عليه أن يشربه.

فشربه جرجيس حتى أتى على آخره، فلما فرغ منه، قال له الساحر: ماذا تجد؟.

قال: ما أجد إلا خيراً، قد كنت عطشت، فلطف الله لي بهذا الشراب، فقوّاني به عليكم.

فلما قال له ذلك، أقبل الساحر على الملك، فقال: اعلم أيها الملك، أنك لو كنت تقاسي رجلاً مثلك، إذاً كنت غلبته، ولكنك تقاسي جبار السماوات، وهو الملك الذي لا يرام.

وقد كانت امرأة مسكينة، سمعت بجرجيس، وما يصنع من الأعاجيب، فأتته، وهو في أشد ما هو فيه من البلاء، فقالت له: يا جرجيس: إني امرأة مسكينة، لم يكن لي مال ولا عيش، إلا ثور، كنت أحرث عليه، فمات وجئتك؛ لترحمني وتدعو الله أن يحيي لي ثوري. فذرفت عيناه، ثم دعا الله أن يحيي لها ثورها، وأعطاها عصا، فقال: اذهبي إلى ثورك بهذه العصا، وقولي له: احي بإذن الله. فقالت: يا جرجيس، مات ثوري منذ أيام، وتفرّقته السباع، وبيني وبينك أيام. فقال: لو لم تجدي منه إلا سناً واحدة، ثم فرعتها بالعصا، لقام بإذن الله.

فانطلقت حتى أتت مصرع ثورها، فكان أول شيء بدا لها من ثورها، أحد

وأوفيتك أجرك.

فلم يشعر الآخرون إلا وقد وقف جرجيس على رؤوسهم، يدعوهم إلى الله، فقال له الملك: أجرجيس؟!.

قال: نعم.

قال: من أخرجك من السجن؟.

قال: أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك.

قطع جرجيس بالمنشار

فلما قال له ذلك، مليء غيظاً، فدعا بأصناف العذاب، حتى لم يخلف منها شيئاً،

روقيه[1]، وشعر ذنبه، فجمعت أحدهما إلى الآخر، ثم قرعتهما بالعصا التي أعطاها، وقالت كما أمرها، فعاش ثورها، وعملت عليه حتى جاءهم الخبر بذلك. فلما قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من أصحاب الملك، وكان أعظمهم بعد الملك: اسمعوا مني أيها القوم، أحدثكم. قالوا: نعم.

فتكلم، قال: إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السحر، وزعمتم أنه سحر أيديكم عنه وأعينكم؛ فأراكم أنكم تعذبونه، ولم يصل إليه عذابكم، وأراكم أنكم قد قتلتموه، فلم يمت، فهل رأيتم ساحراً قط قدر أن يدرأ عن نفسه الموت؟، أو أحيا ميتاً قط؟، ثم قص عليهم فعل جرجيس، وفعلهم به، وفعله بالثور وصاحبته، واحتج عليهم بذلك كله. فقالوا له: إن كلامك لكلام رجل، قد أصغى إليه. قال: ما زال أمره معجباً، منذ رأيت منه ما رأيت !. قالوا له: فلعله استهواك. قال: بل آمنت، وأشهد الله أني بريء مما تعبدون. فقام إليه الملك، وصحابته بالخناجر، فقطعوا لسانه، فلم يلبث أن مات، وقالوا: أصابه الطاعون؛ فأعجله الله قبل أن يتكلم.

فلما سمع الناس بموته، أفزعهم وكتموا شأنه، فلما رآهم جرجيس يكتمونه، برز للناس، فكشف لهم أمره وقص عليهم كلامه، فاتبعه على كلامه أربعة آلاف، وهو ميت، فقالوا: صدق، ونعم ما قال، يرحمه الله. فعمد إليهم الملك، فأوثقهم، ثم لم يزل يلوّن لهم العذاب، ويقتلهم حتى أفناهم.

فلما فرغ منهم، أقبل على جرجيس، فقال له: هلا دعوت ربك؛ فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك؟. فقال له جرجيس: ما خلّى بينك وبينهم، حتى خار لهم. فقال رجل من عظمائهم، يقال له: مجليطيس: إنك زعمت يا جرجيس، إن إلهك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وإني سائلك أمراً، إن فعله إلهك، آمنت بك وصدقتك وكفيتك قومي هؤلاء: هذه تحتنا أربعة عشر منبراً، حيث ترى ومائدة بيننا، عليها أقداح وصحاف، وكل صنع من الخشب اليابس، ثم هو من أشجار شتى، فادع ربك ينشىء هذه الآنية وهذه المنابر وهذه المائدة، كما بدأها أول مرة، حتى تعود

(١) قرنه.

خضراً؛ نعرف كل عود منها، بلونه وورقه وزهره وثمره. فقال له جرجيس: قد سألت أمراً عزيزاً عليَّ وعليك، وإنه على الله لهين.

فدعا ربه، فما برحوا مكانهم، حتى اخضرت تلك المنابر وتلك الآنية كلها، فساخت عروقها وألبست اللحاء وتشعبت ونبت ورقها وزهرها وثمرها، حتى عرفوا كل عود منها، باسمه ولونه وزهره وثمره، فلما نظروا إلى ذلك، انتدب له الذي تمنّى عليه ما تمنى، فقال: أنا أعذب لكم هذا الساحر، عذاباً، يضل عنه كيده.

تحريق جرجيس

فعمد إلى نحاس، فصنع منه صورة ثور جوفاء واسعة، ثم حشاها نفطاً ورصاصاً وزرنيخاً، ثم أدخل جرجيس مع الحشو في جوفها، ثم أوقد تحت الصورة، فلم يزل يوقد حتى التهبت الصورة، وذاب كل شيء فيها واختلط، ومات جرجيس في جوفها.

فلما مات أرسل الله ريحاً عاصفاً، فملأت السماء سحاباً أسود مظلماً، فيه رعد لا يفتر، وبرق وصواعق، وأرسل الله إعصاراً عصفاً، فملأت بلادهم عجاجاً، حتى اسودَّ ما بين السماء والأرض وأظلم، ومكثوا أياماً متحيرين في تلك الظلمة، لا يفصلون بين الليل والنهار، وأرسل الله ميكائيل، فاحتمل الصورة التي يها جرجيس، حتى إذا أقلَّها، ضرب بها الأرض ضرباً، فزع من روعته أهل الشأم أجمعون، وكلهم يسمعه في ساعة واحدة، فخروا لوجوههم من شدة الهول، وانكسرت الصورة، فخرج منها جرجيس حياً.

فلما وقف يكلمهم، انكشفت الظلمة، وأسفر ما بين السماء والأرض، ورجعت إليهم أنفسهم، فقال له رجل منهم، يقال له: طرقبلينا: لا ندري يا جرجيس، أنت تصنع هذه العجائب، أم ربك؟. فإن كان هو الذي يصنعها، فادعه يحي لنا موتانا، فإن في هذه القبور التي ترى أمواتاً من أمواتنا، منهم من نعرف، ومنهم من مات قبل زماننا، فادعه يحيهم؛ حتى يعودوا كما كانوا، ونكلمهم ونعرف من عرفنا منهم، ومن لا نعرف، أخبرنا خبره. قال له جرجيس: لقد علمت ما يصفح الله عنكم هذا الصفح، ويريكم هذه العجائب، إلا ليتم عليكم حججه؛ فتستوجبوا بذلك غضبه.

ثم أمر بالقبور فنبشت، وهي عظام ورفات ورميم، ثم أقبل على الدعاء، فما برحوا

مكانهم، حتى نظروا إلى سبعة عشر إنساناً، تسعة رهط، وخمس نسوة، وثلاثة صبية، فإذا شيخ منهم كبير، فقال له جرجيس: أيها الشيخ، ما اسمك؟. فقال: اسمي يوبيل. فقال: متى مت؟. قال: في زمان كذا وكذا.

فحسبوا، فإذا هو قد مات منذ أربعمائة عام، فلما نظر إلى ذلك الملك وصحابته، قالوا: لم يبق من أصناف عذابكم شيء، إلا قد عذّبتموه، إلا الجوع والعطش، فعذبوه بهما.

فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة، كان حريزاً، وكان لها ابن أعمى أبكم مقعد، فحصروه في بيتها، فلا يصل إليه من عند أحد، طعام ولا شراب، فلما بلغه الجوع، قال للعجوز: هل عندك طعام أو شراب؟.

قالت: لا. والذي يحلف به، ما عهدنا بالطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج وألتمس لك شيئاً.

قال لها جرجيس: هل تعرفين الله؟.

قالت له: نعم.

قال: فإياه تعبدين؟.

قالت: لا.

قال: فدعاها إلى الله، فصدقته، وانطلقت تطلب له شيئاً، وفي بيتها دعامة من خشبة يابسة، تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء، فما كان كشيء، حتى اخضرت تلك الدعامة، فأنبتت كل فاكهة، تؤكل أو تعرف أو تسمى، حتى كان فيما أنبتت اللياء[1] واللوبياء، وظهر فرع من فوق البيت، أظله وما حوله، وأقبلت العجوز، وهو فيما شاء يأكل رغداً، فلما رأت الذي حدث في بيتها من بعدها، قالت: آمنت بالذي أطعمك في بيت الجوع، فادع هذا الرب العظيم؛ ليشفي ابني. قال: أدنيه مني. فأدنته منه، فبصق في عينيه، فأبصر فنفث في اليسرى، فسمع، قالت له: أطلق لسانه ورجليه، رحمك الله.

(١) حب كالحمص يؤكل.

قال: أخّريه؛ فإن له يوماً عظيماً.

وخرج الملك يسير في مدينته، فلما نظر إلى الشجرة، قال لأصحابه: إني أرى شجرة، بمكان ما كنت أعرفها به!. قالوا له: تلك الشجرة، نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع، فهو فيما شاء قد شبع منها، وشبعت الفقيرة، وشفى لها ابنها. فأمر بالبيت فهدم، وبالشجرة لتقطع، فلما همَّ بقطعها، أيبسها الله تعالى، كما كانت أول مرة، فتركوها.

تقطيع جرجيس

وأمر بجرجيس، فبطح على وجهه، وأوتد له أربعة أوتاد، وأمر بعجل، فأوقر أسطواناً ما حُمل، وجعل في أسفل العجل خناجر، ثم دعا بأربعين ثوراً، فنهضت بالعجل نهضة واحدة، جرجيس تحتها، فتقطع ثلاث قطع، ثم أمر بقطعة، فأحرقت بالنار حتى إذا عادت رماداً، بعث بذلك الرماد رجالاً، فذروه في البحر، فلم يبرحوا مكانهم حتى سمعوا صوتاً من السماء، يقول: يا بحر، إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب؛ فإني أريد أن أعيده كما كان.

ثم أرسل الله الرياح، فأخرجته من البحر، ثم جمعته حتى عاد الرماد صبرة، كهيئته قبل أن يذروه، والذين ذروه قيام لم يبرحوا، ثم نظروا إلى الرماد يثور كما كان، حتى خرج جرجيس مغبراً، ينفض رأسه، فرجعوا ورجع جرجيس معهم، فلما انتهوا إلى الملك، أخبروه خبر الصوت الذي أحياه، والريح التي جمعته، فقال له الملك: هل لك يا جرجيس، فيما هو خير لي ولك، فلولا أن يقول الناس: إنك قهرتني وغلبتني، لاتبعتك وآمنت بك، ولكن اسجد سجدة واحدة، أو اذبح له شاة واحدة، ثم أنا أفعل ما يسرك.

فلما سمع جرجيس هذا من قوله، طمع أن يُهلك الصنم حين يدخله عليه؛ رجاء أن يؤمن له الملك، حين يهلك صنمه، ييئس منه، فخدعه جرجيس، فقال: نعم. إذا شئت، فأدخلني على صنمك، أسجد له وأذبح له.

ففرح الملك بقوله، فقام إليه فقبل يديه ورجليه ورأسه، وقال: إني أعزم عليك ألا تظل هذا اليوم، ولا تبيت هذه الليلة، إلا في بيتي، وعلى فراشي، ومع أهلي؛ حتى

تستريح ويذهب عنك وصب العذاب، فيرى الناس كرامتك عليّ.

فأخلى له بيته، وأخرج منه من كان فيه، فظل فيه جرجيس، حتى إذا أدركه الليل، قام يصلي ويقرأ الزبور، وكان أحسن الناس صوتاً، فلما سمعته امرأة الملك، استجابت له، ولم يشعر إلا وهي خلفه تبكي معه، فدعاها جرجيس إلى الإيمان، فآمنت وأمرها فكتمت إيمانها، فلما أصبح غدا به إلى بيت الأصنام؛ ليسجد لها، وقيل للعجوز، التي كان سجن في بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك، وأصغى إلى الدنيا، وأطمعه الملك في ملكه، وقد خرج به إلى البيت ليسجد لها، فخرجت العجوز في أعراضهم، تحمل ابنها على عاتقها، و توبخ جرجيس، والناس مشتغلون عنها.

فلما دخل جرجيس بيت الأصنام، ودخل الناس معه، نظر فإذا العجوز وابنها على عاتقها، أقرب الناس منه مقاماً، فدعا ابن العجوز باسمه، فنطق بإجابته، وما تكلم قبل ذلك قط، ثم اقتحم عن عاتق أمه، يمشي على رجليه، وما وطىء الأرض قبل ذلك قط بقدميه، فلما وقف بين يدي جرجيس، قال: اذهب، فادع لي هذه الأصنام، وهي حينئذ على منابر من ذهب، واحد وسبعون صنماً، وهم يعبدون الشمس والقمر معها.

فقال له الغلام: كيف أقول للأصنام؟.

قال: تقول لها: إن جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذي خلقك، إلا ما جئته.

محاورة إبليس

فلما قال لها الغلام ذلك، أقبلت تدحرج إلى جرجيس، فلما انتهت إليه، ركض الأرض برجله، فخسف بها وبمنابرها، وخرج إبليس من جوف صنم منها هارباً فرقاً من الخسف، فلما مرَّ بجرجيس، أخذ بناصيته، فخضع له برأسه وعنقه، وكلمه جرجيس، فقال له: أخبرني أيتها الروح النجسة، والخلق الملعون، ما الذي يحملك على أن تهلك نفسك، وتهلك الناس معك، وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم؟!.

فقال له إبليس: لو خُيِّرت بين ما أشرقت عليه الشمس، وأظلم عليه الليل، وبين هلكة بني آدم، وضلالتهم، أو واحد منهم طرفة عين ـ لاخترت طرفة العين على ذلك كله، وإنه ليقع لي من الشهوة في ذلك، واللذة مثل جميع ما يتلذذ به جميع الخلق، ألم

تعلم يا جرجيس، أن الله أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة، فسجد له جبريل وميكائيل وجميع الملائكة المقربين، وأهل السماوات كلهم، وامتنعت من السجود، فقلت: لا أسجد لهذا الخلق، وأنا خير منه. فلما قال هذا، خلاه جرجيس، فما دخل إبليس منذ يومئذ جوف صنم؛ مخافة الخسف، ولا يدخله بعدها ـ فيما يذكرون ـ أبداً.

وقال الملك: يا جرجيس، خدعتني وغررتني، وأهلكت آلهتي. فقال له جرجيس: إنما فعلت ذلك عمداً؛ لتعتبر، ولتعلم أنها لو كانت آلهة، كما تقول، إذاً لامتنعت مني، فكيف ثقتك، ويلك، بآلهة لم تمنع أنفسها مني، وإنما أنا مخلوق ضعيف، لا أملك إلا ما ملكني ربي؟.

قال: فلما قال هذا جرجيس، كلمتهم امرأة الملك، وذلك حين كشفت لهم إيمانها بدينها، وعددت عليهم أفعال جرجيس، والعبر التي أراهم، وقالت لهم: ما تنتظرون من هذا الرجل، إلا دعوة، فتخسف بكم الأرض، فتهلكوا كما هلكت أصنامكم. الله الله أيها القوم، في أنفسكم!. فقال لها الملك: ويحاً لك إسكندرة! ما أسرع ما أضلك هذا الساحر في ليلة واحدة!، وأنا أقاسيه منذ سبع سنين، فلم يطق مني شيئاً!. قالت له: أفما رأيت الله كيف يظفره بك، ويسلطه عليك؛ فيكون له الفلج والحجة عليك في كل موطن؟!.

فأمر بها عند ذلك، فحملت على خشبة جرجيس التي كان عُلِّق عليها، فعلقت بها، وجعلت عليها الأمشاط التي جعلت على جرجيس، فلما ألمت من وجع العذاب، قالت: ادع ربك يا جرجيس، يخفف عني؛ فإني قد ألمت من العذاب.

فقال: انظري فوقك.

فلما نظرت ضحكت، فقال لها: ما الذي يضحكك؟.

قالت: أرى ملكين فوقي، معهما تاج من حلي الجنة، ينتظران به روحي أن تخرج، فإذا خرجت، زيناها بذلك التاج، ثم صعدا بها إلى الجنة.

دعاء جرجيس وهلاك الكافرين

فلما قبض الله روحها، أقبل جرجيس على الدعاء، فقال: اللهم، أنت الذي

أكرمتني بهذا البلاء؛ لتعطيني به فضائل الشهداء. اللهم، فهذا آخر أيامي الذي وعدتني فيه الراحة من بلاء الدنيا. اللهم، فإني أسألك ألا تقبض روحي، ولا أزول من مكاني هذا، حتى تنزل بهؤلاء القوم المتكبرين من سطوتك ونقمتك، ما لا قبل لهم به، وما تشفي به صدري، وتقرّ به عيني؛ فإنهم ظلموني. اللهم، وأسألك ألا يدعو بعدي داع في بلاء، ولا كرب، فيذكرني، ويسألك باسمي، إلا فرجت عنه، ورحمته وأجبته، وشفّعتني فيه.

فلما فرغ من هذا الدعاء، أمطر الله عليهم النار، فلما احترقوا، عمدوا إليه فضربوه بالسيوف؛ غيظاً من شدة الحريق، ليعطيه الله تعالى بالقتلة الرابعة، ما وعده، فلما احترقت المدينة بجميع ما فيها، وصارت رماداً، حملها الله من وجه الأرض، حتى أقلّها، ثم جعل عاليها سافلها، فلبثت زماناً من الدهر، يخرج من تحتها دخان منتن، لا يشمه أحد إلا سقم سقماً شديداً، إلا أنها أسقام مختلفة، لا يشبه بعضها بعضاً، فكان جميع من آمن وقتل معه، أربعة وثلاثين ألفاً، وامرأة الملك، رحمها الله[1].

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٤ ـ ٣٦.

قصة قد تتكرر بعض مشاهدها، ولكن دلالتها فريدة، يأمر الخليفة المنصور محمد بن إسحاق، معلم ابنه المهدي، بأن يضع له كتاباً من آدم إلى يومه ذاك، يؤلف (المبتدأ والمبعث والمغازي)، يأتي كاتب آخر، ابن هشام، يحذف المبتدأ، ويبقى على المبعث والمغازي (السيرة النبوية)، يقترن اسم الكاتب باسم النبي محمد(ص)، يُشتهر الكتاب الناقص، وغيّب (المبتدأ) وكاتبه. وبين الاشتهار والتغييب عمل الفكر العربي الإسلامي على تأسيس حضارة، ما زلنا نعيش على إيقاعها، نردد مقولاتها ونفكّر بآلياتها، ولعلنا بتفكيك جانب من الموروث الكبير، نكون قادرين على فهم ذاتنا، وتحديد هويتنا التي نحتاج إلى السؤال عنها كثيراً في هذا الواقع.

(المبتدأ) في دلالته الاصطلاحية، يشكّل التصور الإسلامي لبدء الوجود وأولية الخلق، خلق العالم الطبيعي والميتافيزيقي والإنسان. ولا شك في أن التصور يستمد مقوماته، من العقيدة الإسلامية التي قدّمت تصوراً تاريخياً واضحاً للكون، منذ الخلق حتى يوم القيامة، وربطت بين المبتدأ والمنتهى بحلقات الأنبياء، وأعطت لمبدأ الخلق صورة، لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة، وجعلت ما بين الطرفين فترة عبور، هي الحياة الدنيا.